منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة : 11

حرب ايطاليا من أجل الصحراء

مشاهدات المراسل الحربي البريطاني مع الايطاليين في طرابلس

تأليف
فرانسيس ماكولا

ترجمة
د. عبدالمولى صالح الحرير

مراجعة:
د. محمود حسن صالح منسي



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

1991 م

حرب ايطاليا من أجل الصحراء

مشاهدات مراسل حربي بريطاني مع الايطاليين في طرابلس

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة الدراسات المترجمة : ٤١

حرب ايطاليا من أجل الصحراء

مشاهدات المراسل الحربي البريطاني مع الايطاليين في طرابلس

تأليف
فرانسيس ماكولا
ترجمة
د. عبد المولى صالح الحرير
مراجعة:
د. محمود حسن صالح منسي

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
1991 م
DL

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
ص. ب. 5070 . طرابلس
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

حرب ايطاليا من أجل الصحراء
سلسلة الدراسات المترجمة ـ
رقم الايداع (1991/1080) ـ دار الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء المترجم

إلى أبناء وطني الذين سكبوا دماءً زكيـة في ساحـات الوغي ذوداً عن حياض مدينة طرابلس الأبية.

المحتويات

إهداء المترجم ٥

المؤلف في سطور ٩

شكر وتقدير ١٣

كلمة المصحح اللغوي ١٥

مقدمة الترجمة ١٧

اهداء المؤلف ٢٥

الباب الأول: أسباب الحرب ٢٩

الفصل الأول: النعرة القومية ٤٩

الفصل الثاني: بنك روما ٥٩

الفصل الثالث: موقف ايطاليا وألمانيا وانكلترا من تركيا ٦٧

الفصل الرابع: هل تستحق طرابلس كل هذا العناء ٨١

الباب الثاني: القصف والاحتلال ٨٩

الفصل الأول: القصف ٩١

الفصل الثاني: في مدينة طرابلس ١٠١

الفصل الثالث: عودة الرومان ١٠٩

الفصل الرابع: نزول قوات البرساليري ١١١

الفصل الخامس: الأتراك المهزومون ١٢١

الفصل السادس: حصار الصحراء ١٢٩

الفصل السابع: كيف غادر الأتراك مدينة طرابلس ١٣٧

الفصل الثامن: قبل نزول الجيش الايطالي ١٤٥

الباب الثالث: المعارك ١٦١
الفصل الأول: معركة شارع الشط ١٦٣
الفصل الثاني: الصيد البشري في الواحة ١٨١
الفصل الثالث: الفزع الأكبر ١٩٧
الفصل الرابع: دروس في الفزع الأكبر ٢٠٩
الفصل الخامس: اعدام حارس القنصلية الألمانية ٢٢١
الفصل السادس: واحة الموت ٢٣١
الفصل السابع: الطريق إلى الجبهة ٢٤٣
الفصل الثامن: موقعة سيدي المصري ٢٥٣
الفصل التاسع: كيف أمكن سد الثغرة في خط الدفاع الايطالي ٢٦٩
الباب الرابع: المذابح ٢٨٩
الفصل الأول: إحارق قرية البدو ٢٩١
الفصل الثاني: تطهير الواحة ٣١٥
الفصل الثالث: حسونة القره مانلي ....
الفصل الرابع: حذر كانيفا المفرط ٣٤٩
الفصل الخامس: خطأ كانيفا حول استسلام العرب ٣٥٥
الفصل السادس: إهمال كانيفا نزع سلاح العرب ٣٧١
الفصل السابع: كيف اخترق العرب مؤخرة الإيطاليين ٣٨٧
الفصل الثامن: الدليل على المذابح ٣٩٩
الفصل التاسع: خاتمة... الكنيسة والاشتراكيون والحرب ٤١٩
ملحق ٤٣٣

المؤلف في سطور

ولد مؤلف هذا الكتاب الذي بين أيدينا سنة ١٨٧٤ م في قرية صغيرة تدعى أوماها (Omagh) بمقاطعة تايرون (Tyrone) .

كان فرانسيس ماكولا أحد المراسلين الصحفيين الكاثوليك الانجليز إبّان النصف الأول من القرن العشرين. وقد اكتسب هذا الرجل صيتاً ذائعاً بين المراسلين الحربيين في تلك الحقبة. ونال شهرته على الأخص من خلال منشوراته التي دون فيها مشاهداته وأنطباعاته عن الحروب التي كان شاهد عيان لأنشطة الخائضين في غمارها.

ونظراً لتحمسه للمذهب الكاثوليكي فقد اختير مراسلاً لاحدى الصحف في الشرق الأقصى بسيلان وكولومبيا وبانكوك، وطوكيو .

وقد لمع فرانسيس ماكولا كأهم مراسل صحفي من خلال تطور الأحداث العالمية للحرب التي انجرت اليها بريطانيا وفرنسا في الشرق الأقصى .

كان فرانسيس ماكولا يبعث بتقاريره الى الصحف مستقصياً دقة الأخبار من دونما تحيز أو مغالاة. وعند اندلاع الحرب الروسية اليابانيَة عمل فرانسيس ماكولا مراسلاً حربياً في جريدة العاصمة اليابانية لمدة أربع سنوات متوالية.

وقد عرف ماكولا بأسفاره الكثيرة، وجاب معظم القارات، وبلدان العالم باستثناء عدد من بلدان أمريكا الوسطى وافغانستان وايران. وعقب وقوع الغزو الإيطالي على طرابلس وبرقة كان في زيارة لمدينة أغادير المغربية.

ألف فرانسيس ماكولا عدداً من الكتب ونشر الكثير من المقالات، والتحقيقات. لكبريات الصحف في زمنه وأهم ما نشره من الكتب ما يلي :

١ ـ القوزاق الأبيض، نشر سنة ١٩٠٦م
٢ ـ سقوط السلطان عبد الحميد، نشر سنة ١٩١٠م.
٣ ـ حرب ايطاليا من أجل الصحراء الذي بين أيدينا نشر سنة ١٩١٣م.
٤ ـ أسير الحمر، نشر سنة ١٩٢١م.
٥ ـ الاضطهاد البلشفي غير معروف تاريخ نشره.

لقد أحدث نشر كتاب حرب ايطاليا من أجل الصحراء ردود فعل عالمية واسعة أضرت بسمعة الحكومة الايطالية وقت العدوان.

فقد تناول ماكولا ما دونته أقلام الكتاب والصحفيين بالتعليق والتحليل حول ما اقترفته أيدي قادة الجيش الايطالي من جرائم بشعة في حق الشعب الطرابلسي ـ البرقاوي. وقد سفه ماكولا الأعمال الايطالية في طرابلس على وجه الخصوص واسماهم «برابرة روما».

وقد صدرت عشرات الأعمدة في الصحف والمجلات الأوربية والأميركية التي نددت بأعمال العنف والمذابح التي ارتكبتها القوات الايطالية الغازية ضد الشعب العربي في طرابلس والتي عرفت فيما بعد بإسم مذابح شارع الشط والمنشية.

ورغم تهديد السلطات الايطالية لحياة المراسل فرانسيس ماكولا بالقتل حينما كان يعكف على إعداد مسودة هذا الكتاب في بيته، فإن ذلك العسف لم يثن ذلك الرجل عن نشر عمله الذي نسعد اليوم بتقديمه إلى القراء والباحثين.

ولا يسعنا هنا إلا أن نشيد بالشكر والعرفان لهذا الرجل المراسل الشجاع الذي كشف النقاب عن الجرائم العسكرية الايطالية في حق شعبنا، فعرّف

العالم بزيف الادعاءات الحضارية التي كانت تتبجح بها وسائل الاعلام الايطالية إبان حملات الغزو الايطالية للسواحل الليبية.

فهذا الكتاب ليس كغيره من الكتب التي دونتها أقلام أكثر من أربعين مراسلاً صحفياً من الذين شاهدوا وقائع الحرب الليبية الايطالية في أيامها الأولى. فالمؤلف تميز عن غيره بالحصافة والأمانة والدقة والتجرد، وهي صفات قلما تحلي بها مراسل غربي يصف جيوشاً مسيحية تغزو تراب بلد إسلامي.

فمن خلال اطّلاعنا على ما نشر من مشاهدات المراسلين الغربيين لم نجد كتاباً حمل بين طياته مشاعر الصدق والأمانة العلمية مثلما انعكس في كتابات فرانسيس ماكولا في وصفه لحرب ايطاليا في بلادنا.

وقد نوّه بذلك الدكتور عبد الله علي ابراهيم في مقالة له بعنوان «حركة الترجمة في ليبيا وآثارها الايجابية والسلبية» نشرت في مجلة البحوث التاريخية العدد الأول يناير ١٩٧٩ م.

ففي هذه المقالة تحدث د. عبد الله ابراهيم بانصاف عن جهود فرانسيس ماكولا مقارناً إياه بما كتبه غيره من المراسلين والصحفيين ودسهم للسمّ في الدسم رغم سردهم للحقائق التاريخية التي يستحيل طمسها.

وانصافاً لجهود ذلك الصحفي البريطاني في نقله لحقائق سعت اقلام صحفية رخيصة لطمسها، ومساهمة في دعم البحث العلمي التاريخي بالاستفادة من المعلومات التاريخية التي أشعر بأن الباحث المؤرخ وخاصة الليبي في مسيس الحاجة اليها، فإنني أتقدم للقراء بهذه الترجمة التي عساها أن تكون عوناً للمهتمين بتاريخ تلك الفترة من تاريخ بلادنا.

«المترجم»



شكر وتقدير

أود أن اسجل شكري وامتناني لأخي وزميلي د. محمد الطاهر الجراري، مدير، عام مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي الذي شجعني دوما على استكمال ترجمة هذا الكتاب القيم.

ورغم تعثر محاولاتي في إنهاء ترجمة هذا الكتاب فإن الدكتور الجراري كان حريصاً على أن يذكرني بأهمية هذا العمل فله مني كل الشكر والتقدير.

كما أشكر د. محمود حسن صالح منسي، رئيس قسم التاريخ بجامعة الأزهر الشريف الذي بذل جهوداً كبيرة في مراجعة الترجمة وتقويمها فله مني الشكر والعرفان بتعاونه وتجاوبه لمراسلات المركز.

ورغم أنه لم يسبق لنا التعارف، فقد كان كريماً معطاء إذ أخذت المراجعة من وقته الثمين الكثير والكثير.

كما أتوجه بالشكر إلى أخي عمر خليفة بن إدريس الذي تفضل مشكوراً بقراءة هذا العمل ووضع لمساته اللغوية على مسودة الترجمة النهائية.

وفي الختام أشكر كل من ساهم من قريب أو بعيد في إعداد هذا العمل على النحو الذي هو عليه الآن.

« المترجم »



كلمة المصحح اللغوي

حين كلفني أخي وصديقي الدكتور محمد الطاهر الجراري بمراجعة ترجمة هذا الكتاب، مراجعة تتوخى الجانب اللغوي من هذا العمل، كنت أخشى على نفسي تبعات عمل كهذا، ربما يكلفني جهداً أرممّ فيه بناء لغوياً في زمن بات فيه التحلل من قيود اللغة وتكاليفها أمراً مباحاً، بل أضحى عند بعضهم دليل تحرر وانفلات من أسر الجمود والركود.

بيد أنني لم أمعن في قراءة مقدمة الكتاب إلا صفحات قليلات حتى وقر في نفسي أنني أمام عمل علمي جاد، تصدى فيه المترجم لمهمته بكل براعة واتقان، فأجاد، وأفاد، ووضع بين أيدينا ترجمة ممتعة لكتاب ممتع، نقله إلى العربية بأسلوب رائق، لا اضطراب فيه ولا اختلال، ولا التواء ولا قصور، فقد طاوعته اللغة، وانقاد له الأسلوب فأزال عن نفسي خوفها، ودفعها إلى القراءة والاستزادة دفعاً قوياً.

وإنني لعلى يقين بأن هذه الترجمة ستمتع وتفيد كل قارىء تقعد به همته، ثبطَة عجزه عن الرجوع الى الكتاب في أصل لغته التي كتب بها بفضل ما حشده المترجم لعمله من جهد ووقت، أوفيا به على الغاية، وبرّأه من الهنات والمآخذ إلا ما عساه أن يقع من ذلك عفو الخاطر مما لاحظّ فيه للقصور أو التقصير.

وبعد. فالكتاب وثيقة مهمّة، وشهادة منصف قيلت في وقت عزّ فيه وجود المنصفين، وخفيت فيه أصوات الحق، وعلت آراجيف الباطل وأكاذيبه، وسيكون الكتاب محبباً لكل نفس قريباً من كل قارىء، بما تضمنته سطوره

وفصوله من حقائق وأحداث، جاءت زاخرة بالأخبار، غنية بالمعلومات مفعمة بقصص نضال الآباء والأجداد، التي حاول طمسها من كانوا يدقون طبول الحرب والتعصب، ويرفعون رايات التطرف والعدوان.

لقد أسدى المترجم خدمة إلى المكتبة العربية، لا يقوى على تقديرها إلا من عالج مثل هذه الأعمال وباشرها، حين نقل إلى لسان أبنائها هذا الكتاب فاتحفها وأتحفهم به.

أ. عمر خليفة بن إدريس

بنغازي في ٩/٤/٨٩ م

مقدمة الترجمة

يتألف هذا الكتاب الذي بين أيدينا من مقدمة وأربعة أبواب رئيسة، تحتوي على أكثر من ثلاثين فصلاً وخاتمة وملاحق وصوراً حيّة .

ورغم نشر هذا الكتاب في سلسلة من الأعمدة والمقالات في العديد من الصحف الأوربية والأميريكية، فإن المؤلف ارتأى نشر هذا العمل ككتاب لكي «يرسم صورة كاملة وعادلة» على حدّ تعبيره للغزو الإيطالي وقد أعزى فرانسيس ماكولا ذلك إلى سببين اثنين:

أولهما: الرقابة الايطالية الرسمية على ما كان يبعث به المراسلون الصحفيون إلى بلدانهم للنشر.

ثانيهما: الرقابة غير الرسمية من الإيطالين الذين كانوا لسبب أو لآخر يؤيدون تلك الهجمة الإيطالية على طرابلس وبرقة.

فنتيجة لذلك عكف فرانسيس ماكولا في منزله بإيرلندا لإعادة تنظيم أوراقه من خلال مشاهداته لفضائح الجيش الإيطالي في طرابلس.

وحالما وطئت قدماه أرض بلاده اتصل بعدد من الأفراد الذين كرسوا نشاطاتهم لكشف أعمال الاضطهاد. وكان من بين هؤلاء و. ت. ستيد الذي دعاه لعقد اجتماع بأحدى قاعات لندن والقاء محاضرة بقصد تنوير الرأى العام الانجليزي عن حقائق الحرب الطاربلسية. وبينما كان فرانسيس ماكولا يلقي محاضرته اقتحم القاعة سبعة من الإيطاليين الذين جاءوا خصيصاً بقصد اثارة الشغب وفض الاجتماع عنوة غير أن الحاضرين صاحوا في وجوههم على

لسان أحدهم قائلاً: «ان هـذا اجتماع انجليـزي ونريـد أن نسمع مـا يريـد المتحدث أن يقول. فإن أردتم ألا تسمعوه عودوا الى بلادكم».

أما الحادثة الثانية التي وقعت للمؤلف فكانت في منزله بانجلترا حيث فاجأه ثلاثة من الإيطاليين. ويقول فرانسيس ماكولا في هذا الخصوص «أن هدف هؤلاء الرجال الثلاثة من قطعهم هذه المسافة الطويلة من لندن إلى مقر أقامتي، هو أن يدخلوا في معركة معي بعد أن تمكنوا من لقائي وحيداً في المنزل».

«... فقام أحدهم بتهديدي بأنه سيهاجمني فوراً...».

وقد ردّد المؤلف حـوادث مماثلة لنظائره من المراسلين الصحفيين الذين التقى بهم في طـرابلس وعادوا إلى بلدانهم لكي ينشـروا مـلاحـظاتهم عن العدوان والصلف الإيطالي في مدينة طـرابلس. ففي المقدمـة التي أعدهـا المؤلف لهذا الكتاب يجد القارىء عدداً من حالات العدوان الإيطالي على مراسلين ألمان فلا يسعني هنا إلا أن أحيل القارىء إلى الاطلاع على ذلك.

أما الفصل الأول من الباب الأول فيطرح المؤلف فيه نقطتان جوهريتان بالنسبة للرأى العام البريطاني هما:

اولاً: أمكانية تفهم الأوضاع النفسية للرأي العام الايطالي التي جعلته يـذعن راضياً سـاكتاً على الفضـائح، التي ارتكبت بـأسمه على أيـدي العسكريين الإيطاليين.

ثانياً: أما النقطة الثانية فيـطرح المؤلف فيها محـاولات لتفهم العقلية العسكرية الإيطالية التي مُكّنت من ارتكاب حداث الثالث والعشرين والثـامن والعشرين من أكتوبر ١٩١١ المؤلمة.

ففي حوالي عشر صفحات أعطى المؤلف سرداً تحليلياً سلسـاً لهاتين المسـألتين من وجهة نظر بريطانية محضة.

أما الفصل الثاني فقد كرس المؤلف نفسه لدراسة جيدة لدور مصرف روما فيما عرف بعد ذلك بالتغلغل السلمي باساليب مشبوهة ومتعددة كشراء الأراضي الزراعية الواسعة عن طريق عملائه من المالطيين واليهود والوطنيين. وكشف المؤلف النقاب عن مشاريع المصرف الاقتصادية التي وظفها في البلاد كالمشاريع الزراعية والصناعية والاستراتجية تمهيداً لخلخلة الاوضاع الراهنة وقتئذ في ولاية طرابلس وبرقة العثمانية. وأوضح المؤلف في هذا الفصل الارتباط الوثيق بين مصرف روما وسياسات الحكومة الإيطالية، وأشار إلى أنه أداة من أدواتها التوسعية من خلال الإغراءات والرشاوي المالية لموظفي السلطات العثمانية في طرابلس وبرقة.

وفي الفصل الثالث يقدم لنا الكاتب محاضرة في العلاقات الدولية بين كل من دول ايطاليا، والمانيا وأنجلترا وتركيا في ضوء بتر ولاية طرابلس وبرقة من جسم الخلافة العثمانية لصالح دولة أيطاليا. ويخلص المؤلف في هذا الفصل إلى أن انقضاض ايطاليا على طرابلس وبرقة جاء نتيجة لحمّى التوسع الاستعماري الأوربي على نحو شامل وعلى الأخص نتيجة للمفاوضات الفرنسية ـ الألمانية حول مستقبل المغرب السياسي.

إذ كان في نية فرنسا دعوة المانيا إلى احتلال طرابلس وبرقة كتعويض لألمانيا عن فقدانها لأغادير التي احتلتها فرنسا.

ويسوق المؤلف عناصر أخرى ثانوية ولكنها معززة للتعجيل باتخاذ ايطاليا القرار بغزو طرابلس.

أما الفصل الرابع الذي جاء بعنوان «هل تستحق طرابلس كل هذا العناء»؟ فقد قدم فيه المؤلف تقييماً بدّد في دعاوى إيطاليا التي سال لها لعاب رجال السياسة، والأقتصاد، والجيش الإيطاليين ـ بالأهمية المبالغ فيها لاحتلال طرابلس وبرقة.

ويشجب الكاتب المستوى الاخلاقي العالمي المتدني وقت حدوث الإغارة الايطالية على البلاد. ويحمّل الدول الكبرى مسؤولية التدني السلوكي العالمي في مجال العلاقات الدولية بقوله: «. . . إن هذا الهجوم كان خطأ كبيراً. . . فإذا ما فرح وزراء خارجية الدول الاوربية لسقوط طرابلس وبترها من جسم الخلافة العثمانية. فإن الشعور الاسلامي العارم سوف ينتشر في مناطق أخرى مجهولة من إفريقيا وهذا ما قرّره فرانسيس ماكولا في موضع آخر.

وفي الباب الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان «القصف والأحتلال» قام المؤلف بإعداد ثمانية فصول مستفيضة لوصف الاحتلال الإيطالي أطلق عليها العناوين التالية:

١ ـ القصف.
٢ ـ في مدينة طرابلس.
٣ ـ عودة الرومان.
٤ ـ نزول قوات البرساليري.
٥ ـ الاتراك المهزومون.
٦ ـ حصار الصحراء.
٧ ـ كيف غادر الأتراك مدينة طرابلس.
٨ ـ قبل نزول الجيش الإيطالي.

وقد وثق المؤلف بالصور والروايات من شهود عيان: أتراك وعرب ويهود ومن مراسلين أوربيين وغيرهم أبعاد الهراء على حد تعبير المؤلف الايطالي إذا ما قورن بالشجاعة والبطولة المنقطعة النظير التي كان يقوم بها العرب والاتراك تحت ظروف بالغة الصعوبة. ويدلل المؤلف بما نشره الضابط التركي أنور باشا في صحيفة لوكال أنزيجر الألمانية الصادرة في الثامن والعشرين من يناير ١٩١٢.

فمن المضحك المسلي أن جيش أنور باشا الصغير كان يعتمد في

تسليحه وتموينه على الجيش الايطالي، ورغم ذلك فقد سدد للغزاة هزائم مخزية في تاريخ العسكرية.

ورغم أتصاف المؤلف بحصافته أحياناً كثيرة فـأننـا نراه يؤكد على خطورة العقيدة الاسلامية عندما دون لنا مشاعره وهو يرقب عجوزاً طرابلسياً يصلي خاشعاً بين يدي بارئه وذلك بقوله: «أن بطريقا رومانياً يصلي في رحاب الله لا يمكن أن يتعبد بنفس وقار هذا العربي وتأثيره الذي تميزت به حركاته بوقار وخشوع تلقائي... إن هذا الشيخ الوديع الضعيف يمثل الخطر الأكبر الذي يجب أن يحسب الايطاليون حسابه، إنه رمز مجسّد للتعصب الإسلامي، التعصب المولع بالحرب والأكثر عنفاً...».

أما الباب الثالث فقد أسماه المؤلف «المعارك» وهو يتألف من تسعة فصول مستفيضة في الوصف والتحليل.

فـالفصل الأول يعدّ إجمالاً في هـذا الباب شهـادة عيان من مـراسل صحفي غربي منصف سرد فيه الأحداث والبطولات التي قام بها المجاهدون الطرابلسيون. وقد أصدق المؤلف القـول عندمـا قال أن الفتـرة الممتدة من نوفمبر ١٩١١ وحتى ديسمبر ١٩١٢ تعتبر معركة دمـوية مستمـرة في مدينـة طرابلس وحدها.

وتسجيلاً لوصف هذه الملحمة الدموية فقد أقدم المؤلف على تقسيم الباب الثالث الى الفصول التالية.

١ ـ معركة شارع الشط.
٢ ـ الصيد البشري في الواحة.
٣ ـ الفزع الأكبر.
٤ ـ دروس في الفزع الاكبر.
٥ ـ إعدام حارس القنصلية الالمانية.
٦ ـ واحة الموت.

٧ ـ الطريق الى الجبهة.

٨ ـ موقعة سيدي المصري.

٩ ـ سدّ الثغرة في خط الدفاع الإيطالي.

أما الباب الرابع فقد اختار له المؤلف عنوان المذابح وقد أعطى فرانسيس ماكولا وصفاً مروعاً للأعمال الإيطالية المخزية التي قاموا بها في شرقي طرابلس بقصد إدخال الرعب في أفئدة السكان العرب.

وقد أكد المؤلف أن الذكريات المؤلمة التي تركتها المذابح سوف تترسخ في عقول النشء زمناً طويلاً قبل أن تمحي. ومهما كانت المبررات فإن المؤلف يعتقد أن السلطات الإيطالية ارتكبت خطأً فادحاً في إقدامها على أرتكاب المجازر البشرية المروعة في طرابلس. ففي هذا الباب خصص المؤلف الفصل الأول للحديث عن احراق قرية البدو على اطراف مدينة طرابلس في حين انه كرس الفصل الثاني لتطهير الإيطاليين لواحة الشاطىء في حين أفرد الفصل الثالث عن حسونة القرمانللي، صديق إيطاليا المخلص ودوره في إحباط المعنويات الوطنية لبني جلدته.

أما الفصل الرابع فقد خصص للحديث عن حذر قائد القوات الإيطالية المفرط والاجراءات الجبانة التي اتخذها في اقامة المذابح للشيوخ والاطفال والنساء.

وفي الفصل الخامس يتعرض قائد الجيش الإيطالي إلى تسفيه الكاتب ووصفه بالجهل والجبن والسذاجة أحياناً وذلك لارتكاب حماقات دلّت على عدم كفاءته.

أما الفصل السادس فهو نقد فاضح لتضارب سياسات ومشاعر الجنرال كانيفا الذي وصفه المؤلف بالضعف حيناً وبالقسوة التي لا يصدقها العقل أحياناً أخرى.

ويدلل المؤلف على سياسات كانيفا الخرقاء وسذاجتها بسخرية المحاربين العرب منه في ساحات الجهاد، فيوقف الفصل السابع بكامله للتدليل على ذلك. فيذهب المؤلف إلى القول بأنه عندما أكتشف الجنرال كانيفا نتائج أخطائه الجسيمة فإنه بدلاً من أن ينحى باللائمة على نفسه، فإنه صبّ جام غضبه بالعقاب الوبيل على سكان واحة الشط الأبرياء.

ويعّد الفصل الثامن خلاصة الباب الرابع... ففي هذا الفصل حاول الكاتب، أن يجمع شهادات المراسلين الأجانب ويسوق العديد من الشواهد الحية التي لا يتطرق إليها الشك، والتي في مجملها تقف دليلاً صارخاً على جرائم كانيفا في ارتكابه للمذابح ضد السكان الأبرياء في ضواحي مدينة طرابلس دونما ذنب سوى أنهم ينتمون للمحاربين المغاوير من العرب الذين جرّعوا جيش كانيفا كأساً مراً ودورساً قاسيةً في العسكرية الحقة.

د. عبد المولى الحرير

إهداء المؤلف

إلى زملائي ورفاقي المراسلين الحربيين الإنجليز، والالمان، والنمساويين - الهنغاريين - والروس والفرنسيين الذين لم يخشوا قول الحقيقة عما حدث في طرابلس.



ناشر الكتاب: Chicago: F. G. Browne and Co.
London: Herbert and Daniel 1913.

حرب ايطاليا من أجل الصحراء

مشاهدات المراسل الحربي البريطاني
مع الايطاليين في طرابلس

الباب الأول

أسباب الحرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

للقاريء أن يتساءل: ما ضرورة تأليف كتاب عن الحرب الإيطالية في طرابلس،ما دامت التقارير عن المعارك قد نشرت كاملة في كبريات الصحف العالمية؟ ورداً على هذا أقول: رغم أن هذه الحرب في طرابلس قد دارت في القـرن العشرين، وعلى مشهـد أكثر من أربعين مراسلاً صحفيـاً، فإنـه لم ترسم حتى الآن صورة كاملة وعادلة بأي جزء من أجزائها.

إن هذه الفجوة نجمت عن سببين: أولهما الرقابة الإيطالية الرسمية على الأخبار.

وثانيهما: الرقابة غير الرسمية من الإيطاليين الذين كانوا ـ لسبب أو لآخر ـ يؤيدون تلك الحرب.

لقـد كـانت الـرقـابـة الإيـطاليـة لا تمنـع ـ فقط ـ نشـر كـل المعلومـات العسكرية التي ربما تكون ذات فائدة بالنسبة للعدو، ولكنها كانت أيضاً تعمل القلم الأزرق في البرقيات التي قد تؤدي إلى إضعاف الروح المعنويـة عند الإيطاليين، أو تلك التي تشير إلى احتمال استمرار القتال إلى ما لا نهاية، أو توضح كيف يبلي العرب والترك في النضال بلاءً حسنا.

كانت الرقابة قاسية جارفة إلى حد جعل كل الصحافة الإيـطالية وعلى رأسها كوريري ديلاً سيرًا Corriere della Sera الذائعة الصيت تقوم بحملة ضدها. وحتى صحيفة جورنا لي ديتاليا Giornale DItalia المؤيدة للحرب بصورة سافرة اشتركت في هـذه الشكوى، وهـذا الهجوم الـذي أسمته «التشـويه

الحقير من جانب الرقيب لبرقيات مراسلينا».

إن أمامي الآن ـ وأنا اكتب ـ نسخة من صحيفة تصدر في ميلانو، وقد بدأت بسعادة وبأكبر ما لديها من حروف الطباعة ـ في نشر وصف وَصَلَها بالهاتف من روما عن إحدى المعارك، وفي السطر السادس نجد فراغاً كبيراً، وبين قوسين نجد عبارة «حذف بواسطة الرقيب». وخلال وصف معركة شارع الشط التي وصلت هاتفيا من روما إلى الصحف الإقليمية الكبرى نجد عبارة «حذف بواسطة الرقيب» تتكرر تكرار الردود في أثناء الابتهالات.

لقد كان موقف الحكومة نظامياً في هذا الأمر، وقد وضعت كل المعوقات الممكنة لمنع نشر الروايات المحايدة حتى يتم نَشر رواياتها الرسمية المتفائلة في كل أرجاء البلاد، وبالطبع فإن هذه الروايات المبكرة تنقل برقيا إلى الخارج بواسطة المراسلين الأجانب، كما أنها هي التي ترسخ في أذهان الجماهير لا في إيطاليا فحسب، بل وفي كل مكان آخر. ولو كانت هناك صحافة يرثى لها ومغلوبة على أمرها فتلك هي الصحافة الإيطالية في الوقت الحاضر.

إن النزاع في طرابلس هو نزاع صحفي في أساسه، ولكن الصحافيين الذين كانوا يدقون طبول التعصب الوطني قبل الحرب، ظلوا يعاملون كالأطفال منذ ذلك الوقت. لقد كانت الرواية الأولى عن وقائع معركة (شارع الشط) ـ وهي التي أجبر الصحافيون على الاعتماد عليها ـ كانت رواية معالجة رسمياً، ولا تتحدث مطلقاً عن اقتحام مائتين وخمسين من العرب البواسل لخط الدفاع الإيطالي، وكان هذا أهم حدث في المعركة كلها، وبدلاً من ذلك أخذت هذه الرواية تتحدث عن استيلاء أحد الجنود على علم تركي، وهو أمر لم يحدث بالمرة حيث إنّ هذا العلم كان قد عثر عليه بعد المعركة تحت كومة من جثث الضحايا العرب أمام الخنادق الإيطالية.

في السابع والعشرين من أكتوبر وزعت الوكالة الإيطالية Agenzia Ita-

liana نشرة شبه رسمية عن معركة السادس والعشرين من أكتوبر، وقد ذكرت هذه النشرة أن المعركة كانت «حاسمة تقريباً» كما أشارت إلى أنه نتيجة لهذا النصر فإن العرب الذين يسكنون داخل البلاد سوف يتملكهم الرعب عند ذكر إيطاليا، وأضافت قائلة: «إن ما يجب أن يجعلنا نمتلىء فخاراً وزهواً وحماساً وطنياً،هو ما أظهره جنودنا من إقدام وقوة مقاومة لا تقهر وبطولة لا تقاوم، وتلك المقدرة الفائقة في الإدارة الرائعة للحرب والتي أظهرها القائد العام وضباطه والنظام العسكري الرائع الذي استطعنا أن نبهر به أوربا براً وبحراً».

وقد جاء هذا الوصف بعد معركة ألقى فيها بعض الجنود الإيطاليين أسلحتهم ولاذوا بالفرار أمام مائتين وخمسين من رجال العدو، وهي معركة غير مرضية بالنسبة لوجهه نظر الجنرال (كانيفا)، وذلك لأن الايطاليين تراجعوا لمسافة تقرب من الميل في اليوم التالي مما نتج عنه أن اقترب العدو وتمكن من قصف المدينة، وأصابت شظايا قنابلهم مقر القائد العام نفسه، ولكنني نسيت أن أذكر أن هذا التراجع قد عزته المصادر الرسمية للروائح الكريهة المنبعثة من الجثث.

هذا قليل فقط من سلسلة لا حدّ لها من الأمثلة التي يمكنني أن أذكرها؛ للتدليل على كذب الحكومة الإيطالية، وإخفائها الحقيقة في نشراتها الرسمية، وشبه الرسمية، المتصلة بهذه الحرب. لقد كانت الصحافة اليابانية ـ في أثناء نضال اليابان ضد روسيا ـ أكثر حرية من الصحافة الإيطالية في أثناء هذه الحملة ضدّ عدة آلاف من العرب المعزولين، الذين لا تستطيع تركيا أن تبعث إليهم بأي عون.

كما أن القائد الروسي في منشوريا ـ في تعامله مع الصحافة ـ كان يقل دكتاتورية بكثير من القائد العام الإيطالي الحالي في مدينة طرابلس. فقد كان المراسلون الإيطاليون الذين ينقلون إلى صحفهم ـ بشكل خطير ـ حجم الخسائر الإيطالية يطردون من البلاد في خلال أربع وعشرين ساعة. لقد أبعد الجنرال (كانيفا) في الحادي والثلاثين من أكتوبر اثنين من المراسلين

الإيطاليين أحدهما (دي لوكا إبريل) De Luca Aprile مراسل (جورنالي دي سيسيليا Giornale de Sicilia «صحيفة صقلية») والسنيور (بورديجا Bordiga) مراسل صحيفة (لافورو) Lavoro ولست أدري كم أبعد من المراسلين بعد ذلك.

ولقد أوضحت فيما سبق كيف أنه حتى أكثر الصحف الإيطالية تعصباً كانت تعترض باستمرار على وسائل الرقابة، ولكنني أشك في أن الغاء الرقابة كان من الممكن أن يكون مفيداً. وذلك لأن روح التعصب المفرط التي خلقوها ومكنوا لها عبر السنين، قد أصبحت الآن سيدهم الذي يحركهم وإلههم الذي يحرقون له البخور، فلو تجرأ صحفي إيطالي على قول الحقيقة عن الحرب فإن جزاءه يكون الطرد من طرابلس فوراً، وفقدان وسائل كسب عيشه، كما أنه قد يعرّض نفسه للاعتداء والأذى، وسيجد نفسه في النهاية في عراك وصراع مع «الوطنيين الغاضبين».

ولما كانت بعض كبريات الصحف الإنجلزية والأمريكية يمثلها في طرابلس عند نشوب الحرب صحافيون إيطاليون، يراسلون في الوقت نفسه الصحف الإيطالية، فإن الصحافة الإنجلزية والأمريكية كانت هي الأخرى تعاني بشكل مباشر أو غير مباشر من خطر هذا التعصب، شأنها شأن الصحافة الإيطالية ذاتها.

وعندما نأتي لمسألة المذابح التي وقعت في الواحة بالذات يجب علينا أن نأخذ هذا الأمر في الاعتبار على وجه الخصوص. وحتى عندما يمثل صحيفة أجنبية في الجبهة أحد محرريها هي، فإن هذا الرجل سيكتشف أنه إذا أراد أن يبقى مع الجيش الإيطالي، فعليه أن يغمض عينيه عن عيوب هذا الجيش ونقائصه. وفي بعض الأحيان تكون الصحيفة التي يراسلها أكثر حرصاً منه، ولا تريد أن تفقد مراسلاً ممتازاً في الميدان فتهمل نشر كثير من النقد الذي يوافيها به عن الإيطاليين.

لقد حاول الدكتور (ولتر ويبل)Dr. walter weibel مراسل صحيفة (فرانكفورتر زيتونج)Frankfurter ZeItung أن يقول الحقيقة عما يحدث في طرابلس، فكان جزاؤه أن صار من المستحيل عليه مواصلة حياته أو عمله هناك، حتى أضطر إلى الرحيل في العشرين من نوفمبر. وفي السادس والعشرين من نوفمبر أمر مدير مكتب الصحافة الإيطالي صراحة الدكتور (جوتلت أدولف كراوس)Dr. GottIeb Adolf Krause ـ وهو صحفي قدير حي الضمير ـ أن يختار بين الكتابة بطريقة ترضي الإيطاليين، أو أن يغادر البلاد.

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل، حتى إنه يمكن تخصيص كتاب كامل لهذا الموضوع وحده، ويستطيع مؤلف هذا الكتاب أن يوضح كيف أن شغفنا بالخبر الأول يضر بصحافتنا.

إن التملق وتجاهل الحقائق غير السارة بالنسبة لبعض الجيوش أمر مهم لنجاح الصحفي، ولهذا فإنني أتنبأ أن يقوم في المستقبل صحفيون أجانب شبه رسميين بتغطية كل الحروب الأجنبية لصحافتنا نيابة عنا، وذلك لأن برقياتهم تصل قبل برقياتنا، كما أن السبق لصحفي صنم يسجد له المحررون.

وحتى إنجلترا فإن روح التعصب الشرسة لدى الإيطاليين، تلك الروح التي لا تحتمل ستؤدي إلى ما يمكن أن يرقى بالفعل إلى درجة الرقابة في هذه البلاد، كما يمكن أن ترقى إلى درجة الغش، والخداع بكل طريقة ممكنة، وإلى إعطاء فكرة غير صادقة عن حقيقة المشاعر هنا.

فعند مطلع الحرب أرسل بعض الصحافيين «الوطنيين» الإيطاليين إلى الحكومة الإيطالية رسالة تهنئة، كتبت على ورق النادي الوطني الليبرالي، وقد نشرت هذه الرسالة في إيطاليا كدليل على أن النادي الوطني الليبرالي يؤيد الإيطاليين البواسل في عملهم المتجرد السامي؛ لتخليص طرابلس من الأضطهاد التركي «الذي لا يحتمل».

وعند عودتي من طرابلس دعاني المرحوم و. ت. ستيد w. T. Stead ـ ذلك البطل النبيل الذي كرّس حياته لنصرة المضطهدين على كل أرض ـ لكي أعقد اجتماعاً في إحدى قاعات لندن، بهدف تنوير إخواني المواطنين البريطانيين عن الكيفية التي أديرت بها الحرب في طرابلس. وقد اقتحم هذا الأجتماع سبعة من الإيطاليين الذين جاءوا خصيصاً بقصد أثارة الشغب وفض الأجتماع، دون أن يلقوا بالاً لصيحات العديد من المستمعين الذين قال أحدهم: «إن هذا اجتماع انجليزي «ننا نود معرفة ما يريد المتحدث أن يقول، فإن أردتم الا تسمعوه، عودوا إلى بلادكم».

وبناء على برقية نشرت في صحيفة (نيوفراي برس) Neue Freie Press بتاريخ الثامن عشر من مارس اتبع الايطاليون في ميونخ Munich نفس الطريقة ضد المكتشف النمساوي الشهير (أوتو ارتباور) Otto Artbar الذي كان يحاضر في المانيا وتحدث عن فظائع الإيطاليين التي رآها في طرابلس، ولكنني لاحظت أن المشاغبين الإيطاليين في المانيا وجدوا أنفسهم خارج القاعدة في وقت وجيز، حتى يتمكن الباڤاريون من الاستماع لكل المحاضرة التي كانوا قد ابتاعوا تذاكر لحضورها.

وبينما كنت أكتب هذا الكتاب في منعزل بمنطقة (سرى داونز) Surrey Downs بانجلترا قطع عليّ عزلتي فجأة حضور ثلاثة من السادة قدموا من لندن في إحدى السيارات بقصد التحدث إليّ وهم: السنيور (ف. ت. مارينتي) Marinetti الذي يدعو نفسه شاعراً والذي ذكر أنه وصل لتوه من طرابلس وكان ينزل بفندق (سافوي) Savoy والسنيور (بوكيوني) Boccioni الذي أعتقد أنه رسام «مستقبلي»[1] Futurist ورجل آخر لم يذكر اسمه ولكنني أظن أنه مراسل صحيفة (جورنالي ديتاليا) Giornale DItalia

(١) أحد أتباع الحركة المستقبلية التي نشأت في إيطاليا سنة ١٩١٠، وهي تنادي بالدعوة إلى طرح فنون الموسيقى والأدب باسلوب أكثر حيويه وتطابقاً مع الحياة المعاصرة (المترجم).

في لندن، وقد كان هدف هؤلاء الرجال الثلاثة من قطعهم كل هذه المسافة من لندن إلى مقر إقامتي، هو أن يدخلوا في معركة معي، بعد أن تمكنوا من لقائي وحيداً في المنزل وليس معي أحد.

لقد كانت هذه هي الدعوة الثانية من هذا النوع، التي صادفتها منذ حضوري من إيطاليا، وقد أخبرتهم بأنني سأتحدث معهم بعد برهة وجيزة، فقام أحدهم بتهديدي بأنه سيهاجمني فوراً، وفي نفس المكان، ويبدو لي أن وصفاً مطولاً وغير صحيح للحادث قد ظهر في كل الصحف الإيطالية، حيث إنني عثرت عليه في صحيفة (نوفو جورنال Nuovo Giornale) الفلورنسية الصادرة بتاريخ الثاني عشر من مارس منشوراً كبرقية من روما، حيث كان من الواضح أنها نشرت هناك في صحيفة (جورنال ديتاليا). وفي الحقيقة فإن كل ما حدث هو أنني وعدت بأن أقوم بمحادثة من يتحداني في فندق سافوي وأنا في حالة شعرت فيها بميل للدخول في صراع معه. وعند ذلك وقف الشاعر على قدميه وبدأ يلقي خطبة استمرت ربع ساعة من الزمن. كان في سماعها تسلية لي، لقد قال: إنني لم أزر قط الخنادق في طرابلس بل كنت مختفياً في حانة بداخل المدينة، ثم قال إن المستر (جرانت Grant) مراسل صحيفة (الديلي ميرور Daily Mirror) قد اختلق الفظائع، وعليه فإنه سيطرد لذلك السبب، ولأنه أيضاً يخاف من مرض الكوليرا، وأن صحيفته لن تقوم باستدعائه. لقد كان هذا مسلياً جداً، كما أن الطريقة التي كان يذرع بها زائري أرض الغرفة كبطل من أبطال مسرحية، كانت أكثر تسلية. ولكن هناك جانباً هاماً لهذه المسألة وهو: أليس من الصفاقة أن أجانب يتمتعون بكرم هذه البلاد، يقتحمون - وهم مسلحون على ما أعتقد - منازل رجال ينتقدون سلوك جنودهم في طرابلس؟ إن هذا قد يرقى في بعض الأحيان إلى نوع من فرض الرقابة. إن مراسلي الصحف الذين يتطلب عملهم أن يسافروا إلى الخارج كثيراً، وأحياناً يزورون إيطاليا أو يمرون بها، سيكونون مرغمين - عندما يرون هذا الضيق والتبرم من الإيطاليين، فيما يتصل بالتعليق على هذه الحرب - لأن

يموهوا،ويتجاهلوا كليـة، أي شيء يمكن أن يثير مثل هؤلاء المتعصبين، وهذا هـوا الواقـع خاصـة، إذا لم يكن لدى هؤلاء المـراسلين أي ميـل لأي من الجانبين، وينحصر كل اهتمامهم عندما يزورون إيطاليـا أوطـرابلس،في أن يروحوا عن أنفسهم، وأن يلتقطوا أخبارهم على وجه السرعة.

ونتيجة لكل هذا فإن ما وصل إلينـا عن هذه الحرب هو وجهـة نظر من جانب واحد، وأن الأخبـار التي كان يسمح بنشرها عنها لتصل إلى العالم كانت نتاجا لاختيار واحد يتم معظمه في إيطاليا نفسها. إن المحررين الإيـطاليين يرون أنهم إذا نشروا أي شيء يتعارض مع رأي الوطنيين الإيطاليين المتعصبين فسوف تنهال ضدهم الاحتجاجات المعارضة وسيعاني توزيع صحفهم كثيراً، وهم بالطبع محقّون في تفكيرهم هذا.

وعنـد مـطلع الحـرب نشـرت صحيفـة (الـديلي جـرافيـك Daily Graphic) رسـالة من عـالم آثار أمريكي، وهو المستـر (رتشارد نـورتون R. Norton) الذي كان يقوم بحفائر في برقة، وقد شجب في رسالته الغارة الإيطالية، وله كل الحرية في أن يفعل ذلك، ولكن الصحافة الإيطالية كلها أثارت ضجة من السخط ضده، فظهرت الأعمدة يومياً، ولمدة أسابيـع في كل صحيفة إيطالية، وكلها تشجب خبثه، وكذبه، وخيانة صحيفة (الديلي جرافيك) بنشرها رسالته، وقد وصل الأمر إلى درجة أن أوقف كل المشتركين الإيطاليين في الصحيفة اشتراكهم فيها، كما أن المكتبات وقاعات القراءة رفضت دخولها إليها، وعقدت الاجتماعات العامة لمهاجمتها، كما قامت بعض الصحف بنشر قوائم يومية بأسماء الأشخاص الذين تبرّأوا من صحيفة (الجرافيك) وكل ما تكتبه، مما أضطر الصحيفة أخيراً؛ لأن تنزل على رغبة قـرائها الإيـطاليين الغاضبين، وتنشر أعتذاراً عمّا بدر منها.

لقد كان هذا التهور السخيف، والتبرم، والضيق بالنقد شديداً، وسط قوات جيش الاحتلال في طرابلس، مثلما كان في إيطاليا نفسها، مما جعل الرقابة في

طرابلس تُرفض صدور عبارة غير صادرة من المستر (بنت بيرلي) B.Bur-leigh مفادها: «إنه رغم أن إنزال الجنود الإيطاليين في الثاني عشر من اكتوبر قد تم بفعالية وسرعة كبيرة، فإن البحرية البريطانية بما لها من خبرة في هذا الشأن كانت ستؤديها بفعالية أفضل». لقد اعترض الرقيب على القول بأن البحار البريطاني أفضل من رفيقه الإيطالي، وذلك لأنه لا يتقبل أي نقد، ولا يريد إلا الإطراء ولا شيء سواه بل والإسراف فيه.

لقد حاول (فون جوتبرج)Vin Gottberg أن يبعث برسالة لصحيفة (لوكال انزيجر)Lokal Anzeiger، كان مضمونها أن «الصحافة الإيطالية أعطت انطباعاً عن وضع الاتراك أكثر تشاؤماً مما كان عليه الموقف» كان هذا بعد نزول جيش الإحتلال مباشرة وهو الوقت الذي نشر فيه كل شيء، للتقليل من شأن الأتراك عندما أكدّت الصحافة الإيطالية أنه لا ماء ولا طعام، ولا ذخائر لديهم. وأنهم يتمسكون (بأبو مليانة) والمنطقة التي حولها؛ لأنهم فقط كانوا يريدون مصدراً لمياه الشرب.

ومع ذلك فإن هذه العبارة عن الصحافة الإيطالية كان يجب أن تحذف، حيث إن الرقيب لم يكن يسمح بنشرها بحال من الأحوال.

وفي حوالي منتصف أكتوبر بعث مراسل وكالة (رويتر) بمقال محايد ودقيق، حاول فيــه تلخيص الموقف، وبعد أن أضفى فيه إطراء شديداً للايطاليين اجترأ بأن تطرق للحديث عن الصعوبات التي يواجهها الغزاة، وبخاصة إذا ما حاولوا القيام بزحف على الصحراء فقال: إن الإيطاليين قد دخلوا في عملية ضخمة دون أن يحسبوا ـ بما فيه الكفاية ـ كيف يتغلبون على العقبات التي سيواجهونها، ودون أن يتنبأوا بالتكاليف الباهظة التي سيتكبدونها.

ولأنه تجرأ على ذكر ذلك كله، فقد غضبت الصحافة الإيطالية عليه، فذكرت صحيفة (تريبونا)Tribuna شبه الرسمية في عددها الصادر في الثامن عشر من أكتوبر أن التصريح الذي أوردته فيما سبق «مناقض لكل ما كتب، حتى

هذه اللحظة في الصحافة الإيطالية والأجنبية معاً، كما أنه يتناقض بوضوح مع شواهد الأحداث».

وقد نشرت في صحيفة (تريبونا) هذه الرسالة المعتدلة تحت عنوان «تخيلات رويتر»،وقامت بهجوم شخصي على مراسل رويتر،ألمحت فيه إلى أن المشكلات التي واجهها للحضور إلى طرابلس جعلته لا يستطيع أن يتخذ موقفاً محايداً ومتزناً.

وفي هذا المجال لا بد أن أقف وللحظة،لأوضح ما يريد الإيطاليون أن يكتب، وما يكتبونه هم أنفسهم عن مغامرة طرابلس، فإن السنيور (دي فيليس) De Felice النائب الاشتراكي الشهير عن صقلية،والذي كان مراسلاً لصحيفة (مساجيرو)Massaggero في طرابلس كتب رسالة نشرتها،الصحيفة في التاسع من أكتوبر يصف فيها «الطريقة التي يتقدم بها جنودنا إلى الداخل» فذكر أن الجنود كانوا يسيرون في ثلاثة صفوف: أحدها في اتجاه طرابلس ومصراته إلى تاجوراء، وسيدي بن نور، وقصر الجفارة «وهي قلعة قديمة محصنة كانت مقراً لحامية عثمانية معززة، وعندما سمع الأتراك بوصول قواتنا هربوا بسرعة فائقة، وقيل إنهم قد انضموا إلى قوات تركية أخرى متجهة في غير نظام إلى داخل البلاد، وقد زحفت مجموعة من قواتنا إلى غريان التي يمكن تسميتها بعاصمة الجبل، وعبرت إلى غات، وهي واحدة غنية بالمياه،وقصر العزيزية وهي منطقة خصبة للغاية وتتوفر فيها المياه الصالحة للشرب».

وجوهر مقال (دي فيليس) هو قوله بأنه في الوقت الذي ستنشر فيه هذه الرسالة سيكون الطابور الأخير قد وصول بالفعل الى حامية غربان. «ومن المحتمل أن جنود هذه الحامية سيهربون هم أيضاً أمام قواتنا» وقد أضاف هذا النائب «العجيب» في ختام مقاله «إن هؤلاء اللاجئين لم ينتظروا طويلاً بل سيتسلمون هم أيضاً».

إن نظرة إلى خريطة طرابلس توضح إن الإيطاليين لو استمروا بسرعتهم

الحالية في الزحف فإنهم يحتاجون إلى خمسين عاماً ليصلوا إلى غريان ما لم يصلوها أسرى، إذ يوجد فعلاً الآن نحو مائة أسير إيطالي هناك، وفي فزان، وربما يتزايد هذا العدد.

وألاحظ أن (دي فيليس) هو ذلك المكتشف الذي سار في مركبة حتى سيدي المصري، وشاهد بعينه بعض الأعشاب، وسهلاً مكسواً بحشائش غير ذات نفع، فعاد مسرعاً إلى طرابلس لكي يكتب إلى (جورنال دي سيسيليا) (Gior-nale di Sicilia) تقريراً براقاً، عن الأمكانيات الزراعية الهائلة «للمستعمرة الجديدة»، واتبعه ببرقية قال فيها: «لقد زرنا الصحراء ووجدنا كل أراضيها في غاية الصلاحية».

وإذا كان هذا النائب الراديكالي الاشتراكي يتحدث على هذا النحو. فماذا يمكننا أن نتوقع من المتطرفين المتعصبين التوسعيين؟

ولما كنت أود أن أتجنب قدر الإمكان اللوم على جعل هذا الكتاب مليئاً بالسخرية، فإنني أمتنع عن ذكر ما قاله التوسعيون عن الأمكانيات التجارية لطرابلس إلا إذا دعت الضرورة لذلك، وحينئذ سيكون لدى القراء الانطباع بأنني أنقل من مسرحية هزلية عن الحرب، وأنني ـ بطريق الخطأ ـ وضعت يدي على خطة سياسية إيطالية مقتبسة عن «أليس في بلاد العجائب» «Alice in Wonderland—

ورغم هذا فإنني سأعطي مثلاً آخر لتبرم الإعلام الإيطالي وضيقه غير المعقول، بأي شيء يتعلق بموضوع طرابلس. ذلك أن مراسل صحيفة (التايمز) ـ كما يبدو من كل رسائله التي بعث بها من طرابلس خلال أيام المذابح ـ كان من أكثر المراسلين الأجانب تأييداً للجنرال (كانيفا) وقواته. إنني لا أعني أن هذا الرجل كان يلوي عنق الحقيقة احتراماً لمشاعر الإيطاليين، بل أعني أنه بحكم كونه رجلاً عسكرياً خاض حروباً ضد القبائل البدائية أو شبه البدائية الواقعة على الحدود الهندية وبعض المناطق الأخرى

في الأمبراطورية البريطانية، فإنه كان يتعاطف مع الجنود المحترفين ومع الرجل الأبيض والأوربيين بوجه عام، وليس مع الأهالي غير المنظمين الذين ربما يكونون خونة، ولا يرتدون زياً رسمياً، ولم يدخل أحد من ضباطهم مدرسة عسكرية معروفة.

ولكن هذا المراسل كان يشعرنا أحياناً بأنه مضطر لأن يقدم كلمة نقد طيبة، وهذه الكلمة جعلت الإيطاليين يجن جنونهم. بل إنه حتى صحيفة متزنة مثل (كوريري ديلا سيرا Corriere della Sera) نجدها تصف - في عددها الصادر في التاسع من أكتوبر - مقالاً له بأنه «حقد بشع»، وذلك لأنه قال: إنه خلال الليلة الأولى من الهجوم على (بو مليانة) كان للأتراك عشرون جندياً فقط، بينما ذكر المراسلون الإيطاليون أن عددهم كان خمسمائة جندي، وكما سيتضح مما سيأتي فإن عددهم بالضبط كان خمسة عشر جندياً، ولكن مراسل (التايمز) كعادته كان منحازاً لإخوانه الجنود المحترفين.

وعندما التمس المراسل نفسه بلطف من الصحافة الإيطالية ألّا تفقد اتزانها وتعقلها طالما أن هذه الحرب رغم ما فيها فهي حرب صغيرة، وليست بذات أهمية عسكرية للعالم كله، قامت صحيفة (أورا Ora) في (باليرمو Palermo) في عددها الصادر في العشرين من أكتوبر بنشر هذا التصريح على أساس أنه يكشف روحا شريرة من مراسل أجنبي نحو زملائه الإيطاليين.

ولقد تعرض صديقي المستر (بيرسيفال فيليبس Percival Phillips) للتهكم والسخرية لأنه بعد أن شهد الطريقة التي يتناول بها الجنود الإيطاليون مياه الشرب من الينابيع العامة، ويأكلون الفواكه غير الناضجة - تنبأ بأن وباء الكوليرا سيظهر عما قريب في المعسكر الإيطالي وهو ما حدث بالفعل.

إن إيطاليا - باختصار - كانت أكثر الدول تحمساً في الدعوة إلى منح المرأة حق الانتخاب، ورغم هذا فقد خرقت كل القوانين الدبلوماسية، والصحية، والاستراتيجية وراحت تسطو وتحطم النوافذ مثل (كرستابل بانكهيرست CHristable Pankurst) ثم أخذت تصيح في هستيرية تصم

الآذان متحدية أي شخص، حتى لو كان أحد أصدقائها أو المتواطئين معها في جريمتها، ممّن يحاول أن يدلها على أفضل الطرق لتنفيذ أعمالها.

لقد راحت إيطاليا تمخر بأسطولها في بحر إيجة، وقد جعلت نفسها مصدراً قلق وإزعاج للجميع، بتعريضنا لخطر نشوب حرب في منطقة البلقان، مستهدفة إثارة قلق أوربا حتى تضغط على تركيا لكي تتنازل لها عن طرابلس.

رغم هذا فإنني أعترف بأن صوت العقل كان يتردد هنا وهناك في إيطاليا، لقد كتب السنيور (ماريوبورصا)Mario Borsa كبير محرري صحيفة (سيكولو)Secolo في إحدى المناسبات لصحيفة (تريبونالي Tribunali) رسالة قوية، شجب فيها الصورة التي أعطتها بلاده عن نفسها للعالم، وهي «الصورة الحقيرة غير الوقورة لشعب عصبي، سريع الانفعال وغير قادر على تحمل الهجوم الفظ، مثلما لا يتحمل النقد الحكيم المتزن». ثم يستطرد قائلاً: «إننا الأطفال المدللون الذين أفسدهم الإطراء، إن العالم ظل يطرينا على مدى خمسين سنة... إن هذه امبريالية من نوع جديد» ويقول في موضع آخر: «لقد فقدنا صوابنا بسبب اللهجة المعادية التي كتبت بها الصحافة الأجنبية عنا، لقد اشتد بنا الغضب حتى جعلنا من أنفسنا أضحوكة للآخرين، لقد منعنا المراسلين الأجانب من الذهاب إلى (كياسو) Chiasso، لإرسال برقياتهم للخارج، ومنعنا برقياتهم من أن تصدر. لقد شهدنا كيف دخل وزراؤنا وجنرالاتنا في منازعات مع وكالات البرق، والمراسلين الأجانب، كما أننا قرأنا في صحيفة (تريبونالي) كيف أنه تحتم على سفرائنا اتخاذ الإجراءات القانونية ضد الصحف التي كانت تشهّر بنا».

إلا أن مثل هذه الأصوات كانت قليلة، وعلى فترات متباعدة، حتى إن المحررين الذين تبنوا وجهة نظر السنيور (بورصا) قد أرغموا على الأستمرار في تغذية الشبح المخيف، وهو الرأي العام المتعصب، الذي ظلوا يخلقونه على مدى السنوات الخمس الماضية ـ لقد استخدموا في وصف القرى غير المحصنة عبارات من الإطراء، لو أنها استخدمت في وصف انتصار (الطرف

الأغـر) لكانت تعتبر مبالغاً فيها، كما شبهوا زحف جنودهم الجبان والمتـردد على الأرض بالزحف الياباني وبالقائد العجوز (بالوخر —)Blucher . وحتى في اختيارهم للرسائـل المتبادلـة بين الرتب حـرصوا على أن يكتفـوا بتلك الرسائل التي مرت بين يدي الرقيب، والتي تحمل شعوراً وطنياً مبالغاً فيه، لقد كانت الرسـائل المختـارة هي دائماً تلك التي يكتبهـا الجندي الشـاب لأمه العجوز مستخدماً تلك العبارات المعتادة من أنه يموت من أجل وطنه، ومن أجل الملك، أما الآن فإن معظم الرسائل لا بد أن تـكـون مختلفة تمـاما، وذلك لأن معظم الجنود قد سئموا هذه الحرب، حتى إنهم في بعض الأحيان يجبرون على أن يثبتوا في مواقعهم في أثناء المعركة تحت حـراسة ضبـاط شاهرين المسدسات.

حتى صحيفة (أفانتي)Avanti كانت تقوم بنشر بعض رسائل الجنود التي لم تكن تعني أي شيء غير أنها تسير على النمط القديم نفسه، خذ مثلاً ما نشرته في عددها الصادر في الرابع والعشرين من أكتوبر، وهو بعض ما جاء في رسالة أرسلها أحد الجنود الذين اشتراكوا في معركة (شارع الشط) إلى أخية جاء فيها: «صدقني عندما أخبرك بأنني أحيا حياة الكلاب أياماً تلو أيام، لقد مضت عشرة أيام لم نتعرض فيها لهجوم، ولكننا اليوم تعرضنا لواحد عندما بدأت أكتب لك، استمر لمدة عشر دقائق، لقد كنت مريضاً لمدة ستة أيام غير أن الطبيب ذكر أنني أتمارض، ويجب علي أن أقوم بعملي المعتاد. لا يوجد سقف فوق رؤسنا ليلاً أو نهاراً. لقد غادرنا (لجهورن)Leghorn في الثاني من أكتوبر ومنذئذ لم أغيّر أغطيـة فراشي مـرة واحدة، كمـا ليس لدي من الملابس سوى تلك التي أرتديها، فقد أخـذها الأتراك كلهـا ما عدا ذلك. أنني أؤكد لك يا أخي العزيز أنه كان من الأفضل لي بدلا من الحضور للحرب أن ألقي بنفسي في البحر، ولم يعد لي أي آمل في العودة، ومن المؤكد أنني سألقي حتفي بمرض أو رصـاصة». (سـاردي داريو)Sardi Dario اللواء الحادي عشر من البرساليري).

وكتب جندي آخر من بنغازي لوالدته قائلاً: «إن الحرب أقبح شيء في الوجود، ففي هذه البلاد لا بـــد أن يتشكك المرء في أي شيء وأي شخص. على المرأ أن يتشكك في الطقس مثلما يتشكك في السكان، لقد ظلت رمال الصحراء تهب على مدى أربع وعشرين ساعة وأنا أكتب إليك هذه الرسالة. تخيلّي أمطاراً غزيرة من الرمال الناعمة، لدرجة تُمنعك من فتح عينيك، وتلطلم خديك بعنف بالغ، وتدخل في أذنيك، وأنفك، ومن خلال فتحات ملابسك، وفي داخل نعليك، وتلدغك كوخز الأبر. ومن الطبيعي ألا أتناول أي طعام في أثناء هبوب هذه الريح. فقد غمرت الرمال الطعام والخبز تماماً. ومن خلال فتحات الخيمة التي نستخدمها كمكان رديء للوقاية، كانت الرمال تتسرب إلينا وتغطي وجوهنا لدرجة أن المرء ليضطر إلى القيام في الليل عدة مرات؛ لنفض الرمال عن وجهه، لقد بلغت الرياح ليلة أمس من الشدة درجة جعلتها تطيح بالخيمة التي كنت أرقد تحتها أنا وأربعة من رفاقي، كما انتزعت الأوتاد التي كانت تشدها إلى الأرض، ولك أن تتخيلي الفوضى التي غرقنا فيها، فقد كنا مغطين تماماً بالرمال ولم ينقذنا من الهلاك إلا احتماؤنا وتعلقنا بأشجار النخيل. ورغم كل هذا وكثير غيره مما لا استطيع الكتابة عنه فإن صحتي جيدة، ولكنني أؤكد لك أن هذا الإرهاق والتوتر المستمر الذي أتعرض له رغم أنفي هنا سيكون له أثر خطير على صحتي ومستقبلي، من المعتذر محوه. ومن المؤكد أنه سيقصر من عمري. آه! كم مرة أجد نفسي وحيداً في الليل بصحبة خمسة أو ستة رجال تحت مسؤوليتي الشخصية (وذلك في أثناء موسم الأمطار قبل عدة أسابيع) وقد غمرتنا المياه، وليس لنا مأوى نستريح فيه، وليس لدي شيء أرقد عليه غير الوحل، بينما تنهمر علينا الأمطار بغزارة، كم مرة اشتقت أن يأتيني قدري الذي أتمنى أن يكون قريباً، ليحررني ألا وهو طلقة تصيبني في دماغي».

ليست هذه روح روما القديمة التي يفخر بها الوطنيون الإيطاليون ولكنها روح القوات الإيطالية، في طرابلس في الوقت الحاضر. وحتى هذه الخطابات فإنها لا تعبر عن مدى عمق الأسى والألم،

وذلك أولاً: لأن الخطابات السيئة لا تصل إلى الصحف، خشية أن تسبب المشاكل لكتابها، وثانياً: لأن صحيفة (أفانتي) كانت مرغمة على أن تنقاد للجنون العسكري الذي اجتاح إيطاليا. لم يكن مراسل صحيفة (أفانتي) فيما يرسله من هراء من الجبهة أقل سوءاً من رفاقه داخل إيطاليا، وربما كان طرد من طرابلس قبل فترة واتهم بـ «عدم الوطنية»، لو أنه كتب بأسلوب أكثر خنوعاً أو أقل حماساً.

وربما يظهر فيما يلي من رواية الأحداث أنني ضد الإيطاليين وأؤيد الأتراك، ولكنني أعتقد أنني محايد بصفة عامة إنني أتعاطف مع العرب، وذلك لأنهم يقاتلون ببسالة خارقة من أجل بلادهم، ولكنني من ناحية أخرى مضطر لأن أعتمد في أخباري على الصحف الإيطالية بشكل مباشر. إن الصحف الوحيدة التي كنت أستطيع الحصول عليها في طرابلس هي الصحف الإيطالية ولهذا فإنني ربما أكون في بعض الأحيان غير منصف للعرب. إن الايطاليين من الناحية الفعلية يحتكرون السيطرة على أخبار هذه الحرب، وذلك لأن الأتراك هنا جنود وليسوا كتابا. إن هنالك قلة من بين المراسلين الأجانب هنا تجازف بأن تعرض نفسها للمتاعب والمخاطر بالبقاء في موقع رئاسة قوات نشأت بك، ونجد أنفسنا مجبرين ـ للحصول على المعلومات الخاصة بأخبار الحرب ـ على الاعتماد كلية على المصادر الإيطالية.

لم يعد إلينا أحد من هؤلاء الأتراك أو العرب من المجموعتين الباسلتين اللتين اقتحمتا الخط الإيطالي مرتين ليروي قصة ما حدث، كما أن الأعمال البطولية التي قاموا بها في صراعهم اليائس الأخير في الواحة لن يقدر لها أن تعرف أبداً. كما لن تعرف كل أعمال الخيانة والجبن التي ارتكبها الإيطاليون خلال معارك الواحة، والتي نعرف بعضاً منها، ولكن لن نعرفها كلها على الأطلاق. ومن ناحية أخرى فإننا نواجه بسيل من المعلومات والأخبار عن البطولات الإيطالية، وبما أن هذه القصص قد دبّجها يراع أكثر الصحفيين مقدرة في إيطاليا، فقد أقبل عليها القراء بنهم، وأضحت عظيمة التأثير، كما

كانت هنا بالطبع تلك الصحف المدعمة وهذا أمر معروف في مثل هذه الحالات. وفي حالتنا هذه نجد صحيفة (إيكو دي تريبولي) (Eco di tripoli) أي صدى طرابلس، تتلقى دعما من القنصلية الإيطالية بغرض تحطيم الروح المعنوية عند العرب، وقد استطاع محررها وأسمه (موسى)Moses أن يرفع بجرأة علم الحضارة المسيحية وسط «ظلمات الجهل والكفر والإلحاد».

وفي إيطاليا ذاتها فإننا نجد الشاعر العظيم (جبرائيل دانونزيو)Gabriele dánnunzio يبذل كل ما في وسعه لخلق انطباع زائف عن هذه الحرب، ومن ثم فإنني أقول إنني فيما يلي من صفحات لم أعط العرب أكثر مما هم جديرون به.

هناك أنواع معينة من الناس لن تروق لهم هذه الصفحات، كما أنهم لا يعجبون بالعسكريين الذين يجعلون من العبارة المطاطة «الضرورة العسكرية» غطاء يستركل ما يرتكب من جرائم وأعمال بربرية في أوقات الحرب.

كما ان هذه الأوراق لن تجد القبول لدى المواطن الانجليزي الذي تمكنت منه جرثومة المغالاة والتطرف ويعيش أمثال هؤلاء الإنجليز في إيطاليا ويكتبون كتباً عن هذا البلد، أو يتاجرون مع طرابلس أو يجري في عروقهم بعض الدم الإيطالي ولكن لا جدوى من النقاش معهم فيما يتعلق بالحرب الحالية، وذلك لأنهم في مثل عمي (جورنال ديتاليا .(Giornale d´italia).

إنني لا أتوجه بهذا الكتاب لرجال الدولة والكتاب هادئي الأعصاب الذين يريدون انتزاع إيطاليا من الحلف الثلاثي، أو يودون مساعدة فرنسا على تحقيق ذلك، أو الذين يودون أن يجعلوا السفن الحربية الإيطالية تقضي على تأثير الأسلحة النمساوية، ومن أجل ذلك يعتقدون أنه من الأفضل التزام الصمت هنا في انجلترا عن الفظائع الإيطالية في طرابلس. وعندما يمتد بصر مثل هؤلاء الرجال إلى قارة أوربا، فإنهم لا يرون سوى دولة واحدة هي ألمانيا التي لا يحسبون حساباً لأحد سواها، كما إنهم لا يذكرون أن روسيا كانت مصدر ذعر

بنفس القدر قبل عشر سنوات، وقبلها كانت فرنسا هي مصدر الذعر، كما أنهم لا يدركون أن ألمانيا قد تصبح حليفة لنا في المستقبل.

ثم ان هناك بعض الناس يعتقدون أننا يجب أن نحتفظ بشيء من الصمت السياسي، مقابل أن تدفع لنا إيطاليا ثمن ذلك، وتتنازل لنا عن بعض، الامتيازات في مصر، وهناك أناس شاركوا في العمل على توحيد إيطاليا ومن ثم فهم يعتقدون أن إيطاليا الموحدة لن تفعل غير الصواب. كما يوجد أناس مبهورون بأدب إيطاليا، وفنها، ومدنها القديمة، وتاريخها الرائع، والجمال الساحر لتلالها وشواطئها، وجاذبية أهلها، وماضيها العريق، وهناك الكاثوليك الذين يعترضون على أي نقد يوجه للجندي الإيطالي، وذلك لأن معظم جنود الحملة ذهبوا لزيارة قدس الأقداس قبل أن يصعدوا إلى ظهور السفن في نابولي، كما أن جيش الحملة في طرابلس كان مزوداً بعدد من القساوسةالفرنسسكان. والى جانب ذلك فإن هناك قوماً من إنجلترا يعتقدون أن الأتراك قد أصبحوا فريسة سهلة وليس هناك أي ضرر من طردهم من أوربا وأفريقيا وأنه في أثناء ذلك من الممكن عدم ارتكاب أية فظائع. وأخيراً فإن هناك من يؤيدون الإيطاليين الآن لأنهم ناصرونا في أثناء حربنا في جنوب أفريقيا، ويبدو أن اللورد (روبرتس (Roberts واحد من هؤلاء، إذ أنني لا أستطيع أن أجد تفسيراً آخر لرده الذي أدلى به في نوفمبر الماضي على سؤال لم يكن لديه أي معلومات مباشرة عنه، لا بد أن هذا الجندي البارز قد تأثر بشكل غير مباشر بما حدث من أنه في أثناء زحفه على الترنسفال Transvaal كان قد تعرض للنقد الشديد من جانب قطاع معين من الرأي العام البريطاني بينما حظى بدفاع الإيطاليين عنه.

إنني لا أناشد أياً من هذه الفئات من بني وطني، فإن هذا الكتاب لم يكتب لهم، ولحسن الحظ فإنهم لا يشكلون إلا نسبة ضئيلة من الأمة البريطانية، ولا تصل حتى إلى واحد بالمائة من مجموع الجماهير المنصفة، العادلة،من الرجال والنساء المحايدين الذين قالوا لي: «لا تهتم من قريب أو

بعيد أن كانت إيطاليا معنا أولا في حربنا في جنوب إفريقيا، أو إن كانت ستترك الحلف الثلاثي أو ستبقى فيه، وهل ستجعلنا آمنين في القاهرة أولا، وما عليك إلا أن تخبرنا وتقص علينا ما حدث في طرابلس في أكتوبر ١٩١١».

وهذا ما سوف أبذل جهدي لكي أفعله.

ورغم شجبي للصحف الإيطالية فإنني لا بد أن أزجي الشكر لها على كثير من المعلومات الواضحة الصريحة التي تتضمنها الصفحات التالية، كما يجب علي أن أتقدم بالشكر إلى صحيفة (الديلي ميرور) Daily Mirror على سماحها لي باستخدام صورها الممتازة، كما أنني أعترف بفضل الصحف التالية: (نيويورك ورلد) New York World و (وستمنسترجازيت Westmins-ter Gazette) (والديلي نيوز Daily News) وذلك لسماحها لي جميعها باستعمال المواد التي أسهمت أنا بها في كتابة بعض أعمدتها.

المؤلف

الفصل الأول

النعرة القومية

هناك شيئان يدهش لهما معظم الناس في إنجلترا في ما يتعلق بالنزاع الدائر الآن بين تركيا وإيطاليا، أولهما: لماذا ينشب مثل هذا النزاع أصلاً؟ ليس في مقدورنا أن نتفهم الحالة العقلية التي جعلت من الممكن بل من الرائج بين الطبقات الشعبية في إيطاليا وقوع مثل هذه الحرب، التي تبدو لنا في إنجلترا أسوا عمل من أعمال القرصنة الدولية، وقطع الطرق الذي جرى حتى الآن خلال الخمسين سن الماضية.

وثانيهما: أنه في مقدورنا أيضاً أن نتفهم تماماً الحالة العقلية لجيش الحملة الإيطالية، التي جعلت من الممكن أن تقع أحداث ما بين الثالث والعشرين والثامن والعشرين من أكتوبر المروعة

سأحاول في الصفحات التالية أن أعطي تفسيراً للوضع، برغم علمي أن هذا ربما يضفي على الكتاب شيئاً من الملل والسأم، غير أني آمل أن ألقى بعض الضوء على هذا الموضوع الغامض الشائك، وسوف أبدأ أولا بما كان يدور في إيطاليا نفسها، وهو الذي مهد لموضوع الحرب في طرابلس.

لقد نمت في إيطاليا ولمدة جيل كامل دعوة لضم هذه الولاية التركية، وكانت هذه الدعوة تقوم على أساسين: أولهما أن طرابلس تقع على مسيرة يوم واحد بالباخرة من صقلية، وثانيهما أنها كانت في الزمن الماضي مقاطعة رومانية، ولا يحتاج المرء أن يلفت النظر إلى ضعف هذين السببين، إذ أن

انجلترا نفسها كانت ولاية رومانية، كما أن مالطة ـ المستعمرة الإنجليزية ـ أقرب إلى طرابلس من أي جزء في صقلية. فلا بد بالطبع من أن تكون هناك أسباب أخرى غير هذين السببين.

لقد كان هناك حزب جديد «متعصب للغاية» بدأ ينمو ويزدهر دون أن يلفت النظر من خلال العقود الأخيرة في إيطاليا، وكان أعضاء هذا الحزب جميعاً يدعون أنفسهم بالوطنيين، كما كان معارضوهم يسمونهم «حزب تركيا الفتاة الإيطالي»، غير أنهم يستحقون هذا الأسم، إذ أن الرجال الذين أطاحو بالسلطان عبد الحميد لأقوى من هؤلاء وأكثر صلابة، إنَّ الوطنيين ما هم إلا جماعة متعصبة متطرفة ذات نزعات متميزة، يؤمنون بالحرب من أجل الحرب، كما أنهم يؤمنون بأن سفك الدماء يرفع من مكانة الأمم ويوحدها، كما أنه يقوي النزعة الوطنية بين سكانها، وشعارهم هو «إذا انتابك شعور بالانيهار فاخرج واقتل شخصاً ما» إنهم يدافعون عن هذا الشعار الشاذ الغريب دون حياء أو خجل[1].

إنه لمن الصعب فهم هذا الجنون المفاجىء والاندفاع نحو استعمال القوة والعنف من جانب أضعف الدول، وهي التي يعدها العالم إحدى الدول الكبرى من باب المجاملة فقط، وهي التي لم تحظ بوحدتها نتيجة جهودها ولكن

---

(١) «نحن نريد أن نمجد الحرب ـ الوسيلة الوحيدة التي تهب الصحة للعالم» هكذا يقول السنيور مارينتي Marinetti وهو واحد من كثير من صغار الشعراء الذين يقرعون الآن طبول الحرب. «نحن نريد أن نمجد العسكرية، والوطنية، الذراع المدمر للفوضويين، الأفكار الجميلة القاتلة، الحقد على المرأة» وتحكي لنا الأسطورة الذهبية عن أمير غني زين له الشيطان أن دم فتاة عذراء سوف يشفي مرضه، ولذلك اقترح لو سيفر على إيطاليا أن حمام الدم سوف يعيد إليها شبابها. في الحقيقة إنّ الامبراطوريات الغنية القوية ذات الجيوش الجرارة ومستعمراتها الشاسعة يكون للمجموعات الاستعمارية فوائدها، ولكن إيطاليا لا تستطيع أن تجني أية فائدة من وراء الشعراء المجانين، والضباط المختلي التوازن الذين كانوا مسؤولين عن هذه الحرب. إنني أشك كثيراً في وطنيتهم. إنهم الآن يطاردون العرب بالقصائد والمدسسات، وغداً ربما يطاردون فكتور عمانويل بالقنابل، وعندما ينكشف حمق دعايتهم سيكون هناك ولا شك رد فعل في إيطاليا حتى الوطنية السليمة المعتدلة.

لعطف أوربا عليها، وحتى لا أطيل القول فإنها دولة مدللة مصطنعة شأنها شأن دولة اليونان الجديدة. إنه لمن الغريب أن تجد الدولة الوحيدة التي استوجبت الاحترام والتقدير بسبب انجازاتها في مجالات الفنون والآداب تنحرف فجأة إلى وحل البربرية. إن المرء ليشعر بالأسى إذ يرى إيطاليا المدللة تتنازل عن وقارها بالركوع أمام صنم العسكرية الزائف. إن الظبي الضعيف الهزيل يفضل أن يكون ذا بطش، وأن يكون الرشيق في ضخامة وعنف الثور. يقول أحد المعلقين الإنجليز «أن إيطاليا ـ زهرة عالمنا الغربي ـ التي كم أحببناها وأشفقنا عليها منذ خمسين سنة ويجب أن نتذكر كم كنا حمقى بتصديقنا لدموعها واعتقادنا بأن الحرية ستكون علاجاً ناجعاً لجراحها. لقد جفت دموعها تماماً الآن، وها هي تقف أمامنا بعيون جامدة وقحة، تصعر خديها، بغى أوربا تفاخر بأعلى صوتها بعدم حيائها «إن إيطاليا لم تجعل العالم يكرهها فقط، بل الأسوأ كم ذلك جعلته يسخر من تصرفاتها، فقد استعملت الصحافة الإيطالية العبارات الطنانة في وصف شجاعة جيشها وأسطولها، كما كان جنرالاتها يشيرون دائما في تصريحاتهم إلى الأمبراطورية الرومانية القديمة، ولكن في نفس الوقت كانت جيوشها تقف موقفاً متخاذلاً ضعيفاً أمام عدو أقل في كل شيء: عدداً وعتاداً.

إن الخطأ كله يعود إلى أن الأدباء الشبان الطموحين، والضباط الصغار المتهورين الذين يقودون الحركة الوطنية خدعوا أنفسهم، إذ اعتقدوا أن ما على إيطاليا إلا أن تبذل جهداً بسيطاً، لتحيل نفسها إلى روما القديمة، ولسوء حظهم، فإن هنالك هوة سحيقة بين هؤلاء وبين الجنود الذين تحت قيادتهم حول هذه الفكرة بالذات، فهولاء الجنود الذين تعتمد عليهم إيطاليا في نجاح المغامرة الطرابلسية اعتماداً كلياً، لا يعرفون شيئاً عن سيبيو افريكانوس وليست لديهم أية رغبة في أن يكسبوا لأنفسهم شهرة وشرفاً في معارك لا جدوى منها ضد الرمال الليبية، إن أحدهم يود لو ترك في سلام يرعى كرمته في صقلية، وآخر يود لو أنه رافق آخاه الذي يدير صالون حلاقة في نيورك ويكسب منه مالاً كثيراً، وثالثا كان في شيكاغو يتمنى لو عاد إلى هناك مرة أخرى. إن القوميين الإيطاليين

يرفضون مواجهة الحقيقة بأن هناك تغيرات كثيرة حدثت منذ عهد يوليوس قيصر، منها ـ مثلاً ـ أن أمريكا قد آكتشفت.

لقد ارتكب القوميون المتعصبون من اليونان نفس الخطأ حينما أصروا على أعلان الحرب ضد تركيا، لقد غمرت النشوة زمرة من الضباط غير المتزنين، وبعض الشعراء عندما قرأوا عن انتصارات قدماء اليونان الذين يعتقدون خطأ أنهم ينحدرون من نسلهم. لقد تذكروا الإسكندر الأكبر، وزينوفون، ولكنهم تناسوا التدهور والأنحطاط البيزنطي الطويل، الذي يفصل بين أولئك الأبطال العظام وبين يونان اليوم. إنني لا أود بأي حال أن أدين إحياء التراث والتاريخ بل على العكس، فإن هذه الجهود تجد عندي القبول والمساندة إذا لم تؤد إلى تقليد أسوأ ملامح وسمات الحضارات الغابرة.

إن رينزي Rienzi يعتبر شخصية نبيلة ومشرفة،لأنه حاول أن يعيد إلى الحاضر أجمل ما في الحضارة الرومانية الغابرة من صفات، ولكني لا أتعاطف مع من يظنون أنهم يقتفون سيرة أنبل الرجال العظماء، بينما هم في الواقع يقومون بمحاكاة أسوأ عيوب هؤلاء العظماء. إن أمثال هؤلاء الرجال يذكرونني بأحد أبطال قصص الكاتب الروسي دستويفسكي، وهو راسكو لينكوف الطالب الروسي الأخرق الذي ـ من أجل حفنة من النقود ـ حطم رأس أمرأة عجوز فقيرة، فقد كان يتصرف على أساس حكمة تقول: «أفعل مثلما تتوقع أن يفعل نابليون في مثل هذا الظرف». وأعتقد الطالب أن نابوليون في هذه الحالة ربما كان سيتصرف بعنف ويتخذ قراراً بكل قسوة وحزم.

إن إيطاليا تحت حكم جيوليتي هي راسكولينوف Raskolnikoff التاريخ الحديث، فقد هاجمت مجموعة فقيرة معزولة من الأعراب وحطمتهم بالمدافع لاعتقادها أن روما القديمة كانت ستسلك نفس هذا المسلك، وكان القوميون الإيطاليون يعتقدون أن ضراوة الحرب ستزيد من عظمة الدولة، وسترفع من شأنها، وعن هذه النقطة سأدع المجال لأحد الإيطاليين كي يتحدث عنها، وهو (هاملكار كبرياني HamilcarCipriani) الثوري القديم المتمسك بنزعته الثورية. قال

في معرض رده على أحد محدثيه إنهم يودون نصراً كبيراً، ولكن كيف يمكنهم إحراز مثل هذا النصر في طرابلس. خاصة إذا عرفنا أنه ليس في وسع تركيا أن ترسل جيشاً إلى هنالك؛ لأنها لا تملك أسطولاً بحرياً لنقل الجيوش؟ إنّ الصحافة الإيطالية المتعصبة قد غمرت البلاد بثرثرة حقيرة مليئة بالعبارات البذئية، لكي تجعل من الانتصارات في الاشتباكات البسيطة انتصارات عظيمة وتصورها على أنها انتصارات ساحقة كبرى رغم أنها أنتهت بتراجع وتخاذل الإيطاليين وتقهقرهم في حدود منطقة لا تتعدى مدى مدافع أسطولهم. إن هذه الحقائق قد جعلت هذا الشعب مثاراً للسخرية والضحك في أنظار كافة دول العالم. إننا الآن أصبحنا موضوعاً للتندر العالمي، ويتصورنا البعض وكأننا جحافل التتار مطاردوا الأسود».

ولكن التندر بإيطاليا لا يتم من دون ذكر شعر لأحد الشعراء المتطرفين الذي يتمثل هذه المرة في (جبرائيل دانتزيو D´Annunzio) فإن هذا الشاعر - ولفترة طويلة مضت - كان يحاول أن يخلق من نفسه شخصية بطولية مثل «كبلنج (Kipling في إنجلترا، ولست بحاجة إلى القول بأن شخصية (كبلنج) لا يمكن وجودها إلا في امبراطورية عظمى. لقد كتب هذا الشاعر منذ سنوات خلت كتابا أسماه (السفينة)، وضمنه آراءه في الأمبريالية والتوسع وضم المستعمرات، وتحمل أعباء الرجل الأبيض. فمنذ بداية الحرب كتب هذا الشاعر مجلداً كاملاً من الشعر في مدحها. إنني أدعوك لتتخيل كتابة شعر بطولي عن انتصارات الجنرال (كانيفا .(Caneva إن آخر خبر هو أن (دانتزيو) سيذهب شخصياً إلى طرابلس مثلما ذهب المستر روديار كبلنج Rudyard Ki-pling شخصياً إلى جنوب أفريقية.

إنه ليس من الصعب توضيح لماذا تحولت الحكمومة الإيطالية في أتجاه القوميين بكل ماالديها، حتى إنها تفوقت على أسوئهم في استخدام الأسلوب الملتهب، فمنذ أن توحدت إيطاليا، كان حكامها تواقين بصدق إلى تقوية وتدعيم الطوائف، التي تتكون منها البلاد، بالزج بها في حرب عدوانية، ويتضح

ذلك في كل ما قاموا به من أعمال، فقد قاموا ببناء ثكنات الجيش القبيحة التي شوهت كثيراً من المناظر الطبيعية الجميلة، ويتضح ذلك أيضاً في التمثال العدواني الذي نصبوه (لفكتور عمانويل) في قلب مدينة روما. إن هذا العمل الذي انعدم فيه الذوق الفني قدّر له الإيطاليون أن يكون «رمزاً لإيطاليا الثالثة». ولا بد أن يكون زوار إيطاليا قد لاحظوا أن قاعدته قد ملئت بالشعارات التي تدعو للحرب. ما أنبل تلك الحوافز المستمدة من أمجاد (أوغسطس) التي حدت بصناع إيطاليا الثالثة التي عادت إلى الحياة الآن. ما أبسط تلك الأعمال الفنية وما أروع روما القديمة في عهد (أوغسطس) التي تنم عن ثقة بالنفس في ظلال سلام يشع بالرفاهية.

لقد قال (كافور) Gavour إن إيطاليا قد قامت بتوحيد نفسها، ولكنه بهذا القول وقع في خطأ تاريخي. ذلك أن توحيد إيطاليا قامت به فرنسا، وشاركتها في ذلك إنجلترا وبروسيا إلى حد ما، وتحققت وحدة إيطاليا نتيجة لمعركتي (ماجنتا Magnetta وسولفرينو) Solferino وليس نتيجة لمعارك (غاريبالدي Garibldi) ومن هنا فإن إيطاليا بدأت تشعر بنفسها، وهي تمر بموقف مماثل لموقف اليونان، عندما بدأت عهدها بعيب خطير، وهو حصولها على استقلالها على يد شعب آخر.

ومن ثم فقد ظل الساسة الإيطاليون على مدى الأربعين سنة الأخيرة يجتهدون للتكفير عن هذه الخطيئة قدر استطاعتهم بتدبير (سيدان) Sedan لها، وبعض الانتصارات التي قد تؤدي إلى «إعادة توحيد إيطاليا» كما يسميها المستر (رتشارد باجوت) R. Bagot بإدماج أهالي روما، والجنوبيين، والفلورنسيين، والبنادقة، والصقليين، والنابوليين، وارتباطهم وتلاحمهم بلحمة الخطر المشترك، بدم الحرب وحديدها، بحيث يؤدي إلى وحدة متجانسة مترابطة أكثر من تلك الوحدة المصطنعة التي تمت ۱۸۷۰. ومن هنا برزت خطة الاستيلاء على تونس، ومشروع الغارة على ألبانيا، ومنها أيضاً المغامرة سيئة الحظ في أثيوبيا، ومنها خطط (كرسبي Crispi) للاستحواذ على طرابلس وهي

الخطط التي كان من الممكن أن يقوم هو بتنفيذها لـو أن رئاسة هذا السياسي للوزارة استطالت لأشهـر قليلة أخرى.

وهناك سبب آخر جعل الحكومة الإيطاليـة أكثر ميـلا لبرامـج الحزب القومي، ألا وهو معركة (عدوة) إذ اعتقدت الحكومة أن الضرورة تقتضي أن تغسل العار الذي لحق بها في (عدوة) فقد قال (سيبيوسيغالي Scipio Sighel) في كتابه الذي أصدره مؤخراً وعنوانه (الوطنية «Il — Nazionalismo») «إننا يجب أن نقوم أمام العالم أجمع بتعديلات ترضية لما أصابنـا من جبن بعد (عدوة)» وتمشيا مع نفس المنطق فإن على فرنسا أن تهاجم سويسرا حتى تزيل ما لحق بها من عار في معركة (سيدان)، غير أن الحكومة الإيطالية والقوميين الإيطاليين ـ في كل ما يتعلق بهذه الحرب الأفريقية ـ كانت لهم طريقة نادرة في التفسير والتبرير، ونسوا أنه من الممكن أن يكون لدول أخرى الحق أن تهاجمهم مثلما يهاجمون هم طرابلس. فلو أن النعرة الإمبريالية سيطرت على النمسا لكان من الممكن أن تستولي على الأجزاء السفلى من ساحل دالماشيا في منطقة (كاتارو)، وجعل البحر الأدرياتيكي بحيرة نمساوية، وكان بوسعها أن تبرر عملها هذا بحجج عـديدة مـأخوذة من شعر، وكتب، ومقالات القـوميين الأيطاليين، كما أنه ليس من المستبعد أن تعتبر النمسا أن هذا الوقت بالذات هـو أنسب الأوقات للقيـام بهذه الخطة، إذ أن وجود جـزء كبير من الجيش الإيطالي معزولاً في شمال أفريقيا يجعل الظروف أكثر ملاءمة لهذا الهجوم، الذي سيكون بالنسبة لأمبراطورية النمسا والمجر إجراء دفاعياً لحماية نفسها. إن القوميين الإيطاليين الذين دعوا للحملة الصليبية على طرابلس كانوا قد دعوا من قبل ـ وبقوة أكبر ولفترة أطول ـ الى حرب من أجل استعادة إيطاليا، التي لم تسترد Italia Irredenta ففي كتابه الذي ظهر مؤخراً عن القومية قال القس رفيع المقام (سيبيو سيغالي) إن إعـادة الأرض السليبة ليس فقط شعـورا لا يمكن القضاء عليه ولكنه أيضاً ضرورة حتمية، وواجب تمليـه علينا الحقـوق التاريخية، والمصالح الاقتصادية، والاعتبارات الأستراتيجية. لقد رافق جيش

الجنرال كانيفا مراسل صحفي من (تريستا) أخذ يعلن بكل صراحة أن الهجوم على طرابلس.ما هو إلا اختبار للهجوم على تريستا، ورغم ما يبدو من سخف هذا الادعاء في مثل هذه الظروف إلا أنه يعكس ـ بكل تأكيد ـ مشاعر كل القوميين الإيطاليين.

إن حماقة إيطاليا عظيمة في انتهاجها سياسة (العصا الغليظة)؛ لأنها هي نفسها من الأمم المعرضة لأن تعاني من استخدام الدول الأوربية لهذه السياسة إزاءها، فإذا كانت هناك أمة في أوربا يجب أن تتمسك بالتقليد (الغاريبالدي) بالقتال دائماً ضد الطغاة أينما وجدوا، ومساعدة الضعيف دائماً ضد القوي فإن هذه الأمة هي إيطاليا، وحتى من الجانب الأخلاقي والثقافي، فإن إيطاليا ستخسر الكثير إذا فقدت هذا التقليد التليد، وحول هذا الموضوع سأقتبس مرة أخرى قول (كبرياني).

لقد قال ذلك الثوري القديم «أن أكبر عار في تلك الجريمة التي لا تغتفر التي ارتكبتها الملكية بهجومها القرصني على طرابلس يتمثل في أنها رمت إلى الكلاب ومرغت في بحر من الوحل والدماء تقليدنا الإيطالي الجميل، تقليد (غاريبالدي) الذي يدفعنا إلى حمل السلاح والقتال في أي مكان يكون فيه طاغية لنزاله، وحق لأقراره، وقضية للدفاع عنها، حتى خارج حدود بلادنا، التي لا تتسع لتعطشنا للعدالة، لقد كنا من قبل الفرسان الهائمين في سبيل المثل، نمثل البطل (دون كوتشوط) المدافع عن الشعوب، وضالتنا هي العدالة. ففي سهول ريوجراند ومنتفيديو إلى بولندا أو اليونان والفوج وكريت، وكوبا، والبانيا، وفي كل جزء من العالم روت الدماء اللاتينية الطاهرة الثّري بمطر الكرم الخيّر، بتضحية جميلة، ولا تبغي من ذلك جزاء ولا شكورا.

«إن هذه هي القومية الإيطالية الأصلية العظيمة النبيلة، التي يجب أن نظل متعلقين بها. فقبل شهور ستة خلت كان لدينا شعور عظيم بالاعتزاز بأن نقول: «إننا لم نقهر أحدا على الإطلاق بل على العكس إننا أرسلنا زهرة شبابنا لتحطيم أغلال القهر في أقطار أخرى».

«أما الآن فإننا نقتل وننهب ونسفك الدماء كأسواء من فعل ذلك على الأرض، وأخذنا نمجد نصراً للسلب والنهب، وهي خطيئة تستتر وراء اسم البطولة».

ولست في حاجة إلى الحديث عن ادعاء السنيور (جيوليتي) عن «القضاء والقدر التاريخي». فهناك سبب آخر أكثر قوة دعاه لارتكاب هذه المخاطر، رغم أنه لم يذكر إلا نادرا، ألا وهو عدم احترام أهالي شمال أفريقيا للايطاليين، فقد بعث إلى إيطاليا مراسلو الصحف القومية المؤيدة للحرب ـ اللذين زاروا طرابلس قبل الهجوم ـ رسائل عنيفة عن قلة الاحترام وعدم الإكتراث الذي قوبلوا به، فقد شكا أحدهم بأنه في صالة الجمارك بالقلعة وفي كل المكاتب العامة كان الإيطالي آخر من يخدم، بينما الأنجليزي، والألماني، والفرنسي، يخدمون أولاً، بينما وضع أحفاد (سيبيو) مع الإغريق، والأسبان، وبقية شعوب أمريكا الجنوبية، في مجموعة منفردة، إنه من الجائز أن تكون هذه المعاملة أحد جوانب المعاناة التي غلفت بالصمت والتي دفعت (جيوليتي) لأن يعلن الحرب، لكي يجعل المواطن العربي المتغطرس يرتجف عند ذكر اسم روما.

ولكن لماذا أجازت إيطاليا خطة (جوليتي) الخاصة بالحرب؟ وفي هذا الصدد يمكن تقديم العديد من الأسباب. إن كل ما يسمى بالأحزاب التقدمية قد ازدادت ضعفاً، وصارت مصدر تعب للبلاد، ودخلت في مرحلة اضمحلال بطيئة، وقد ساعدت الحرب في هذا الاضمحلال، كما أن المواطنين قد أيدوا لحرب؛ لأنهم رأوا فيها منفذاً للخلاص بعد عشر سنوات من الأنقسامات الطبقية، والاضرابات العامة، والتشريعات التي تزيد الأنقسام، ويجب الاعتراف بأن مثل هذه الظاهرة موجودة لدى معظم الأمم، كما أن هنالك تأرجحاً من السلم إلى الحرب من غلاد ستون إلى جوزيف تشمبرلين، ومن الأخير إلى لويد جورج.

وبالأضافة إلى ذلك فإن الدول الزاخرة بالفنون والآداب، والتي لا ينظر إليها العالم إلا كمصدر لهذه الآداب والفنون فحسب، ومرتع للسياح، تمر بها

لحظات ثورية، إذ تسيطر عليها من حين لآخر رغبة في أن يظهر أبناؤها للعالم أنهم لم يولدوا ليسجلوا في دليل الشركات السياحية فقط، إن ما دفع اليابان إلى الحرب ضد روسيا هو شعور ثوري من هذا النوع، وهو الذي دفع اليونان أيضاً لأعلان الحرب الغربية ضد تركيا (وهذا المثال الأخير مناسب أكثر).

الفصل الثاني

بنك روما

يجب بادىء ذي أن أسجل وجود مصالح كبيرة ومتعددة وراء هذاالنزاع؛ مما ينفي أنه من تدبير مجموعة واحدة من الناس. ربما يكون من عمل مجموعة واحدة انتظمت فيها مجموعات أخرى كثيرة، حتى يمكننا القول بأنها حرب قومية. لقد كان هناك ميل عام بين المدنيين لكي يدفعوا الحكومة لأن تستخدم الأسطول والجيش بطرق ذكية، فإن الثراء العظيم والرخاء المنتشر في شمال إيطاليا منذ عام ١٩٠٠ جعل قطاعاً كبيراً من الشعب يتوقون لأن تثبت الحكومة وجودها، وبذلك يمكن القول بأن إيطاليا كانت مهيأة لمغامرة، كما أن الأحوال في طرابلس كانت تبدو مثالية لمغامرة ناجحة ولكن ليست بالغة الخطورة، ففي طرابلس كانت الحكومة الإيطالية تمتلك تحت تصرفها مؤسسة مالية مماثلة للبنك الصيني ـ الروسي في منشوريا، وبنك باريس والأراضي المنخفضة في المغرب، كما أن المصالح الاقتصادية هنا كما في أي مكان آخر هي مفتاح الأمر، كما أننا هنا أيضاً نجد مطامع أصحاب الامتيازات ورجال الأعمال التي كانت طابعاً مميزاً للحروب في الفترة الأخيرة.

إن المؤسسة التي أشرت إليها هي بنك روما، وهو مؤسسة ذائعة الصيت، ورأسمالها المدفوع يبلغ أربعة ملايين جنية إسترليني، بالاضافة إلى مليونين آخرين سيضافان إليه بعد ضم المصرف الليجوري إليه. لقد قام بنك روما على مدى سنوات عديدة بالتغلغل سلمياً في طربلس، فقام بامتلاك أراض

واسعة، كما قام بإنشاء أو تمويل الغلال وغيرها من المشـروعات الصناعية الأخرى، كما أنه أجرى بحثاً للعثور على الفوسفات والمعادن الأخرى. لقد كان مدير البنك السينور (باتشيللي Pacelli) رجل أعمال قديراً، وكان صديقاً للبارون (سونينو Sonnino) الزعيم المحافظ الذائع الصيت، وصاحب صحيفة متطرفة في كاثوليكيتها، وفي تعصبها، وهي صحيفة (جورنال ديتاليا Giornale d'Ita-lia). كما أن للسنيور (باتشيللي) أصدقاء في كل معسكر، بل له أصدقاء أيضاً في الحكومة، لأن بعض أعضاء الحكومة الحالية من أصحاب المصالح المالية في البنك.

لقد كان الإيطاليون يشكون مرّ الشكوى من المعوقات التي وضعها الأتـراك في طريقهم، غير أنني شخصياً لا أتعاطف مع الإيطاليين في ذلك، طالما أن هدف البنك الرئيسي هو- من غير شـك - تقويض الحكم التـركي في طرابلس والتمهيد لدخول إيطاليا فيها.

لكن «سِسْل رودرس[1]» طرابلس كان تابعاً ومرؤوساً للسنيور (باتشيللي) فهو مصرف يدعى (برشياني Bersciani) تقابلت معه أولاً في مصوع، وبعد أن فشل في تكوين ثروة في المستعمرة الإيطالية الوحيدة عاد إلى روما حيث حصل على توصيات للمسؤولين في بنك روما، باعتباره الشخص المناسب لأنشاء فروع للبنك في تونس وطرابلس، وقد قام السنيـور (برشيـاني) بزيـارة كلا البلدين، وأعد تقريراً لمديري البنك، فما كان منهم إلا أن كلفوه بفتح فرع للبنك في طرابلس، وعاد (برشياني) إلى طرابلس، وبعد أن حصـل على موافقـة الوالي على ذلك، قام بفتح المؤسسة التي كانت - الى حد ما - سبب الحرب الحالية، وعلى الرغم من أن الأتراك لم يستطيعوا منع افتتاح فرع البنك فإنهم

---

(١) سسل رودس Cecil Rhodes رجل أعمال بريطاني كان أداة للاستعمار البريطاني في أفريقيا في القرن التاسع عشر، وسميت مستعمرة روديسيا باسمه. والمؤلف هنا يشبه به الإيطالي (برشياني). (المترجم).

لم يكونوا متحمسين لفكرته، وذلك لأنهم كانوا يعلمون منذ البداية أنه أداة للتغلغل المسلمي، سيتبعها - بمرور الزمن - تدفق السفن الحربية وفرق البرساليري.

لم يقم السنيور (برشياني) بأي عمل ذي شأن، ولكنه على أية حال نجح في أن يتخلص من أعدائه الأتراك والعرب بمنحهم رواتب شهرية، ووعداً بالتوظيف حينما يبدأ البنك أعماله، وقد كان البنك بالنسبة لموظفي السلطان عبد الحميد الفقراء المتوقفة رواتبهم رسالة من السماء بينما كان عبئاً مالياً على إيطاليا.

لم يكن هناك أدنى شك في أن بنك روما في طرابلس كان يلقي العون من الحكومة الإيطالية، فقد نفى السنيور (تيتوني Titoni) مراراً - عندما كان وزيراً للخارجية - أن له مصلحة مع البنك، أو أن لديه نية الاستحواذ على طرابلس، ولكن كلا من التأكيدين كان لا يقل زيفاً عن الآخر إذ أن نائب مدير البنك شقيق (ليتيوني). ولو كان البنك يعتمد على موارده الخاصة لكان قد أفلس منذ وقت طويل، ولكن الحكومة - وبمعنى أدق الشعب الإيطالي التعيس المرهق بالضرائب - كان يقف خلف البنك.

لقد حدثت كثير من الفضائح التي تدل بوضوح على ارتباط البنك بالحكومة، منها منح فرعي البنك في بنغازي طرابلس حق إصدار أوامر دفع منافسة في ذلك مكاتب البريد الإيطالية المحلية، لقد كان بنك روما محظوظاً لدرجة إن الخزانة الإيطالية كانت وراءه، وذلك لأن كل مشاريعه قد باءت بالفشل، وذلك بعد أن خسر العديد من الملايين، بالاضافة إلى أن قيامه بالتدخل الدبلوماسي في طرابلس قد كلفه ملايين أخرى كثيرة. غير إن الحكومة كانت تغطي هذه النفقات الأخيرة، ومع ذلك فإن مصطلح «التدخل الدبلوماسي» عبارة مطاطة وأنا على يقين من أن الكثيرين من الناس، أثروا من ورائها على حساب دافع الضرائب الإيطالي، وفي الوقت نفسه فإن كون البنك نوعا

من المصالح الحكومية وليس مؤسسة تجارية جعل المكان غير صالح للعمل التجاري، ولو دعتك الظروف للذهاب إلى هناك لصرف صك أو تبديل نقود فستجد نفسك لا أمام موظفي بنك عاديين، ولكن أمام ديلوماسيين كبار، يبدو أنهم يرون أنه من الضروري بأن يجعلونك تطيل الانتظار قبل أن يتنازلوا بالانتباه إلى وجودك. ولذلك كان طبيعياً أن يعاني البنك من الناحية التجارية حتى إن محامي البنك اضطر ذات مرة للاعتراف قائلاً: «إن دفاتر البنك ومستنداته في حالة من الفوضى لا مثيل لها، وإنني لأتحدى أحسن المحاسبين في العالم في أن يقوم بترتيبها». وقد خاف بعض المساهمين من أن تعلن المؤسسة إفلاسها مما حدا بهم أن يطلبوا تغيير موظفي الفرع في طرابلس مرة بعد أخرى، ونتيجة لتلك الشكاوى حضر مفتشو البنك العموميون من روما إلى طرابلس في مايو ١٩١١ لتقصي الأمر، ولكن تصادف وصولهم مع قدوم مجموعة من الصحفيين الإيطاليين، المتطرفين، المتعصبين، في زيارة لطرابلس، ليقوموا بالتمهيد للاحتلال، فما كان من مدير البنك في طرابلس إلا أن اعتذر للمفتشين قائلاً إنه سوف يصاحب رجال الصحافة قبلهم، وأعرب المفتشون عن تقديرهم لعدالة عذره وعادوا إلى روما دون أن يراجعوا دفاتر البنك.

أما عن كيف كان بنك روما يوزع الأموال التي انفقها فيما أسموه «التوغل السلمي» لأمر صعب التحقيق، ورغم مصروفات البنك الضخمة فإنه لم يستطع «شراء» كثير من زعماء العرب بل إن الأمير (حسونه القره مانلي) هو الوحيد الذي كسبه البنك بثمن بخس قدره أربعة آلاف ليرة شهرياً. وبطبيعة الحال كان البنك يدعي أنه يعمل بهمة وعناية في الأعمال التجارية المشروعة، فكان يشتري الجلود والريش وبيض النعام، ولكنه كان لا يعرف كثيراً عن مثل هذه الشؤون حتى إنه كثيراً ما كان يبيع هذه السلع بسعر أقل من السعر الذي اشتراها به، فقد حدث مثلاً أن إبتاع خيولاً بمبلغ أربعين ألف ليرة، وقام ببيعها في إيطاليا بمبلغ خمس وعشرين ألف ليرة.

ويمتلك البنك مصنعاً كبيراً لتصنيع حشائش الحلفا يعد أضخم بناء في طرابلس، ويساهم في امتلاكه السنيور (بالداري Baldari) الذي يمتلك مصنعاً للزيوت والصابون، ولو حظي هذا المصنع ببعض النجاح، فإن ذلك يعزي لجهود السنيور (بالداري)، كما أن البنك يمتلك مصنعاً للاسفنج يغرق السوق بالأسفنج، ولكنه يجد منافسة شديدة من مصنع إسفنج انجليزي، وبما أن طرابلس الآن جزء من إيطاليا، فهناك احتمال كبير بأن يجد إسفنج السنيور (برشياني) الحماية وسوف يمنع الأسفنج الإنجليزي عن السوق بفرض تعريفة جمركية عليه.

كما أن البنك يمتلك أيضاً مصنعاً للثلج، وبما أن الاستهلاك المحلي من الثلج قليل، فإن المصنع لم يحرز نجاحاً، كما أنشأ المصنع منشآت للنور الكهربائي، ولكن الأتراك لم يسمحوا له باستيراد المولدات، إذ إنهم يعتقدون أن كلمة (دينامو)، ما هي إلا أختصار لكمة (ديناميت). كما بدأ البنك في تشغيل خط بحري بسفينتين، وقد حصل على دعم حكومي لهذا الغرض مقداره مائة وتسعون ألف ليرة سنوياً، وقد فقد البنك مبالغ طائلة في إنشاء مطحن للغلال بالقرب من بنغازي، بلغت تكاليف إنشائه مليونا وثمانمائة ألف ليرة مع أن أعمال البناء ما كان يجب أن تتجاوز ثلاثمائة ألف ليرة. وبما أن المطحن بدأ العمل بعدد هائل من العمال فقد وجد أنه ليس لديه أكثر من خمس أو ست غرارات من القمح يومياً لطحنها، وعلاوة على ذلك فقد عاد الباب العالي إلى سياسته القديمة بضرب كل دولة بالأخرى، فمنح خبيراً زراعياً ألمانياً شاباً يدعى (الهرفون لوكوف Lochow) قطعة واسعة من الأرض بالقرب من بنغازي، وبشكل آخر فقد ثبت أن هذا الامتياز الجديد مضر للغاية بالمطحن الذي يمتلكه بنك روما.

لذلك لا نعجب إذا وجدنا السنيور (برشياني) متشوقاً للحرب، وقد فعل المستحيل لكي يتعجل نشوبها، لأنه بالنسبة لبنكه إما الحرب وإما الأفلاس. والآن وقد نشبت الحرب. فإن المطحن مشغول للغاية طبعاً إذ أنه يتولى طحن

القمح الذي يستهلكه الجنود، ولكن هذا عمل مؤقت وسيعود بعدها إلى حالته السابقة، حيث لا يجدُ أكثر من خمس أو ست غرارات من القمح يومياً لطحنها، حتى إن النائب البرلماني السنيور (كاتاني Cactani) أعرب في البرلمان عن تخوفه من أن هذه الغرارات الخمس أو الست لن تأتي في المستقبل من طرابلس وفي اعتقاده أنها ستأتي من (أودسا[1])، وإنه كان من الأجدي لو أن هذا المطحن أنشيء في أبوليا أو كالابريا (في إيطاليا) حيث كان على الأقل سيتيح كثيراً من فرص العمل للإيطاليين أنفسهم، لقد كان بنك روما غير راض عن الحكومة العثمانية، لأنها رفضت منحه أية امتيازات احتكارية، وفوق كل ذلك أنها منحت مؤسسة مالية المانية يترأسها (هيرت فيكرت وانكه Herren Weickert & Inke) حق إنشاء مؤسسة مصرفية في طرابلس تفوقت بعملياتها التجارية خلال وقت قصير على بنك روما، مما أوقع السنيور (باتشيللي) في مشاكل عديدة، ورأى أن هذا الوقت بالذات هو أنسب الأوقات للتحرك، كما أنه مناسب في الوقت نفسه للسنيور (جيوليت) لكي يعلن أنه من الواجب مدّ جذور «الحضارة» إلى طرابلس.

أما آخر قشة يمكن أن يحتملها صبر إيطاليا في طرابلس فتتمثل في مشروعات بنك روما العقارية، وذلك بأنه كان دائماً يعتقد أن الاحتلال الإيطالي وشيك الوقوع في أية لحظة، فقام بشراء أراض واسعة في طرابلس وبرقة، وعلى وجه الخصوص في برقة ودفع أثماناً مرتفعة لهذه الأراضي. وفي مطلع عام ١٩١١ وعندما حامت الشكوك حول احتمال الغزو من جانب إيطاليا قام البنك ببيع جزء من الأراضي التي كان قد اشتراها في برقة بواقع عشر ليرات باعها بواقع ليرتين فقط، وكانت خسارته في ذلك كبيرة جداً بطبيعة الحال، ولقد أنقذ الأحتلال البنك من كارثة لم يكن من الممكن تأخيرها بغير ذلك، وبما أن البنك كان يمتلك كل الأراضي الصالحة في طرابلس، فقد كان واضحاً أن أرباحه ستكون ضخمة جداً وأنها ستنقذ الموقف بالنسبة للبنك.

---

(١) ميناء في أوكرانيا بجنوب الاتحاد السوفييتي مشهور بالقمح.

أما قرار (كانيفا Caneva) الذي يبدو وكأن القصد منه حماية الأهالي من جشع المضاربين في الأراضي فقد كان وهماً لا أكثر، فالكل يعرف أن بنك روما في طرابلس قد اشترى قبل عدة سنوات كل الأراضي الصالحة في طرابلس، وبموافقة الحكومة على تمليكه هذه الأراضي فإن قرار (كانيفا) سيجعل البنك في موقف يجبر الحكومة على أن تشتري في المستقبل القريب، وبأي سعر، وتحت أي شروط يفرضها البنك على الأراضي التي سيكون المضاربون من الأفراد يودون التخلص منها لعدم صلاحيتها للزراعة. إن القرار يبدو لأول وهلة قصد به الوقوف في وجه المضاربين من الأفراد، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، وليس بخاف على أي شخص في طرابلس أن يكتشف هدف ومرمى هذا القرار.

لقد ذكرت من قبل كيف أن السنيور (برنشياني) قد نجح في العمل الكبير الذي أسنده إليه البنك، عندما بعثه أساساً ليقوم بتأسيس فرع له في طرابلس، وقد كان هذا العمل يعني إدخال إيطاليا تدريجاً في الولاية حتى يمكنه استغلال اسمها في معاملاته التجارية، وحتى يكون العلم الإيطالي هو مصدر قوته التجارية، حتى إن أي إيطالي يفكر في نقد تصرفات البنك سيعرض نفسه لهجوم سافر ويوصف بأنه غير وطني.

إن (برشياني) هو مثير مشروع «الحملة على طرابلس» وهو الآن سيد الموقف من الناحية العملية، كما أن حفنة من مواطنيه الإيطاليين الذين يساندون ويؤيدون معاملاته التجارية يتمتعون بثقة لدى البنك لا حدود لها، ومن أشهر هؤلاء المحظوظين نجد السيدين (بالداري وبيلي Belli) ولهذا فالقول الشائع في طرابلس أن البلاد تحكمها ثلاث «باءات» (برشياني وبالداري وبيلي)، إن هؤلاء الرجال أو البنك الذي يمثلونه يحتكرون احتكاراً كاملاً كل الأعمال الحكومية منذ بدء الحرب، فقد وفروا الطرق والجسور التي استخدمت في إنزال الجنود، كما قاموا أيضاً بتوفير الحيوانات والأغذية وكل

معدات الحرب، كما قاموا ببناء معسكرات للجيش، ،لذلك فقد منحت لهم وللبنوك عقود كثيرة: عقود لتوفير الأثاث، واللحوم، والدقيق، والقمح، والثلج. وباختصار كل الأشياء التي لا حصر لها، والتي يحتاج إليها جيش ضخم يوجد منه خمسة وأربعون ألف رجل في مدينة طرابلس وحدها، وقد تقدم عدد من رجال الأعمال الإيطاليين المستقلين بطلبات لتقديم هذه الخدمات، ولكن كل طلباتهم ·فضت بحجة أن بنك روما يقوم بتوفير كل متطلبات الجيش، والأسطول، والموظفين المدنيين، وعندما قاموا بتكرار طلبهم مشيرين - في نفس الوقت - إلى أنهم يتعهدون بتقديم الخدمات نفسها بأسعار أقل، فإنهم كانوا يتلقون دائماً نفس الإجابة وهي «لا يهم» إن ذلك لن يكون له تأثير علينا».

الفصل الثالث

موقف إيطاليا والمانيا وانجلترا من تركيا

يبدو الآن واضحاً أن انقضاض إيطاليا على طرابلس كان يرجع جزئياً إلى الخوف من أنه عند إعادة تنظيم المستعمرات الإفريقية نتيجة المفاوضات الفرنسية الألمانية حول المغرب، أن تدعو فرنسا ألمانيا إلى ضم طرابلس تعويضاً لها عن فشلها في الحصول على أغادير التي استولت عليها فرنسا، ورغم أن طرابلس ليست تابعة لفرنسا حتى تمنحها لألمانيا فإن الدول العظمى في الحقيقة كثيراً ما تستخدم هذه الوسيلة المرتجلة والسخية مع بعضها بعضاً عندما تكون ممتلكات الشعوب الأخرى موضع بحث.

وفي الحقيقة يجب الاعتراف بأنه خلال عهد السلطان عبد الحميد كانت الدول الكبرى تعتبر طرابلس غير تابعة لأحد (أي أرضا بلا صاحب)[1] وأنه بوسع أي دولة أن تقوم بضمها، وإن كلاً من هذه الدول كانت تحسُدُ الأخرين عليها. لقد كانت فرنسا متخوفة من أن تقوم إنجلترا بضم طرابلس حتى لحظة إبرام الوفاق البريطاني الفرنسي بينهما، بينما كانت إيطاليا ـ في الوقت نفسه ـ تشك في أن فرنسا تخطط من أجل القيام بهجوم من تونس صوب الشرق.

لقد كانت الكتب والصحف الفرنسية تفيض بتلميحات إلى نوايا بريطانية غير شريفة أو نزيهة فيما يختص بخليج بومبا، وهو ميناء في طرابلس على مسافة رحلة يوم واحد من الحدود المصرية، هيأته الطبيعة لأن يكون محطاً

---

(١) المترجم.

بحرياً كبيراً يعادل بنزرت، ويقع في منتصف المسافة بين مالطة والأسكندرية، وقد أكد الكتاب الفرنسيون المطلعون مراراً أن الأسطول البريطاني قد تعود على استخدام خليج بومبا كمحط مريح لعدة شهور في وقت ما.

إن الوفاق الودي Entente Cordiale وضع حداً لكل شكوك فرنسا في بريطانيا، ولكن بقيت شكوك إيطاليا في فرنسا، وقد كانت إيطاليا متأكدة من أن غزاة تونس يقومون بغزو طرابلس أيضاً، ولهذا فقد بذلت مجهودات مستميتة لابعاد طرابلس عن أية تجارة غير إيطالية، فهي لا تريد أي شعب ـ غير الإيطاليين ـ أن يقوم ببيع أي شيء لأتراك وعرب طرابلس، وقد بلغ بها ذلك حداً كانت معه تعارض دخول أية إرساليات مسيحية غير الإرساليات الإيطالية من أجل تنصير أهالي طرابلس. وبما أن مدارس الإرسالية الكاثولكية الفرنسية كانت تتلقى عوناً من الحكومة الفرنسية فقد أثارت كثيراً من الشكوك القائمة لدى الإيطاليين، حتى إن إيطاليا حاولت طرد إخوان بعثة سان ماري وأخوان سان جوزيف الفرنسيين. ولو كانت للحكومة الإيطالية أية سلطة على الفاتيكان لطلبت من البابا أن ينقل هذه الارساليات إلى جهة أخرى من العالم بعيداً عن طرابلس.

ونظراً لانعدام هذه السلطة لديها فقد قامت بتأسيس مدرسة للصبيان كلفتها مبالغ طائلة، كما أن تكاليف تشغيلها تكلفها ٨٠ ألف فرنك سنويا، وقد أثار مخاوف الإيطاليين الدور الذي تقوم به كنيسة الاتحاد الفرنسي، ومن أجل موازنة نشاطه فقد صار الأساتذة الايطاليون يعلمون تلامذتهم ليس فقط اللغة الإيطالية والتاريخ الروماني، ولكن أيضاً كراهية فرنسا والفرنسيين، وقد وصل الأمر بالأساتذة الإيطاليين في الخمس أن ساروا على قاعدة صب حقدهم وكراهيتهم على أي شيء كتب باللغة الفرنسية. وكان للحملة ضد كل ما هو فرنسي أثرها وفائدتها للإيطاليين، إذ صارت اللغة الأجنبية الوحيدة المفهومة في طرابلس هي اللغة الإيطالية، كما صارت الصحف الإيطالية هي الصحف الوحيدة المقروءة في هذه الولاية العثمانية، وقد تميزت هذه الصحف الإيطالية

وبالأخص صحف (صقلية) بالتعبير عن عدائها الشديد لكل ما يعتبر اعتداء فرنسياً على طرابلس، حتى لقد قام الإيطاليون بمهاجمة علماء الآثار الفرنسيين الذين حصلوا على تصريح بدراسة الآثار الرومانية المتناثرة في أنحاء الولاية، خوفاً من أن يكون هؤلاء الأثريون عملاء عسكريين يمثلون طلائع غزو غالي[1] أي جواسيس، وذلك لعلمهم أن كل البعثات العلمية والأثرية والتجارية الإيطالية مكونه من جواسيس.

ولكن إيطاليا لم تكن متخوفة من فرنسا فحسب، بل كانت أيضاً متخوفة من الإنجليز، وذلك لاعتقادها أننا[2] على وشك الحصول على بعض المصالح التجارية في طرابلس، مما يجعلنا بالطبع أكثر ميلاً لضمها إلينا. ولن يكون هذا وارد إلا لمواجهة أي إخلال بالوضع القائم. وكان لدى بعض الرعايا البريطانيين مؤخراً مشروع لأنشاء مرفأ في طرابلس، وكان الأتراك ـ لأسباب معروفة ـ يؤيدون بشدة هذا المشروع، ولكن الإيطاليين لم يكونوا ميالين للانتظار حتى يكتمل المشروع، فأخذوا يعارضونه منذ البداية، وشنت صحيفة (ماتينو) في نابولي هجوماً عنيفاً على انجلترا في الأسابيع المنصرمة، وزعمت أن انجلترا قد انتقدت سلوك الجيش الأيطالي في طرابلس، لأنها تود الأنقاض على تلك البلاد وضمها إليها.

لكن ـ في الحقيقة ـ كان مصدر الرعب الأكبر لايطاليا هي المانيا، فقد تناقلت الأخبار بشيء من الصدق أن إرسال المانيا المفاجيء للسفينة الحربية (بانثر) فجأة إلى أغادير أدى إلى إنقضاض إيطاليا المفاجيء على طرابلس وقد ذكرت في الفصل الخاص ببنك روما كيف أن الباب العالي أظهر تأييداً خاصاً للمشروعات الألمانية، وكيف منح للهر (فون لوكوف) قطعتين كبيرتين من الأرض أحداهما بالقرب من بنغازي، والثانية بالقرب من طرابلس، وكيف أن

---

(١) نسبة الى بلاد الغال أي فرنسا (المترجم).

(٢) يقصد بريطانيا (المترجم).

أحد هذين الأمتيازين كان مضرا غايةالضرر بالمطحن الإيطالي، وكيف أن مؤسسة مالية ألمانية يرأسها (هيرن ويكرت وانك) قامت بأنشاء بنك في طرابلس فاقت عملياته عمليات بنك روما.

ولن يعرف أحد لسنوات طويلة ولربما إلى الأبد ما إذا كانت إيطاليا كانت خائفة حقاً من حدوث ضربة ألمانية، أو كانت تغذي الهلع الشديد من المانيا الذي كان من السمات الميزة لسياسة السير (ادوار جراي) الخارجية[1].

ولكن حتى صحيفة (افانتي avanti) الاشتراكية اعترفت بأنه «في ذلك الوقت (سبتمبر ١٩١١) كان ثمة من أطلق شائعة تقول باحتمال وقوع هجوم من جانب إحدى الدول الكبرى على مرسي طبرق، ومن المؤكد أن خوف إيطاليا من مثل هذا الهجوم هو الذي عجل بالأحداث وعجّل بنزولنا على الساحل، وقد كانت طلائع القوات المرسلة من جنوة موجهة الى طبرق بالذات».

ومع ذلك فإنني لا أصدق إطلاقاً أنه كانت لألمانية خطط بشأن احتلال طرابلس، أو أي جزء منها، إذ أن احتلالها لميناء هناك بالقرب من تونس، ومصر، سيخلق حالة حرب بينها وبين كل من فرنسا وانجلترا، وإذا كان الألمان قد أظهروا فيما بعد قدراً كبيراً من الكراهية للايطاليين، فلم يكن ذلك بسبب الأطماع الاستعمارية المتعارضة، بل بسبب الموقف الزائف الذي وجدت ألمانية نفسها فيه إزاء الدولة العثمانية التي كانت تحت حمايتها) نتيجة لتسرع إيطاليا، وأيضاً بسبب سخطها الشديد على المذابح التي أنزلها الصقليون بعرب الواحة الأبرياء في أواخر شهر أكتوبر.

وقد بدأ (فون جوتبرج von Gottberg) مراسل صحيفة (لوكال انزيجر Lokal Anzeiger) يكتب بلغة تميل إلى إيطاليا، ولكنه بعد أسابيع قليلة من

---

(١) ادوار جراي كان يشغل منصب وزير الخارجية البريطانية قبيل الغزو الإيطالي لطرابلس ١٩١١ م. (المترجم).

تجربته مع وسائل الإيطاليين الحربية بدأ في انتقادهم حتى وصل به الحال أخيراً الىء تسليم أوراقه.

إنني أشك في أن إيطاليا نفسها كانت جادة في اعتقادها بأن المانيا تحاول الاستيلاء على طبرق، ولكنني لا أستبعد أن إيطاليا قد نجحت في أن تثير هلع السير (ادورا جراي Grey) بهذه اللعبة المخادعة، وضمنت بذلك موافقته على الغارة الإيطالية، فقد أصدرت مجلة (فورت نايتلي رفيو -Fort nightly Review) في عددها الصادر في مارس مقالاً موعزاً به عن «لورد كتشنر في مصر» أوردت فيه كيف أن سير (ادوار جراي) قد خُدِع، فقال كاتب المقال: إنه «عندما بدأت الأحداث في المغرب في الصيف الماضي تشير إلى فشل المانيا في الحصول على أي موطىء قدم لها في تلك البقاع، كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن القيصر سيحول اهتمامه إلى طرابلس، مما جعل الإيطاليين يشعرون بأنهم إذا أرادوا ألا تفلت هذه البلاد من قبضتهم فعليهم أن ينقضّوا عليها دون تأخير.

«واتخذت الاستعدادات للحرب على عجل، وفي أوائل صيف العام الماضي[1] وضعت الخطط. لقد أوضحت أحداث يوليو لساسة إيطاليا أن سياسة انجلترا وفرنسا الصارمة قد تستأثر بانتباه النمسا والمانيا في الشهور القليلة التالية، وبذلك فإن الوقت ملائم الآن للتدخل، فليس من المحتمل أن تكون فرنسا أو المانيا مصدر إزعاج لهم، أما انجلترا فيجب أن يحسب لها حساب، وذلك لأنه رغم أن كل انتباهها كان مركزاً في أوربا، فإنه في مقدورها أن تجعل الهجوم على طرابلس عملاً شاقاً وخطراً، بمجرد السماح للأتراك بالزحف عبر مصر إلى ساحة القتال، ولهذا كان ينبغي على إيطاليا ـ قبل بدء الحملة المزمعة ـ أن تتصل بأنجلترا للتأكد من موقفها، والحصول على وعد منها بأن تبقى مصر على الحياد، لكن هذا الوعد لا يمكن منحه بسهولة؛ لأنه ربما يؤدي إلى تعقيدات خطيرة مع الباب العالي، إذ أن مصر تعتبر لتركيا،

---

(١) صيف ١٩١٠ م المترجم.

ويتحتم عليها إمداد الدولة صاحبة السيادة عليها بأعداد لا حد لها من الجنود، إذا طلبت منها ذلك. ولو لم يكن البريطانيون يحتلون مصر لكان حوض النيل بالتأكيد هو نقطة ارتكاز القوات التركية ولهذا فإن إنجلترا تجب مشاورتها فيما يختص بإقليم طرابلس، والتأكد من أن موقفها من إيطاليا ودي للغاية».

لقد وضع الكاتب ذلك كاستنتاج لما حدث فيما بعد، ولكنه يبدو أنه تسليم بتورط السير (ادوار جراي) في الهجوم على طرابلس. ثم يستطرد نفس الكاتب فيقول إنه: «لم يصدر أي بيان عام حتى الآن يدل على أن الحكومة البريطانية قد أبرمت أي اتفاق مع إيطاليا في الصيف الماضي، ولكن هنالك بعض الشك في أنهما قد توصلا إلى نوع من التفاهم، إذ يبدو محتملاً أن تكون انجلترا قد وافقت على منع أي قوات تركية من دخول طرابلس عن طريق مصر، في محاولة لوضع حد لعمليات إطلاق النار والمشروعات العسكرية الأخرى، كما يبدو وأنها تعهدت بجعل مصر تقف موقف الحياد التام، وعدم حصول الباب العالي على أي عون من مصر التابعة له. إن منح هذه التنازلات من إنجلترا لإيطاليا تدل عليه الأعمال التي نقوم بها حاليا في مصر، والتي سيبدو فيما يلي من حديث أنها مقصودة، فإن تزامن إيفاد لورد (كتنشر Kitchener) إلى القاهرة، ونشوب القتال بمجرد وصوله إلى مقر علمه الجديد، لا يمكن أن يعزي إلى المصادفة المحضة، ومن الواضح أن موقفنا من إيطاليا كان على النحو التالي:

«طالما أنه يبدو من المحتم أن تحتل دولة أوربية طرابلس، فإننا بحكم وجودنا في مصر نفضل أن تكونوا (أي الأيطاليون) جيراننا أكثر من الألمان، ورغم أننا لا نريد إغضاب تركيا بالوقوف إلى جانبكم بطريقة إيجابية، فإننا سوف نظهر صداقتنا بالتمسك بحياد مصر، ولكن لتحقيق ذلك يتطلب الأمر أن نبعث برجل قوي إلى القاهرة، وعليكم أن تعدوا بعدم إعلان الحرب حتى وصوله إلى هنالك، وفي مقابل ذلك العطف فإننا نتوقع منكم أن تقوموا بدور ودي إزاءنا عند اشتعال الموقف في أوربا».

ولذلك فان مهمة لورد (كتشنر) في القاهرة ـ بناء على ذلك ـ معناها عدم السماح بمرور أية قوات تركية إلى طرابلس عبر مصر، وألا يسمح للمسلمين على النيل بتقديم العون لمسلمي طرابلس. ولهذا فإن أول عمل قام به اللورد (كتشنر) هو بناء سلسلة من الحصون على طول خط الصحراء الشرقية لقناة السويس، حتى يمكن صد خطر أي جيش تركي يطلب المرور عبر حصون النيل في طريقه إلى برقة.

إن كاتب المقال لم يستطع الأحجام عن التباهي بذكر الخدع المتواصلة لبطل قصته التي لعبها مستغلاً سذاجة الرأي العام المسلم في مصر، وفي أيّ مكان آخر، فقد أرسل إليهم يتملقهم لقبول فكرة الحياد التي لا يقبلونها بالمرة، وأستناداً إلى ما ذكره الكاتب فإن اللورد كتشنر عند وصوله أظهر أنه ليس صديقاً للاسلام والمسلمين فحسب، ولكنه أيضاً صديق للاتراك، وإنه أبدي تعاطفاً مع خطط معاونتهم بالمال والرجال، ولكنه وجد أن كل محاولة تصادف كثيراً من الصعاب تجعلها أقرب إلى الاستحالة، وعندما لا يجدي التملق والتزلف يصدر تلميحات ذات طبيعة حادة، وقاسية عن الضرورة التي فرضتها عليه حكومته في حالة عدم التزامه بالسياسة البريطانية، بزيادة جيش الاحتلال، أو حتى ضم مصر إلى إنجلترا. وكاجراء أولي فقد كممت الصحافة المستقلة، فمثلاً إن (العلم) صحيفة الحزب الوطني التي استمرت في نشر أخبار الحدود، والتحريض على عدم الالتزام بالحياد، قد أغلقت أبوابها.

حقاً لقد نفى السير إدوار جراي في مجلس العموم أي علم له باعلان الحرب حتى قبل وقوعها مباشرة، ولكنه من المستحيل أنه لم يكن يعلم عن طريق السفير البريطاني في روما شيئاً عن خطط الإيطاليين بالهجوم على هذه الولاية في شمال أفريقيا واحتلالها. وإلى جانب ذلك فإن ميله نحو إيطاليا يثير الكثير من الريب والشكوك، فعندما قام أحد أعضاء الوفاق الثلاثي (أي فرنسا) بضم مقاطعتين من المقاطعات التركية (يقصد الجزائر وتونس) اللتين مرت

على إدارتها لهما سنوات عديدة حتى إنهما صارتا عملياً جزءاً منها، قام السير ادوار جراي بإعلان احتجاج غاضب كاد يشعل الحرب في أوربا نتيجة لذلك، وعندما قام أحد أعضاء الحلف الثلاثي فجأةً باحتلال إحدى الولايات الأفريقية التي ليس له أي ادعاءات فيها فإنّ السير ادوار جراي لا يبدي أي احتجاج.

إن وزارة خارجيتنا كانت في الحقيقة صديقة للإيطاليين، لأنه عندما سئلت وزارة الخارجية في مجلس العموم عن حق الجنرال (كانيفا Caneva) في أن يعامل عرب الواحة كخونة أجابت الوزارة بأن الأعمال الانتقامية تستند إلى أحكام وقواعد الحروب المتحضرة المعترف بها، وهذه العبارة تتناقض كل التناقض مع الحقيقة، كما تتناقض أيضاً (كما قال المستر بنت E. N. Ben-nett في كتابه عن طرابلس) مع ما أعلنه لورد (دربي Derby) في مؤتمر بروكسل سنة ١٨٧٤ عن قواعد الحروب العسكرية.

إن الإيطاليين أنفسهم يعترفون بأن وزارة الخارجية البريطانية كانت متعاطفة معهم طوال الحرب، كما أن أكثر الصحف الإيطالية دراية بالأمور نشرت في أكتوبر الماضي تصريحاً بأن اللورد كتشنر في إحدى رسائله إلى حكومته شجب الموقف الحاد الذي وقفته الصحافة البريطانية من السياسة الإيطالية في طرابلس، وذلك لما لهذا الاتجاه من انعكاس ضار على الرأي العام المصري.

وفي الواقع فإن تعاطف الحكومة البريطانية مع الهجوم على طرابلس، كان له تأثير واضح على قطاعات معينة من الصحافة البريطانية التي ترتبط بوزارة الخارجية البريطانية بدرجات متفاوتة، فلنأخذ مثلا صحيفة (التايمز Times) حينما أشارت إلى الهزيمة الساحقة التي لحقت بالإيطاليين في (بئر طبراس)، ذكرت في معرض وصفها لذلك التراجع الكبير وفشل تقدم قوات الجنرال كانيفا فقال مراسلها:

ولقد رأى العرب كل ما حدث، إذ شاهدوا أن المواقع الإيطالية لم

تتقدم أكثر مما كانت عليه قبل شهر، كما أن القوات الإيطالية قد تراجعت إلى قاعدتها مرتين بعد فشلها في تحقيق تقدم مؤقت. إن العرب لا يعرفون أن الأيطاليين حذرون ومتمهلون طبقاً لخطة موضوعة».

إن هذه العبارة الأخيرة تفضح انحيازاً واضحاً، إذ أن العقيد (فارا Fara) قد ضل طريقه في الصحراء، كما أن تراجعه من بئر طبراس) أفضى إلى نهاية أليمة ، إذ امتلأت الصحراء بأسلحة ومعدات البرساليري الفارين، إن هذا الأنحياز يجعل من الواجب علينا أن نتحدث عن سبب موقف (التايمز) الذي يتسم بالبرود والأعتدال، والتجرد، بشأن مذابح الواحة فيما بين الثالث والعشرين،والسابع والعشرين من أكتوبر[1].

إن الحكومة البريطانية وقطاعا من الصحافة الأنجليزية يبدو وكأنهما قد خيم عليهما الصمت لدرجة الشلل بسبب شبح المخططات الالمانية أما الوطنيون ورجال المال الذين يهتمون بالحرب فقد روعوا من القصة نفسها. وسواء اختلقت حكومة ميكيافيلية هذه القصة، ونشرتها عن قصد بين تلك العناصر، لتهيئة الجو المناسب للحرب، أم أن الوطنيين ورجال المال اختلقوها، ثم صاروا يصدقونها، فإن هذا أمر أتركه للتاريخ، ليكشفه في المستقبل.

وسوف أنتقل الآن للحديث عن موقف تركيا في هذا الموضوع.

ففي عهد السلطان عبد الحميد لم يكن أحد يأبه لذكر تركيا إذا ما تطرق الحديث لطرابلس، إذ أن تركيا حكمت طرابلس لربع قرن فقط، ولم تستطع تنميتها، بل أحكمت عزلتها عن كل المؤثرات الخارجية، ونتيجة لبعدها عن تركيا وانعزالها بين المستعمرات الأوربية، ونتيجة لأن تركيا لا تملك أسطولاً، فإن هذه الولاية الأفريقية الأخيرة بين الولايات العثمانية يبدو أنها ـ لأسباب عملية ـ قد ضاعت من حكومة القسطنطينية.

---

(١) يقصد المؤلف معركة شارع الشط التي حدثت في ٢٣ اكتوبر سنة ١٩١١ م. المترجم.

والسؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن هو: من الذي سوف يحصل عليها؟

إن ثورة تركيا الفتاة في القسطنطينية لم تؤد إلى تحسن الأمور كما كان يود الأتراك، بل إن الأمور سارت من سيء إلى أسواء، وصارت شعوب أوروبا الحرة متعاطفة، أما الحكومات فإنها لم تكن متحمسة، وشعرت الدول الكبرى في أوربا بالسخط على رجل أوربا المريض، مثلما كان الورثة الطامعون يشعرون نحو عمهم الثري بعد أن يكتب وصيته لصالحهم ويقترب من حافة الموت، ثم يسترد صحته وقواه العقلية فجأة».

ولو ظل السلطان عبد الحميد على رأس السلطة العليا فإن تحطيم الأمبراطورية التركية كان مؤكداً، حتى إن ورثتها كان في استطاعتهم الأنتظار بصبر حتى تحل اللحظة السعيدة، ولكن بمجرد أن ظهرت عليها علامات استرداد شبابها وقوتها، وأرادت تنظيم جيشها، وأسطولها، فإن الدول الكبرى شعرت بالأسى، فقامت النمسا بانتزاع إقليمي (البوسنة والهرسك)،كما قامت بلغاريا بالاستيلاء على أحد خطوط سكة الحديد التركية، وأعلنت استقلالها. أما اليونان فقد سعت إلى الأستيلاء على جزيرة كريت، كما صارت إيطاليا أكثر إصراراً على ادعاءاتها في طرابلس.

إن عدم تحرك إيطاليا عندما تحركت النمسا أمر يحتاج لبعض التوضيح، فهل يا ترى حذرها السير ادوار جراي من أن تحركها سيجعله يكف عن مهاجمة البارون (فون اهرنتال)[1]، أم أن حساباتها أخطأت معتقدة أن ثورة اسطمبول ستؤدي الى تفسخ الأمبراطورية العثمانية وانحلالها؟ لو كانت مقتنعة بهذه الفكرة الأخيرة فإنها لم تلبث أن أدركت خطأها بسرعة إذ اتضح أن تركيا في ظل هذا النظام الجديد ستكون أكثر قوة مما كانت، كما أن محمود شوكت باشا ـ وهو رجل مثقف ثقافة عسكرية عالية ـ بدأ في إعادة تنظيم الجيش

---

(١) وزير خارجية النمسا وقتئذ (المترجم).

وإعادة تسليح وتحصين القلاع مبتدئا بالقسطنيطينية، ثم تابع ذلك في ألبانيا والجزيرة العربية، وكان من المحتمل أن يصل إلى طرابلس بعد فترة وجيزة، وبمجرد أن يحشد في تلك الولاية خيرة الجنود، ويتم إعداد بعض الخطط للدفاع عن الموانىء فإن فرص إيطاليا للاستيلاء على طرابلس ستذهب أدراج الرياح إلى الأبد.

لقد تعرض محمود شوكت باشا لموجة حادة من النقد لعدم اتخاذه بعض الأجراءات لحماية طرابلس من الغزو الأيطالي الذي كثر الحديث عنه، ولربما كان من الصعب عليه أن يضع الولاية في موقف دفاعي قوي في الوقت المحدود الذي أتيح له، إذ كان عليه أولا حماية القسطنطينية من أي هجوم من جانب البلغار. لقد كان لديه مال قليل للانفاق منه. وكان هذا المال مطلوباً لاعادة تنظيم جيش السلطان في أوربا وشراء الأسلحة والذخيرة، وشراء مدافع جديدة، والغام لمضيقي الدردنيل والبسفور، كما أن المشاكل في ألبانيا، والجزيرة العربية، والتكاليف والنفقات التي أنفقت على اخمادها أرجأ تنظيم قوات طرابلس، الأمر الذي أصبح من المستحيل إنجازه إذ لم يكن يتوفر لديه الوقت أو المال أو الرجال.

ولكن إذا كان شوكت باشا لم يتمكن من عمل شيء لتقوية طرابلس فقد كان يتعين عليه ألا يضعفها، ولكنه فعل ذلك فعلاً بسحب معظم الحامية التركية من هناك لتعمل في الجزيرة العربية، وقد كان هدفه من سحب قوات طرابلس دون قوات القسطنطينة أو أدرنة، هو أن قوات طرابلس كانت تتكلم العربية، ولذلك فإنها سوف تكون أكثر مقدرة على الاشتراك في حملة الجزيرة العربية، ولم يقف به الأمر عند هذا الحد بل قام بسحب مزيد من المفارز من طرابلس ليسد النقص في صفوف بعض حامياته في أوربا.

لقد قام شوكت باشا قبل أن يتخذ تلك الأجراءات الخطيرة باستشارة رئيس الوزراء حقي بك وسؤاله عما إذا كان يضمن عدم وجود أية مخططات

عدوانية ضد طرابلس من جانب إيطاليا، وبما أن حقي بك رجل رقيق، لطيف، إجتماعي للغاية، يتحدث عدة لغات من بينها الإيطالية والفرنسية والانجليزية بالأضافة إلى أنه كان سفيراً لبلاده في أطاليا، ويكن إعجاباً شديداً للإيطاليين، كما أسرّه السنيور تيتوني، كما أن زوجته من أصل إيطالي، وله عديد من الأصدقاء الشخصيين في إيطاليا بالأضافة إلى أنه حتى سبتمبر الماضي كان قد اقتنع بأن إيطاليا لن تهاجم طرابلس مطلقاً، واعتماداً على كل ذلك قام بمنح وزير حربيته ذلك الضمان القاتل، حيث قام الأخير بسحب تلك القوات، فكانت النتيجة أنه في أكتوبر الماضي وعند وقوع الهجوم الإيطالي، كانت قوة الحامية الطرابلسية أقل بكثير من قوتها في أسوء حالاتها أيام السلطان عبد الحميد، بل إنها كانت أقل مما كانت عليه في أي وقت منذ الاحتلال التركي لهذه الولاية.

لم تقف عملية إضعاف قوات طرابلس عند سحب القوات فقط، بل لقد تم أيضاً استدعاء أحسن قائد عسكري من طرابلس، وهو الوالي إبراهيم باشا الذي كان رجلاً قوياً شجاعاً، وكان بلا شك سيصعب على ايطالية منازلته. فقد كان القنصل الإيطالي السنيور غاللي يحاول بكل الوسائل نقل هذا الجندي العنيد، ولم يجد غاللي صعوبة في إثارة كل القناصل ضده، أولئك الذين كانوا مجموعة من الطائشين المنبوذين أرسلتهم حكوماتهم أساساً لابعاد خطرهم عن هذه الحكومات، كما تآمر غاللي ضد إبراهيم باشا على حدّ سواء في روما أو في القسطنطينية، حتى تم استدعاؤه في النهاية، وحل محله منير باشا، وهو رجل ضعيف متقدم في السن، ليست له أية دراية بالحرب وأسرارها. ولو ظل إبراهيم باشا في مكانه لكان في استطاعته دخول المدينه مرة أخرى في الفترة بين قصفها في الثالث من أكتوبر، وبين وصول الجيش إليها في الحادي عشر من أكتوبر، ولكان بوسعه آنذاك أن يمزق الألف وثمانمائة بحار الذين احتلوا المواقع الأمامية عند حافة الواحة.

وهناك أسباب أخرى حدت بايطاليا لأن تضرب ضربتها عندما أرادات،

ذلك. إن تركيا أبرمت مع انجلترا عقداً لبناء أسطول بحري تركي قوي، كما تعاقدت مع أميرال بريطاني لكي يقوم بتنظيم بحريتها، وهذه أمور بالغة الخطورة في نظر ايطاليا، لأنه حتى باسطول صغير وبعض زوارق الطوربيد، ومئات قليلة من ضباط البحرية المدربين جيداً، تستطيع تركيا ان تلحق أضراراً بالغة بالتجارة الإيطالية في حالة اندلاع الحرب! فإن أعداداً بسيطة من زوارق الطوربيد في (بريفيزا) التي تبعد عن (أبيروس) جنوباً والى مرمى البصر من إيطاليا، تستطيع ان توقف كل سفن التجارة الإيطالية في بحر الأدرياتيك، وفي الوقت نفسه يمكن الأغارة بسهولة على المستعمرة الإيطالية الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر (ارترية) من الجزيرة العربية الواقعة على الساحل الشرقي.

إننا يجب أن نتذكر كيف أن إيطاليا قد استغرقت ثلاثة أسابيع ونصفاً بعد تقديم إنذار الغزو قبل أن تستكمل إنزال جنودها في طرابلس، كما أن علينا أن نتذكر كيف أن أسطولها من الناقلات كان يتقدم إلى الجنوب في خوف وتوجس تحت جنح الظلام، وفي حالة عصبية سيئة أدت إلى كثير من الذعر والهلع وسط الجنود، إننا عندما نتذكر كل هذه الأحداث يمكننا أن نفهم كيف أن الإيطاليين قد سيطر عليهم الرعب من زيادة الأسطول العثماني ولو بقطعة بحرية واحدة.

كان هذه الأمور إذا أخذناها في الاعتبار مع المفاوضات حول المغرب، والتي كان من الممكن بسهولة أن تنتهي بوضع الألمان أقدامهم في طرابلس تعويضاً لهم عن الخسائر التي صورها لهم خيالهم في المناطق الأخرى، فإن كل هذه الأحداث مجتمعة حتّمت على إيطاليا أن تسير في هذا الطريق الوعر الذي اختارته، ومما يدل على أنها لم تتسرع من وجهة نظرها هي، أنه في نفس يوم نشوب القتال كانت أحواض السفن البريطانية قد أكملت بناء العديد من قوارب الطوربيد، ولو أرجئت الحرب لكانت تلك الزوارق تحت أيدي الأتراك، والذي حدث هو أن السلطات البريطانية استولت عليها مؤقتاً.

وثمة أمر آخر أزعج ايطاليا، ألا وهو اقتراح تركيا بإنشاء جيش إقليمي كبير من رجال القبائل في طرابلس، وكان على إيطاليا أن تبادر بالهجوم قبل تنفيذ هذا الأجراء، وكان هذا يتعارض مع قولها فيما بعد إنها جاءت لتخليص العرب من نير الاستعمار التركي.

أما لماذا تعلقت إيطاليا بضم طرابلس فهذا أمر لا يصعب شرحه، لأن ادعاءاتها تستند إلى قرب الولاية العثمانية من سواحلها الجنوبية، وأنه اذا حدث واستولت عليها أية دولة أخرى فباستطاعة تلك الدولة إضعاف إيطاليا وتهديد أمنها البحري.

أما دعواها العاطفية بأن الولاية تمتلىء ببقايا الأثار الرومانية، وأن إيطاليا هي الوريثة الشرعية للرومان، فهي حجة واهية لا يسندها حق، لأنه توجد أثار رومانية في كثير من أنحاء أوربا، ويجب أن نعترف بأن إيطاليا تسيطر على كل التجارة الخارجية لطرابلس، وإن معظم الأجانب هناك من الإيطاليين، كما أن اللغة الإيطالية هي أكثر اللغات استعمالاً بعد العربية، بل إنها اللغة الأوربية الوحيدة هناك.

وهناك أسباب أخرى منها أن قادة الجيش يودون بهذا الغزو أن يمسحوا العار الذي لحق بهم في عدوة[1]، ومنها رغبة الملكيين في رفع هيبة العائلة المالكة ببعض الغزوات الكبرى، ومنها أيضاً رغبة الحكومة في تحويل أنظار المواطنين بعيداً عن مشكلات السياسة الداخلية المضطربة.

---

(١) موقعة عدوه بالحبشة التي هزمت فيها الجيوش الايطالية سنة ١٨٩٧ م هزيمة نكراء لا يضاهيها سوى هزيمتهم في موقعة القرضابية ١٩١٥ م. المترجم.

الفصل الرابع

هل تستحق طرابلس كل هذا العناء

لقد تناولت فيما سبق المهارة التي حقق بها الإيطاليون هدفهم، فقد تمكنوا من تحقيق هدفهم السريع (وهو احتلال مدينة طرابلس) باتباع سلسلة من المكائد والحسابات، إذ تخيروا الوقت الذي كانت فيه الحاميات التركية هناك في أضعف حالاتها، كما نجحوا في خديعة كل الدول الكبرى وبخاصة إنجلترا، وجعلوها تلتزم جانب الصمت، كما تمكنوا أيضاً من كسب عطف وتأييد كل القوى في إيطاليا فضمنوا تأييد الكتاب والصحفيين ورجال الجيش والأعمال، والمحافظين، بل إنهم كسبوا تأييد كثير من الاشتراكيين، وذلك بتقرير حق الاقتراع لجميع المواطنين. لقد كان الاشتراكيون لا يودون إحراج الحكومة والضغط عليها، اعتقاداً منهم بأنه إذا سقطت هذه الحكومة فسوف تخلفها حكومة محافظة لن يري هذا القانون النور في ظل حكمها. إن المحافظين الإيطاليين كانوا إلى حد ما يؤيدون موقف اللبراليين البريطانيين، والوطنيين الإيرلنديين في البرلمان البريطاني في أكتوبر الماضي. لقد كانوا شديدي الحرص على عدم إحراج الحكومة.

أما من وجهة النظر الأخلاقية العالمية فإننا لسنا بحاجة للتحدث عن هذه الغارة؛ لأن المستوى الخلقي العالمي كان هابطاً جداً قبل ذلك، ولكن زاده الهجوم الإيطالي سوءاً على سوئه، ومع ذلك فقد كان لأروبا الحق في التباكي على خرق الاتفاقيات الدبلوماسية ونقضها.

ولكن فإنه حتى من وجهة النظر المادية الصرفة يمكننا القول بأن هذا الهجوم كان خطأ كبيراً، وذلك لأن كل السلطات المحايدة التي درست الأحوال في طرابلس أجمعت على أنها لا تستحق قيمة طلق ناري صغير، وأننا إذا كنا سنقص كل ما قيل عن هذا الموضوع فإن الفصل لن ينتهي، ولكن يمكن القول باختصار أنه لو كانت هناك أية فائدة ترجى من طرابلس لكان الفرنسيون ـ الذين درسوها جيدا من قبل ـ أول من قام باحتلالها، ويعتقد (م. دي ماثيوزلكس Mathu leulx) المكتشف الفرنسي أن طرابلس على عهد الرومان لم تكن أفضل كثيراً مما هي عليه الآن. مساحة شاسعة من الرمال والصخور، لا جدوى من ورائها ، كما قال الكولونيل (مونتي)Monteil ـ وهو مكتشف فرنسي آخر في سنة ١٨٩٣ ـ أن طرابلس قليلة الفائدة للايطاليين وأنهم اذا قاموا باحتلالها سيكتشفون الوهم الذي كانوا غارقين فيه.

أما البروفيسور (م. جروسي)Grossi ـ وهو استاذ بالمعهد الدبلوماسي الملحق بجامعة روما ـ فقد نشر في سنة ١٩٠٥ كتيباً بعنوان «طرابلس وإيطاليا»، قال فيه إن طرابلس لا جدوى منها مطلقاً من الناحية الزراعية، أما من الناحية التجارية فإنها أيضاً تبدو غير ذات فائدة وذلك لأن القوافل التي كانت تأتيها من بحيرة تشاد قد حولت الآن طريقها إلى مصر وتونس.

على أن خير برهان يمكنني أن أورده للتدليل على عدم جدوى طرابلس من الناحية الأقتصادية، هو أن منظمة الأستيطان اليهودية عندما أعطيت الإذن باستيطان اليهود في طرابلس، رفضت هذا العرض شاكرة بعد أن قامت بدراسة الولاية كلها دراسة وافية. وكان الدكتور (جريجوري) من بين الخمسة الذين قاموا بهذه الدراسة، كما كان من بينهم مستر (م. ب د ف)Duff، وهو مهندس له خبرة وعلم بمصادر المياه. ومن بينهم أيضاً الدكتور (تروتر)Trotter، الحاصل على درجة جامعية في الزراعة من أدنبره، واشتغل بالزراعة في السودان.

لقد كانت نتائج الدراسة مخيبة للآمال بشكل بعيد، فقد ذكر الدكتور (جريجوري) أنه «رغم أن برقة ـ دون شك ـ تعتبر أخصب منطقة في طرابلس فإننا عليَّ مضض أوردنا في تقريرنا أن البلاد بأراضيها الشاسعة القاحلة بالإضافة إلى أن مصادر المياه فيها غير كافية وغير مضمونه، فهي بذلك غير صالحة إطلاقاً لإنشاء مستعمرات واسعة زراعية واسعة».

كما أن الدكتور (ادولف فشر Vicher) كان يبدو متشائماً بنفس القدر فقد ذكر أن الحسابات القائمة عن الثروة المعدنية في باطن الأرض لا تستند إلى أساس متين، وقد استدل على ذلك بقول البرفسور (جريجوري) والمستر (برفنكيير Pervinquiere) اللذين كانا لا يصدقان وجود معادن لا في طرابلس ولا في برقة، كما أنه كان لا يعتقد أن الآبار الأرتوازية ستكون ذات فائدة هي الأخرى، لأنه عندما كان في طرابلس في العام الماضي التقى برجل فرنسي كان قد منح امتيازاً بحفر بئر ارتوازية فيما وراء صحراء المنشية ولكنه ترك العمل فيها بعد أن وصل في الحفر إلى عمق ٢٤٠ قدما ولم يعثر على أثر لوجوده الماء.

ولكن من الطبيعي والايطاليون أكثر تفاؤلاً حول مستقبل طرابلس، فهم يؤكدون أنها كانت شديدة الخصب في عهد الرومان وهم يعتقدون الآن أنهم عن طريق نظام بارع للمنشآت العامة والاستيطان فإنه بوسعهم استعادة خصوبة الأرض مرة ثانية. ولكن لا توجد في طرابلس كلها إلا ثلاثة مناطق زراعتها أولها شريط الواحات الساحلية الذي يمتد مائة ميل تقريباً موازياً للساحل، والثانية مزارع الزيتون المبعثرة والتي توجد في الوديان الواقعة على السفوح الشمالية للجبال والهضاب العالية، وأخيراً توجد في الداخل بعض الأراضي الصخرية في وديان (سوف الجين وجرزه ومردوم ونقوسة)، تفصلها عن الساحل قفاز صخرية واسعة.

لقد زرع الرومان بالفعل تلك المناطق الثلاث ولكننا لا نجد وراء هذه

المناطق أية آثار رومانية، بل إن فحص الخرائب الرومانية يدل على أن مستوى الأرض الآن ظل كما كان من قبل، وفي هذا المجال فإن شهادة (م. دي ماثيو لكس) قد لا تعطي أي مجال للشك، كما أنها تقضي على أية نظرية تقول بأن الأرض الخصبة تغطيها طبقة من الرمال، وما علينا إلا إزالتها لإعادة الأرض إلى خصوبتها السابقة.

وحتى لو كان في مقدور إيطاليا وبتكاليف باهظة استصلاح بعض أجزاء من الصحراء، أليس من الأفضل لها لو صرفت هذه الأموال داخل إيطاليا؟ إن مقدمة قانون ضم طرابلس أعلنت أن موانئاً، ومدارس، ومستشفيات، وطرقاً، وسككا حديدية، قد بدأ تنفيذها منذ فترة في طرابلس، ألم يكن من الأفضل لإيطاليا لو أنها أنشأت مثل هذه الخدمات أولاً لمواطني صقلية وباسليكانا وسردينيا؟

إن الاشتراكيين في إيطاليا كانوا قد لفتوا النظر لهذا الأمر من وقت طويل عندما تساءلت صحيفة (أفانتي) الاشتراكية: لماذا تحظى طرابلس بخطوط السكك الحديدية قبل مناطق كثيرة في إيطاليا ذاتها ظلت تنتظرها بفارغ الصبر منذ خمسين عاماً؟ وعندما تنتهي هذه الحمى الاستعمارية فإن نواب تلك المناطق سيجابهون مشاكل كثيرة بخصوص إعادة انتخابهم وذلك بعد كل الوعود التي بذلوها لناخبيهم حول تسهيلات في السكك الحديدة.

إن المزارعين في إقليم (أبوليا Apulia) الإيطالي فقراء لدرجة أنهم لا يستطيعون شراء براميل لحفظ إنتاجهم من النبيذ، ولهذا فهم مضطرون لحفظه في حفر في الأرض الحجرية، وذلك بعد معالجة هذه الأحجار من الداخل بمواد تجعلها لا تتأثر بالماء. إن إيطاليا ليست لها ثروة كبيرة تعتمد عليها، كما أن سكانها يئنون تحت عبء الضرائب الباهظة، منذ زمن، كما أن الملايين من سكانها في الجنوب يعانون من سوء التغذية والجهل، مثلهم في ذلك مثل بدو طرابلس، إن في إيطاليا حشداً كبيراً من السكان ممن يعتبرون الرغيف

والملح من رفاهيات الحياة. إن لديها أقاليم بأكملها تبلغ فيها نسبة الأمية ٧٠٪ من السكان. وفي القرى الواقعة في جنوب مدينة البندقية يجلب السكان مياه الشرب بالزوارق وذلك لإهمال السلطات في إمدادهم بمنشآت المياه، مع أن أي نظام للري في هذه البلاد سيكون قليل التكاليف وسيأتي بنتائج طيبة، بينما مثل هذا النظام في طرابلس سيكلف كثيراً، ويحتمل ألاّ يصادف أي نجاح.

ويظن الإيطاليون أن طرابلس ستكون منفذاً لمهاجريهم ولكن لن يذهب أي مهاجر إيطالي إلى طرابلس ما دامت أبواب نيويورك وسان فرنسسكو والأرجنتين، مفتوحة أمامه، ويقول المتطرفون إن بوسعهم أن يجعلوا طرابلس في مثل ثراء تونس، ولكنهم نسوا أن البلدين رغم تجاورهما فإنهما يختلفان مثلما يختلف الطباشير عن الجبن، إذ أن تونس، والجزائر، والمغرب قد اعتبرها علماء الجغرافيا الحيوانية في نفس نطاق أوربا، بينما اعتبرت طرابلس تابعة لاقليم الصحراء الكبرى. لقد سمعنا نفس التنبؤات عندما احتلت إيطاليا ارترية، وبنادر، اللتين قيل عنهما إنهما سيجذبان المهاجرين للاستطيان فيهما، سمعنا أن إيطاليا ستصب في هذه الأماكن الفائض من سكانها لقد كان مفروضاً أن نرى أعظم ظاهرة في إيطاليا الحديثة تخرج تدريجياً من تحت جناحي الأم العظمى. ومع ذلك يعترف النائب البرلماني (لويجي لتزاني L— Luzzatti) الآن بأن ارترية وبنادر لن تستطيعا جذب المهاجرين الايطاليين وهو الشيء الذي تخيله أقدر الرجال في الساعات الأولى من الحماس والوهم.

إن نفس الشيء سيحدث بالنسبة لطرابلس إذ لا يوجد مهاجر إيطالي يود الذهاب إلى هناك، ما دام يوجد أمامه مكان مثل شيكاغو. ثم لماذا تشعر تركيا بأنها قد تمزقت بفقدها طرابلس؟ إن ذلك لا يبدو واضحاً من أول نظرة، وذلك لأن الولاية كانت عبئاً على موارد تركيا القليلة، لقد قام بعض الحكام الأتراك في طرابلس بغرس أشجار الزيتون في الأماكن الصالحة لذلك، ولكن بالرغم من ذلك فإن الباب العالي يعلم تماماً أنه لا مستقبل لهذه البلاد، حيث إن تدمير العرب وتخريبهم لها، بالإضافة إلى رياح الصحراء العنيفة، قد جعلتها غير

صالحة من وجهة النظر الزراعية والتجارية. ومع ذلك فإن الأتراك يظهرون حساسية شديدة بشأن طرابلس فهي مستعمرتهم الأفريقية الأخيرة التي يمكنهم استخدامها كنقطة ارتكاز لتحريك الشعور الديني لدى سكان شمال ووسط أفريقية. لقد كان علم الاسلام يرفرف على شواطىء البحرين المتوسط والأحمر، ثم صارت الجزائر وتونس فرنسيتين، والمغرب في طريقه لأن يكون فرنسياً، وقد صارت مصر انجليزية فلم يبق للباب العالي - إذا أراد أن يفرض نفوذه على القبائل الإسلامية الكثيرة عن القارة السوداء - سوى منفذ وحيد هو طرابلس.

ومهما اعتقد سكان أوربا فإن معظم وزراء الخارجية مسرورون لأن تركيا قد فقدت ساحل طرابلس، ومن المحتمل أن يكون سير (ادوار جراي) مسروراً سرور السنيور (جيوليتي) وذلك لأن موظفيه الدائمين أخبروه عن بعض الحيل التي لعبها السلطان عبد الحميد في مصر على عهد عرابي باشا، وعن الطريقة التي استطاع بها المهدي أيام حروب السودان أن يحشر ملايين المتعصبين. لقد سرى الإسلام في إفريقيا الوسطى في العقود الأخيرة كما تسري النار في الهشيم، وقد تمكن فرض نفسه بقوة في أفريقيا الوسطى من نهر النيل إلى نهر النيجر، ومن جبال أطلس في الشمال حتى نهر الكونغو في الجنوب، وقد تمكن سلطان اسطمبول من أن يفرض نفسه على هؤلاء المسلمين الجدد باعتباره خليفة رسول الله والزعيم الديني للاسلام. وهكذا كان وزراء الخارجية في أكثر من دولة كبرى يعتقدون أنه هنا يكمن الخطر على فرنسا،وانجلترا وكل الدول الأخرى التي تمتلك مستعمرات في افريقيا، ولذلك فهم يعتقدون أن فقد الأتراك لطرابلس سيقلل من هذا الخطر.

ولكن كما أشار المشير (فون دير جولتز باشا Goltz) في صحيفة (نيو فراي برس) الصادرة في العاشر من مارس، فإن السلطان لا يستطيع التخلي عن طرابلس، ولو فعل فسوف يعتبره جميع العرب خائناً للاسلام، إن

الدبلوماسيين الفرنسيين والانجليز لم يضعوا في اعتبارهم الأثر الذي ستحدثه هزيمة إيطاليا في طرابلس، على رعاياها المسلمين، ليس فقط في الأقطار المجاورة بل وفي العالم كله.

الباب الثاني

القصف والاحتلال



الفصل الأول

القصف

في الثالث من أكتوبر، وبالتحديد في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين مساء بدأ الأسطول الإيطالي بقيادة الأدميرال (فارافيللي Faravelli) قصف طرابلس، واستمر القصف طوال اليوم الرابع من أكتوبر حيث تم تحطيم بطاريتي المدفعية في : السلطانية والحميدية. وفي منتصف نهار الخامس من أكتوبر رفرف العلم الإيطالي على قلعة السلطانية، بينما تراجعت القوات التركية إلى الداخل.

لقد كانت السفن الأساسية التي اشتركت في القصف هي (ري امبرتو Re Umberto) أي الملك امبرتو و (سيسيليا) أي صقلية Sicilia وسردينيا وبرن Birn و (عمانويل فيليبرتو Emanuele Filiberto) و (كارلو البرتو Carlo Alberto) وكانت هذه السفن مقسمة إلى مجموعتين تتكون كل مجموعة من ثلاث سفن، فكانت المجموعة الأولى وهي أقواهما، تتكون من (ري امبرتو) و(سردينيا) و(صقلية)، وقد رفرف على سارية السفينة الأولى (ري امبرتو) علم الأميرال (بوريا ريتشي Borea - Ricci) و (عمانويل فيليبرتو)، و (كارلو البرتو) وكان على السفينة الأولى (برن) الأميرال (فارافيللي) القائد العام للأسطول الذي تجمع قبالة طرابلس.

إن القلاع التي كان من المفروض أن تقصفها هذه السفن يمكن تحديدها من أول نظرة على الخريطة، فإلى الشرق من الواحة توجد قلعة الحميدية، وإلى الغرب في الصحراء توجد القلعة السلطانية، وفي المنتصف

أي داخل مدينة طرابلس ذاتها توجد بطارية مدفعية بجوار الفنار، كما توجد أخرى على حاجز الأمواج وثالثة في الطرف الشمال الغربي من القلعة، وكانت مهمة المجموعة التي تقودها السفينة (برن) تدمير التحصينات الموجودة في المنطقة الوسطى، كما كان على مجموعة (ري امبرتو) إسكات مدفعية السلطانية، على أن يقوم جنود غاريبالدي والفيروشيو Ferruccio بتدمير تحصينات بطارية الحميدية.

وفيما يختص بقوة القلاع المختلفة فإن بطارية الجسر كان لديها مدفعان (كروب Krupp) عيار ٢٤٠ ملليمتر، وخمسة مدافع عيار ٣٢٠ ـ ٤٠٠ ملليمتر بالإضافة إلى ثلاثة عشر مدفعاً صغيراً، وخمسة مدافع هاوتزر. أما البطارية في شمال غربي القلعة فلديها كروب عيار ١٥٠ ـ ١٧٠ملليمتر، وآخر عيار ١٩٠ ـ ٢١٠ ملليمتر، أمّا قلعة الفنار فلديها مدفع واحد كروب عيار ٢١٠ ملليمتر، وآخران من عيار ١٧٠ ملليمتر. بينما مدفعية السلطانية لديها خمسة مدافع كروب يتفاوت عيارها بين ١٥٠ و ٢٥٠ ملليمتر.

لقد تم قصف القلاع الوسطي أولاً، وسقطت أول قذيفة على القلعة الحمراء فوق حاجز الأمواج (الجسر)، في تمام الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين مساء، وقد أطلقتها السفينة (برن)، فضربت السطح الخارجي للقلعة ولكنها لم تصب أحداً بأذى، وكانت القذيفة الثانية أيضاً من نصيب (برن) وعندما أطلقت القذيفة الثالثة بدأت قلعة الفنار في الرد لأول مرة ولكن القذيفة التي أطلقت منه لم تتجاوز نصف المسافة بينهاوبين السفينة التي كانت القذيفة موجهة إليها.

إن هذا القصف الذي لا يمكن اعتباره نزالا تم تنفيذه من مسافة قريبة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أميال، وقد كان خفيفاً بدرجة لا يمكن تخيلها، لقد كان الإيطاليون قريبين جداً من الأهداف بدرجة تجعل من المؤكد عدم إخطائها لو حاولو قذفها، ولذلك فقد أحدثوا دماراً فظيعاً فدمروا الفنار، وقلبوا

المدافع رأساً على عقب، ثم أحالوا القلعة إلى كومة من الأنقاض. أما قلعة الحصن الوسطى فقد تم تخريبها وتحويلها إلى بقايا متناثرة هنا وهناك، واختفت إلى الأبد التبّة التي كانت تحمي المدافع عيار ٢٤٠ ملليمتر. أما الجزء الأسفل من مبنى القلعة فقد كان مطلياً باللون الأحمر، وعلى هذا السطح الأحمر توجد حوالي ست علامات بيضاء، خلفتها القذائف التي سقطت في هذا المكان. لقد أغرق الترك ناقلتهم (درنة) بفتح صمام كنجستون كما قاموا باغراق سفينة صغيرة بائسة تمسى صائد البحر، بعد أن قام بحارتها بفك المدفع الصغير العتيق الذي كانت تحمله.

وقام الإيطاليون من ناحيتهم بتدمير مجموعة أخرى من السفن الصغيرة التي كانت رابضة في المرفأ، بعد أن أحالوها إلى أعواد ثقاب محروقة بوابل من القذائف التي كان يمكن توفيرها ليوم مطير.

لم تطلق السفينتان (كارلو ألبرتو) و (عمانويل فيليبرتو) أي نيران حتى تم اسكات قلعة الجسر، وذلك لأنهما أمرتا بأن تكونا خارج نطاق مرمى المدافع الكبيرة الموجودة داخل قلعة الجسر، والتي كان من المتوقع أن تستطيع الوصول إليها في الظروف الملائمة. ولما أسكتت مدفعية الجسر بدأت هاتان السفينتان في إطلاق النيران، فأمطرت قلعة الحصن وبطارية الفنار بوابل من القذائف دون أن تجدا أية رد.

وبعد ذلك تقدمت المجموعة التي تقودها (ري امبرتو) لقصف قلعة السلطانية فقامت (ري امبرتو) حاملة العلم بإطلاق النار من على بعد أربعة أميال بقذائف زنة ٥٢٢ كيلوجراماً، ثم تلتها (سردينية)، ثم (صقلية)، وعلى مدار ربع ساعة لم ترد القلعة مطلقاً، وعندما أخذت في الرد لم تتجاوز القذيفة التي أطلقتها في اتجاه الايطاليين أكثر من نصف المسافة، فاستمرت السفن في القصف بمعدل كل دقيقة، فأمطرت القلاع بالقذائف، بينما كانت تتحرك بسرعة ثلاثة أميال في الساعة حتى لا تسنح أية فرصة لإصابتها، ولكن هذا الحذر لم

يكن ضرورياً، إذ أن القذائف الصادرة من القلعة لا يمكن أن تصلها، رغم أنها كانت ترد على القصف الايطالي بشجاعة، في كلّ عشر دقائق تقريباً، حتى تم تحطيمها نهائياً في حوالي نصف ساعة، فسكتت عن الرد، وعلى مدى نصف ساعة أخرى كانت مجموعة السفن تمخر ببطء أمام القلعة المدمّرة مستمرة في إمطارها بوابل من القذائف، محاولة أن تتلقى أي نوع من الرد، ثم اقتربت السفن إلى مسافة تبلغ نحو ثلاثة آلاف ياردة من القلعة دون أن تقابل بأي رد، ورغم ذلك فإن السفينة (دي امبرتو) لم تتوقف عن القصف حتى الساعة السادسة مساء، وقد استمرت النيران مشتعلة في أنقاض القلعة حتى صبيحة اليوم التالي، وهكذا انتهى اليوم الأول من أيام النشاط. الذي لم تصل خلاله أية قذيفة تركية إلى هدفها، لقد كانت قذائف الترك قليلة وكلها عجزت عن إصابة الهدف.

وفي صبيحة اليوم التالي قامت السفن (غاريبالدي) و (فارسي Varese) ، و (فروشيو) بمواصلة قصف قلعة الحميدية، وكانت بدأت قصفها بالأمس ولم تكمله. لقد أهدرت هذه السفن كمية كبيرة من القذائف باهظة الثمن دون جدوى، فقد تحول المبنى إلى خراب وسكتت المدفعية بعد أول نصف ساعة من القصف، وبعد هذا القصف فقدت القلعة كل شكل يربطها بالعمران، وتحولت إلى أكوام متناثرة من الرمال، بينما تبرز من تحت الرمال فوهة مدفع هنا، وأخرى هناك، كما لو كان مصوباً نحو إحدى الطائرات.

ثم أرسلت السفينة غاريبالدي إلى البر ضابطين يرافقهما جنديان لكي يدمروا محطة زوارق الطوربيد وأية مدافع باقية في القلعة دون تدمير.

وفي هذه الأثناء لم يكن هناك أي تركي في منطقة بطاريات المدفعية، كما لم يكن يوجد عشرة أتراك على مسافة ميل منها تقريباً، وبالرغم من هذا فإن إرسال بعض الجنود إلى الساحل اعتبره الإيطاليون من أعظم الأعمال التي لم يحدث مثلها من قبل، وأنّه يتساوى مع محاولة (هبسون Hobson) محاصرة

عمارة الاميرال (سيرفيرا Cervera)، أو محاولة اليابانيين محاصرة السفن الروسية في بورت أرثر Port Arthur)، وقد وصف أحد الكتاب هذه العملية بأنها «ضربة جريئة» وأنها «عمل ساخن» و «عملية محفوفة بالمخاطر»، ثم يستطرد الكاتب مؤكداً أنها تمت «بثبات وشجاعة غير معقولة».

كان أحد الضابطين اللذين كلفا بهذا العمل هو الكابتن (فيري Verri)، الذي كان يعيش في طرابلس قبل القصف باسم مستعار متظاهراً بأنه مفتش بريد إيطالي، وبما أنه ضابط مدفعية متخصص فقد تمكن في وقت وجيز من تعطيل كافة المدافع والعودة بأمان إلى السفينة (غاريبالدي) التي كانت ومعها قارب الطوربيد (الباتروس Albatross) ترسلان طوال الوقت القذائف فوق رأسه لحمايته من أي هجوم قد يقع عليه من جانب الأتراك، وتصادف أن هشمت إحدى هذه القذائف ضريح آل القره مانلي المجاور للموقع، وكشفت الرفات الموجود بداخله، كما حطمت قذيفة أخرى منزلاً صغيراً أبيض وسط أشجار النخيل. لقد ألفى الكابتن (فيري) القلعة مدمرة تماماً، وفي وسط الحطام كانت ترقد جثث ثلاثة من الجنود الأتراك، وكما سنعرف فيما بعد كان هناك أربعة جنود داخل القلعة عند قصفها بعث بهم (نشأت بك) ليلقوا حتفهم هناك فمات منهم ثلاثة.

أبحرت السفينة (ري ابرتو) والمجموعة التي تقودها في اتجاه قلعة السلطانية، في محاولة لاكتشاف ما إذا كان بذلك الموقع آثار حياة، ومن المؤكد أنها لم تكن موجودة إطلاقاً، ورغم ذلك تقدمت سفينة القيادة إلى أقرب مسافة سمح بها عمق الماء، أي حوالي ألف ياردة، وهي مستمرة في إطلاق النار، وأخيراً عندما وصل اللهب إلى مخزن البارود أحدث انفجاراً هائلاً.

وفي الخامس من أكتوبر بدأ إنزال قوات البحرية بانزال «تجريدتين» ـ كما سماهما الايطاليون ـ إحداهما إلى موقع السفينة الغارقة (درنة)، والثانية

إلى قلعة الحميدية بهدف نسفها. لقد كانت التجريدة الأولى قوية، ولم تتعرض لأية مخاطر نظراً لأن الأتراك ـ في ذلك الوقت ـ يبعدون عن الموقع بنحو عشرة أميال، ورغم ذلك فإن الإيطاليين أظهروا كعادتهم نوبة من البطولة الهستيرية، لقد أخبرنا أحد الكتاب وكان على ظهر السفينة (فيرسي) بأنه ورفاقه لم يحولوا أنظارهم عن القلعة، «ولقد كانت قلوبنا مع إخواننا البواسل». وقد تم نسف القلعة بالطريقة المعتادة، أي بواسطة سلك كهربي مما جعل أفراد التجريدة يضلون الطريق تحت سحب الدخان الناتجة من الانفجار، فثارت في الأسطول كله موجة من القلق على مصيرهم، وقال أحد الكتاب ممن كانوا على ظهر السفينة وقتئذ «إن ذلك الدخان الكثيف كان يبدو لنا ـ رغم أننا ما كنا نود ذكر ذلك ـ وكأنه كفن أبطالنا» ولكن ـ لحسن الحظ ـ حملت الرياح الدخان بعيداً، وعندئذ ترددت عبر البحر الفاصل صيحات النصر: «الكل سالمون».

وعندما عاد أفراد هذه المجموعة الانتحارية الصغيرة إلى سفينتهم استقبلهم كل من كان على ظهر السفن بحماس هاتفين بحياتهم.

سيري القارىء ـ فيما يلي من قصص ـ المرة بعد الأخرى نفس السلوك والصفات التي هي طابع الشخصية الايطالية، فإنهم يلعبون بجيشهم وأسطولهم كما لو كانوا أطفالاً يلهون بلعبة جديدة، إنهم يفتنون ويسحرون بأبسط المؤثرات، إن القصف الصادر من مدفع عيار عشر بوصات ومن سفينة تبعد أربعة أميال على قلعة مهجورة على ساحل البحر، وليست مزودة إلا بمدفع لا يتجاوز مداه ميلاً واحداً، إن هذا يلمؤهم بالزهو والفخر، ويجعلهم ينشرون صورة المدفعي في صحفهم باعتباره بطلاً.

على أن هذه النزعة الصبيانية الساذجة تكون في بعض الأحيان ـ وكما سنرى فيما بعد ـ مصحوبة بدرجة عالية من عدم المبالاة والقسوة في مواقف تكون فيها حياة الانسان هي المعنية.

وفي تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر نزل البحارة إلى البر في مجموعتين: إحداهما عند قلعة السلطانية والثانية بين هذه والمدينة، وفي تمام الساعة الخامسة تم رفع العلم الايطالي المثلث الألوان على قلعة الوالي في طرابلس ذاتها، بينما لم تكن هناك أية مقاومة في أي مكان، وراح الإيطاليون يظهرون الزهو والإعجاب بالجرأة والبراعة البحرية التي أظهروها في هذا الهجوم على طرابلس.

لقد صاح السنيور (بيفيوني Bevione) أحد كتابهم الكبار قائلاً: «لقد كان القصف أعجوبة في المناورة والتصويب، في التخطيط والضرب، فإن الخطة التي وضعها الاميرال بإحكام، والتي برهنت نتائجها على أنها أفضل خطة ممكنة، قد نفذت بشكل رائع لا يمكن أن يكون هناك ما هو أفضل منه. لقد تحركت المجموعات الثلاث مطلقة النار على القلاع لمدة ثلاث ساعات وهي محتفظة بتشكيلها كما لو كانت في استعراض بحري. إن دقة التصويب أمر معروف من قبل... إن هذا السجل كاف لاقناع الجميع بالكفاءة العالية لاسطولنا».

ثم يستطرد قائلاً: «إن الجميع مطالبون بمباركة هذا اليوم لأنه أظهر كفاءة أسطولنا في الدفاع عن حقوق بلادنا ومصالحها، ولأنه فتح باب طرابلس ولأنه سيبقى عالقاً بأذهان المواطنين الإيطاليين كدليل على قوتنا، وكأول خطوة في بناء الكبرياء القومي».

إن وصف القصف ـ كما جاء في الصحف الايطالية ـ يبدو مبالغاً فيه، حتى ولو استخدمناه لوصف قصف (تسوشيما)[1]، أو الهجمات البحرية اليابانية الرهيبة على (بورت آرثر)، لقد قال مراسل صحيفة (ستامبا Stampa)، الذي

(١) تسوشيما: أرخبيل ياباني بين كوريا واليابان، وبالقرب منه استطاع الأميرال الياباني توجو في سنة ١٩٠٥ تدمير الأسطول الروسي بقيادة الأميرال روجستفنسكي. (المترجم).

كان على ظهر إحدى السفن الحربية «إن اشتراك مجموعة السفينة (ري امبرتو) في إطلاق النار كان واحداً من أروع المشاهد التي رأيتها».

والآن فإن الشيء الغريب المضحك من كل ذلك سيتضح عندما أذكّر القارىء بالحقائق المهمة التالية:

١ ـ لم يكن يوجد أي أتراك بالمدينة حيث كانوا قد غادروها جميعاً.

٢ ـ كان مع كل بطارية مدفعية أربعة رجال فقط، وكان واجبهم هو حفظ ماء وجه الحامية التركية التي رحلت، والقيام بنوع من الاحتجاج الرسمي الشكلي باطلاق بعض القذائف.

٣ ـ كل القلاع كانت تعتبر ـ ومن كل الوجوه ـ غير ذات جدوى وكان في استطاعة سفينة واحدة تدميرها جميعاً من مسافة بعيدة، وكان من الممكن أن يبقى الأسطول الإيطالي بعيداً عن الأنظار في أثناء القصف.

لقد رأى عسكريون من مختلف الجنسيات قلاع طرابلس، وأجمعوا كلهم ـ أو على الاقل الذين ليسوا إيطاليين منهم ـ على الضحك والسخرية عندما رأوا مشهد القصف، فقال المسيو (م. د. ماتوسلكس Mathuisieulx) وهو ضابط فرنسي: «إنني لا أدري ما كان يجول في ذهن المهندس العسكري الذي شيد هذه القلاع في بقعة متقدمة على البحر حتى صار بوسع طراد واحد معاد أن يدمرها جميعاً دون أن يكون ظاهراً للعيان».

كما أن الضابط الألماني (فون دم بورن Von Dem Borne) الذي كان شديد الحرص على ألا يغضب الإيطاليين، لم يتمالك نفسه ـ مع ذلك ـ من القول بأن: «القلاع عند بدء الحرب كانت متخلفة تماماً». أما فيما يختص بالقصف نفسه فيكفي أن أنقل ما قاله السنيور (بيفيوني Bevione) : «إن المدينة لم تصب بأية قذيفة، وذلك لأن قصف سفننا كان على درجة نادرة من الدقة».

إن رجل المدفعية الذي لا يستطيع إصابة القلعة على بعد ثلاثة أميال

ليس ماهراً وبخاصة إذا كان قد سمح له باطلاق مئات القذائف بدون حساب.
على أن الايطاليين لم يطلقوا مئات القذائف فحسب، ولكن بأنواعها المختلفة جميعاً. ورغم ما قاله السنيور (بيفيوني) فإن العديد من تلك القذائف طاشت بعيداً عن أهدافها، وقتلت الكثير من الأبرياء في المدينة، فاخترقت احداها سقف منزل مترجم القنصل الألماني، وأخطأت القنصل الذي كان وقتها في المنزل ولكنها قتلت زوجة المترجم الشابة وطفليه، وهذا يكفي للتدليل على دقة التصويب المزعومة.

لذلك فمن الأصوب القول بأن تصويب الإيطاليين السيء كان مشهوراً على مستوى العالم، فقد ذكر المستر (أي. ان. بنت Bennett) نفسه كيف أنه شهد سفينتين حربيتين إيطاليتين، تطلقان ثلاثا وستين قذيفة، من على بعد ألفين وخمسمائة يازدة، على قلعة قديمة (بوكامش) الواقعة قرب الحدود التونسية وذلك في الحادي والثلاثين دون إصابتها ولو مرة واحدة، رغم محاولتهما ذلك باصرار لمدة نصف ساعة، ولكن الكذبة المعتادة أبرق بها من طرابلس، حيث قيل إن الأتراك فروا هرباً، بينما في الواقع كانوا طوال الوقت جالسين داخل القلعة، يضحكون من مهارة الإيطاليين في التصويب.

وما أعظم الفرق بين ما كتبه المؤرخون الايطاليون من هراء وبين ما ورد في الرسائل العسكرية المعبرة والمختصرة (لأنور بك) وهي التي نشرت مقتطفات منها في صحيفة (لوكال انزيجر Lokal Anzeiger) في عددها الصادر في الثامن والعشرين من يناير، فإن هذا الضابط الشاب الشجاع يخبرنا في إحدى هذه الرسائل كيف أنه سافر ولمدة تسع ساعات متواصلة على بعير، وكان جزء من الرحلة في منطقة يعتقد الإيطاليون أنها موالية لهم، «إلا أنهم لم يلبثوا أن رحبوا بي باعتباري زوج ابنة الخليفة، ثم رافقوني وحدثوني كيف أنهم أيضاً قتلوا الكفار ثم تحدثوا عن جبن جنود العدو، ولم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك على هذا الخداع، الذي يعيش فيه الإيطاليون، بأنهم ضمنوا ولاء هؤلاء الناس لهم، ولو كان معي مال لكان في إمكاني أن أفعل الكثير، ولكن

الشيء الذي اعتز وأفخر به،هو أنني كنت أقوم بتشكيل جيش دون أن يكون في جيبي قرش واحد». وقد نجح فعلاً في تكوين جيش، إذ قال في رسالة لاحقة: «لقد وجدت تسعمائة مقاتل من رجال الصحراء،عند قدومي إلى هنا أما الآن فيوجد تحت قيادتي ستة عشر ألف جندي مدرب».

إنه لمن المضحك المسلي أن يخبرنا كيف أن هذا الجيش الصغير يعتمد في معيشته على العدو، فقد غنم في إحدى المعارك «مدفعين آليين، ومائتين وخمسين بندقية، ومدفعين، وثلاثين ألف خرطوشة، وخمسة وعشرين صندوقاً من القذائف، وكلها ستكون ذات فائدة عظيمة لنا، بالإضافة إلى عشرة بغال قمت بإعدادها لجر المدافع. وكان من بين القتلى الذين لم يستطع العدو إجلاءهم عن موقع المعركة جثة رائد وجثة نقيب وجثث خمسة ملازمين ومائتي رجل، وقد أردنا أن نطلق سراح أحد الجنود الذين وقعوا في أسرنا ولكنه كان يبدو مسروراً لوقوعه في الأسر، وهو يحاول أن يكون مفيداً لنا بقيامه بتنظيف المدافع».

وتعليقاً على هذه الخطابات فإن الناقد العسكري الألماني الذي قام باعدادها للنشر يقول: «إن الرجل الذي يكتب هذا، ويتمكن من اغتنام سلاح العدو ومقاتلته به من الجائز أنه يحمل رتبة رائد أو باشا، ولكنه بفضل الله ونعمته أكبر من ذلك، انه جنرال».

الفصل الثاني

في مدينة طرابلس

طرابلس في السابع من أكتوبر:

لم يكن الذعر الذي حدث بين الأوربيين في طرابلس نتيجة للقصف، من شأنه أن يرفع منزلتهم في نظر الأتراك، فقد كان صاحب فندق (والدورف استوريا Waldorf Astoria) بالمدينة، ويدعى (يوليوس قيصر اكولينا Julius Caesar Aquilina) أول الفارين، وهو مالطي ينحدر ـ من جهة أحد والديه كما يقول ـ من يوليوس قيصر، ومن فرسان مالطة من الثاني، لقد كان هو وأولاده العديدون يعتبرون أنفسهم من الفرسان، وككل المالطيين كانوا إيطاليين أكثر من الإيطاليين أنفسهم.

وقبل القصف غادرت كل أسرته طرابلس بسرعة، بعد أن عهدت بمفاتيح الفندق إلى الأربعين صحفياً إيطالياً من الذين اختاروا البقاء فيه، والذين لم يحسبوا حساب الاتراك الذين قاموا بإخراجهم. لقد عدت مع أحد أفراد أسرة (أكولينا)، وهو ابنه الذي كان يسكن في مدينة صفاقس التونسية، وكان أول من ظهر من أفراد الأسرة في طرابلس بعد القصف، وقد وجد فندقه في حوزة أناس لا يدفعون أي أجر، كما ضاع مفتاح الباب، بالاضافة إلى أن الفندق صار يعمل ليل نهار، كما قام أفراد مجموعه (ويري ويليز Weary Willies) ـ التي كانت تحتاج إلى غرف ـ باقتحام المبنى، واختيار غرفة بعد أن ارتووا من أجود أنواع الخمور في القبو، ولم تكن هناك وسيلة على الاطلاق لاخراجهم

منه، وذلك لأنهم جميعاً كانوا مدججين بالسلاح، كما أنه لم يكن هناك سبيل لتطبيق القانون عليهم، إذ لا يوجد قانون إطلاقاً، فقد توقف الحكم التركي، ولم يقم الحكم الايطالي المدني بعد، بالإضافة إلى أن السلطات العسكرية كانت خائفة من أن تطرد هي نفسها، فلم تكن تجرؤ على طرد نزلاء رفضوا دفع الإيجار.

ونتيجة لهذه الفوضى فقد صارت طرابلس البربر مسرحاً مثالياً للمحتالين، والمتعطلين، والمبتذلين من كل نوع. لقد تأثر قلب إيطاليا لهذه الأنباء، وكانت هناك موجة من الهياج في المصانع الإيطالية مما حدا بالحكومة أن تصدر بياناً أعلنت فيه أنها لن تصدر جوازات سفر إلى طرابلس حتى تستقر الأحوال فيها، كما رفضت السماح لأي إيطالي بالذهاب إلى المستعمرة الجديدة إلا بعد أن يبرهن للسلطات العسكرية أن له مصالح هامة هناك.

إن هذا القرار أنقذنا من طوفان المتشردين ولكن إيقاف الطوفان كان مؤقتاً، لأن المكان سيمتلىء عن قريب بعتاة المجرمين و (الكاموري Camorri) ، و (الكاربوناري Carbonari) وأعضاء منظمة (اليد السوداء) الارهابية، وعندها سوف نبلغ بأن إيطاليا تقوم بإدخال الحضارة والمدنية إلى القارة السوداء. وقد قامت بالفعل بإدخال أول آلة أرغن هناك سوف تعزف ألحاناً ناشزة من كل حدب وصوب، لم أسمعها حتى في طرقات الحي الإيطالي في نيويورك. لقد جلبت هذه الآلة من أجل جمع المال فقط، إذ أنه لا يوجد أحد هنا لا يتأثر بالموسيقى، حتى إنه بمجرد أن يسمعها يدس يده في جيبه؛ ليخرج إما مسدساً أو عملة ليسكت هذا الأرغن.

لقد حاول الشيفالييه (أكولينا) الصغير ـ ولبضعة أيام ـ أن يحل النظام محل هذه الفوضى فأخذ يعمل على تحميض الصور وتلميع الأحذية والطهو، وترتيب الأسرة، وباختصار كان يعمل كسفرجي وحمال وأشياء أخرى كثيرة، حتى وصل «الداه، وبعض إخوته وأخواته ... أنقذوا الموقف بوصولهم، إذ

صار من الممكن الآن الحصول على بيضة مسلوقة من وقت لآخر، ولو حدث واطلع الشيفالييه (اكولينا) على ما كتبته عنه هنا، فإنني أرجو ألا يظن أنني أحاول السخرية منه. فقد كان الرجل العجوز على حق في الهرب، فهو لم يكن يدير عملاً تجارياً حتى تسقط عليه قذيفة إيطالية وتحطمه، كما أنني معجب بالطريقة الجميلة التي يدير بها فندقه الصغير، رغم أنه يضم نزلاء يفوق عددهم عشرة أضعاف النزلاء الذين يتسع لهم. كما أنه من الصعوبة بمكان أن تجد لحماً بالمدينة، كما أنه من الصعوبة أيضاً أن تجد ضرورات الحياة مثل السجائر، والخمور، والمياه المعدنية، ولهذا فإنني أرجو له كل النجاح في ظل السلطات الايطالية، فإنه بدء ـ وبعدم مبالاة ـ السير في طريق طويل، وهو متأكد من الاستمرار فيه ومتابعته.

إن الدول الكبرى ممثلة بأحسن القناصل في طرابلس، غير أن بعض الدول الصغرى يمثلها بعض المواطنين المحليين ومعظمهم مالطيون ،ويبدو أنهم لا يعملون من أجل المال بل من أجل الشهرة، فقد كان بعضهم في حالة انهيار حين صدر الإنذار الايطالي، ونذكر أن القصف بدأ في الثالث من أكتوبر، وفي اليوم السابق اعتقل القنصل الأسباني تحت تأثيروهم، بأنه ستكون هناك مذبحة للأوربيين بالمدينة في تلك الليلة، وفي ظل حالة الذعر التي سيطرت عليه قام باستدعاء زملائه القناصل، وكان الاجتماع غريباً، فقد ذكر لي أحد القناصل أنّه كان يترنح كالمخمور، بينما كان يصيح بأعلى صوته مؤكداً أنه «تحطم أخلاقياً»، ولم تكن هناك دوافع تضطره إلى ذلك، فقد كان ذلك واضحاً تماماً لكل إنسان يتحمل عناء النظر إليه.

وقد عرضت على الاجتماع برقية من الأميرال الإيطالي تعلن أنه سيقصف المدينة خلال أربع وعشرين ساعة وهو يدعو الجميع إلى اللجوء إلى سفنه الحربية، وهذا الأمر كان واحداً من سلسلة الأعمال العنيفة التي أتى بها الإيطاليون منذ بدأ موضوع طرابلس، فكيف يمكن للقناصل أن يأخذوا عدة آلاف من الأجانب إلى ظهر السفن في هذا الوقت القصير؟ إن الكثيرين من

هؤلاء مرضى، وكثير منهم من النساء اللاتي هن في حالة هيستيرية من الذعر والخوف، وكثيرون آخرون من الأطفال. ثم إن نقل هؤلاء خارج المدينة يحتاج إلى عدة أيام، ولم تكن هناك إلا أعداد قليلة من الزوارق العربية لنقلهم عليها، كما أن رجال الزوارق العرب رفضوا أن يساعدوا في ذلك بينما وقف البحارة الايطاليون غير مكترثين، بل إنهم قاموا بنشر الذعر والفوضى في الميناء، ولم يقوموا باتخاذ أية اجراءات لإنقاذ حتى بني جلدتهم من هذا الموقف. إنهم يشجبون الوحشية التركية ولكنهم بفعلهم هذا قد تركوا ـ بلا مبالاة ـ آلاف النساء والاطفال الأوربيين تحت رحمة البرابرة. لقد أظهرت الحوادث أنهم يمتلكون وسائل نقل كافية لنقل كل السكان إلا أن تلك الناقلات كانت في إيطاليا مليئة بالجنود. لقد كان ينبغي على الحكومة الإيطالية أن تبعث بسفن خاصة لنقل اللاجئين، ولكنها كانت غير راغبة في انفاق الأموال على ذلك، ولذلك اكتفى الأميرال بتحذير الأوربيين بأنه سيقصف المدينة في اليوم التالي، ويبدو أنه تخيل أنه قد أدى بذلك واجبه.

أما بالنسبة لأسطمبول التي لا تتكلم فقد أدّى القناصل ـ أو من ظل محتفظاً بعقله منهم ـ خدمة جليلة لها، فقد رفضوا الاستجابة لطلب الاميرال ومغادرة المدينة، وأكدّوا بثقة اعتمادهم الكلي على حماية السلطات التركية، فقد كانوا واثقين من أن الشرطة التركية ستحفظ الأمن والنظام.

وفي الحقيقة لقد استطاعت الشرطة العثمانية الحفاظ على النظام كاملاً وبدقة متناهية، بل زادوا على ذلك بأن ظلوا في المؤخرة حتى لا يتعرض الأوربيون للسلب والنهب في فترة الانتقال بين الحكمين، وهكذا حرم الأتراك أنفسهم ـ عن طواعية ـ من جزء قيمّ من قواتهم العسكرية، وقد قاموا بذلك من أجل المسيحيين في الوقت الذي كانت فيه القذائف الايطالية تحطم الأسقف وتقتل الأبرياء من النساء والاطفال.

لقد كان المستر (وود Wood) القنصل الأمريكي هو الذي بعث بالرد

إلى الأميرال قائلاً: «إن القناصل ومواطنيهم لديهم ثقة كافية في السلطات التركية ولذلك سيبقون بالمدينة». لقد وضع المستر «وود» هذه البرقية باللغة الانجليزية، ثم قام نائب الملحق الفرنسي بترجمتها إلى الفرنسية، ووقع عليها الجميع. إن تلك البرقية كانت بالفعل مستنداً حكيماً، إذ لو ترك القناصل المدينة لشعر الترك والعرب بأن المسيحيين تخلوا عنهم، كما أن المواطنين سيشعرون بأن هذه الحرب إنما هي حرب بين الإسلام والمسيحية وتبعاً لذلك لا يمكن لأي سلطة منعهم من القيام ـ بدافع اليأس ـ بذبح المسيحيين البؤساء الذين لم يتمكنوا من الهرب. إن الإعلان القنصلي الرسمي قد أوضح الأمر بجلاء للعالم، بأن الحرب كانت بين تركيا وإيطاليا فقط، وليست بين أتباع المسيح وأتباع محمد.

بعد التوقيع على هذه الوثيقة قام بعض القناصل بإجراء اتصالهم الأخير مع المسؤولين الأتراك، وقد وصف لي أحدهم ـ فيما بعد وهو القنصل الأمريكي ـ ماحدث، إذ توجه إلى مقر القيادة العسكرية التركية حيث وجد العقيد (نشأت بك) قائد القوات، وهو رجل قوي البنية متوسط الحجم في ريعان شبابه إذ يتراوح عمره بين الثانية والأربعين والخامسة والأربعين، ذو شارب أسود، حليق الذقن، ميال للمرح والدعابة، ولوع بحب الأطفال غير أن الحزن والأسى يبدوان عليه بتأثير هذه الأحداث. وقد كان برفقته الجنرال (منير باشا)، كما كان في حضرته أيضاً الدفتردار وهو المسؤول المالي، وكذلك المسؤول السياسي، والأخير رجل أنيق الملبس في مقتبل العمر يبدو عليه أنه خريج إحدى المدارس الباريسية، وقد كان الصمت والحزن يخيمان على الجميع وهم في غمرة العمل، يقومون بالتوقيع على الأوراق، واصدار الأوامر، وقد تحدث أولاً المسؤول السياسي الذي كانت مهمته التعامل مع القناصل الأجانب، وإضفاء جو آمن لطيف عليهم، فأبدى أسفه لما حدث راجياً أن تنتهي المشكلة بصورة مرضية لكل الأطراف، ثم شكا بمرارة من حدوث الغزو الإيطالي قائلاً: إن ما حدث يمكن قبوله لو تم قبل خمسمائة عام، أما وقوعه في

القرن العشرين فهو بلا شك من بقايا الوحشية البدائية.

إنه من الغريب أن تجد شخصاً تركياً يشجب بمنطق قاطع ولغة فرنسية سليمة أعمال القرصنة من دولة مسيحية، وهي الدولة التي تستضيف البابا.

وأخيراً غادر القنصل المكان وهو يشد على يد المسؤول السياسي، ثم شد على يد العقيد (نشأت بك) والضباط والموظفين الآخرين، ثم أسرع مندفعاً خارج المبنى.

إن المستر (وود) مسيحي بطبيعة الحال، وبالرغم من ذلك فقد اعترف بأنه غالب دموعه بشدة، عندما كان يودع هؤلاء الرجال البواسل، الذين وقعوا ضحايا عدوان غاشم لا مبرر له فرضته الظروف عليهم، وهم في أسوء الأوضاع التي يمكن أن يجد إنسان نفسه فيها.

وفي صبيحة اليوم التالي قام نفس القنصل بالطواف في المدينة دون أن يتحرش به أحد، ثم قام باستدعاء بعض أصدقائه من الأتراك في العاشرة صباحاً ثم بدأ القصف بعد ست ساعات، ولكن لم يكن هناك أي ذعر غير طبيعي، وقد كان الضباط الأتراك الذين التقى بهم حريصين على تحيته.

إن القلق الوحيد الذي كان يبدو عليهم هو خوفهم على مصائر زوجاتهم وبناتهم اللائي اضطرتهم الأحوال لتركهن وراءهم، وهم يتراجعون إلى الصحراء. لقد اعتدنا أن نعتبر ترك النساء المسيحيات تحت رحمة الأتراك أمراً قبيحاً، أما في هذه الحرب فهناك مئات المسيحيات تحت رحمة الأتراك ولم تتعرض أي منهن لأي اعتداء في الوقت الذي يعلم فيه الأتراك من تجربتهم التي ترجع إلى أيام الغزو الصليبي أنه يجب ألا يأمن على ترك النساء تحت رحمة المسيحيين. ولكن عندما غادر (نشأت بك) طرابلس اضطر إلى أن يترك وراءه نساء تركيات كثيرات هن زوجات الضباط والموظفين.

إن تركيا قد خسرت في غارة طرابلس من وجهتي النظر العسكرية

والامبريالية التوسعية، ولكنها قد كسبت الكثير من وجهة النظر الأخلاقية، إذ أنه ولأول مرة في التاريخ يعهد القناصل الأوربيون إلى الجنود الأتراك بحماية النساء المسيحيات الأوربيات وكذا الأطفال، وقد أثبت هؤلاء الجنود أهليتهم للثقة التي وضعت فيهم، وقد كان سلوك تركيا منذ بدء مفاوضات طرابلس مشرفاً وسليماً، فلم تكن هناك مذابح، ولم تكن هناك أية أعمال غير إنسانية بل على العكس كانت هناك رحمة وضبط لجماح النفس. إن فقدان طرابلس كان تجربة قاسية بالنسبة للامبراطورية العثمانية، ولكنه برهن على أن تركيا قد صارت في النهاية دولة متحضرة، فهنالك إرساليات إيطالية منتشرة في جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية، وقد قامت في بعض الحالات بالاحتفال بالغزو الإيطالي لطرابلس، ولو حدث هذا قبل عشر سنوات لقام الأتراك بذبحهم جميعاً، إلا أنه في هذه المناسبة اقتصر الأتراك على رفع شكوى لممثل البابا في اسطمبول كتبت باللغة الفرنسية في عبارات رقيقة مهذبة، ثم حولت هذه الشكوى فوراً للبابا الذي رد عليها في الحال.

الفصل الثالث

عودة الرومان[1]

فندق مينرفا بطرابلس.
في الثالث عشر من أكتوبر،
والشمس تميل إلى الغروب في طرابلس البرير.
أخذت رياح الجنوب تغشي المدينة،
وارتفع صوت المؤذن،
وخرّ المؤمنون سجداً ضارعين لله «كن معنا»
وفي القلاع عبس الطرابلسي المعمم في وجه الأغراب وقطّب،
وفي المنازل علت أصوات المصليات عبر شباك النوافذ،
ورغم اللعنات، والصلوات، والنظرات الغاضبة، العابسة،
صاح الغزاة من فوق مدمراتهم في صوت كالرعد:
«لقد عاد أحفاد الرومان»

* * *

(١) لقد ظهر هذا الفصل والفصول الأربعة التالية في صحيفة (وستمستر جازيت West-minister Gazette) وقد أوردتها هنا لكي أوضح أنني عندما جئت إلى طرابلس كنت أميل في البداية إلى تأييد الإيطاليين، ولست ضدهم، وما كنت أعلم وقتئذ أن لقب الافتخار (رومان) الذي اعتبر (جيبون Gibbon) أنه قد دنس على يد خلفاء قسطنطين قد دنس أيضاً على يد الملكية الايطالية التي تدعى أنها تسير على تقاليد القياصرة.

أتعجبون من مدنهم المدفونة في رمالكم.
وتسخرون من رجال أخبروكم أنها انجازات من صنع البشر،
وعبر صحاريكم وبجوار البحر ما تزال تمتد الطرق الرومانية،
إن أبناء هؤلاء الذين أقاموها يجوبون شوارعكم الآن.
أما العثمانيون فقد انسحبوا إلى الظلام الذي جاءوا منه
ممتطين جيادهم إلى غير رجعة.

* * *

وعلى البسفور ارتفع العويل
وشمل الحزن الجزيرة العربية
لأن الكلاب المسيحية هبطت
على شواطىء البربر
أحقا نزلوا الى البر وعادت روما مرة أخرى
ويتوغل عشرون ألف رجل من القلعة الأسبانية صوب الداخل،
خيالة، ومشاة، ومدفعية ـ أنصت إلى الأناشيد التي ينشدونها،
لقد استيقظت ليبيا على ضربات أجنحة النسر الروماني،
إن النصب التذكارية للقياصرة السابقين تشع نوراً غامضاً،
ويطل المريخ من السماء في ظلمات الليل بأشعة بلون الدم الأحمر القاني.
وتومض أعمدة «الكورنثيين» المتساقطة على الرمال كالثلج،
والأطراف البيضاء للتماثيل المحطمة تومض وميضا غامضا

* * *

بعد ألف سنة يتردد الصدى: لقد نزلت الفرق الرومانية،
وفي قبور الجنود القدامى وسط أعشاب الواحة،
يتردد الهمس المكتوم، بينما الأعلام الرومانية تتقدم.

وهنالك على الشاطىء عند لبده يهمس
الصيادون لبعضهم بعضاً باسم روما العظيمة

* * *

كنت أحتسي القهوة في ناد عسكري تركي صغير يطل على البحر حينما ورد الخبر العظيم. كانت حديقة ذلك النادي تكتظ بالتماثيل الرومانية العظيمة التي عثر عليها في كثير من المناطق بطرابلس، ولكنها جميعاً قد قطعت رؤوسها نتيجة كراهية المسلمين للتماثيل. كنت أرقب تلك التماثيل عن كثب، بينما كانت تجول في مخيلتي فكرة خرافية غريبة بأنها ستحرك أياديها المبتورة المشوهة أو ربما تصدر عنها أية إشارة، من المؤكد أن هذه التماثيل الرخامية الجامدة لا بد أن تفعل شيئاً لاستقبال أبناء جلدتها العائدين!!

لقد كان الرومان يحكمون هذه البلاد قبل أكثر من ألف عام ونيف، حتى إن الأعمدة الكورنثية والدورية في ساحاتهم والحجارة المكعبة الرائعة التي بنوا منها مساكنهم مصدراً ضخماً للعرب والترك يبنون منها مساجدهم وحصونهم وقلاعهم بل وحتى أكواخهم، لقد شاهدت تيجان أعمدة رومانية رائعة مقامة في منعطفات أكثر شوارع طرابلس تواضعاً حتى إنه لا يمكن للسائر أن يسير مائة ياردة في أي اتجاه دون أن يجد عموداً رومانياً ملقى على الأرض وقد اتخذ منه الأعراب مقاعد لجلوسهم، وأحياناً يبقون عليها رأسية لتمكين الجمال من حك جلودها عليها، وبالقرب من القنصلية الفرنسية يوجد قوس نصر فخم نصفه مدفون في الأرض ومشوه بطريقة مؤسفة، بل إن ثلاثة من العقود الأربعة التي يتكون منها هذا الصرح قد سدت بجدار وحوّل فناؤها الداخلي إلى دار للعرض السينمائي من الدرجة العاشرة، وحتى دار العرض هذه قد أفلست وتوقفت عروضها. لقد وصف (ليمير Lemaire) الذي شهد هذا القوس في عهد لويس الرابع عشر بأنه مرصع بالميداليات النفيسة للقناصل الرومان، وبزخارف رقيقة رفيعة المستوى للاسكندر، وجنود أرقاء، أما الآن فقد اختفت تلك الكنوز الفنية النفيسة.

الفصل الرابع

نزول قوات البرساليري[1]

فندق مينرفا

طرابلس في ١٣ أكتوبر.

هرعت من النادي التركي لكي أرى نزول الرومان إلى البر، وكانت هناك أمام الشاطىء عشرون من السفن الناقلة ومعها ست سفن حربية وعدد من زوارق الطوربيد. لقد كان هذا المرفأ قبل ثلاثة أسابيع مهجوراً أكثر من أي ميناء آخر كبير في أفريقيا، وأقلها حركة ونشاطاً، فإذا به يتحول ويصبح أكثرها حركة. إن رؤية ثلاث بواخر أو أكثر وهي تدخل الميناء في وقت واحد لمنظر يثير دهشة الناظرين بل إنه من المتعذر تماماً رؤية الأفق نظراً للصفوف المتراصة من السفن على الساحل إن بعض هذه السفن من عابرات القارات كبيرة الحجم مثل السفينة (كوناردیس Cunardes) .

لقد دبت الحياة في البحر الآن، فهناك عدد ضخم من السفن من كل الأنواع، منها القوارب الشراعية، وقوارب بمجاديف، واثنتان من بواخر الاتصالات إحداهما إنجليزية والأخرى أمريكية، كما توجد سفن كثيرة محملة بأنواع الفاكهة من صقلية، ووسط كل هذه القوات الصغيرة تنساب قوافل من القوارب أو السفن مثل الأفاعي الضخمة مكتظة بالجنود وتحرسها مدمرات قوية بالإضافة إلى زوارق الطوربيد الطويلة النحيلة ذات الأنف المدبب والمسماة

---

(١) القناصة.

(كلاب الصيد البحري) تمخر المياه في كل اتجاه.



نزول قوات البرساليري

انزال الكتيبتين الرابعة والخامسة من قوات البرساليري في الثالث والعشرين ١٩١١ م.

إن السفن الحربية ذات اللون الرمادي وبشكلها الصارم العنيف الرهيب تقف في تباين وتناقض تام مع السفن الصقلية البهيجة كما تتباين أيضاً مع البواخر ذات السطوح الأنيقة ومداخنها ذات الألوان الفاتحة وبمنظرها العام الذي يجذب السياح الذين ينشدون الراحة.

الضبـاط يأكلون البـطيخ المفـرط في النضج ويشـربون من ميـاه نـافـورات الشوارع، بالإضافة إلى أن الجنود والضباط يحتسون كميات كبيرة من البيرة وهي شراب قاتـل في الطقس الحـار خاصـة عندمـا تكون البيـرة من النوع الرديء. ويبدو أن أحداً لم يسمع عن نطاق الكوليرا.

إن زمزمية الجندي الفرنسي في الجزائر تسع دائماً لتـرين من الماء، بينما لا تتسع زمزمية الجندي الإيطالي هنا إلا لنصف لتر.

لكن الحماقة الكبرى التي تفوق كل الحماقات ولا يمكن تفسيرها تتمثل في زي الضباط والجنود فهو من قماش رمادي سميك يبدو أنه يكسب الجسم حرارة أكثر من اللازم حتى في جو (سان بطرسبورج)[٢] البارد في هذا الوقت من السنة، ولا جرم أنه لا يصلح لهذا المكان على الإطلاق. إنه شديد الشبه بالمادة التي تستعمل لعمل المعاطف الثقيلة في الستر[٣].

لقد شاهدت على الجبهة أفواجاً كاملة من الجنود يقومون بحفر خنادق في الرمال الملتهبة وهم لا يزالون يرتدون هذه الملابس الثقيلة، لدرجة أن مجرد مشاهدة هذا المنظر جعلني أتصبب عرقـاً، ويبدو أنهم حتى الآن لم يتلقوا أمراً بخلعها.

إن قدماء الرومان لم يغزوا هذه البلاد بمثل هذه الملابس ولا شك في أن الزي العربي الحالي على ما يبدو مأخوذ ومطور عن الزي الروماني.

وعلى طول الشارع الرئيسي الموازي للبحر يسير جنود البرساليري وقد أخذ ريش خوذاتهم يرقص مداعباً الريح، بينما تغني فرقهم النشيد الـوطني الإيطالي، كما أخذت أعلامهم ترفرف في الهواء. لقد أخذت أراقبهم عندما استداروا بعيداً عن مبنى الجمارك، بينما كان يقع بالقرب من هـذا المكان

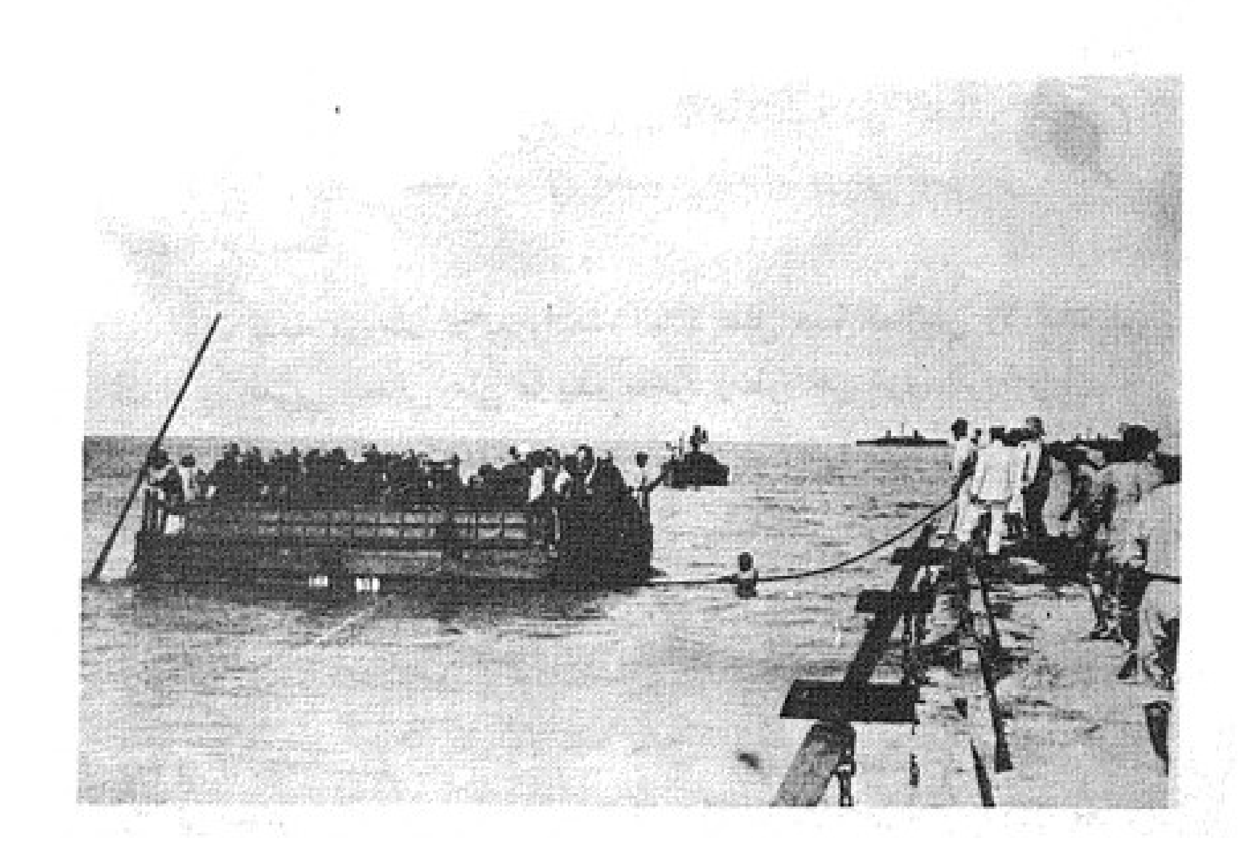
---

(٢) في الاتحاد السوفيتي.

(٣) في انجلترا.

مسجد صغير نقشت على بابه آية من القرآن في لوحة من الرخام بينما كان في داخله يخيم صمت رهيب وهو سكون ديني مهيب يتناقض مع صيحات الضباط في الخارج، ومع المشية الثقيلة للجنود بحملهم الثقيل، كما يتناقض مع صياح بعض الإيطاليين المدنيين الحاد الذي يخرق الأذن ويثير الأعصاب وهم يتحدثون جميعاً في وقت واحد وبأعلى أصواتهم في موضوع غير محدد.

لقد كان المتعبد الوحيد في المسجد رجلاً مسناً ذا لحية غطاها المشيب، إنه في عدم حركته، وملابسه البيضاء الفضفاضة يبدو كمثال روماني، وقد كان يولي وجهه شطر مكة بينما تدل ملامحه على أنه راح في نشوة، وقد أخذت شفتاه تتحركان دون أن يصدر منه صوت مسموع عندما يركع ويسجد وتلامس جبهته الأرض المفروشة بالحصير.



ومع ذلك فانه رغم الاهانة التي لحقت به فان قوس (ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius) ما زال له تأثيره، يقف في عظمة شامخاً فوق الأكواخ العربية المحيطة به، كما يقف تمثال شمشون الأعمى Samson بين التماثيل الفلسطينية. إنه من النادر أن تجد حتى في روما ذاتها قوساً للنصر مبنياً من أحجار الرخام الضخمة الرائعة، ومما يزيد من الغرابة أنه لا يوجد في كل أنحاء هذه البلاد محجر لجلب مثل هذه الحجارة، وهناك حقيقة أخرى تدعو للدهشة بشأن هذا القوس وهي أن الحجارة التي بني منها لم تلصق ببعضها بواسطة الاسمنت بل إن أسلاكاً غير مرئية قد احتفظت بهذا الصرح الضخم متماسكاً طوال ثمانية عشر قرناً بينما حلّى سقفه الكروي بالنقوش البارزة البهيجة.

لقد كانت طرابلس على مدى ألف عام المصدر الرئيسي للحبوب لروما القديمة ولهذا فقد انتشرت فيها الطرقات المعبدة التي تحف بها الأشجار على جانبيها محاذية لساحل البحر، من مدينة لأخرى. إن المرء يمكنه أن يشاهد في (لبده) حواجز المياه المحطمة وقد غمرتها المياه، وقد كانت في تلك العصور تواجه ما كان في يوم من الأيام فيلات للقناصل الرومان، وتكاد تبرز فوق الرمال في (لبدة)، و(صبراته)، وغيرها من الأماكن أجزاء من نقوش عظيمة القيمة رفض الأتراك أن يسمحو لكلب - أي كافر - أن يكتشفها، حتى ولو بقدر أصبع، حتى يستطيع قراءة النص الذي عليها. وفي تلك الأثناء سيطر الجنون على أحد الأثريين، وهو يشاهد العرب يأخذون كتل الرخام هذه لكي يحوّلوها إلى جير أو مواد بناء.

غير أن هناك استثناء منح أخيراً لبعثة أمريكية تعمل في برقة ولكن بشرط أن تسلم كل شيء نفيس تعثر عليه ليصير في عهدة السلطات التركية.

وهذا يعني - بطبيعة الحال - أن بعض المسلمين المتعصبين - مدفوعين باعتبارات دينية - كانوا متأكدين من أنهم - عاجلاً أو آجلاً - سوف يحطمون

أنف تمثال فينوس، أو ديانا أو ابولو. لقد تحمل التاريخ والفن خسائر لا يمكن تعويضها خلال الحكم التركي في طرابلس.

ومما يدعو إلى الأسف أن حكومة روما في إنذارها لم تعلن تصميمها على أن الحضارة لا يمكن أن تسمح لمثل هؤلاء الأتراك - أعداء المعتقدات والتماثيل الدينية - بالبقاء أو الاستمرار في حكم بلاد كهذه غنية بالكنوز التاريخية الدفينة في طرابلس.

ويمكن إضافة قائمة طويلة بالاعتداءات التركية على التماثيل الجميلة (وفي استطاعتي أن أذكر بنفسي بعضاً منها) فأين إذن القلب الذي لا يتعاطف مع إيطاليا في حملتها الصليبية؟

وفي المقدمة كانت تقف ـ بجوار الشاطىء ـ السفينة التعسة (درنة) وهي الباخرة التي جلبت آخر حمولة من الذخيـرة للجيش التركي، وقـد أغرقهـا الأتراك بأنفسهم، ورغم أنها تميل كثيراً على جانبها الأيمن فإنني متأكد من أنها ستطفو مرة أخرى عما قريب.

كما كان يوجد أيضاً بالقرب من الساحل الطراد التركي الصغير ذو الاسم الرنان (صائد البحر) وقد حطمته إحدى القذائف، ورقد بجوار رصيف نقطة الجمارك مهشماً ممتلئاً حتى نصفه بالماء بعد أن جرد من المدافع وكلّ شيء يحمله.

ويرى المشاهد أيضاً العـديد من السفن الأخـرى الغارقـة ترتفـع فوق مستوى الماء داخل الصخور عند سطح الماء.

إن الاضاءة ليلاً في البحر تجعل الميـنـاء يبدو كمينـاء (سوثهـامبتون Southhampton) كما يراه القادم إليه من على سطح سفينة قادمة من جنوب أمريكا ولكن مع الفارق، فبينما الإضاءة في (سوثهامبتون) كلها على اليابس فإنها في ميناء طرابلس داخل الماء، إن ضوء مصابيح الزيت وشموع الشحم الحيواني على الشاطىء لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت ببريق الكهرباء والضوء الساطع على الماء.

إن السفن الضخمة قد تحولت ليلاً إلى كتلة متوهجة من الأنوار اذ أن النور يشع من أية ناحية من نواحي الميناء وينعكس على الماء وعلى الأمواج المتكسرة، بينما تنتشر أنوار الكشافات الصادرة من السفن الحربية متأرجحة من ناحية لأخرى، وتسطع أنوارها على السفن الصقلية.

وأخذت إحدى السفن الحربية تسلط ضوء كشافها كعين المارد على بقعة خطيرة على الساحل الصحراوي، بينما أخذت الرمال من تحتـه تتلألأ كأنها في رابعة النهار، بينما لا يجرؤ أي شخص على اختراق هذا النطاق من

الرمال الصحراوية المضيئة فبدت مهجورة خالية من السكان تماماً كجبال القمر.

لقد أخذت السفينة (ري امبرتو) ترسل إشارات ضوئية متقطعة، بينما أخذت سفينة حربية أخرى ترسل إشارات ضوئية متلألئة نحو قمم الصواري.

لقد صارت جبهة الساحل مليئة إلى وقت متأخر كل ليلة بالأغراب القادمين من الصحراء يحملقون في دهشة غريبة، وقد أخذوا يرددون في تعجب: «بسم الله الرحمن الرحيم، ما هذا السحر؟ هل يحلق الشيطان على أسطول عباد الله؟ هل نزل الجحيم على عباد الله؟ لا، لا، لا، لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله». وهم يشاهدون يداً ضخمة خفية تكتب بضوء البرق هذه الحروف من النار على جدار الليل الواسع المظلم، وبسرعة تختفي، وبسرعة تعود لكتابتها مرة أخرى.

وكما كنت أتوقع فقدنـزلت إلى البر قوات البرساليري (الصاعقة أو القناصة) في رابعة النهار، وبعضهم من أصحاب الوجوه السمراء الداكنة التي تعودنا في انجلترا أن نعتبرهم رمزاً للايطاليين، أما معظمهم فقد كانوا من الشبان ذوي اللون الفاتح، متوسطي القامة تبدو عليهم آثار الصحة والعافية، وقد أتوا من (فلورنسة Florence) و (سينا Siena) اللتين لم يبرحوهما من قبل مطلقاً.

إن الدهشة تبدو في عيونهم الواسعة أشبه بدهشة تلميذ من لندن اختطفته من حديقة (هايد بارك) طائرة أنزلته في (تمبكتو)[1]. لقد عقدت ألسنتهم من الدهشة لرؤية المساجد والملابس العربية والإبل، أما ضباطهم بل ووزارة الحربية ذاتها، فقد كانت على جهل تام بالأوضاع المحلية، شأنهم في ذلك شأن جنودهم. لقد انتشر وباء الكوليرا بالمدينة ومع ذلك فقد أخذ

---

(١) مدينة على نهر النيجر في افريقية.

كانت حركاته كلها تتسم بالوقار الشديد، والهيبة، والإخلاص لله، في سمو وترفع. إنه يبدو كسناتور[1] روماني في الكابيتول عندما استولى الغاليون على المدينة وضاع كل شيء.

والغريب في الأمر أنه يذكرني بروما أكثر مما يذكرني بالرومان أنفسهم في الخارج. ان بطريقا رومانيا يصلي في رحاب الله لا يمكن أن يتعبد بنفس وقار هذا العربي وتأثيره، الذي تميزت حركاته بوقار وخشوع تلقائي.

لماذا يصلي هذا الرجل بمثل هذا الخشوع؟ ربما كان من المحتمل أنه يصلي لكي تنقشع هذه المجاعة الطاحنة والوباء والحرب والدمار وخرق القوانين. إن هذا الشيخ الوديع الضعيف يمثل الخطر الأكبر الذي يجب أن يحسب الايطاليون حسابه، إنه رمزي مجسد للتعصب الإسلامي، التعصب المولع بالحرب، والأكثر عنفاً هنا عنه في أي مكان آخر.

---

(١) عضو مجلس الشيوخ.



زحف قوات البرساليري.

الفصل الخامس

الأتراك المهزومون

طرابلس في ١٥ أكتوبر:

لقد مر موكب قوات البرساليري بالمقاهي التركية التي اعتاد روادها الجلوس على ساحل البحر لاحتساء القهوة التركية بتؤدة وارتخاء، وهم يدخنون السجائر العثمانية، بينما هم يتمتعون بمنظر البحر الأزرق أمامهم، والأمواج البيضاء وهي تتكسر على قاعدة القلعة الاسبانية القديمة متلذذين بنسيم البحر المتوسط البارد.

لقد كانت الحركة قليلة حول هذا المكان في تلك الأيام، ولو تجرأ كافر بالمرور في عربة؛ فإن السائق سيتردد طويلاً قبل أن يمر، حتى لا يزعج شاربي القهوة الأتراك، أما الآن فقد امتلأ ساحل البحر الضيق بالمارة، أما الأتراك فلن يمكنهم احتساء القهوة إلا في منعطفات الشوارع الضيقة والحارات داخل المدينة، بل يجب عليهم أن يحتسوها دون تدخين السجائر التركية، وذلك لأن جميع ما لدى إدارة الدخان منها قد اشتراه الغزاة، ولا مجال لاستيراد المزيد بعد ذلك من اسطمبول.

إن رواد هذه المحلات جميعهم من الرجال المسنين الملتحين، يرتدون الطرابيش التركية، ومن الواضح أنهم لا يستطيعون اللحاق بالشباب التركي في الصحراء، فإن سيقانهم الضعيفة الواهنة، وخطواتهم المتهالكة، تكشف هذه الحقيقة، حيث إنهم لا يستطيعون القيام من أماكنهم إلا مستعينين بالعصيّ، وقد أخفت عيونهم المغرورقة بالدموع حزناً عميقاً، إلا أن سلوكهم يبدو عليه

الرزانة ,الوقار بعيدا عن الخضوع والإذلال.

إنهم يعلمون ـ ولا شك ـ أن عظمة الإسلام ومجده قد ذهبا إلى غير رجعة[1]، وأن الامبراطورية التركية قد أفل نجمها، كما أنهم لا بد يعلمون أن الهلال قد غاب الآن وإلى الأبد عن قارة أفريقيا، وأن سلطان اسطمبول قد يستطيع الاستمرار في أن يطلق على نفسه لقب سيد القارات الثلاث والبحار الأربعة، فقد كان ولقرون قليلة مضت لديه من الحجج المعقولة ما يجعله يدعى ذلك، ،فقد كان القوة العظمى في أوربا، وآسيا، وأفريقية، يرفرف علمه على المناطق الممتدة من مكة حتى الجزائر، أما الآن فقد ضاعت آخر مقاطعة له على الساحل الأفريقي، وسنحت الفرصة للقرطاجيين للعودة إلى سواحل طرابلس مثل الترك.

لقد كان حكم السلاطين الأتراك والقره منليين عهداً متصلاً من الذعر والارهاب، ومع ذلك لا يسعني إلا أن أرثي لحال ممثلي الأمبراطورية العثمانية الآفلة بعد أن خدموا الباب العالي، وأفنوا في خدمته زهرة شبابهم، حتى خارت قواهم الآن، ولم يجدوا في أنفسهم القوة البدنية التي تمكنهم من الهرب إلى الصحراء لكي يموتوا هناك وهم ممسكون بالسلاح.

لقد كان مصيرهم تعساً للغاية،فقد انتظروا نهايتهم التعسة،وهم جالسون في المقاهي المظلمة يرقبون الجنود الأجانب الجفاة يمرون أمامهم، خائفين من عبور الطرقات حتى لا تصدمهم عربة نقل أو عربة مدفع عند إحدى المنعطفات. إنه لشيء غريب أن يكون وجه الشبه ـ بين هؤلاء الكهول المتهالكين وأفول نجم الأمبراطورية ـ قوياً إلى هذا الحد،فكلاهما قد ضعف وخارت قواه، وإذا كان الأتراك الشبان والنساء والأطفال قد هربوا بعيداً أو أخفوا أنفسهم فإنه لم يبق سوى هؤلاء الكهول العاجزون.

لقد صار الأتراك الآن محتقرين من اليهود والزنوج الذين كانوا يخطبون ودهم قبل شهر مضى، لقد شاهدت بالأمس اثنين من الأوربيين وهما يلوحان

لعربة تمر أمامهما لكي تقف معتقدين أنها خالية من الركاب، ولكن كان يقبع في داخلها شيخ تركي عجوز يضع على رأسه طربوشاً فما كان من سائق العربة - وهو عربي شاب - الا أن توقف وأخرج هذا الشيخ العاجز، أخاه في الدين، من المركبة وأشار - بانحناءة للأوربيين بالدخول. فأخرج الشيخ التركي كيساً من القماش الأحمر يحتوي - على ما يبدو - على بضعة ريالات مجيدية وبدأ - باستكانة - يساوم العربي على الأجر جرياً على العادة الشرقية، بينما كانت يداه وأعضاؤه ترتجف. وبعد فترة طويلة وضع بأصابع مرتجفة بعض القروش في يد السائق الممتدة، ولكن الأخير - وقد تعود الآن أن يتقاضى أضعاف هذا الأجر من الضباط الإيطاليين - رمى بالمبلغ في يد الشيخ بسرعة واحتقار وتحرك بركابه من الكافرين.

في هذه الأثناء كان الأتراك يعاملون باحتقار من جانب الغزاة، فقد أجبر الضباط الأتراك الذين يملكون منازل في المدينة على بيعها بسدس قيمتها، فكان وقع ذلك أليما على أولئك الموظفين الذين لا يقبضون إلا مرتبات ضئيلة، ولكن ذلك كان مربحاً لبنك روما.

استمر سير قوات البرساليري متجاوزاً قصر الباشا، وما زال قرع طبولهم النحاسية يتردد صداه في ردهات قلعة (شارل الخامس) الخربة، واستمروا في سيرهم حتى التقوا بقافلة من الإبل حزينة تتدلى شفاهها السفلى كالنسوة المسنات وقد انتابتها موجة غضب محركة إحدى أذنيها لطرد الذباب، بينما تهرأ جلد بعضها وتمزق حتى صار من الصعب تمييزه عن حمولتها من الخرق وأكياس الخيش التي تمثل عادة حمولة هذه الحيوانات التعسة. ومن فوق هذه الحمولة من الخرق البالية يجلس أحياناً صبي عربي نصف عار يرقب الأحداث بسكون بوذي عميق، وأحياناً تجلس امرأة مسلمة محجبة، وتبرز من كل هذا الكوم رقبة طويلة تشبه رقبة الأفعى عليها رأس شاه. إن ومعظم أهل البلد يرقبون سير القوات الايطالية في صمت فلسفي عميق، بينما ينام بعض الأهالي على جانبي الطرقات، وقد لفوا حول أجسادهم الرداء الوحيد الذي

يمتلكونه،وهو من الغرائر التي كانت من قبل معبأة بالعلف، وهؤلاء في العادة من البدو وغجر الصحراء الذين يكفيهم حفنة من البلح وجرعة من الماء. إن فكرتهم عن بساطة الحياة أكثر عمقاً من فكرة الرئيس الامريكي السابق (روزفلت Roosevelt) ، وسقوط الامبراطوريات لا يعني عندهم شيئاً، فهم بعيدون عن السياسة.

يا له من خليط من الأجناس، فقد اختلط البربر واليهود، والزنوج، والمالطيون والإيطاليون والترك، معاً في هذا الزحام؛ لمشاهدة مسير القوات الإيطالية، بينما وقف على مسافة بعيدة اثنان من الطوارق بوجوه ملثمة حتى لم يظهر منها سوى عيونهما التي أخذت تبرق كعيني وحش مفترس وهو يرقب فريسته وهم يرقبون الإيطاليين الشبان القادمين من فلورنسة، وقد أخذهما المشهد حتى أنهما لا يعلقان عليه فيما بينهما، وقد لفهما الصمت كما لف جمالها، وقد جلسا على الأرض ملتصقين، وبعد قليل سيجتازان الصحراء في طريقهما إلى المعسكر التركي، فقد قيل إن فتحي بك تمكن من اجتياز الحدود التونسية متخفياً في زي أحد الطوارق حتى استطاع اللحاق بالجيش الذي يقوده الآن، ومن يدري فلربما كان هؤلاء الرجال الملثمون من الضباط الأتراك.

ومن بين كل الأجناس، فإن هؤلاء الطوارق الأشداء الذين يقومون بأعمال السلب والنهب في الصحراء، هم أشد سكانها شراسة، وأكثرهم صعوبة في الترويض، وعندما يكونون في زيارة ودية فإنهم يرفضون أن يتجردوا من سلاحهم مثلما يرفض الشخص قصير النظر أن يتجرد من نظارته.

وذات يوم قام عدد من هؤلاء الناس بزيارة للقنصل البريطاني يطلبون منه بعض المساعدة، وقد استغرق من موظفي القنصلية نحو نصف الساعة لكي يقنعوا الزوار بترك سلاحهم وراءهم في غرفة الانتظار، وعندما اقتنعوا أخيراً وافقوا على أن يتخلف أحدهم لحراسة أسلحة رفاقه.

ويماثل الطوارق في الوحشية وعدم الانضباط بالقوانين قبائل العررة، وهم من العرب الرحل الذين غادروا تونس عند احتلال الفرنسيين لها؛ حتى لا يخضعوا لحكم أجنبي، إنهم يشبهون النمور عندما تحاصر، وترغم على القتال، وقد تعقبهم الأجنبي الذي يكرهونه حتى آخر مخبأ أو عرين لهم.

استمرت مسيرة البرساليري تحت قرع طبول النصر، بينما وقف الخصيان السود ذوو الوجوه الملساء يشاهدون بخجل الجنود الأقوياء، وأخذت النساء يختلسن النظر إليهم من خلف النوافذ، وقد استمتع الأطفال في الطرقات بالعرض من كل قلوبهم، فأخذ صغار العرب، السمر الألوان، المتسخي الاجساد، شبه العراة، يجرون خلف الجنود، وهم يقفزون عالياً في الهواء عندما يسمعون قرع الطبول ويسألون الجنود أن يعطوهم نقوداً أو أحذية سوداء، وقد حفظوا بضع كلمات بالإيطالية.

لقد أخذ الأطفال يجرون خلف المركبات، ويتعلقون بمؤخرتها كالقردة، ومن الواضح أنهم لا يهتمون بأمور الدولة على الإطلاق، بل راحوا يتخيلون أن عدداً غير عادي من السياح الأوربيين قد جاءوا إلى بلادهم لسبب أو لآخر، وحطوا رحالهم على الشواطىء، وهذا كل ما خطر ببالهم، وذلك لأنهم لم يفهموا حقيقة ما حدث، وقد راحوا ينظرون بتعجب إلى وجوه الأتراك الحزينة، وهم يحتسون القهوة التركية في الطرقات الجانبية.

ويستمر قرع الطبول، ويتردد صداه في البيوت الخالية، وذلك لأنه لا يوجد سوى بيت واحد بين كل أربعين منزلاً تدب فيه الحياة، وقد صارت الشوارع كلها مهجورة وأغلقت جميع المتاجر والأبواب، ووصل قرع الطبول إلى الحي اليهودي حيث كان جميع اليهود هناك دون أن يتغيب أحد منهم، وقد وقفوا مطمئنين غير خائفين من الإيطاليين، كما بدأوا في نهب القلعة بمجرد أن بدأت السفن الحربية تقصف المدينة، وأخذوا يهلّلون ويرحبون بالجنود باللغة الإيطالية، ويرددون صيحات البطولة والاستحسان، وقد

اعتبر يهود طرابلس هذه الحملة ـ لسبب أو لآخر مشروعهم، وذلك لأن الصحيفة الايطالية المحلية هنا يرأس تحريرها أحد اليهود، كما أن احتلال الايطاليين لطرابلس سيسفر عنه ميلاد عدد من المليونيرات اليهود الطرابلسيين، مثلما أسفر الاحتلال الفرنسي للمغرب، بالتأكيد عن ظهور عدد من أصحاب الملايين من اليهود المراكشيين، ففي طرابلس ـ كما في المغرب ـ سيكون اليهودي المخادع واثقاً من أنه سيستفيد من تغيير الحكم، غير مكترث بمن الخاسر. فإذا أراد الإيطاليون إصلاح المرفأ والمدينة فإنهم لا محالة سيدخلون في صفقات مع اليهود بالرغم من شعورهم الوطني الدافق، فإن اليهود لن يتركوهم دون أن يستفيدوا من ورائهم.

إن اليونانيين العثمانيين ينظرون للأمور بلا مبالاة أو اكتراث، وذلك لأن الحال عندهم سواء، فلن يعانوا من الجوع تحت أي حكم، أما الزنوج ذوو الشعر المجعد والاجسام اللامعة فقد أخذوا الأمر بالفكاهة، وأخذت البسمات تعلو وجوههم البريئة وقد راحت شفاههم المرنة المطاطة التي تشبه إطارات الدراجات في حجمها تنفرج عن ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن. أما البربري الناتىء العظام البرونزي اللون، فقد أخذ يرقب الموقف وقد وضع مدفأته الخامدة بالقرب منه، وكأن الغزاة قد أحضروا معهم موجة من برد جبال الألب القارص. أما العربي الفاتح اللون فهو معجزة من الفتنة، وهو في ردائه الأبيض الناصع الفضفاض. أما أعراب المدينة المخنثين، فإنهم يتركون (برانسهم) الشفافة نصف مفتوحة، وذلك حتى يظهروا صداريهم المطرزة وبنطلوناتهم الحريرية، ولكن إذا كان البنطلون متسعاً والعمامة خضراء، فإن صاحبهما ثري يهودي أو واحد من سلالة غزاة القرن الحادي عشر.

ووسط هذه الجموع مسافرون جاءوا إلى طرابلس من مناطق في القارة السوداء بعيدة بعد لندن من طرابلس. إن الزنوج النحاف الذين تصادفهم يجلسون على الأرض في الطرقات قد وفدوا من النيجر، أما رجال القبائل ضخام الأجسام فقد أتوا من النيل، ويمكنك أن تتبين الفزانيين بتقاطيعهم

القوية وعضلاتهم المتينة حتى إن اكتاف بعضهم قد نمت بشكل غريب جعلهم شديدي الشبه بتمثال (هـرقل)، أو يستـطيعون دخـول حلبة المـلاكمة ضـد الملاكم (جونسون Johnson) . إن هؤلاء القوم الوافدين من أماكن نائية في أفريقيا لا يمكنهم فهم لغة بعضهم بعضاً على الإطلاق، تماماً مثل عدم فهم الفلاح الياباني لغة الفلاح البتاجوني لو لقيه في أحد النزل.

لقد اعتاد التجار في بعض الشوارع في ظل النظام القديم أن يبلغ بهم التعصب درجة تجعلهم يغلقون متاجرهم عند رؤية أحد الكفرة يهم بدخولها، أما الآن فإنه لا يوجد مثل هذا التعصب الديني، وقد صار بوسع الأوربي أن يدخل المسجد لو أراد، وقد كان ذلك من قبل يعني الموت المحقق، ولكن الايطاليين سوف يحفظون حرمة المساجد مثلما فعل الفرنسيـون في تونس، ولكنهم قد يقدمون على استثناء واحد ذلك أنه يوجد مسجد هنا يسمى مسجد الباشا كان من قبل كنيسة أسبانية حولها الولاة القره مانليون إلى جبانة ثم إلى مسجد. إن أبوابها من الخشب المحفور، ويتكون سقفها من عدد من القباب تقوم على أعمدة خشبية أخذت من خشب سفينة مسيحية مأسورة. أما الآن ـ وتحت الحكم الإيطالي ـ فإن هذا المسجد ربما يستخدم مرة أخرى من أجل العبادة المسيحية، ولو أنه من الحكمة أن يترك كما هو الآن

الفصل السادس

حصار الصحراء

فندق مينرفا

طرابلس في ١٦ أكتـوبر

كانت الخطوة الأولى في غزو طرابلس هي القصف، أما الخطوة الثانية فكانت الحصار، إذ حاصر الايطاليون الصحراء، جالسين أمـامها يـطالبونهـا بالاستسلام، فكـانت الإجابة الوحيـدة التي تلقوهـا منها هي صفيـر الريـاح الصحراوية في الليل، وأصوات رصاص البنادق التـركية التي تـنطلق من بين كثبانها.

وكانت خطوط القوات التي تحاصر الصحراء تبدأ من على بعد مسيرة نصف ساعة بالأقدام من الموقع الذي نزلت فيه قواتهم أولاً، وما أعظم الفارق بين الواقع هنا والواقع في منشوريا عندما كانت القاعدة تبعد عن مواقع القواعد بنحو رحلة يوم كامل بالخيل، أما هنا فـإنه بوسع المراسل الحربي أن يصل إلى جبهة القتال الايطالية على أطراف الصحراء بالمركبة في حوالي ربع ساعة.

وفي منشـوريا كـانت المسافـة بين الجيش والآخر كبيـرة لـدرجـة أن الشخص لا يمكنه أن يرى ما بينهما بواسطة منظار الميدان المكبر، ولدرجة أن المرء عندما يسير في المسافة بين الجيشين على كلا الجانبين يعتريه شعور بأنه يسير في مجاهل لم تطأها أقدام من بلاد الصين. ورغم ذلك لم تجـر أية محاولات للاندفاع في تلك الفراغات، ولو حاول (كوروكي Kuroki) القائد اليـاباني أن يـنـدفع بقـواته فجـأة في الفجوة بين قـوات (كـامف Kampf)

و (لينيفتش Linievitch) القائدين الروسيين ـ لطوقه هذان الجنرالان الروسيان مثل كماشتين هائلتين، ولو حاول (الروسي) (مشنكو Mischenko) ورجاله من القوزاق الزحف بين قوات القائدين اليابانيين (نوجي Nogi) و (اوكو Oku) لما قدر لهما العودة مرة أخرى.

ولكن الأمر في طرابلس جد مختلف، فإن مدينة طرابلس تقع على شبه جزيرة صغيرة، وقد قام الايطاليون بالأستيلاء على شبه الجزيرة هذه، ولم يتجاوزوه، بل اصطفت قواتهم فيه كتفاً إلى كتف في داخل خنادقها من أحد طرفي شبه الجزيرة الى الطرف الآخر مكونة نصف دائرة حول المدينة، وهذا تكتيك يرجع الى عصر ما قبل التاريخ أي العصر الحجري، واني لأعجب إن كان الجنرال (كانيفا) قد استخدمه لعلمه بجبن جنوده وعدم ثقته في أنهم يستطيعون التمسك بمواقع حصينة في الصحراء بعيداً عن المدينة. إن الجنرالات الذين يدافعون عن المدن في العصر الحاضر يقومون بالسيطرة على مواقع معينة والاحتفاظ باحتياطي قوي من القوات في وسط المنطقة التي أخضعوها، فلو كان جنرال انجليزي يدافع عن لندن ضد غاز قادم من الجنوب لقام بوضع قوة قوية محصنة في (كيترهام Caterham) وهي المنطقة التي قامت آخر حكومة للمحافظين بشراء أراض فيها لانشاء تحصينات عليها، ولن يقوم هذا الجنرال بتحصين قواته في (ستريتهام Streatham) لأنه بذلك سيترك للعدو الحرية في أن يقوم بقصف ميدان (الطرف الأغر Trafalgar) وقصر (باكنجهام).

أما في طرابلس فقد حشد الايطاليون أنفسهم كقوات شرطة في طرف أحد الشوراع، ولم تكن لديهم أي قوات استطلاع أو نقاط أمامية للمراقبة؛ مما جعل الاتراك يقتربون منهم ويضربونهم بانتظام. وكان على الايطاليين أن يعتمدوا على انسانية الأتراك حتى يجنبوا مدينة طرابلس ويلات القصف، وذلك لأن (نشأت بك) بمدفعية ميدانه كان بوسعه أن يمطر القلعة بوابل من القذائف من حين لآخر على هواه، وذلك لأن الايطاليين لا يملكون مدفعية

على الأرض حتى الآن لتحول بينه وبين ذلك. وعندما كانت المواقف عكس ذلك، وكانت المدينة تحت سيطرة الأتراك لم يشعر الايطاليون بأي وخز للضمير أو أي شعور إنساني، وهم يقصفون المدينة، ويقتلون كثيراً من أهلها الأبرياء. وهنا يتساءل المرء: ما الفائدة من أنك تدعي أنك مسيحي دون أن تكون لديك نظرة إنسانية في مثل هذه الأمور؟ وعندما قام الأتراك بالقصف كانت النتيجة الطبيعية السخط والضجة ضدهم.

لم يسبق لي فيما شاهدت من حروب أن رأيت شيئاً عجيباً مثل جبهة القتال في حرب طرابلس، إن الواحة تنتهي فجأة مثل بساط أخضر مفروش على الرمال، وعلى أحد جوانبه نباتات، ونخيل وحدائق وآبار ومنازل، وحياة، وعلى الجانب الآخر رمال، وجفاف، وصحراء، وموت. إن الواحة تنتهي عند خط محدد ومعلوم مفضية بعد ذلك إلى عالم آخر يختلف عن الأراضي الزراعية اختلاف البحر نفسه، انها الصحراء القائظة الرملية الجافة غير المتناهية، إن المرء مهما نظر إليها بمنظار الميدان المكبر لن يجد غير هذا الفراغ اللامتناه غير المأهول والذي لا يصلح للسكن، وهي كذلك في كل جزء منها، حتى إن النظر إليها يشبه إلى حد بعيد النظر إلى المحيط لأول مرة. فهي حدث فريد في حياة الانسان. بل إن الصحراء تترك أثراً عميقاً لدى الناظر إليها أكثر من ذلك الأثر الذي يتركه المحيط. وذلك لأنها ساكنة بلا حراك،ولا حياة فيها لنبات أو حيوان فهي ميتة تماماً.

ان الصحراء بكثبانها المتعددة تبدو كمحيط هائج تحول فجأة إلى رمال لها موجات عاليه، وقد أخذت الرمال تتطاير من قممها كالزبد، ولكنها تختلف عن البحر بكونها لا تعكس ضوء القمر، ولا النجوم، إن سطحها يتوهج في ضوء النجوم بشكل خامل يشبه ذلك اللمعان الذي تراه على وجه جثة في الظلام، بينما الكلاب الضالة تعوي من مسافات بعيدة فملأتها بالعويل والحزن.

لقد حاصر الايطاليون الصحراء وأنشأوا أمامها الخنادق وأحاطوها بحائط

طيني قاموا بفتح ثغرات في جدرانه، وصاروا ينامون وراءه. لقد صوب الايطاليون مدافع الجبال، والمدافع الآلية، ومدافع الأسطول، نحو ذلك الفراغ الخاوي الأغبر الذي يشبه وجه أبي الهول الذي شهد اندثار امبراطوريات كثيرة عبر التاريخ. ان الجنود يحملقون طول النهار في هذا الأتون الصحراوي، فلا يرون غير الرمال ولا شيء سواها، ولا حتى شجرة تين ذاوية، وكأنّ هذه الأرض قد حلّت عليها لعنة من الله، فأحالتها إلى قفر ميت يكتنفه غموض إلهي.

وعلى مسافة نصف ميل من هذا الخضم من الرمال، وإلى الجنوب مباشرة من (بومليانة) يقع تل صغير ذو قمة حادة، وينحدر انحداراً شديداً في جوانبه وهو يشبه في ذلك موجة عالية توشك أن تهبط مرة أخرى، وتوجد على قمة هذا التل نقطة حراسة تتكون من ستة أو سبعة جنود وهي أقصى نقطة حراسة ايطالية، ولا شيء يفصل بينها وبين نقطة حراسة العدو المكونة من خمسمائة تركي، والمتمركزة على الواحة الصغيرة التي تسمى (سانية ـ أي حديقة بني آدم). وقد تحدث معي جنود هذه النقطة بصراحة، فكان أحدهم حلاقاً في (نيويورك) وآخر بائع فواكه في (هوايت تشيبل White Chapel) وكلاهما يتحدثان اللغة الانجليزية بدرجة معقولة، وقد بدا لي إنهما لا يابهان بالحرب، بل بوسعي أن أقول أنهما آسفان على عدم تجنسهما بالجنسية الأنجليزية، أو الأمريكية، عندما كانا في الخارج.

إنه لا يوجد جندي واحد ممن قابلت متحمس للحرب، وكان أقل الجنود حماساً للحرب ممن صادفتهم قبل ذلك، هم القوزاق الأسطوريون الذين عايشتهم في جيش القيصر (الروسي) في منشوريا. إنني بدأت أستنتج أن الطبقة الوحيدة المتحمسة للحرب في أي بلد هي ذلك القوم الشرسون، الذين نشأوا من طبقة المتعصبين للتوسع، والذين يكتبون في الصحف المثيرة. أما هؤلاء الايطاليون الخاملون، من المزارعين، والحلاقين، وبائعي المثلجات الذين يحجبون أعينهم من وهج الشمس، عندما يحملقون في الصحراء اللامتناهية

التي هرب إليها عدوهم متخفياً كمن احتمى بقلعة حصينة، فإنهم لا يعرفون حتى اسم العدو الذي يحاربونه؛ لأن كلمة «الاتراك» غير معروفة لديهم على الاطلاق، وإذا سئلوا عمن يحاربون، يتغلبون على جهلهم بـالاسهـاب في الحديث، بل إنهم يتحـدثون عن عـدوهم بقولهم: «أهـل هذه البـلاد التي نخوض حرباً ضدهم»، وذلك مثلما يتحدث الجنود الروس، عن عدوهم بقولهم «أوني Ony» أي «هم».

وفي طريق عودتي من موقع نقطة الحراسة الايطالية على التل الرملي، وقبل وصولي إلى الخطوط الإيطالية، مررت بموقع مخيم تركي، يبدو أنه كان لعدة مئات من الجنود، وقد تناثرت فيه العلب الفارغة، والزجاجات المحطمة والمستندات التركية، والأعيرة التركية الفارغة التي جمعت عدداً منها، وعلى مقربة من الموقع توجد قذيفة فارغة، سقطت من إحـدى السفن الإيطاليـة، مما يدل على أن الأسطول الذي قام بالقصف على دراية تامة بمواقع العدو، وأنه قد حدد مدى القصف بدقة. إن الأواني والبقايا التي خلفها الأتراك وراءهم في موقع المخيم توضح أن معـداتهم متخلّفة جداً، وأن خيامهم لا تقـوى على حمايتهم من الأمطار، ولكن يبدو أنه كان لديهم كمية كبيرة من المؤن والذخائر، ويتضح ذلك من تركهم لمئات من الصناديق، التي تحتوي على ذخيرة المدافع الرشاشة، في ثكنة الفرسان، التي تشكل الآن الجناح الأيسر للقوات الايطالية.

وعند عودتي للخطوط الايطالية التقيت بأول جـاسوس تـركي وقع في الأسر، وهو رجل عربي نحيل متوسط القامة ذو لحية سوداء، وقد احرقت أشعة الشمس بشرته، ويرتدي ملابس رثة، ويبدو أنه ارتداها بقصد التخفي، ولكن لا توجد وسيلة لاخفاء وجه الجندي القوي المدرب، لقد جاء من الصحراء، واستوقفه الخفر الايطالي، وفتشوه، وعثروا معه على مسدس ذي ماسورة ومقبض من الخشب، وكان أحد الجنود الستة الذين يرافقونه يحمل هذا الدليل القاطع الذي يبدو أنه كان معلقاً بخيط مجدول فوق كتفه الأيسر وتحت جلبابه.

إن اللعنة التي حلت على هذا القفـر، تخرج في الليل، وتتجول ذهـاباً

وجيشة،على شكل شيطان مما يدخل الخوف والرعب في نفوس الحراس في الاماكن المعزولة والذين عندما يحملقون في هذا الفضاء الخالي تطير عقولهم من الخوف. إنهم يرون في الظلام أشباحاً متحركة غريبة عن كوكب الأرض، فيطلقون عليها النار، ويوقظون كل المعسكر، وفي بعض الأحيان تجد بعض الحمير والخيول والكلاب الضالة، التي تركها الاتراك تأتي بالغريزة قاصدة الواحة، فتثير رؤيتها في الليل أصوات الأنذار، بل وأكثر من ذلك تؤدي إلى إطلاق النار بشكل متواصل. ان الروع والرعب الذي يحدث في الليل قد بدأت آثاره تظهر على أعصاب الجنود والضباط الشبان قليلي الخبرة والتجربة، بل إنهم لا يفرحونِ عندما يكون هناك هجوم حقيقي. إن الرواية واحدة في كل هذه الحالات، وهي أن يقوم الأتراك بالهجوم بين الساعة الواحدة والثانية صباحاً، وكان معهم بعض الفرسان، واستطاعوا أن يقتربوا إلى مسافة ثلاثمائة ياردة، وأطلقوا النيران بشكل مكثف، وقد وُجِدَت في الصباح جثتا جنديين تركيين في المنشية.

وتتعالى أصوات البنادق الايطالية يومياً في الثانية فجراً، بينما تنبسط الصحراء الغبراء كالجثة تحت بريق النجوم، فتنطلق صفارة الإنذار، وهو إنذار حقيقي هذه المرة، فتتعالى في الجو الصواريخ الحمراء، من أكثر من ستة مواقع على طول الخط الإيطالي، وتشرع السفن الحربية في تسليط أضوائها الكاشفة على الصحراء. إنه بالفعل إنذار حقيقي، إذ يوجد رد من الطلقات، وتتحول الصحراء الكالحة الخاوية فجأة إلى حياة قاسية، تضيئها الكشافات التي تخرج من بين التلال الرملية من على بعد ميلين أو أكثر، فيمطر الايطاليون المكان بطلقات البنادق ومدافع الجبال، فتتحول الصحراء بعد سكونها إلى صخب وضجيج، ويتحركون جميعاً لمجابهة عدوهم ـ الصحراء، وتنفجر فوق كثبان الرمل قذيفة من مدفعية الأسطول عيار عشر بوصات، فتحدث ضوءاً وشرراً، وترتفع سحب الرمال إلى ارتفاع عشرين قدماً.

إن الاتراك ليسوا في مدى البصر، وذلك لأن الأنوار الكاشفة لم تعثر عليهم، ويبدو أنهم قد اختفوا في مكان ما بالصحراء. وبينما ركّز الإيطاليون كل اهتمامهم نحو الصحراء، فإنني أرى أن هناك عملاقاً كبيراً قد تأهب فجأة من ناحية المدينة المظلمة، وصار يغرس فكيه المفترستين فيهم، إن عدواً آخر قد ظهر على مسرح الأحداث، وهو أشد شراسة وغدراً من الأتراك والصحراء، إنه وباء الكوليرا.

وبينما أنا أكتب هذه السطور كان عويل جنازة يهودية يصم أذني من الجانب الآخر للحارة الضيقة، وفي امكاني أن ألمس بيت المتوفي بانحناءه بسيطة من نافذتي، إن أحد أفراد هذه الأسرة قد توفي بمرض الكوليرا، وهو المتوفي الثاني من هذه الأسرة في غضون أسبوع، وقد مرت أمامي بالأمس جنازتان لضحيتين مسلمتين من ضحايا الكوليرا. لقد كان عدد الضحايا في الأيام الثلاثة الأولى ثلاثين وفاة، أما الآن فان عددهم يتضاعف يومياً، مما حدا بالسلطات لأن تتحفظ في بياناتها، وقد اشترك التجار معهم في ذلك لطمس هذه الحقيقة الماثلة وذلك حرصاً على حماية المصالح التجارية والحربية.

لقد توفي أحد الأعراب عند إحدى نقط الحراسة البارحة، وأعلن رسمياً أنه توفي جوعاً، وذلك لأن الآلاف من السكان يعانون من الفاقة. إن حجرة الطعام في فندق (مينرفا Minerva) حيث أقيم تقع في الدور الأرضي، وتطل على الطريق، فيأتي الأهالي كل يوم في صفوف طويلة عند مواعيد الطعام، يحملقون بوجوههم الهزيلة، وعيونهم البيضاء، وأعضائهم المتهدلة، من خلف قضبان النوافذ على بعد قدم واحد من غرفة الطعام الفاخرة، إن الأشياء التي نخفيها في انجلترا من باب الرحمة بالمصابين بمرض عضال تظهر هنا في وضح النهار. إن أمراضاً كثيرة تتراوح بين التيفود والكوليرا قد انتشرت وأخذت تطل من النوافذ، ولو لم يستندوا إلى قضبان النوافذ لسقطوا في الطريق، ولذلك فقد تشبثت أياديهم الهزيلة بالقضبان الحديدية كما لو كانوا جثثا متجمدة.

لقد خرجت إيطاليا بمغنم كبير، ولكنه مثل فاكهة البحر الميت، فقد تحولت طرابلس إلى تراب ورماد في قبضة إيطاليا، التي كانت تـود أن تضم أرضاً، فلم تضم إلا الرمال، والفقر، والخراب، والشقاء، والكوليرا والفساد.

فهل كان من الضروري لايطاليا أن تذهب خارج أراضيها للبحث عن هذه الأشياء؟ ألا يوجد عندها ما يكفيها من هذه الأشياء في عقر دارها؟

الفصل السابع

كيف غادر الأتراك مدينة طرابلس

«لقد سد الليل طريق الفاتحين،
وكشفت الأنوار التل البعيد،
حيثما أولئك الذين خسروا المعركة الرهيبة،
يقفون قلة ضعيفة ولكنهم ما زالوا شجعانا».

دعونا نقول كلمة طيبة في حق المنهزم!
دعونا نروي القصة الحقيقية عن كيفية مغادرة الأتـراك لطرابلس!.

إنه ليس من المناسب أن ينضم أيـرلندي إلى هـذه المجمـوعـة من المنشـدين،الذين يرددون عبارات الحقد والسخريـة، التي يوجههـا العالم كله لرجال بواسل انهزموا لأسباب لا يد لهم فيها.

لقد كنت أتحدث اليوم مع ضابط شاب في الجبهـة، وقد تـرك لدي مرتين انطباعاً سيئاً، فقد أراني أولاً عدداً من الميداليات الدينية كانت والدته قد أعطتها له، إحـداها تعرف بميداليـة «الجنين الطاهـر» وميداليـة «القديس يوسف»، وميدالية «القديس الويسيوس دي جونزاجا» وميدالية «القديس انطوني ـ قديس بادوا» وميدالية «القديس فراسيس ـ قديس أسيسي»، ثم أخذ يسخر منها بصراحة مستهزئاً ضاحكاً، كيف أن النساء قليلات عقل في الأمور الدينية.
ان هذا الضابط لم يجـد مني احترامـاً لسخريتـه من هدايـا أمه المتـواضعة والاستهزاء بدينه، ولو كان مسلماً ـ ولكنه مؤمن بالـدين الذي يعتنقـه ـ لحظي مني

بتقدير أكبر مما لو سخر من هذا الدين.

ثم غيرت موضوع الحديث، فتكلمت عن الأتراك، فأخذ الضابط الشاب يؤكد أنهم هربوا مذعورين كالمجانين عند سماعهم صوت مدافع السفن الحربية، وقد أذهلتني عبارته هذه، ولاحظت أنها أحدثت نفس الأثر على وجه مرافقي (الهر فون جوتبرج Gottberg)، وهو ضابط ألماني شديد التعصب لوطنه، ورغم هذا لم يتحدث يوماً في حضوري عن الجيش الفرنسي، أو أي جيش آخر شجاع إلّا بعبارات الأطراء والأعجاب.

لقد شعرت برغبة شديدة في أن أذّكر الضابط الايطالي الشاب أنه في أكثر من مائة موقعة خاضها الأتراك، برهنوا للعالم أجمع على أنهم أقل جيش في أوربا رهبة من هدير المدافع، كما أنه لا النمسا، ولا روسيا، ولا أية أمة أخرى، خاضت حرباً ضدهم تستطيع أن تصفهم بما وصفهم هو به. لقد كانت عبارته لا تتفق وآداب اللياقة، كما أنها جائرة ومنافية للحقيقة، أضف إلى ذلك أنها تصدر من الجيش الأوربي الوحيد الذي ولي عشرون ألفاً منه الأدبار أمام الزنوج في أثيوبيا.

استمر الضابط الشاب في ثرثرته متجاهلاً تبرم مرافقي وصمتي، فعرض على صحفاً إيطالية تعلن بجلاء «لقد تحطمت أسطورة الشجاعة التركية» كما أعلن أحد الكتاب أن حاميات طرابلس كان بوسعها أن تظهر مقاومة أشد صلابة، وكان هذا الكاتب قد زار قلعة السلطانية واطلع على الدمار الذي كان من الممكن أن تنزله بأسطول معاد، لو كانت في أيد قديرة تديرها، وأظن أنه يقصد أنها لو كانت في أيد إيطالية.

وعند هذا الحد نفد صبري، فأوضحت له أن ما يقوله أمر مضحك، وذلك لأن الحاميات كانت في شلل تام بل إنها كانت خالية تماماً، وأن كل المراسلين الحربيين الأجانب الذين شاهدوها يعترفون بهذه الحقيقة، ولكن الضابط الايطالي لم يوافقني على صحّة ذلك، وعرض عليّ مقالاً آخر يتهم

كل الاتراك بالجبن، لقد برهن كاتب المقال في النهاية على اقتناعه بأن العهد الدستوري كان له أثر كبير في إضعاف التعصب الديني، وبالتالي أثر على مقدرة الاتراك القتالية.

إن تراجع الاتراك دون أن يطلقوا طلقة واحدة لم يكن راجعاً لعدم كفاءتهم القتالية، ولكن كان مرده شعورهم الانساني الرفيع، وقد يبدو من الصعب تصديق هذه العبارة، ولكنني استقيتها من سلطات موثوق بها. لقد تخلى أتراك طرابلس عن سمات قراصنة الزمن الغابر التي كانت تقترن بحسنة واحدة وألف جريمة، إن الحسنة الواحدة جاءت في آخر لحظة رغم أنها قد لا تبدو حسنة، إذ أن اثنين من القناصل، وهما القنصل الألماني الدكتور (الفرد تلجر Alfred Telger) عميد القناصل في طرابلس، ونائب القنصل الفرنسي (ثيولت Theuillet) أعدّا لاجتماع لفيف من كبار الضباط والموظفين الأتراك سراً تحت ستار الليل في مبنى القنصلية الألمانية. وكان هذا المبنى يقع خارج المدينة ـ في الواحة، وتحيط به بساتين النخيل ومساكل القادة الأتراك، وكان هذان القنصلان يتصرفان دون علم بقية زملائهم، وذلك لأنهما لو انتظرا موافقتهم لطال انتظارهما حتى الآن، وذلك لأن هيئة القناصل في طرابلس نشأت فيها حساسيات ونزاعات نتيجة للحسدوالغيرة، وهو أمر يحدث بين كثير من الهيئات القنصلية في الخارج، وهذه الظاهرة موجودة في بعض المدن الفارسية والسيامية والأناضولية، والمغربية، والصينية، حتى إنه توجد مناطق مهجورة في الهند لا يوجد بها أكثر من دستة من الاوربيين، ومع ذلك تجد أن كلا منهم على خلاف حاد مع الآخرين. وهذا الحال نتيجة طبيعية للعزلة وحرارة الطقس أو برودته الشديدة، بالاضافة إلى الحساسيات اليومية التي تؤدي إلى خلق المشاحنات والعداوات الخطيرة.

لقد نما إلى علمي أن أكثر هذه العداوات ضراوة تكون بين بعثات الكشف في الأماكن القطبية، وذلك لأن ستة رجال أو أكثر يكونون معتكفين في منزل صغير من الثلج، أضف الى ذلك أنه في حالتنا هذه كان من حق القنصل

الايطالي أن يشترك في أي اجتماع تعقده هيئة القناصل، وذلك في حين أن بعض القناصل الذين يمثلون أمماً صغيرة كان في استطاعتهم إفشاء أسرار الاتراك وخططهم للايطاليين.

وكان من بين الضباط والموظفين الأتراك الذين حضروا الاجتماع الدفتردار والجنرال منير باشا والمندوب السياسي والعقيد نشأت بك وقد كانت على وجوههم نظرات غريبة وإصرار شديد، ويبدو عليهم أنهم قد توصلوا لتوّهم لقرار حاسم، وفي الحقيقة فان دعوة القنصلين لعقد هذا الاجتماع غير العادي كانت ترجع إلى أنهما سمعا عن هذا القرار اليائس، ونظراً لأهمية الوقت فقد دخل القنصلان في الموضوع مباشرة، بأن طلبا من نشأت بك الانسحاب بهدوء حفاظاً على أرواح النساء والأطفال، وبذلك تتجنب المدينة ويلات قصف طويل، ولكن الجنرال العثماني كان مصراً إصراراً شديداً على أن ينازل الايطاليين في كل شبر حتى يلقي حتفه مع جنده تحت أنقاض طرابلس، وكان يؤيده في ذلك جميع ضباطه الذين حضر أحد عشر منهم هذا الاجتماع. إن كل من يعرف الجندي التركي أو قرأ القصص البطولية في (بلفنا Plevna) و (سلستريا Silistria) سيعترف بلا تردد أن الجندّي العثماني قادر على هذه البطولة. لقد اعترف القناصل ـ وقد تملكهم الرعب ـ أنهم في حضرة رجال سبق أن مروا بمثل هذا الرعب الذي يقف على أبواب الموت، والذي يحول بين كل واحد منا وبين الموت، لقد ألّحا على القائد العثماني أن يعدل عن قراره، وشرحا له كيف أن آلاف الأرواح البريئة ستزهق لو تمسك برأيه،ولقد جادلا، وألّحا،واستجديا، ولكن دون جدوى، وذلك لتمسك الأتراك بموقفهم، ولم تكن خطتهم سيئة، فقد كانوا يتوقعون أنه لن يستطيع النزول إلى البر اكثر من ألف جندي، وبما أن البحر غير هادىء، فانه بوسع القناصة الاتراك أن يقضوا عليهم جميعاً لدي نزولهم، في حين أن السفن الحربية لا تستطيع أن تقصف هؤلاء القناصة، وذلك لأنها لا تستطيع التحكم الدقيق في القذائف من على بعد أربعة أميال، أضف إلى ذلك احتمال سقوط هذه

القذائف على الجنود الايطاليين أنفسهم، كما أن هذا الخطر سيكون أشد سوءاً لو دخل جنود البحرية الايطالية المدينة، ودارت معركة بالسلاح الأبيض في الطرقات، وعندئذ لن تدري السفن الحربية في أي اتجاه تقصف، كما أنه في الطرقات الضيقة والمتعرجة سيكون لدى الأتراك فرصة رائعة للقضاء على أفواج القوات الايطالية التي تنزل إلى البر الفوج تلو الآخر، حتى تفقد إيطاليا احتياطيها من جنود البحرية.

والذي جعل في استطاعة الأتراك القيام بمثل هذا العمل الخطير الذي لا يصدقه عقل، وتوجيه ضربة تدهش العالم، أنهم كانوا يخزنون في المدينة كميات كبيرة من البارود والقذائف من كل نوع. لقد ذكر كاتب إيطالي أنهم «الى جانب المخازن المليئة بالبارود كانوا يحتفظون في القلاع بمخزنين يحتويان على كميات أخرى من البارود تمكنهم من الصمود في حرب طويلة».

وفي الفصل المعنون «اهمال كانيفا لنزع سلاح العرب» سيجد القارىء قائمة كاملة بكمية المتفجرات التي خلفها الأتراك وراءهم في طرابلس، وطالما لم يكن بوسعهم نقل هذه المتفجرات معهم، فلماذا لم يستخدموها كألغام؟ ألم يكن في إمكانهم نسف الجنود الايطاليين عندما دخلوا المعسكرات أو نسف الاميرال (بوريا ريتشي B. Ricci) عندما يستقر به المقام في القصر؟ إن سر الزنزانات في هذا المبنى لا يعرفه إلا القليل، وقد كان بوسع الأتراك أن يملأوا الزنزانات المعزولة بالمتفجرات، وقد كان مئات من العرب يشعرون بالسعادة وهم يقبعون في الظلام في انتظار الاشارة لهم باشعال فتيل الشعلة المهلكة.

وحتى ذلك الوقت كان هناك ثلاثة آلاف عربي مسلح مع الأتراك، ولا شيء يجلب لهم السرور سوى إطلاق يدهم ليس فقط على العدو الذي يمقتونه، بل أيضاً على غنائمه التي لا تعد ولا تحصى، فهم بذلك يستجيبون لأعظم غريزتين عند العرب، وهما التعطش للدماء، وحب جمع المال.

إنّ الحسنة التي تمتع بها الأهالي أخيراً خلال قتال الواحة لا تعدل شيئاً مما كانوا سيتمتعون به خلال قتال الطرقات والحارات المسدودة وذلك لأن الأزقة كانت ترتبط ببعضها البعض بأقواس عالية، كما هو الطابع الشرقي للبناء وذلك مما يمكن العرب المطرودين من أي منزل أن يحتموا بالمنازل الواقعة على الجانب الآخر من الشارع، ولهذا لم يكن في وسع الايطاليين إبعادهم عن المدينة تماماً دون أن يشعلوا فيها النار والتضحية بالآلاف من الأرواح البريئة، ولهذا أيضاً لم يكن في استطاعة الرائد (كاني Cagni) اجلاءهم عن المدينة لأن فشله زيادة على فقده كل رجاله كان امراً محتماً، ولكان على الاميرال (فارافيللي Faravelli) أن ينتظر أكثر من اسبوع حتى وصول الامدادات.

وحتى لو تمكن الايطاليون من طرد الأتراك والعرب من المدينة لكان بوسع هؤلاء أن يجدوا لأنفسهم مواقع حصينة متقاربة بجوارها، يحتمون بها خلف الأسوار والمنازل وأشجار النخيل، ورغم أن الايطاليين استمروا في دراسة المنطقة لمدة أسبوعين فإن العرب ـ كما اعترف الجنرال (كانيفا) ـ استفادوا استفادة كبيرة من معرفتهم الفائقة بها، ولو كانوا هاجموا الايطاليين عند نزولهم الواحة في أول الأمر لما استفاد العرب من هذه الميزة أكثر من ذلك.

وقد أدرك القنصلان بوضوح أن هذه الخطة الدفاعية لم تكن لتؤدي إلا إلى شيء واحد،وهو أن يعود الى السفن أولئك البحارة الذين قدر لهم البقاء على قيد الحياة، ثم قصف السفن الايطالية للمدينة بوابل من النيران التي لا تترك منزلاً سليماً ولا إنساناً على قيد الحياة،ومن ثم كان تلهف القنصلين لكي يترك الترك المدينة دون قتال.

ان القنصلين لم يكونا بطبيعة الحال يخافان على روحيهما فقط، بل كان يهمهما كل الأوربيين من الرجال والنساء والاطفال الذين لم يتمكنوا من مغادرة

مـدينة طـرابلس، لا لأنهم فضلوا البقاء ولكن بسبب رفض رجـال القوارب العرب نقلهم إلى الاسطول وذلك لأن هؤلاء الرجال كانت لهم أسر في المدينة خـافوا على مصيرها، حيث إنه لو غـادر كل الأوربيين المـدينة فلن يشعـر الايطاليون بالندم أو وخز الضمير إذا أحالوا المدينة بكل من فيها إلى تراب، كما أن رجال القوارب العرب كانوا يشكون في أن يهتم القناصل بأن المدينة قصفت أو لم تقصف ما دام ليس فيها أجانب يمكن أن يصيبهم القصف بأذى.

إن الخـطة التركيـة خطّة لا بأس بها رغم أنها انتحارية وهم جديرون بها، فقد فضلوا الموت داخل المدينة، الموت بشجاعة، والسلاح في أيديهم خير لهم من أن يموتوا تدريجياً من الجوع في الفيافي الجـافة كـالبغال الضـالة الشاردة.

وقد وجد القنصلان أن زحزحة الضباط الأتراك عن قرارهم أمر في غاية الصعوبة، فراحوا يركزون على الخسائر في الأرواح البريئة والدمار الذي سيحل بالاطفال والنساء، ولهذا فقد طالبا باسم الانسـانية من القـادة العثمانيين أن يتخلوا عن جنونهم وخطتهم الانتحارية.

لقد علق أحد الضباط الأتراك بمرارة قائلاً: «الانسانية! إنكم مغرمون بـاستعمال هـذه الكلمة عنـدما تـودون انقـاذ أرواح المسيحيين، ولكنكم لا تذكرونها عندما تكون هنالك أرواح تركية في خطر».

لقد كان منير باشا غاضباً من التلميح بأنه يـود أن يحمي نفسه خلف ظهور النساء والأطفال، ولهذا فقد رضخ أخيراً وأوعز لزملائه بذلـك أيضاً، وكانت دموع الألم تنهمر من عيون بعضهم فقال أحدهم وهو رشيد أفندي: «أننـا سننسحب بعـد إطـلاق قليـل من القـذائف المـدفعيـة، وبعـد تقديم احتجاج رسمي ضـد نزول الإيـطاليين، ولكننا على يقين من أنّ الإيـطاليين سيشوّهون انسحابنا هذا ويعزونه إلى جبننا». وكما نوهت من قبل فإن هذا ما فعله الايطاليون بالفعل.

عندما سمعت هذه القصة فكرت في الضابط الايطالي الشاب عند (بومليانة) الذي فرّق الأتراك باشارة من يده وقال إنهم هربوا مذعورين عند سماعهم زئير المدافع الايطالية.

لقد أسف العقيد نشأت بك ورفاقه الآن وبعد ستة شهور من مراقبتهم للعدو وجبنه وضعف مقدرته القتالية، كما أسفوا على إذعانهم لطلب القنصلين بالانسحاب من المدينة دون قتال، ولكنهم ـ كما هي عادة الرجال العثمانيين العظام ـ لم يوجهوا كلمة لوم للقنصلين، بل إنهم يتحاشون ذكر أي كلمة عن ذلك المؤتمر الذي عقد في منتصف الليل قبل القصف مباشرة.

أما الايطاليون فإنهم ـ على العكس ـ وصفوا غزوهم لطرابلس بكل عبارات الفخر الرنانة، بينما الحقيقة أن احتلالهم لطرابلس والمناطق الساحلية الأخرى لم يكن مرده إلى أن الأتراك لم يستطيعوا الذوذ عنها، بل لأن الأتراك لم يرغبوا في تعريض السكان المسيحيين في تلك المناطق للقصف.

الفصل الثامن

قبل نزول الجيش الإيطالي

لقد كتب السنيور (بيفيوني Bevione) قائلاً: «إن ما فعله الأسطول الإيطالي ما بين الخامس والحادي عشر من أكتوبر في طرابلس لم يكن له مثيل في التاريخ، وهو عمل يجب أن يملأ نفوس الإيطاليين قاطبة بالفخر والاعتزاز، فقد أنزل الأسطول إلى البر سبعة عشر ألف رجل في مدينة كانت تأوي في معسكراتها أربعة آلاف جندي قبل أسبوع واحد، وهي مدينة مسلحة بالبنادق والذخائر التي جلبتها السفينة (درنة). إنها مدينة إسلامية لا يعرف أحد بدقة حقيقة مشاعرها نحونا، ولكنها ـ بدافع الاحترام للخليفة التركي والكراهية للكفار ـ اختارت أن تقف مع الأتراك وتبدأ حرباً مقدّسة، ولكن قواتنا استطاعت أن تنزل إلى البر، وأن تحتل المدينة، وأن تقوم بتهدئتها.

«أما الآن وقد صار كل هذا تاريخاً بعد أن انتهى كل شيء إلى نهاية سارة فإنه يجب القول ـ رغم ذلك ـ بأن الاسطول قد أقدم على محاولة شيطانية جريئة بطريقة رائعة ترابطت كل جزئياتها لتؤدي إلى النجاح مما يمكن وصفها بأنها خديعة كبرى». ولكنها أيضاً ـ في الوقت نفسه ـ حماقة كبرى، فقد عرضت سكان طرابلس المسالمين لأمور رهيبة، فإذا كان الأتراك قد استطاعوا بعد أسبوعين اختراق خطوط القوات الايطالية مرتين واجبار (كانيفا) والعشرين ألف جندي الذين معه على الانسحاب رغم خنادقهم وقذائفهم ومدفعيتهم وأسلاكهم الشائكة وطائراتهم، وتمكنوا (الترك) من نشر الذعر بين الجنود الإيطاليين، فما الفرصة التي كان من الممكن أن تكون أمام (كاني

Cagni) والألف وسبعمائة من رجاله لو هاجمهم الأتراك قبل نزول الحملة إلى البر.

إن السياسة الايطالية خلال كل هـذه الحملة كانت خليطاً من التهور الشديد والحذر المفرط، فلم يكن هناك موقف وسط بين الاثنين، وما احتلال المدينة على أيدي حفنة من جنود البحرية إلا دليـل على المجازفة الشديدة، لقد كانت أضعف نقطة في خط دفاعهم هي الواحة التي كانت خالية من أية حراسة، لقد نزلت إلى البر بعد القصف بفترة وجيزة واستطعت دخول الواحة في نفس الليلة وبرفقتي اثنان من الـزملاء الانجليـز هما المستـر (برسيفـال فيليبس Precival Philips) والمستر (توماس أي جرانت Thomas E. Grant) ، وقد سرنا شرقاً حتى شعرنا بالتعب، فلم نلق أية حراسة إيطالية بيننا وبين الأتراك، ثم وصلنا إلى المكان الذي شهد فيما بعد تمزيق قـوات القناصـة الايطالية (البرساليري)، وكان يبدو من رؤيته أنه سيشهد كارثة عظيمة، فقد كانت الكلاب تنبح في أعماق الواحة، بينما جعلت أنوار كشافات الأسطول أشجار النخيل تلقي ظلالاً سوداء فاحمة مما يوحي بأن المكان مهجور.

ونظراً لانعدام الاطمئنان على سلامتنا لو تقدم بنا السير أخذنا نرجع في الطريق الذي أتينا منه حتى وصلنا (بومليانة) وهي بئـر شهيرة تمـد طرابلس بالمياه وتقع على أطراف الصحراء على بعد ثلاثة كيلومترات من المدينة على طريق (غريان) الكبير، وعند نقطة حراسة لجنود الجندرمـة ـ وكان لا يـزال يحتلها رجال الضبطية (الشرطة) الأتراك الذين قبل الغزاة ـ بغباء ـ خدماتهم ـ مررنا بأول تجربة لنا عن احتمال حدوث اضطراب وذعر في جانب الايطاليين وهو ما أدى بعد ذلك الى التجاوزات الرهيبة في هذه الواحة ذاتها.

لقد كنا نسير في ظل مركز الحراسة وأمـامنا ميـدان كبير يغمـره ضوء القمر، وحوله تقع منازل الأتراك بنوافذهـا الشبكية التـي يحف بهـا صمت القبور، وفجأة اندفعت في الظلام ـ خلفنا وفي اتجاه (بومليانة) مجموعة من

المدنيين الايطاليين مدججين بالسلاح، ولكنهم في حالة شديدة من الذعر، وكان أحد هؤلاء المدنيين يحمل بندقية ويضع أصبعه على زنادها وهو يوجه البندقية نحونا، ويجب على أن اعترف بأنني انزعجت لهذا المشهد كثيراً، وقد كان البقية يحملون مسدسات يرفعونها فوق رؤوسهم بينما أصابعهم أيضاً على الزناد. ولولا عناية الله، أو ربما مظهر المستر (فيليبس) الذي كان يبدو كأمريكي ما أنقذنا نحن الثلاثة من القتل، عندما خرجنا فجأة وانتقلنا من الظل إلى ضوء القمر وواجهنا هذه العصبة المذعورة.

لقد تمكنا من تهدئتهم بعد جهد جهيد، وبعد أن شرحوا لنا أنهم كانوا في الواحة حيث شاهدوا مجموعات من الجنود الأتراك وهم يزحفون بين أشجار النخيل، إن روايتهم ربما كانت صادقة أو غير صادقة، ولكن يجب أن أثبت هنا أن أناساً كثيرين قد أكدوا لي أن مجموعات من الجنود الأتراك كانت تدخل الواحة في كل ليلة في مؤخرة القوات الايطالية، وفي اعتقادي أنهم يدخلون لشراء القهوة والسجائر وزيارة بعض الأصدقاء وأحتساء الشاي معهم، والاطلاع على آخر الأخبار ثم يعودون إلى الصحراء مرة أخرى.

ولكن الشيء الذي أعرفه جيداً هو أنه لم يكن يوجد ولا حتى حارس واحد عند النقطة الخطيرة التي زرتها في الواحة، ولذا ـ وكما سأوضح فيما بعد ـ فإن عدداً كبيراً من العرب قد تمكن من التسلل عبر الخطوط الايطالية عند هذا الجزء من الواحة في الثاني والعشرين من أكتوبر عندما كانت هناك أعداد كبيرة من الجنود. ألم يكن في مقدورهم التسلل بسهولة أكثر في الوقت الذي لم يكن هناك جنود؟ ولو تمكنوا من التسلل، ودخول المدينة، ومهاجمة مؤخرة تلك الحفنة من قوات البحرية المرهقين، وشبه النائمين، والذين كانوا يحرسون ـ والمفروض أنهم يسيطرون على (بوملیانة) ـ فكيف تكون المقاومة التي سيبديها مثل هؤلاء الجنود؟ وكيف يمكن أن يكون مصير المدينة؟

إن القائد التركي لن يكون في وسعه كبح جماح الفصائل العربية المتعطشة للقتل والحرق والنهب، كما أن الأسطول كان سيضيف إلى الموقف

مزيداً من الذعر والدمار، وكان سيفعل مثل ما فعلته إحدى بطاريات المدفعية الايطالية في السادس والعشرين، حينما قامت بقصف العدو والصديق على السواء.

لم يدرك الايطاليون خطورة الأمر في المدينة، بينما أدرك ذلك التجار الأجانب الموجودون بها، ولقد تحدثت في أوائل أكتوبر عن هذا الأمر مع البعض ممن هم أكثر مسؤولية، ولم يخفوا اعتقادهم بأن الايطاليين سيتصرفون كالمجانين، إذ قال لي أحد المصرفيين المحليين «لو كان (إبراهيم باشا) قائداً للاتراك الآن لاحترقت المدينة فوق رؤوسنا ليلة البارحة ولما تمكن أحد من جنود البحرية من الابحار مرة أخرى».

إنه هنا يشير إلى (إبراهيم باشا) الوالي التركي المقتدر الذي تمكن القنصل الايطالي من أن يجعل تركيا تستدعيه منذ وقت قصير، حتى تصبح قيادة القوات التركية كما هي عليه الآن، في يد (منير باشا) العجوز الخائر عند حدوث الغزو.

لقد نزلت القوات الايطالية إلى البر قبل أن تنتهي استعدادات الحملة، وذلك لوجود غيرة شديدة وتنافس بين الجيش والبحرية، وكانت الأخيرة تود أن تظفر بكل أكاليل المجد، ولكن الجيش انتقم لنفسه سريعاً، فقد اكتشف الرائد (كاني Cagni) بعد فوات الأوان أنه قام بعمل أحمق، وذلك لأن قواته من جنود البحرية لا تعرف شيئاً عن الاستكشاف وغيره من تفاصيل الحرب البرية. لم تجد قوات البحرية وقتاً للراحة، كما أن هجمات الأتراك الليلية ـ رغم عدم انتظامها وعدم جدواها ـ قد أرهقتهم أكثر مما يحتملون، وعندما وصل الجيش وتولى هذا العبء عنهم كان بعض جنودهم لم يذق طعم النوم لأكثر من ثلاثة أيام، ولا يقوى على السير من الارهاق بل إن معظمهم شارف على الأنهيار، ولم يكن أحد ـ يدري ـ كما يدري الرائد (كاني) ـ أنه لو قام الاتراك بهجوم منظم، أو تقدموا بإصرار، فإن عليه أن ينسحب عائداً إلى سفنه.

وفي الثامن من أكتوبر أبرق الجنرال (فارافيللي) إلى روما موضحاً حرج موقفه مطالباً بإرسال مدد من الجنود فوراً قائلاً: «لا تنتظروا حتى تكون الحملة كلها جاهزة بل ارسلوا ولو ألوية قليلة». وفي هذا الوقت كان قد أرسل هو نفسه طراداً حربياً إلى الشمال بأقصى سرعة، وذلك بغرض حث أية سفينة تحمل إليه جنوداً على الأسراع إذ، ربما تكون قد تباطأت في مواني صقلية أو في الطريق.

وفي الوقت نفسه أرسِلت فوراً من نابولي سفينتان سريعتان من عابرات المحيط محملتين بالجنود الذين أنزلوا إلى البر في الحادي عشر من أكتوبر حيث توجهوا فوراً إلى الجبهة، وفي اليوم الثاني عشر وصلت بقية سفن الأسطول بحمولتها، فأنفرج الموقف.

وفي هذا الوقت بالذات ـ وليس قبله ـ اعترف الايطاليون بأهمالهم، مما كان له أثر كبير على الأتراك والعرب فيما بعد، وذلك الأثر لم يكن ـ بالتأكيد ـ في مصلحة جيش الاحتلال.

وبينما كان الخطر مستمراً لم تكن هناك أية أخبار عنه تصدر إلى خارج البلاد، لأنه ـ رغم أن الايطاليين أظهروا تهاوناً كبيراً في كل الأمور فإنهم كانوا متشددين مع الصحافة، والبرقيات، بل ومكاتب البريد. كما أن القادة الايطاليين صاروا متخوفين بشدة من وصول أي شيء عن حالتهم للأتراك، وذلك عن طريق البرقيات التي ترسل من طرابلس، وتنشر في الصحف الأوربية، ثم تنقل من هناك إلى اسطمبول ومن هناك ترسل إلى القائد التركي في ضواحي طرابلس عن طريق تونس.

ولهذا فقد صدر قرار بأن ترسل كل البرقيات شخصية كانت أو صحفية إلى روما؛ لتمر على الرقابة هناك مرة أخرى، وكان هذا يعني بطبيعة الحال حجزها كلية، أو وصولها إلى الجهات المرسلة إليها بعد انتهاء الحرب، وبما أن كثيرين من المراسلين المتفائلين الصبورين ظلوا يبعثون بمراسلاتهم حتى

تحت هذه الظروف فقد استولى الايطاليون على خط البرق الوحيد الموجود بدعوى أنهم يحتاجون إليه في الأعمال الرسمية، بل ولم تسمح السلطات حتى للمؤسسات التجارية باستعمال أي شفرة أو أية لغة واضحة برقياً وذلك خوفاً من أن تنقل بطريق غير مباشر إلى القائد التركي في الداخل الحالة السيئة التي وصلت إليها القوات الايطالية التي نزلت في طرابلس.

وفي أول ليلة بعد نزول القوات اقتصر الايطاليون على حراسة أسوار المدينة القديمة، ولكنهم في اليوم التالي اضطروا لمد خطوطهم حتى (بومليانة) وذلك لوجود البئر التي تمد المدينة بمياه الشرب هناك. ولهذا فقد أرسلت فرقة من جنود البحرية لحراستها ومنع القوات التركية من قطع مياه الشرب وخلق حالة عطش.

والآن سنتطرق للأخطاء التي ارتكبها الأتراك:

لقد كانت هجمات الأتراك في هذه الفترة الحرجة التي مرت بها القوات الايطالية موجهة كلها إلى (بومليانة).ويجد المرء صعوبة في تفسير عدم مهاجمتهم للواحة في ذلك الوقت رغم نجاحهم في ذلك فيما بعد. ربما كانت الأسباب التي دعتهم لذلك هي أن الأتراك لم يكن معهم في ذلك الوقت عدد كبير من العرب، كما أنهم لم يكونوا على علم بضعف الكفاءة القتالية للجندي الايطالي، مما جعلهم يتصورون أن القادة الإيطاليين على قدر كبير من الكفاءة القتالية أكبر مما يملكون هم، وبعبارة أخرى فقد كان الترك متخوفين من تطويق قواتهم لو قامت بهجوم في مناطق مأهولة بعيداً عن الصحراء التي تمكنهم من رؤية ما حولهم في كل الاتجاهات على مسافة عدة أميال. كما أن الترك بالغوا في تقدير قوة نيران مدفعية السفن الحربية الراسية على شارع الشط، فتخيلوا أنهم إذا ما قاموا بمهاجمة شارع الشط فإن السفينة (صقلية) سوف تمزقهم نيرانها إرباً، أو ربما كانوا متخوفين أيضاً من أن فرق الانزال متعاونة مع لواء بومليانة ستقطع عليهم خط الرجعة إذا قاموا بهجوم

على شارع الشط، أو تقوم بمحاصرتهم بين شارع الشط والبحر، وهذا ـ بالتأكيد ـ ليس بالأمر الصعب على غاز يمتلك فعالية ومقدرة كبيرة وذلك لوجود مستنقعات شرقي شارع الشط ربما شكلت معوقات خطيرة في طريق تراجع أية قوة تركية هزمت وهي تهاجم المدينة.

ومن ناحية أخرى فإن وجود (بومليانة) في الطرف الجنوبي من الواحة قد جعلها بعيدة عن مرمى الأسطول الإيطالي أكثر من أي موقع آخر على طول الخطوط الايطالية، إضافة إلى أنها كصحراء مكشوفة فإنها تعطي الغزاة فرصة أقل للقضاء على الترك عندما يتقدمون.

إنه من السهل تحكيم العقل بعد فوات الأوان، ولكن من المؤكد أن الأتراك فقدوا فرصة ذهبية خلال هذه الفترة، فبدلاً من التركيز على بومليانة ليلة بعد أخرى، كان من الأسهل لهم الالتفاف حول جناح الجيش الايطالي مخترقين الواحة، وعندئذ يتمكنون من الإيقاع بسهولة بكل قوة الرائد (كاني) ويوقعون بالإيطاليين هزيمة لا يستطيعون الإفاقة منها أبداً.

إن السبب الذي حدا بنشأت بك ألا يستغل هذه الفرصة الفريدة ربما لأنه لم يكن قد تمكن بعد من إثارة العرب بالانضمام إليه حتى ذلك الوقت، والمعروف عن الشرقيين أنهم غير مبالين ومتباطئون، إذ مرّ أسبوع قبل أن يتمكن القائد التركي من إقناع زعماء العرب بأن الايطاليين جاءوا إلى بلادهم وسيبقون فيها، وهذا أيضاً يفسر فشله في استنفار عدد كبير من العرب حوله قبل القصف ليقفوا بجانبه، وذلك لأنهم شاهدوا من قبل مظاهرات الإيطاليين البحرية دون أن ينجم عنها خطر ولهذا فقد تصوروا أن تكون هذه المرة كسابقاتها. أضف إلى ذلك أن أسطمبول لم تقدم أية مساعدات لنشأت بك الذي لم يكن بمقدوره أن يتصرف دون أن تصله توجيهات من الباب العالي. وبهذا لم يكن في مقدوره تسليح الأهالي في الثاني من أكتوبر، وذلك لأن البرقية التي تحمل خبر إعلان الحرب وإطلاق يده في التصرف لم تصله إلا قبل ست ساعات من القصف.

إنني لن أقول بأن الأتراك قد ارتكبوا خطأ بعدم ترتيب ضرورة حدوث الهجوم الخارجي والثورة في المدينة في الثالث والعشرين من أكتوبر معاً في نفس اللحظة وفي أثناء الليل، وذلك لأنه لم تكن هناك ثورة في المدينة رغم وجود فوضى بها، كما سأوضح فيما بعد، ولكنني أعتقد أنه كان بوسع (نشأت بك) أن يثير بالمدينة (طرابلس) حالة من الذعر على نطاق أوسع في منتصف ليل يوم الثاني والعشرين من أكتوبر على أن يقوم بمهاجمة شارع الشط في الوقت نفسه. إن القائد التركي لو كان مصمماً على إثارة مدينة طرابلس فإنه كان يمتلك كل وسائل تحقيق ذلك، فقد كان لديه مجموعات من العرب المتعصبين الذين يتصايحون مطالبين باتاحة الفرصة لهم للتضحية بحياتهم في مغامرة جريئة، وكان بوسع (نشأت بك) إرسال بعض هؤلاء الرجال لنسف مخازن البارود الإيطالية وإرسال البعض الآخر لإشعال النار في مئات المواقع بالمدينة، وآخرين منهم للتحصن داخل المدينة ومعهم عدد كبير من مدافع الموزر وكمية كبيرة من الذخائر، وبذلك يستطيعون تحويل كل حارة ضيقة إلى شعلة نار ضد الايطاليين، ولكن هذه كلها توقعات مني.

لقد عاتبت (نشأت بك) لتركيزه على مهاجمة بومليانة، ولكن من ناحية أخرى فإن تركيزه هذا جعل الايطاليين يرتكبون خطأ جسيماً بتوجيه كل همهم إلى مهاجمة (بومليانة) وترك خط الواحة وشأنه. لقد إطمأن الجنرال (جانيفا) إلى أنه ما دامت الطرادات موجودة في الجناحين الأيمن والأيسر من خطوطه فإن الاتراك لن يهاجموا هذين الجناحين بل سيحصرون أنفسهم في محاولة للسيطرة على (بومليانة)، بضربة واحدة. إنه لم يحسب حساباً لشجاعة العربي التي لا تصدق، فإن هذا العربي لا يرهب حتى الطائرات، ويكره السفن الحربية كراهية شديدة لدرجة أنه يهاجمها ببندقيته. لقد اندفع الفلاحون العرب في (العجيلات) في البحر حتى وصل الماء إلى خصورهم، وذلك بهدف الاقتراب من سفن حربية كانت تقصف قريتهم، وذلك حتى يمكنهم إحكام التصويب عليها.

وفي أواخر نوفمبر كانت هناك طلقات من خلف قلعة (الحميدية) موجهة ضد السفن (داردو Dardo) و (بارتنوب Partenope) و (كارلو البرتو Carlo Alberto حتى أن الأنوار الكاشفة في السفينة الأخيرة تحطمت بفعل طلقة من إحدى البنادق، كما أصيب أحد رجال المدفعية على ظهرها واخترقت الطلقات ملابس قائد السفينة (كاكاكي Cacace) ، وكما سنرى بعد قليل كان ذلك في أقصى ميسرة الإيطاليين حيث ظنوا أنهم سيكونون في أمان تام،فكان الإيطاليون أول من تعلموا معنى عبارة «هجوم الدراويش» التي لم يكن لها نفس المعنى عند (شارع الشط).

لذلك فإنه في الثاني عشر من أكتوبر تم إنقاذ الموقف مما جعل كل الصحف الايطالية تتنفس الصعداء، ذلك أن نزول قوات (البرساليـيـري أي القناصة) إلى طرابلس جعل (ل. بارتزيني Barzini) يقول: «إن أحرج فترة في احتلال طرابلس قد انتهت، فقد تمكن ألف وثمانمائة من رجال البحرية من الاحتفاظ بالمدينة ببسالة طيلة سبعة أيام وسبع ليال، وبذلك انتهت أيـام المجد والقلق».

وكـانت في تلك الأيام المجيـدة سريتـان فقط من جنود البحـرية في (بوමليانة) إحداهما من السفينة (برن Brin) بقيادة الرائد (بونيللي Bonelli) ، والثانية من السفينة (سردينيا Sardgnia) بقيادة الملازم (برتوشيو Pertucio) وكان قوام السريتين مائتي جندي. وقد حدث هجوم على (بومليانة) في الليلة التالية لنزولي إلى البر، وكان كل الصحفيين في المدينة موجودين هناك أو في مكان آخر من الجبهة، فلم يصدق المراسلون غير الايطاليين أن الأعمال التي يشهدونها تمت إلى الحرب الحقيقية بصلة، بل إنها مسرحية هزلية أو ربما تمثيلية عيد ميلاد هزلية، فهنا كان يقف جيش غاز من المفروض أنه يسيطر على المدينة، ولكن لما كان العدو يهاجمهم بانتظام الليلة تلو الأخرى وفي تمام الساعة العاشرة والنصف دائماً ويمطرهم بوابـل من رصاصـه بينما هم مختبئون خلف حائط صغير يهابون النظر من فوقه خوفاً من أن يشاهدوا شيئاً

مفزعاً (وما أقوله هنا عن رجال البحرية العاديين).

لقد تسلق خمسة من المراسلين الصحفيين الإيطاليين إحدى الأشجار التي صارت تترنح من ذعرهم، وفي هذه الأثناء بدأ شيء أسود مرعب يقترب من ناحية الصحراء، وقد أخذ جنود البحرية يحملقون نحوه في خوف من النظر إليه من فوق الحائط والتصويب نحوه، ولهذا طاشت كل طلقاتهم عالية في الهواء، وبعد فترة ظهر حمار أسود يمشي بتؤده دون أن تناله إصابة، ويبدو أن الأتراك قد تركوه خلفهم فجاء بالغريزة عبر الرمال قاصداً الواحة، وقد أخذ يلتقط الحشائش من الجوع بينما وقف الجنود يرقبونه بحذر، غير مطمئنين إليه على الإطلاق.

أما الموقف المفزع الآخر فقد جاء على شكل أنين محزن من الخلف، كان الصوت لامرأة عجوز من الأهالي، فصاح أحد المتفرجين الإيرلنديين قائلاً: «أقسم بالله أنها ليست بشكلي وذلك لأنها تصيح بالعربية». ولقد أسفر البحث فيما بعد عن أن المرأة العجوز ليست بذات خطر، ولكنها إحدى الأهالي الذين أنهكهم الجوع عند (بوّمليانة) فخرجت إلى الفضاء، وجلست على الأرض وربما لم تذق طعم الأكل منذ أن غادر الأتراك المدينة.

ومرت فترة قصيرة من الصمت، وفجأة أعلن الضباط أنهم يرون شيئاً على حافة تل رملي ربما كان لمجموعة من الرجال، وقد ظهر هناك فجأة لهب في القفر، ودوت طلقة وتردد صفيرها بين سعف نخلة فوق الرؤوس وسرعان ما دبت الفوضى بعد ذلك، فارتفعت الصواريخ في الهواء طالبة النجدة من الأسطول فقامت السفينتان (فليبرتو Filiberto) و (سردينيا) بإمطار الصحراء بكل أنواع القذائف الموجودة على ظهريما، واستمر الهدير طوال نصف ساعة، بينما مسحت الأنوار الكاشفة (لسردينيا) الصحراء شرقاً وغرباً دون أن تجد أثراً للعدو، بينما ذكر بعض الضباط وآذانهم على الأرض أنهم سمعوا صوت خيول تعدو من بعيد، وفي تلك الأثناء أرسلت التعزيزات التي بلغت مائة من جنود

البحرية وهو كل الاحتياطي الذي كان بالمدينة.

لقد صاح أحد الايطاليين، الذي ربما يكون قد أحس بالحاجة لتبرير قلة الاحتياطي المروعة، فقال «ليس ذلك مهماً فإن رجالنا يجدون في أنفسهم الشجاعة لمجابهة أي خطر».

[نعم يا صديقي الصحفي المذعور، ولكنك يجب أن تتذكر أن ما تقوله ليس نكتة ترددونها، فإنكم لستم مسؤولين فقط عن أرواح بحارتكم على الساحل، بل أيضاً عن أرواح أكثر من أربعين ألفاً من المسالمين ومعظمهم من النساء والأطفال، فإن كنتم قد حضرتم إلى هنا بقصد إسقاط الحكومة التي كانت تحفظ الأمن والنظام هنا، ثم تذهبون تاركين البلاد للفوضى والخراب، لكان الأحرى بكم لو أرجأتم حضوركم حتى تتمكنوا من المجيء بجيش أقوى].

وفي الصباح عثر على أربعة من الأتراك ملقين في الصحراء، ثلاثة منهم أموات والرابع مصاب بجراح، وكانوا جميعاً مصابين بطلقات البنادق مما يدل على أن القصف الرهيب من السفن كان عديم الجدوى، كما وجد الحمار ميتاً أيضاً، ولكن لم يكن من الضروري فحص جثته، حيث لن يعرف ما إذا كان قد أصيب بطلقة تركية طائشة أو قتل على يد رجال البحرية.

وفي صباح اليوم التالي اتفق المراسلون الايطاليون مئات الجنيهات كي يبرقوا إلى بلادهم بصورة كلامية عن هذه المعركة الدموية وقد أسماها السنيور (برتزيني) «أول معركة يخوضها جنودنا»، وقدر عدد الأتراك بما يتراوح بين خمسمائة وخمسة آلاف، ولا أستطيع أن أحدد الرقم الصحيح، إلا أن المستر (ريجنالد كاهن Reginald Kahn) وهو مراسل حربي فرنسي معروف أكد لي أن العدو كان خمسة عشر رجلاً فقط.

لقد ذكرت من قبل أن الايطاليين أخذوا المغامرة كلها باستخفاف شديد، فذكروا أن الأتراك كانوا في حاجة ماسة لمياه الشرب، وأنهم هاجموا بئر

(بومليانة) مدفوعين بوطأة العطش، وقد أبرق المستر (برتزيني) إلى صحيفة (كوريري ديلا سيرا Corriere della Sera) موجها دعوة ودية للأتراك بأن يأتوا رافعين العلم الأبيض، مؤكداً لهم أن الجنرال (كاني) سيتركهم يأخذون ما يريدون من الماء والطعام. إنه بالطبع عرض سخي كريم، ولكنه إذا قبل فستعقبه خيانة كبيرة من جانب الإيطاليين، لأنه لا يوجد جيش تصرف مع عدو شجاع بمثل هذه القسوة والغدر اللذين تصرف بهما الجيش الإيطالي مع الأتراك في طرابلس.

ففي الثامن عشر من أكتوبر قدم طبيب تركي نفسه، وهو يرتدي شارة الهلال الأحمر على ذراعه، ويحمل علم هدنة، وطلب بعض اللفافات والأدوية المطهرة للجرحى الأتراك، فقام الايطاليون باعتقاله فوراً وتجولوا به مهللين داخل المدينة، وأخيراً سلم لمركز القيادة العامة حيث جرى استجوابه لعدة ساعات عن حالة الجيش التركي والمواقع التي يحتلها وموقف المواطنين العرب. ثم أرسل بعدذلك، وهو رهن الاعتقال إلى فندق (مينرفا) لكي يتم استجواب الصحفيين الايطاليين المقيمين هناك له، ولكنه بالتأكيد خدع المراسلين بدرجة كبيرة، فقد ذكر لهم أن الأتراك ينقصهم الطعام ولا يستطيعون الحصول على إمدادات من الذخائر، بالإضافة إلى أنهم فشلوا في أن يكسبوا إلى جانبهم أي حلفاء من العرب نظراً لندرة التمر في موسم العام الماضي. ويجب أن نتذكر أن هذا حدث قبل أربعة أيام من وقوع الهجوم التركي العربي الكبير في الثالث والعشرين من أكتوبر. لقد أرسل هذا الطبيب فيما بعد إلى (سيراكيوز) سجيناً.

وفي كل الحالات التي حاول فيها العرب التفاوض مع الجنرال (كانيفا) وهم يحملون علم الهدنة كان الايطاليون يعتقلون الرسول ويرسلونه أسيراً إلى (سيراكيوز) وكانت الفرصة الوحيدة التي تمكن فيها الرسول التركي من الهرب في السادس والعشرين، وذلك عندما ركب ضابط عثماني وطلب من الكولونيل (فارا Fara) تسليم المدينة خلال أربع وعشرين ساعة، وقد ذعر الكولونيل من

الطلب، حتى تمكن الضابط من الفرار.

لقد قيل إن الجنرال (كانيفا) صرح قائلاً: «إن هؤلاء كلهم لصوص وقطاع طرق،ولن احترم أعلامهم البيضاء»، وعلى هذا المبدأ كان يتصرف دائماً، فقد كان يعتقد أنها إساءة لشخصه أن يعتبر أي تركي نفسه جديراً بأن يعامل على قدم المساواة مع الجنرال (كارلو كانيفا) حاكم طرابلس وقائد جيش الاحتلال الايطالي. إن سلوكه هذا يذكرني بصديقي الكولونيل (ارتيمف Artimief) محرر صحيفة (نوفي كراي Novi Krai) الرسمية في (بورت أرثر Port Arthur) قبل نشوب الحرب الروسية اليابانية، حيث إنه عندما سأله مراسل (رويتر) في حضوري عما إذا كانت اليابان قد وجهت حقاً إنذاراً إلى بلاده، اعتدل الكولونيل في وقفته وأجاب بأن أمبراطورية عظمى مثل روسيا لا يمكنها أن تقبل إنذاراً من دولة صغيرة مثل اليابان، ولو كانت اليابان قد أرسلت بالفعل ما تعتبره إنذاراً فإن روسيا ستقابله بالابتسام قائلة لليابان: «خذي انذارك بعيداً وتعقّلي». إن الموقف في رأي الكولونيل (ارتيمف) يشبه حالة الفيل وقد اعتدت عليه ضفدعة غاضبة، عندئذ لا يوجد في طبيعة الأشياء شيء يسمى نزالاً. إنه أمر لا يقبل المناقشة.

إن الجنرال (كانيفا) من هذا المنطلق اعتبر نفسه في موقف يمكنه من تجاهل كل قوانين الحرب، وقتل جميع المعتقلين سواء كانوا أتراكاً أو عرباً. ويروي السنيور (ج. دي فليس جيوفريدا G. de Felice Guiffrida) في صحيفة (سيكولو Secolo) الصادرة في ٣١ اكتوبر كيف أنه شهد بعد معركة السادس والعشرين من اكتوبر أحد الجنود الأتراك وقد رقد مقيداً داخل حفرة في الأرض، أنه ربما كان ينتظر ساعته الأخيرة من حياته «هكذا علق الايطالي ثم انصرف.

فلماذا إذن توقع السنيور (جيوفريدا) أن هذا الجندي سيذبح ما لم تكن هذه هي القاعدة لدى الايطاليين مع كل من يقبض عليه من الأسرى سواء كانوا

أتراكاً يرتدون الزي الرسمي أو عرباً يرتدون الزي الوطني للعرب، وسواء أسروا في الواحة أو بعيداً في الصحراء، وسواء سقطوا في يد العدو نتيجة نقص المؤن أو نتيجة للتعب الناجم عن الارهاق وفقر الدم.

وقد وجد في (غريان) في الأيام الأخيرة من العام الماضي خمسة من الجنود الايطاليين الذين وقعوا في الأسر في نوفمبر خلال محاولة مشؤومة كان الإيطاليون قد دبروا ألا يعلم العالم عنها شيئاً، وكان قد قام بها اللواء الثالث والتسعون للنزول إلى البر شرقي طرابلس. إن هؤلاء الأسرى الخمسة يطعمون أحسن طعام ويلقون أفضل معاملة، وقد سمح لهم بالكتابة إلى أصدقائهم في إيطاليا بل وحتى الإبراق إليهم على نفقة الإدارة العثمانية، كما أن مائة من الأسرى الإيطاليين كانوا قد أرسلوا من قبل تحت الحراسة إلى (فزان) التي تقع بعيداً إلى الجنوب، وربما كان قد سبقهم إليها سجناء آخرون.

هكذا يتضح كيف يعامل التركي أسراه، وقد رأينا كيف تعامل إيطاليا المتحضرة أسراها، إن إيطاليا لديها الكثير من الأسرى الترك في (سيراكيوز) وغيرها من أنحاء (صقلية)، ولكن أحداً منهم لم يقبض عليه في أرض المعركة، وهم ينقسمون إلى الفئات التالية:

١ ـ من اعتقلوا في البواخر التجارية التركية.

٢ ـ الجنود المرضى الذين تركهم الأتراك خلفهم في المستشفيات بطرابلس. ولكن الايطاليين اعتبروهم متمارضين.

٣ ـ الرسل الذين وفدوا إليهم رافعين أعلام الهدنة والذين اعتقلوا وقيدوا فور وصولهم بناء على تعليمات الجنرال (كانيفا) الذي رفض معاملتهم كجنود بل عاملهم كلصوص.

إن الأتراك والعرب كانوا على الدوام يعاملون في هذه الحرب معاملة رجال شجعان أوقعتهم الظروف في قبضة عدو جبان، مثلما عامل آخر حكام الامبراطورية الرومانية المنهارة القوط والكلت الشجعان الذين وقعوا في الأسر

عن طريق الخيانة.

وبعد نزول القوات الإيطالية إلى البر بقليل اعتبر كل الجنود الأتـراك المرضى في المستشفيات أسرى ونقلوا إلى ظهر إحدى السفن، ثم أرسلوا إلى إيطاليا. ومن المؤكد أنهم استعرضوا أمام الجمهور فيما بعد كرجال وقعوا في الأسر إبان المعارك. ولقد تصادف أن كان مراسل نمساوي على ظهر تفس السفينة ـ انظر كتاب (هرمان وندل Hermann Wendel) بعنوان (Tripoli-Raub und Weltkrieg حيث وصف فيه ما حدث لهم قائلاً: «كان الأسرى يوضعون في الأصفاد في السادسة من مساء كل يوم، وكان كل واحد من هؤلاء المرضى الضعفاء يرفع يده اليسرى ورجله اليسـرى وقد قيـدتا مـع بعضهما البعض بالسلاسل، ومن السادسة مساء حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي كنا نسمع أصوات صلصلة الأغلال الحديدية المفزعة، وذلـك عندمـا يتقلب هؤلاء الرجال في نومهم».

[1] إنها موسيقى تتنـاسب ـ ولا شك ـ مـع الحضارة التي جلبتهـا إيطاليـا لإفريقيا.



الباب الثالث

المعارك



الفصل الأول

معركة شارع الشط

كيف تمكن العرب من اختراق خط الدفاع الإيطالي

إن القتال حول مدينة طرابلس قبيل نهاية العام المنصرم كان يمثل ـ في الواقع ـ معركة واحدة طويلة استمرت من السادس من أكتوبر وحتى الرابع من ديسمبر، عندما تمكن الطليان من الوصول إلى (عين زاره) أو بالأحرى حتى اليوم، لأن الغزاة ما زالوا محاصرين في مدينة طرابلس، ومن ثم فإن هذه الموقعة يجب أن تسمى بموقعة طرابلس. فشارع الشط وسيدي المصري إنما كانا حدثين عارضين بارزين في ذلك الصراع، ولحظات حاسمة عندما شن العرب هجوماً بهمة ونجاح غير عاديين.

وسوف أكرس جهدي لأصف معارك شارع الشط وسيدي المصري، تاركاً ما عداهما من معارك جانباً، نظراً لتشابه أحداثها وقلة أهميتها وضيق نطاقها، ولكي يستوعب المرء هذه المعارك وما تبعها من أساليب القمع الرهيبة، فإن الأمر يستدعي النظر إلى الموقف الذي كانت عليه قوات الجنرال (كانيفا) في طرابلس عند منتصف شهر اكتوبر.

ففي ذلك الحين كان خط الدفاع الإيطالي على شكل نصف دائرة حول الجانب البري من طرابلس، وكانت المدينة في مركز نصف الدائرة يمتد نصف قطرها حوالي ثلاثة أميال من قلعة طرابلس القديمة التي كانت مقراً للقائد العام، وينتهي نصف الدائرة يساراً ويميناً عند البحر، ففي اليمين أي

الغرب عند (قرقارش) وفي اليسار أي الشرق عند (شارع الشط)، وفي الجنوب توجد (بومليانة)، وبين (بومليانة) و (شارع الشط) كانت توجد ثكنات الخيالة وضريح الولي (سيدي المصري) وقلعة المصري والهاني، وكل هذه الأماكن سوف يرد ذكرها من حين لآخر ضمن حديثي عن القتال.

ويجدر بنا أن نذكر القارىء بالظروف الجغرافية لهذه المنطقة نظراً لأهميتها من وجهة النظر العسكرية، فطرابلس وواحاتها تشبه نجم المذنّب وذيله: طرابلس تمثل رأس ذلك النجم، أما الذيل فإنه يمتد شرقاً إلى الساحل ويقترب من البحر مسافة ستة أو سبعة أميال. إن هذه الواحة، أو بالأحرى ذلك الشريط من الأرض ذات التربة الرطبة بعمق يصل في المتوسط إلى ميل واحد كان بستاناً عظيماً لا يتكون من النخيل فحسب، بل ومن الصبار وأشجار التين والزيتون أيضاً، وتعج الواحة بقرى من بيوت العرب الصغيرة ذات الأسقف المستوية والجدران الطينية، فكل قروي يمتلك رقعة صغيرة من أرض البستان محاطة بجدار من الطين المحمر، ويفصل بين هذه البساتين المتلاصقة شبكة عجيبة من الممرات الضيقة مسوّجة بنبات الصبّار، ويتوسط هذه القرى الصغيرة مدافن المسلمين، مسوّجة هي الأخرى بجدران من الطين تحميها من سيول الشتاء الجارفة.

ولم يحتل الإيطاليون واحة طرابلس بأسرها، ومن الواضح أنهم يعتبرون أنه ليس لديهم من القوة ما يمكنهم من القيام بمثل هذا العمل، وعليه فإن خط الدفاع الإيطالي الممتد من قلعة المصري إلى شارع الشط كان يخترق الواحة، ولما كانت قوات البرساليري (القناصة) لم تتخندق هناك، فإنهم لم يقطعوا أشجار النخيل والصبار، ولم يهدموا الحجرات والجدران الطينية العديدة، وعليه فمن السهل أن نفهم السبب الذي جعل القوة العربية التركية تقوم بأعظم هجماتها، وتحرز أعظم انتصاراتها في هذا الجزء من خط الدفاع الإيطالي، فعلى طول خط قلعة المصري ـ شارع الشط، كان أمام الايطاليين بيوت ونخيل وأشجار الزيتون وجدران من الطين وأجمات كثيفة لا يمكن

اختراقها، ولم يقم الإيطاليون بإخلاء منطقة لاطلاق النار أمام بنادقهم، الأمر الذي سهل على العرب ـ عندما ظهروا في هذه المنطقة قبيل الثالث والعشرين من أكتوبر ـ الاقتراب من (البرسالييري) لدرجة التلامس بالأيدي إذا أرادوا باستثناء منطقة الهاني حيث لم يكن هناك خنادق، أو مدافع أو أية تحصينات دفاعية.



مناورة الجنود الأتراك في قرقارش

أما في الطرف الآخر من خط الدفاع الإيطالي فإن الأمر كان يختلف تماماً، ففي الهاني الواقعة إلى الغرب من (قرقارش) على الرغم من أنه لم تكن هناك حاجة لاقامة دفاعات طالما أن الترك سيتقدمون في صحراء مكشوفة بينما الإيطاليون في خنادقهم على حافة الواحة يمكنهم بسهولة تصويب نيران بنادقهم إلى أعدائهم دون أن يتعرضوا هم لنيران أعدائهم فإنه ـ رغم ذلك ـ كانت توجد على طول الطريق من (قلعة المصري) إلى (قرقارش) خنادق عميقة اختفى فيها الطليان عن أعين أعدائهم، وأمام هذه الخنادق كانت توجد أحياناً جدران طينية ذات فتحات لاطلاق النار منها، وسياج من الأسلاك الشائكة، وحفر ذات مسامير في قاعها.

وفي (قرقارش) و(بومليانة) ومقر ثكنات الخيالة كانت توجد أفضل البطاريات الجبلية وبطاريات الميدان، وكانت (بومليانة) على وجه الخصوص محصنة تحصيناً جيداً وذلك لسببين:

أولاً: نظراً لوقوعها في الطرف الجنوبي من خط الدفاع الأمر الذي يجعلها بعيدة عن حماية المدفعية البحرية.

ثانياً: أنه حتى ذلك الحين كان الأتراك يشنون هجماتهم ليلاً على (بومليانة) الأمر الذي ترك لدى الايطاليين انطباعاً بأن الاتراك سوف يستمرون في الهجوم هناك، وقد يحاولون الاستيلاء على هذا المكان.

والآن سوف انتقل لوصف المعركة. إن معركة (شارع الشط) في الثالث والعشرين من اكتوبر كانت أول قتال جدي جرى في الحرب التركية الإيطالية، وأول صراع قاتل فيه العرب جنباً إلى جنب مع الاتراك ضد الطليان، وبذلك تبدد الأدعاء والتضليل الإيطالي القائل بتحالف العرب مع الايطاليين. إن هجمات العدو السابقة اقتصرت على جزء واحد من خط الدفاع الإيطالي، ألا وهو (بومليانة)، كما أعطت تلك الهجمات للإيطاليين انطباعاً بأن الأتراك قليلو الحصافة، والمهارة العسكرية، ولكن في الثالث والعشرين من أكتوبر شمل

الهجوم خط الدفاع الايطالي بأسره، ابتداء من ساحل البحر عند (قرقارش) إلى (بومليانة) ومن هناك الى ثكنات الخيالة ومنها إلى قلعة المصري، ومن قلعة المصري إلى الهاني، ومن الهاني إلى طريق الشط على ساحل البحر شرقي طرابلس. ومن هنا أخذت المعركة اسمها أي معركة (شارع الشط) لأن الخط الإيطالي تم اختراقه عند تلك النقطة بالذات، كما أن السريتين الرابعة والخامسة التابعتين للواء القناصة (البرساليري) قد مزقتا تقريباً إرباً إرباً.

إلا أن أهم سمة تميز هذه المعركة بحق هي الهجوم العربي على مؤخرة البرساليري عند شارع الشط.

لقد استيقظت في الصباح الباكر من ذلك اليوم وصعدت إلى سطح فندق (مينرفا) المستوى، وكان الظلام حينئذ لا يزال يصارع بزوغ اليوم الجديد. وكانت النجوم لا تزال تومض ساطعة في الغرب وكانت مصابيح الشوارع لا تزال مضاءة أسفل مني، وفي الشرق كان هناك ضوء خافت ضعيف غامض يغطي وجه الصحراء الكالحة الذي يشبه وجه جسد ميت، كما كانت الأضواء الكاشفة التي تنبعث ـ بدون ملل ـ من السفينتين الحربيتين الإيطاليتين (صقلية) و (كارلو البرتو) تنير شاطىء (قرقارش) الناصع البياض، وتتأرجح إلى الامام، وإلى الخلف تمسح الشاطىء كما لو كانت قرون استشعار وحش بحري هائل الحجم. ولفت نظري رنين ضوضاء غريبة من فوقي انبعثت من وحش الفضاء أي محرك طائرة الملازم (بياتزا Piaza) المسماة (بليريوت Bleriot) ، فقد كانت تلك الطائرة تحلق برشاقة، عالية في الجو مثل اليعسوب، ولم تلبث أن لحقت بها طائرة الضابط (مويزو Moiso) المسماة (نيوبورت Neu port) وحتى ذلك الاختراع الفضائي العجيب الذي كان يعد ثورة في عالم الحروب بدأ ـ في ذلك الحين ـ بداية تعيسة في طرابلس، إن ذلك السلاح الذي صمم أساساً للعدوان الخاطف أضحى الآن تحت تصرف جنرال حذر سلمت له قيادة جيش جبان رعديد. وعلاوة على ذلك فلم يكن هناك ميدان حرب لتجربة هذا السلاح أسوأ من هذا الميدان، وذلك لأن

القذائف التي تسقط من الطائرة تدفن في الرمال دون أن تحدث أية أضرار بالعدو.

فالعرب ليس لديهم ثكنات أو منشآت ثابتة يمكن أن تلحق بها أضرار وهم يتناثرون عندما يرون طائرة تقترب، ولذلك لا تنزل بهم القنابل أية خسارة، وكانت النساء والأطفال في القرى هم الضحايا الوحيدون، وهذه الحقيقة تثير حنق العرب الذين لا يدرون ـ بطبيعة الحال ـ أنه بينما تمنع اتفاقية لاهاي استخدام رصاص (دم دم) فإنها لا تمنع إسقاط قنابل من الطائرات تسبب شظاياها إصابات أكثر فظاعة. والطائرة في الحرب الأوربية تلعب دوراً أكثر أهمية، فالعدو من السهل مراقبته، كما أن السفن الحربية ومستودعات الذخيرة والقلاع وكل أنواع المنشآت الثابتة يمكن إصابتها بسهولة.

ولقد تصور الإيطاليون أن الطائرات سيكون لها تأثير على العرب مثل تأثير فرسان (بيزارو) على قبائل الأنكا في أمريكا الجنوبية وأن الشيوخ والدراويش سوف يخرون ساجدين وتستولي عليهم الدهشة لهذه القوة الخارقة التي يتصف بها هؤلاء الأغراب، فيقول أحد المراقبين الأجانب إن الفوضى التي دبت بين الأهالي كانت شديدة، وصيحاتهم التي أثارتها هذه المعجزة عالية.

وفي الواقع فإن عرب طرابلس ـ شأنهم شأن مغاربة مراكش ـ لا يخافون كثيراً من ظهور طائرة للعيان، ورغم أنهم ينظرون إليها بشيء من التعجب فإنهم يحمدون الله على عجائبه وبديع صنعه، ومع ذلك فان احترامهم للأوربيين لا يزداد.

وفي البداية لم يكن الهدف الأساسي الذي من أجله استخدم الايطاليون طائراتهم في أجواء طرابلس هو الاستكشاف وإنما إنزال الرعب في نفوس سكان المدينة ولهذا كان نشاطها يقتصر كلية على التحليق فوق طرابلس

وضواحيها مباشرة، وفي المناسبة الحالية اعتقدت أنني لن أرى أكثر من التحليق عالياً فوق أسطح البيوت إلا أنني كنت مخطئاً في ظني إذ لم ألبث أن رأيت الطائرات بعد بضع مناورات فوق المدينة تتجه جنوباً صوب (بومليانة) وتجاوزت الكثبان الرملية الأولى، وبعد أن حلقت هناك فترة من الوقت استمرت في الاتجاه جنوباً حتى صارت وكأنها بقع في السماء، وبعد أقل من نصف ساعة عادت وهبطت برشاقة بالقرب من الحظيرة العسكرية خارج الأسوار.

وقد يتبادر إلى ذهن المرء الشك في أنه كان لديها وقت لاكتشاف المنطقة البعيدة، بيد أن الطيارين قدموا تقريراً إلى القيادة الايطالية العامة مفاده أنهم رأوا أربعة معسكرات تركية أقربها يبعد عن المخافر الايطالية بثلاثة أميال وأبعدها بخمسة أو ستة أميال، كما ورد في تقريرهم أن أكبر هذه المعسكرات يقع في واحة صغيرة أو مجموعة من أشجار النخيل تسمى (العزيزية) ويوجد في وسط ذلك المعسكر خيمة هائلة ربما تكون مقراً لجنرال أو عقيد.

وربما كانت هذه المعلومات عظيمة القيمة في نظر قائد مغامر جريء، ولكن كل ما استفاده منها الجنرال (كانيفا) كان من الممكن أن يتحقق بدون طائرات على الاطلاق، إذ لم يقم بأية محاولة لمهاجمة العرب وهم متفرقون، وقبل أن يتجمعوا وظل وضع قواته كما هو.

وكان الجنود الايطاليون لا يزالون واقفين جنباً إلى جنب على شكل نصف دائرة جنوبي المدينة، ولم يكن في الامكان تعزيز أي جزء من هذه القوة بدرجة ملحوظة في حالة الخطر لأنه لم يكن هناك قوات احتياطية في المدينة.

وعلاوة على ذلك فإننا يجب أن نعترف بأن الطائرات لم تستطع بعد ذلك متابعة هؤلاء العرب مثلما كانت تستطيع الخيالة أن تفعل، لأنه في أثناء الصباح كان يبدو أن معظم قوات العدو قد التفت حول الواحة في الشرق دون

أن يكتشف أمرها أحد.

وعلى كل حال فإن الطائرات لم تستطع كشف اقتراب الكتلة الرئيسية من الجيش ألتركي التي دخلت من الطرف الشرقي للواحة، وتقدمت مختبئة وراء أشجار النخيل على طول الطريق إلى شارع الشط، ولذلك فإنني في حيرة، وأنا أرى ما يتباهى به الايطاليون كثيراً في هذه المناسبة من روعة عمليات الاستكشاف التي قامت بها طائراتهم.

ففي بادىء الأمر قام الأتراك والعرب بمظاهرة عسكرية على طول خط المواجهة ابتداء من الطرف الغربي، وفي الصحراء وإلى الجنوب مباشرة من طابية السلطانية وعلى بعد بضعة أميال من الخطوط الايطالية تقع واحة (القورجي) حيث حصل أحد الرعايا الألمان ويدعى (فون لوكوف) على امتياز ومنزل، ومنزل ذلك الالماني الذي كان يرفرف عليه العلم الالماني يبدو غريباً من نوعه، وكلما نظر إليه المرء ازداد دهشة من هذا المبنى العصري الجميل فهو يشبه كوخ فلاح هندي، يقف سليماً دون أن يمس بسوء، ويكفي نفسه بنفسه في أرض محفوفة بالخطر تقع بين جيشين متحاربين، ومن الغريب أيضاً أن الخبير الزراعي الشاب (فون لوشوف) استمر يعيش فيه.

لقد كان (لوكوف) يكره الايطاليين بعنف، وقبل القصف قامت مشاجرات بينه وبين نائب القنصل الايطالي (جاللي) ومع المراسلين الايطاليين، وقد وجه اليه الايطاليون بعد قصف مدينة طرابلس بالقنابل تهمة عقد اجتماعات ليلية في منزله مع ممثلي العدو. وهناك حقيقة لا شك فيها وهي أن (فون لوكوف) كان على علاقات ودية مع السلطات العسكرية التركية قبيل الغزو الإيطالي، وثمة حقيقة أخرى وهي أن منزله كان مليئاً بالمواد الغذائية والمشروبات كما لو كان يستعد لفترة حصار، ورغم ذلك، وطبقاً للروايات الايطالية، فإن الأتراك الذين كانوا في حاجة ماسة إلى المواد الغذائية لم يقتحموا باب (فون لوكوف) كما لم يتعرضوا لصاحب الامتياز في (قورجي)

في أثناء أبحاثه الجيولوجية.

إنني لا أعتقد أن ذلك الفتى الألماني كان جاسوساً، غير أن أعداءه الايطاليين تأكدت لهم شكوكهم عندما شاهدوا - في الثانية من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر - فريقاً من العرب غربي بيت ذلك الألماني، الذي يبدو أنهم استخدموه كمركز للعمليات. وقد وصل العرب إلى ذلك المكان من جهة الجنوب حيث (سانية ابن آدم)، وزحفوا شمالاً مختفين وراء الكثبان الرملية وأودية السيول الجافة، وسرعان ما ظهروا بوضوح عند حافات التلال يتقدمهم الفرسان، ويسير خلفهم حشد ضخم من المشاة، ولاحت في الأفق العمائم والجلاليب البيضاء الفضفاضة، كان ذلك أصدق دليل على انضمام العرب مشاة وفرساناً إلى الأتراك، وذلك لأنه كان هناك كثير من الترك ببزاتهم الأوربية الزرقاء الداكنة. إن ذلك المشهد الذي جمع بين الشرق والغرب. الشرق في تعصبه مغلفاً بمعرفة الغرب، يدعو حقاً إلى الدهشة، فالمشاة كانوا يحملون شيئاً استطاع بعض الذين يتمتعون بحدة البصر مع استخدام التلسكوب من التأكد من أن هذا الشيء كان العلم التركي. وفي المقدمة كان الفرسان العرب يتقدمون بكل بسالة وجرأة ملوحين ببنادقهم في الفضاء بينما خيولهم تعدو وكان أحدهم يحمل علماً، وتقدموا وخيولهم تعدو إلى أن صاروا على بضع مئات من الياردات من الخنادق الايطالية تاركة حوافر خيولهم زوبعة رملية في الفضاء. وفجأة ظهرت للعيان سحابة بيضاء يتخللها وميض فضي يقترن بأزيز انفجار، نتيجة انفجار قنبلة من بطارية جبلية ايطالية.

وفي الوقت نفسه ما لبثت جنود اللواء الأربعين الايطالي أن شرعوا في إطلاق نيرانهم وهم محتمون في خنادقهم الآمنة، وتبع ذلك صوت المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية التي جلبت على عجل من قلعة السلطانية، تواصل نباحها هي الأخرى، وفي الختام لم تتأخر السفينة الحربية (صقلية) عن الركب حيث غطى ضجيج مدفعيتها الضخمة على أصوات البنادق والمدافع الصغيرة. ففي كل مرة كانت شظايا مدفعية تلك السفينة ذات العشر بوصات تدك الأرض

فترتفع في الفضاء أطنان من التراب.

وإزاء هذه العاصفة الراعدة لم يصر العرب على المواجهة، ففي الواقع لم يكن في نيتهم الإصرار على المواجهة، فكل التقدم الذي أحرزوه ما هو إلا مظاهرة عسكرية قصد منها منع (كانيفا) من إرسال إمدادات عسكرية من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر من خطوط دفاعاته حيث كان الترك يدبرون له أمراً. وفي المكان الذي كان فيه الفرسان العرب ظهر شخص في رداء أبيض ملقى على الأرض، وبالقرب منه جواد جريح يحاول عبثاً النهوض، وعلى مسافة من ذلك ظهرت للعيان كومة داكنة اللون يعتقد أنها جندي تركي، وفي الأفق البعيذ شوهد حشد من الفرسان والمشاة يعدون ليختفوا وراء تل رملي، وقد ظل العدو لفترة من الوقت يطلق نيرانه على الخنادق الايطالية حيث أصيب اثنان من الجنود الإيطاليين.

وبعد ذلك شاهد بعض ضباط السفينة (صقلية) بعض الأتراك يتقهقرون إلى الوراء على طريق (زنزور) فأطلقوا عليهم النيران ليستحثوا خطى ذلك الضيف الراحل، ومرة أخرى تحدث قنابل البوصات العشر صوتاً مدوياً وتثير انفجاراتها سحابة سوداء هائلة من الدخان مثل بركان (شيموزيه) الياباني. وقد حوصر صبي يهودي وهو في طريقه من (زنزور) إلى بيته بين نيران الطرفين، وقد فقد ذلك الصبي صوابه من هول ما رأى وما سمع. وفي بادىء الأمر استلقى ذلك الصبي على الأرض، في أحد الحفر، وهو أفضل ما يمكن أن يفعله المرء في مثل تلك الظروف، إلا أنه لم يلبث أن وقف وانطلق عدواً تجاه الطليان، بيد أنه سقط على الأرض من شدة الارهاق بالقرب من الخنادق الايطالية، فأسعفه الجند وأعطوه بعض المنعشات، وعندما سئل عن الخسائر في الجانب العربي أجاب بأنها فادحة، غير انها كانت شهادة لا يمكن التعويل عليها، فضحايا العرب والترك ربما لم يتجاوزوا اثني عشر بين قتيل وجريح، وبعض الخيول التي لقيت مصرعها في أثناء القتال، فالآن ـ وكما هي العادة ـ كان تصويب الجنود الايطاليين دائماً سيئاً.

ففي التاسعة والنصف صباحاً انسحب الأتراك بعيداً، وفي العاشرة والربع توقف إطلاق النار من الجانب الإيطالي، وفي الحادية عشرة تقدمت سريتان إيطاليتان بحذر شديد على نمط المناورة العسكرية، فدخل عدد كبير منهم في بيت (فون لوكوف) بعد أن زحفوا تجاهه في منتهى الحذر والتيقظ، لأنهم كانوا يخشون الوقوع في كمين، وقد كنت أرقبهم لأرى ما إذا كانوا سينزلون العلم الالماني المرفوع على ذلك البيت، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك. وقد عاد البعض الآخر من الجند مثقلاً ببعض الأسلاب والغنائم،ومنها سرج تركي وركاب ملطخ بالدم ربما كان دم حصان، وزوج من الالجمة التالفة، وبذلة ملطخة بالدماء، ولباس تركي مدني، وسيف، وثلاثة أو أربعة قنينات، وحوالي نصف دستة من الطرابيش. كما أحضر أيضاً حصان هزيل جداً، مصاب بجروح - وفي إمكان خيالة (لودي) الايطالية العظيمة أن تسحق ذلك الحصان الهزيل بأقدامها كالطين، ولكن يبدو أن بسالة العرب التي عرفوا بها كانت هالة من السحر تحيط بهذا الحصان وتحميه، فقد ظل فرسان (لودي) الذين كانوا يتصببون عرقاً بعيدين عنه بمسافة كبيرة.

وهذا أيضاً ما فعلته تلك الجماعات الصغيرة من المشاة الايطاليين التي أخذت تواصل الزحف البطيء - وهي ترتجف وجلاً - نحو الكثبان الرملية القريبة منها،وظلوا هناك مراكز استطلاعية ومنها تمكنوا من مشاهدة حرس خيالة العدو في كل مكان وهم يمتطون جيادهم الواقفة في وضع انتصاب، على الحافة الأخرى للكثبان الرملية. غير أن الغزاة امتنعوا عن التعرض لهؤلاء البدو الجفاة.

اعتقد الايطاليون أن العدو غلب على أمره، ومن ثم نكص على عقبيه إلى (سواني ابن آدم)، إلا أن وراء ذلك القناع الصامت من الفرسان الصحراويين كان الأتراك يطوقون (بومليانة) و (شارع الشط) اللذين كان (نشأت بك) ينوي ضربهما بعنف،وقد دلت خطته على مهارة فائقة، فبعد ثلاثة

ايام بدأت فصول تلك الخطة تتضح للايطاليين، وقد وصفتها صحيفة (جورنال ديتاليا Giornale d'Italia) شاجبة إياها بأنها «وحشية» وألقت باللائمة على الأتراك على اعتبار أنهم هم الذين أعدوها بكل براعة وإتقان. ولقد أشارت نفس الجريدة إلى ذلك الهجوم على الخطوط الإيطالية الخلفية بأنه هجوم «الأصدقاء» الذين يثق فيهم الايطاليون.

فالهجوم على (بومليانة) ـ التي أصبحت الآن مقراً للقيادة العامة ـ كان تقريباً صورة طبق الأصل من الهجوم على (قرقارش)، فقد ظهر أولاً عدد من الفرسان العرب على حافة كثيب رملي، ثم انطلقوا بجيادهم نحو البئر، بينما كانت عباءاتهم ترفرفها الرياح خلفهم، وبدون أن يتوقفوا أطلقوا النار من على ظهور الجياد، إلا أن أحداً لم يصب بأذى، إنها كانت نفس الصورة من الفروسية التي يغرم بها عرب طرابلس على غرار أبناء عمومتهم في مراكش.

وبكل تأكيد لقد كانت هذه لعبة جد خطيرة، لأنه فيما يختص بالعرب كانت بومليانة أمنع وأقوى جزء محصن في الخطوط الايطالية يعج بالبنادق والمدافع. إن جنود اللواء الرابع والثمانين وقفوا صفاً متراصاً في الخنادق مع بحارة السفينة (كارلو البرتو)، وعلى الرغم من التفوق العددي عند الايطاليين على خصومهم، فإنهم أخذوا ينزلون باستمرار أعداداً من جنود البحرية في النقاط الحساسة، وعلى هذا النحو استخدموا الأسطول كاحتياطي عسكري، وكان هذا هو عونهم الوحيد، حيث لم يكن لديهم احتياطي عسكري في المدينة.

إن خطر هذه السياسة كان مزدوجاً: فأولاً لأنه إذا ساءت الأحوال الجوية فان كافة الاتصالات بالسفن في الميناء يمكن أن تتعرض للانقطاع كما حدث لمدة أسبوع كامل ذات مرة، وثانياً لأنه كان من الخطورة بمكان ترك المدينة المحتلة حديثاً تحت السيطرة الكاملة تقريباً لرجال الشرطة العربية التي كانت في خدمة السلطات التركية قبل شهر تقريباً.

ولما اقترب الخيالة العرب إلى مسافة خمسمائة ياردة من الخنادق الايطالية بادر القبطان (سافينو Savino) الذي كان يتولى قيادة البطارية البحرية في (بومليانة) بإطلاق النار عليهم، وكان على يمين بئر (بومليانة) مقر اللواء الأربعين مزوداً بعديد من بطاريات ميدان أخرى ومدافع جبلية أيضاً. وقد أطلقت نيرانا شديدة لا سبيل لمقاومتها على الفرسان العرب الذين لم يكن لديهم أية مساندة من المشاة على الإطلاق، ولذلك فإنهم ولوا الأدبار مختفين وراء أقرب كثيب رملي، حاملين معهم جرحاهم، ولكن يبدو أن خسائرهم في الأرواح كانت طفيفة بدرجة تدعو إلى الدهشة.

وبعد اختفاء العرب اتجهت سريتان إيطاليتان من الفرسان إلى (بومليانة) بعد أن تلقوا استدعاء تليفونياً، ولكنهم ـ خوفاً من أن يكون قد نصب لهم كمين ـ عدلوا عن تتبع العرب في الصحراء.

بدأ الهجوم التالي على ثكنات الفرسان الإيطاليين وقد قام به ـ كما حدث في (قارقارش) فرسان من العرب ذوو الأردية الناصعة البياض، واشترك معهم بعض الرجالة مختلطين بالجند المشاة الأتراك في بزاتهم ذات اللون الكاكي. وهنا ـ كما كان الحال في أماكن أخرى ـ فإن المغيرين ردوا على أعقابهم بواسطة نيران المدفعية، ورغم أنهم تواروا خلف التلال الرملية، فإنهم ظلوا يطلقون النار لمدة طويلة. وفي الساعة العاشرة كان كل شيء قد عاد إلى هدوئه عند ثكنات الخيالة غير أنه في تلك الأثناء كان القتال العنيف والحقيقي هو الذي وقع في ذلك اليوم في الواحة.

إن خط الواحة الممتد من ثكنات الخيالة إلى (شارع الشط) كان يسيطر عليه رجال القناصة (البرساليري) من الفرقة الحادية عشرة، أما السرية الخامسة فقد اتخذت مواقعها على شاطىء البحر في الطرف الأيسر، وإلى جانبها كانت السرية الرابعة، وكان (مانيلو جيوفاني Manillo Givanni) يتولى قيادة نصف السرية الخامسة في أقصى الطرف الأيسر بين الطريق المحاذية

للبحر وطريق القوافل إلى (تاجوراء) وإلى يمينه تَان يوجد النصف الآخر من نفس السرية تحت قيادة القبطان (بونزيو Punzio) وكانت القوة التي تهيمن على الواحة ـ وهي أضعف النقاط في الخطوط الايطالية ـ قليلة العدد وليست لها خنادق، وغير مزودة بمدفعية، وليست على اتصال ببقية الجيش.

إن قصة معركة شارع الشط حكاها الجندي الصقلي المدعو (ايفانجلستا سالفاتوري Evangelista Savatore) وهو من (رافانوسا Ravanusa) وأحد القناصة (البرساليري) الذي تمكن من الهروب من معركة شارع الشط، حكى قصة الهجوم في اليوم الثاني للمعركة بأسلوب شيق ينبض بالحياة قائلاً إنه: استيقظ قبيل الفجر على نباح كلاب الواحة الصاخب في كافة أرجاء ذلك الجزء من الواحة خارج الخطوط الايطالية، ومن الراجح أن هذه الحيوانات قد أيقظها مقدم عدد كبير من الرجال المسلحين الذين كانوا يسترقون الخطى. إن الخفر العسكري الذين كان من المفروض أن يكونوا على أتم الأهبة والتيقظ، استيقظوا من سباتهم على نفس صوت ذلك النباح المشؤوم الذي يحق لي من خلال تجربتي الشخصية أن أقول أنه ليس أكثر غرابة وكآبة من تلك الضوضاء التي تثير الأعصاب والتي عادة ما يسمعها المرء في واحة طرابلس أثناء دياجير الليل. ورغم ذلك فإن الخفر العسكري والجند لم يتنبهوا لهذا الانذار بل كانوا جميعاً غير مستعدين عندما قام العرب بعد ذلك بقليل كما ذكر (إيفانجلستا) بصب نيرانهم القاتلة.

إن المغيرين كانوا في جملتهم من العرب يعززهم مشاة اللواء التركي الثامن، لقد تمكنوا من الدخول إلى الواحة من طرفها الشرقي، ولقد لعبت أعراف وعناقيد النخيل دوراً في إخفائهم فلم تتمكن الطائرات من إكتشافهم. أضف إلى ذلك أن فرق القناصة (البرساليري) لم يبعثوا فرق استطلاع أمامية، وكما سبق أن أسلفت، فإن الايطاليين تجاهلوا اتخاذ اجراءات الحذر الأولية كتطهير منطقة على مدى النيران أمام خنادقهم.

لقد كان هذا الهجوم من الفعالية والمفاجأة بحيث لم تقم للسريتين الرابعة والخامسة قائمة بعد ذلك، ومما زاد من صعوبة الأمر بالنسبة لهم أن العرب الذين سبق أن اخترقوا الخطوط الإيطالية بدأوا هجومهم من الخلف، وأضاف (ايفانجلستا) قائلاً: «إن العرب يظهرون وكأن الأرض انشقت عنهم في كل جانب من حولنا».

وفي الساعة الثانية اتضح للقبطان (بونزيو Punzio) أنه قد فقد الاتصال مع السرية الرابعة عن يمينه، وفي الواقع كانت هذه السرية قد صارت معزولة ومحاصرة من ثلاثة جوانب، وبمعنى آخر انفرط عقد الخط الإيطالي، فالضابط (بروتشي Brucchi) لجأ مع حفنة من رجاله إلى أحد بيوت الوطنيين، وحاول أن يقوم بهجوم بالحراب إلا أنه غلب على أمره ولقي حتفه، ولم ينج من رفاقه سوى واحد أو اثنين، أما بقية رجال السريتين الرابعة والخامسة الذين يربون على الأربعمائة رجل من القناصة البرساليري فإنهم فروا على غير هدى كالغزلان الشاردة.

ومن خلال تلك الثغرة تدفق سيل من العرب المتحمسين، ثم تبعهم الأتراك الذين لم يكونوا أقل تحمساً وتعصباً، وقد حاول بعض رجال (البرساليري) الذين يبدو أنهم لم يتعلموا إلا قليلاً من اللغة العربية أن يخروا على ركبهم راكعين مرددين العبارة التي تعني اعتناقهم العقيدة الاسلامية، وهي «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، ولكن العرب لم يروا أنفسهم في مهمة تبشيرية ساعتئذ بل كانوا في حملة من أجل الثأر والغنيمة وليس من أجل كسب معتنقين جدد للإسلام. وعلى هذا النحو ازهقت أرواح هؤلاء المرتدين وعلى شفاههم إنكار للمسيحية.

حقاً، حقاً، لقد ألصق هؤلاء الإيطاليون العار بنا، ليس فقط في الحط من السمعة العسكرية الأوربية في عيون أهل القارة الأفريقية، بل أساءوا أيضاً إلى المسيحية في مواجهة الاسلام.

إن أسيراً إيطالياً واحداً على الأقل في (غريان)* كان يسلي معتقليه من الترك بتوجيه أقذع الشتائم وأشنعها للملك (فكتور) والبابا والمسيحية بل وإلى بنك روما نفسه.

لقد التفت القوات التركية يساراً لمهاجمة قلعة القائمقام في (الهاني) حيث كان العقيد (فارا Fara) قائد فرقة البرساليير الحادية عشرة محصناً تحصيناً جيداً. إن (الهاني) كان هو الموقع القوي الوحيد على خط (سيدي المصري) - (شارع الشط)، حيث إنه بين (الهاني) والبحر عند (شارع الشط) لم تكن هناك خنادق ولهذا فقد أنقذت الموقف، لأن الأتراك لم يتمكنوا من احتلالها. ولم يكن السبب الوحيد لذلك هو مناعة تلك القلعة، بل أيضاً بسبب قلة عدد العدو، فالقوة التركية العربية كانت من الضعف بمكان، حتى إنها لم تجرؤ على الهجوم على طرابلس، واختراق خطوط القوات الايطالية عند (بومليانة) و (قرقارش)، ومما زاد من ضعف العدو الذي وصل إلى درجة عدم استطاعته الاستيلاء على (الهاني) أنه بمجرد اختراق خط العقيد (فارا) فإن القسم العربي من القوة المشتركة تبعثرت وتفرقت في الواحة بحثاً عن الغنائم والصيد. إنهم كانوا يبحثون عن الصيد فرادي وفي جماعات صغيرة.

إن بعضاً منهم قام بانتزاع البنادق والذخيرة من جثث القتلى الإيطاليين ونهبوا مخازن الجيش، وتغلغل بعضهم حتى مشارف مدينة (طرابلس) وبعضهم تسلق الأشجار وسطوح المنازل ومنها أخذوا يصوبون عياراتهم على كل جندي إيطالي يمر بهم، لقد استغرق الغزاة عدة أيام قبل أن يتمكنوا من صرع هؤلاء المتسللين الذين وصفهم الجنرال (كانيفا) بأنهم «ثوار» لأنه اعتقد خطأ أنهم من سكان الواحة الذين «خانوه» بإعلان الثورة في مؤخرة جيشه.

إن نحو مائة من الوطنيين «بالواحة الإيطالية» ثاروا كما يثور محبو الثقافة الفرنسية بالالزاس واللورين عندما تقع حرب بين المانيا وفرنسا، ويجد أولئك السكان جنداً فرنسيين منتصرين بين ظهرانيهم. إن أغلبية من ادعى الجنرال

(كانيفا) أنهم كـانوا من الثـوار والذين أفضت «خيـانتهم» إلى قتل كثيـر من الأبرياء العرب، كانوا إما من العرب الذين تسللوا من خلال ثغرة (شارع الشط) أو من العـرب الذين عبـروا الخطوط الإيـطالية منـذ وقت مبكر، وفي كلتـا الحالتين فإنهم من المقاتلين العرب الصحراويين الذين لا يدينون بأي ولاء أو إخلاص للملك (فكتور عمانويل) سليل أسرة (سافوي Savoy) .

إن هذه الحقيقة صار يعترف بها الآن كل كاتب إيطالي ملتزم تناول هذا الموضوع، ولكن نظراً لأهمية هذا الموضوع وارتباطه بعملية التطهر المؤسفة التي جرت للواحة بعد ذلك، فإنني سأتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل في فصل لاحق، فإن إيضاحا لهذه النقطة ينبغي أن ينال حظه من التفصيل والدقة، أما الشرح المفصل الآن فإنه يعد خروجاً عن سير الحديث الـذي أتناوله .

الفصل الثاني

الصيد البشري في الواحة

لقد وصفت في الفصل السابق كيف تمزق شمل السريتين الرابعة والخامسة من لواء (البرسالييري) الحادي عشر، وكيف ألقوا بأسلحتهم وفروا في كل اتجاه، بعضهم إلى البحر، بينما استسلم البعض الآخر وسيقوا كأسرى إلى (العمروص) حيث قتلوا فيما بعد حينما سمع معتقلوهم عن ذبح العرب الأبرياء الذي قام به الإيطاليون في الجزء الذي يسيطرون عليه من الواحة، وقد وصل الفزع ببعضهم إلى درجة دفعتهم إلى الانتحار. ويصف (باسيليو ديرين Basilio Derin) العريف بقوات (البرساليري) كيف أن أحد الرواد في لوائه قام بإطلاق الرصاص على رأسه حتى تطاير دماغه عندما وجد نفسه وحيداً بعد أن قتل جميع رجاله أو جرحوا.

وكانت السرية السادسة من (البرساليري) قد تركت كاحتياطي في منزل يسمى (الفندق المالطي) على مسافة يسيرة خلف السريتين الرابعة والخامسة، ولكن عندما بدأ القتال تدخلت لمساعدة القوات المحصنة في (الهاني) وتركت السريتين الرابعة والخامسة لتلقيا مصيرهما، وعند حلول الليل لم يبق من الأربعمائة رجل الذين كانوا قوام هاتين السريتين غير سبعة وثلاثين، كان الجنرال (كانيفا) يعرف تماماً مدى الخسارة التي لحقت بجيشه، ولكنه قال في تقريره: «إن خسائر (البرساليري) لم تحصر بعد بدقة» كما أعلن في اليوم التالي أنه لا يستطيع حصر الخسائر، وذلك لأن معظم الجنود مشغولون في تجريد الأهالي من السلاح. إنني لا أدري إن كان الجنرال (كانيفا) قد اعترف

حتى ذلك الحين بالخسائر التي تكبدها الإيطاليون في ذلك اليوم ولكنني أعلم تمام العلم أنه كان حريصاً على إبعاد أي مراسل إيطالي يقوم بكشف ذلك فقد قام مراسل (جورنال دي سيسيليا Giornale de Sicilia) بتقدير الخسائر بستمائة قتيل مما حدا بالجنرال (كانيفا) لان يأمر بطرده خلال أربع وعشرين ساعة.

ومن ناحية أخرى فإن مراسل صحيفة (نيويورك هيرالد NewYork Herald) وهو إيطالي أفاضت الصحافة الإيطالية في نشر ثنائه ومدحه لجيش بلاده باعتباره مراسلاً أجنبياً محايداً، كما أن إنكاره لمذابح الواحة فيما بعد اعتبر - حتى في إنجلترا - إنكارا لمراسل أمريكي محايد، وقد أبرق لصحيفته بعد هذه المعركة قائلاً: «أن مجموع الخسائر الإيطالية هي مقتل خمسة رجال».

لقد كان موقف الدفاع الذي وقفه الكولونيل (فارا) في (الهاني) يعتبر أسطورة تاريخية في عالم العلوم العسكرية مما دعا إلى تكريمه والإشادة به، ولكن الواقع أن الكولونيل (فارا) بقي في (الهاني) لعدم قدرته على التحرك بقواته فيها، فقد كانت قواته محاصرة، ولوتجرأ على الخروج بها في اتجاه الواحة لفقد حياته وحياة جميع من معه من الرجال.

إن القتال الذي دار في (الهاني) و(شارع الشط) كشف حداثة وعدم خبرة الجيش الإيطالي، كما بين عجز قطاعاته المختلفة وفشلها في العمل بانسجام مع بعضها البعض، أضف إلى ذلك عجز القائد العام عن أن يكون على اتصال بأجزاء جيشه المختلفة، إن الأمر يبدو غير مفهوم إذا أخذنا في الاعتبار أن كل الجيش كان يعسكر في موقع واحد، حتى لا يستطيع المرء المرور عليه كله راكباً في ساعات معدودات. وعندما كانت قوات (البرساليير ي) يمزقها وابل من النيران في (شارع الشط) لم يكن أحد في (بومليانة) أو في رئاسة القوات في طرابلس يعلم عن ذلك شيئاً رغم سماعهم

لأصوات إطلاق النار المدوية من ناحية الواحة. لكن كان إطلاق نار آخر مروع آتيا من (فرقارش)، ومن معسكر سلاح الفرسان، كما أن إطلاق النار المتقطع العابر الصادر من الأعراب قد صار شيئاً مألوفاً وطابعاً مميزاً للحياة في مدينة طرابلس.

إنه ليس من المدهش، عندما بدأت السلطات بعد شهر ونصف من وقوع هذه المعارك في نشر الحقيقة على دفعات صغيرة للجماهير الإيطالية المسكينة التي كانت ضحية الرقابة الصارمة على الأخبار، وذلك بعد أن بدأ الناس يتساؤلون عما حدث خلال حوادث الثالث والعشرين من أكتوبر، فقد ظهر ما يلي في صحيفة ميلانية صادرة في الثامن من ديسمبر عقب محادثة هاتفية من روما:

«لقد بدأنا الآن فقط نعرف حقيقة الأحداث المروعة التي وقعت في الثالث والعشرين من اكتوبر، كما أنه توجد شكاوى عنيفة في حق (الجنرال كانيفا)، وبالرغم من أن الجنرال (كانيفا) كان يملك تحت قيادته في ذلك اليوم نحو عشرين ألف جندي، فقد سمح للعرب بالاحاطة بسريتين من كتيبة (البرسالييري) وتمزيقهما، ولم يكتف فقط بعدم اتخاذ الاحتياط لمنع حدوث ذلك، بل إنه أيضاً فشل في القيام بهجوم مضاد ربما كان من الممكن أن يسفر عن الحيلولة دون وقوع الاستشهاد الوحشي الذي أوقعه العرب بالبرساليري الذين وقعوا تحت أيديهم في موقع (الهاني).

«هنا لك أناس يشكون في حقيقة حدوث انتفاضة الأهالي في الواحة، بعد أن ثبت أن أعدادا كبيرة من الأعراب الذين اشتركوا في معارك الواحة قد اخترقوا خطوط الدفاعات الايطالية في وقت سابق. وقد توصلت وزارة الحربية إلى أنه رغم الأعتراف بفجائية انتفاضة العرب في الواحة، فإنه لا يوجد ما يبرر عدم تصرف القائد العام وفق ما تتطلبه الظروف طوال النهار، مما جعل العدو يحتل ـ بصفة دائمة ـ موقعاً من المواقع التي كانت حتى موعد الهجوم تحت سيطرة الجيش الإيطالي».

وقد يكون هذا الأمر متوقعاً. ولكنني أستطيع أن أقول ـ وبناء على نفس الرسالة ـ إنه تقرر وقتها في وزارة الحربية في روما «ألا تصل الأمور إلى درجة اللجوء إلى إجراء متطرف باستدعاء الجنرال» (كانيفا)، حيث إن هذا قد يظهر الحكومة الايطالية بأنها استجابت للسخط والنقد الذي ظهر في الصحافة الأجنبية، كما أنه قد يرقى إلى مستوى الاعتراف بحدوث المذابح، ولكن «تتم إحاطته بمؤثرات على كل المخاوف الناجمة عن عدم فعاليته في الظروف المشابهة في المستقبل» هذه المؤثرات المعنية هي على ما اعتقد إرسال الجنرال (فرجوني Frugoni) وبعض القادة العسكريين الآخرين إلى طرابلس في مطلع نوفمبر.

عندما كان القتال مستمراً في (الهاني) تجولت ـ عرضا ـ سرية واحدة من الكتيبة الثانية والثمانين مشاة لمساعدة الكولونيل (فارا) الذي كان وقتها يقاتل دون توقف لمدة ثماني ساعات. إن من أرسل هذه القوة الضئيلة لمثل هذه المهمة الخطيرة لمخبول، لقد سخر الضابط الانجليزي الذي وصف هذه المهمة في مجلة (بلاك وود ماجزين BlackWood Magazine) الصادرة في ديسمبر قائلاً: «لقد اقترح شخص ما على الكولونيل المسؤول عن الكتيبة الثانية والثمانين أن يتحرك. أما فيما يختص بالجنرال (كانيفا) فإننا لم نسمع عنه إطلاقاً خلال هذه الظروف الحرجة ويبدو أنه في فترة راحته، ولكنه قريباً سيبدأ فترة الانتقام، ولكن هذه بالتأكيد فترة ركوده. وتحت كل الظروف فقد تحركت سرية واحدة من الكتيبة الثانية والثمانين، ولكنها أوقفت وهي في الطريق عند مسجد (فشلوم) بواسطة العرب، إذ رفع أحدهم من أعلى قمة المسجد علماً تركياً فقتل لتوه، غير أن القتال حول المسجد استمر حتى الليل وفي ذلك الوقت وصل باقي الكتيبة الثانية والثمانين بعد أن مزقت لهم سرية كاملة، حتى استطاعوا اللحاق بالكولونيل (فارا) في (الهاني) وكان ذلك نتيجة لتراجع العدو.

وفي هذه الأثناء استمر العرب الذين غزوا الواحة في قصف مؤخرة الخط الإيطالي بوابل من النيران، وقد كانوا يصوبون على أي فرد من الإيطاليين يتحرك خلال أشجار النخيل، كما كانوا يطلقون النيران من خلف الأبار، ومن أعلى أشجار النخيل، وسقوف المنازل ونوافذها، ومن خلف أشجار الصبار والزيتون، وقد فسر الجنرال (كانيفا) ذلك بأنهم يعرفون الأرض اكثر من البرساليري، ولكن من المفروض أن الأخيرين كان يجب أن يعرفوا بدقة ـ بعد اثني عشر يوماً ـ كل شجرة نخيل في أي جزء من الواحة التي يسيطرون عليها. أضف إلى ذلك أن معظم العرب كانوا غرباء عن هذه المناطق، فقد وفدوا من (تاجوراء) ومناطق نائية أخرى.

لقد ادعى الجنرال (كانيفا) أن كل العرب الذين غزوا الواحة كانوا مسلحين «ببنادق ذات ماسورة من النوع الجيد» وفي الحقيقة إن بعض اسلحتهم النارية كانت عتيقة، بل إنها عديمة الفائدة في قتال مكشوف مع البنادق الإيطالية، وقد وجدت فيما بعد الأرض وقد ملئت بعلب البارود التي تعتبر مندثرة من عهد (فاينجارهل Vinegar Hill) مما يوضح أن بعض العرب كانوا يستعملون فوهات لتعبئة بنادقهم، وقد كان مكتوباً على تلك العلب الكلمة المعروفة (لندن) تحت اسم إحدى المؤسسات الانجليزية التي ازدهرت في شارع (فليت Fleet St) في أيام الدكتور جونسون)[1].

ولا عجب في أن تنفد ذخيرة العرب تحت مثل هذه الظروف القاسية مما أتاح للايطاليين فيما بعد أن يتحدثوا عن «روح الإعجاز» التي ذكرها الجنرال (كانيفا) مراراً. لقد ضرب الرجال الذين كانوا فوق أشجار النخيل أولاً وقد

---

(١) إنه من الخطأ الشائع اعتبار أن كل العرب كانوا مسلحين بمدافع جيدة، فقد قال أنور بك في إحدى رسائله «إنه مما يجعلني أشعر بالفخر أنه رغم أننا مسلحون ببنادق عتيقة ومختلفة الصنع فإننا بعد قتال دام تسع ساعات نجحنا في صد هجوم كاسح لعدو يتفوق علينا في العدد والعدة». المترجم.

تخضبت أكوام البلح الذهبية بدمائهم قبل أن تسقط أجسامهم إلى الأرض. إن الإيطاليين لم تأخذهم الرأفة بأحد، ولم يطلب منهم أحد الإبقاء على حياته، كما أنهم لم يطهروا الواحة دون أن يدفعوا الثمن غالياً، لأن العدو كان يتحرك بسرعة مذهلة، فما إن يسحق في موقع حتى يظهر في آخر، فقد كان العرب الحفاة يتحركون ويقفزون كالغزلان وقد تدثروا بملابسهم الخفيفة، أو يرقدون على الأرض ويزحفون تحت الأعشاب كالثعابين والتشبيه الأخير تشبيه إيطالي.

لقد كانت مجموعة من العرب تختبيء في مقبرة إسلامية وتمكنت من قصف الإيطاليين بوابل من النيران المتواصلة من خلف شواهد القبور، كما تمكن آخرون من إطلاق النار من خلف ضريح مسيحي صغير، فتقدم الإيطاليون نحوهم في تشكيل قتالي غير منتظم حتى تمكنوا تدريجياً من زحزحتهم عن مواقعهم، وقد تمكنت البنادق الحديثة والنيران الكثيفة من إسكات النيران العربية، فجرى المسلمون وراء الجدران، وجذوع الأشجار، وشواهد القبور والمنازل وقد رمى بعضهم سلاحه بينما قبض على بعضهم بأسلحتهم والدخان يتصاعد منها لقد كان رجلان عجوزان وشاب يطلقون النار على البرساليري من وراء أحد الجدران، وقد كان تصويبهم سيئاً ويستغرقون وقتاً طويلاً في تعبئة بنادقهم، وبما أنهم كانوا في موقع مكشوف فقد أمكن تطويقهم بسهولة، فقذف الشاب ببندقيته بعيداً بينما كان ستة من الجنود الايطاليين يقفزون فوقه، وفي لحظة كان قد تم القبض على الثلاثة وقيدوا من أياديهم إلى بعضهم البعض، وقد قدم العجوزان ـ اللذان كان أحدهما جريحاً ـ أياديهما طوعاً للقيد ولكن الشاب قاوم تحت تأثير الفزع وليس بقصد الرفض، فما كان من أحد الجنود الإيطاليين وهو ممتلىء الجسم إلا أن ركله في بطنه بينما أمسك جنديان آخران بيديه وقيداهما بشدة إلى أيدي رفيقيه. كان الكولونيل في هذا الوقت على ظهر حصان خلف حائط، فكان حكمه مختصراً: «اعدموهم» وقد منّوا على الأسرى بلحظات قصيرة؛ ليهيئوا أنفسهم للموت وحبسوا جميعاً على مرتفع رملي بينما الجنود يحيطون بهم وقد اشهروا

سيوفهم، كان العجوزان ينظران نحو الصحراء في صمت وثبات، وقد تجمدت شفاههما، بينما رفع الشاب رأسه وأخذ يردد شيئاً بسرعة طوال الوقت، وعندما حانت لحظة النهوض ركل عريف الشاب في ظهره بقسوة جعلته يقفز فجأة ليقف على قدميه، ولكنه سقط على الأرض مرة أخرى نظراً لأن يديه كانتا موثقتين إلى يدي رفاقه. فجرهم الجنود من سواعدهم وساعدوهم على القيام، وقد ظهرت وقتها بركة من الدماء على الأرض حيث كان الرجل الجريح يجلس وقد شحب لون بشرته مما يؤكد أن روحه ستخرج عما قريب، ولا بد أن يكون الألم قد وخزه عندما وقف على رجليه، وذلك لأنه كشر وجهه بصورة لا إرادية بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة شاحبة وقد امتقعت شفتاه.

أمر الجنود المجموعة بالسير نحو الصحراء فأطاع العجوزان الأمر فوراً، وقد ساعد السليم منهما المصاب الذي بدأت خطواته تتعثر، وقد غطت عينيه غشاوة من الخوف. كان الشاب يقاوم متوسلاً لهم أن يبقوا على حياته فما كان من أحد الجنود إلا وقد عاجله بضربة على وجهه، ولم يكن في استطاعته أن يتفاداها نظراً لأنّ يديه كانتامقيدتين،فاندفع الدم من فمه وأنفه، وبينما كان يتقدم مع رفاقه لفظ بضعة أسنان من فمه فضحك الجنود. وقد كان أحدهم يحاول أن يركل السجين مرة أخرى، ولكن تدخل أحد الضباط واقتاد الجندي بعيداً موجهاً إليه كلاماً عنيفاً.

توقف إطلاق النار من جانب الأتراك الذين اختفوا عن الأنظار وبقيت الصحراء صامتة تماماً كعادتها حيث لا يوجد فيها أثر للحياة، وقد أخذ أثنا عشر جنديا مواقعهم في الخنادق، وأسندوا بنادقهم على غرائر الرمل بينما كانت مجموعة أخرى من الجنود تجر الرجال العرب الثلاثة نحو الصحراء وقد صاح فيهم أحد العرفاء قائلا بالعربية «برا» وهي كلمة عربية فظة معناها «اخرج» وهي عادة الاصطلاح العربي الوحيد الذي يتعلمه الأوربي عندما يفد إلى طرابلس، وعادة ما يتعلمها للدفاع عن نفسه ضد الحاح المتسولين الذين يطاردون الناس في الطرقات.

سار العجوزان بثبات في الصحراء، وأنظارهما ثابتة نحو السماء، بينما كان الرجل الجريح في الرمق الأخير، والدم يلطخ مواطىء أقدامه، وبالرغم من ذلك كانت تعلو وجهه ابتسامة المنتصر، والتفت الشاب وحده إلى أعدائه، واستمر يلح في طلب الرحمة ولكنه لا يستطيع أن يدير جسده كاملاً نحوهم نظراً لأن يديه مقيدتان إلى أيدي رفاقه، وقد أخذ الجنود يوجهون إليه الإهانات والمزاح البذي، بينما هو ينظر إليهم من فوق كتفه، وفجأة انقطع مرحهم بصوت حازم مرتفع آمراً متوعداً، وقع عليهم كما لو كان قضيباً من الحديد، قائلاً: «فوكو Fuoco » ومعناها الأمر باطلاق النار.

لقد سار الرجال التعساء الثلاثة نحو اثني عشر قدماً، بينما يحيط بهم الجنود من كل جانب خوفاً من أن يهربوا، وانطلقت اثنتا عشرة طلقة مرة واحدة، وفي نفس الوقت سقط السجناء الثلاثة على بعضهم ككومة على الرمال.

تقدم أحد المصورين الأوربيين نحوهم، وعندما وجد أن الشاب لم يفارق الحياة بعد رغم أنه مغمى عليه، وهو مصاب إصابة خطيرة، أخبر الإيطاليين بذلك، فاقترب أحد الجنود من كومة اللحم على الأرض، ووضع بندقيته على جمجمة الشاب وأطلق النار عليها حتى تطاير دماغه، لقد علقت بملابس الجندي أجزاء من مادة مخه، ولحم، وعظم، ونتف من الجلد، وظلت عالقة بسروال الجندي، فبدأ شبيهاً بالقصاب، بينما كان الدم يندفع كالنافورة من الجمجمة المحطمة، وقد تسرب في الرمال البيضاء العطشى سريعاً، وبنفس الطريقة شربت الصحراء العطشى دماء الرجلين العجوزين اللذين كان أحدهما يرقد على ظهره شاخصاً ببصره إلى أعلى، بينما كانت ابتسامة النصر مرتسمة على شفتيه، وفي عينيه تبدو نظرة شهيد مسلم، وقد رأى أخيراً جلال رسول الله وعظمته، بينما كان العجوز الثاني يرقد ووجهه إلى الأرض تحت جسد رفيقه، إن الصحراء التي أتوا منها قد رويت بدماء حياتهم، إن الصحراء أمهم الكبرى، ستنتقم لهم حتماً.

لقد تبع صدّ العرب شعور بالانتقام لدى الإيطاليين، الذين كانوا مقتنعين بأن الأهالي الذين أقضّوا مضاجعهم في الواحة هم جميعاً من العرب الموالين لهم، والذين كانوا يسكنون حول المدينة،وعلى علاقة طيبة بهم حتى ذلك الوقت.

لقد كتب السنيور (جيوسيبي بيفيوني G. Bevione) في صحيفة (ستامبا Stampa) قائلاً: «ولقد كان هنالك رد فعل عنيف بين رجالنا بمجرد أن اقتنعوا بأن من يوالونهم قدخانوهم، فصاروا يطلقون النار بلا رحمة على كل عربي يقترب منهم بشكل مريب». إن هذا يعني بالطبع أنهم أطلقوا النار على العرب أيا كانوا: على أصحاب المتاجر الصغيرة العائدين من طرابلس، وعلى الأهالي أصحاب البغال، والمزارعين والعمال وذلك لأنهم جميعاً يرتدون نفس الزي الذي يرتديه العربي المقاتل. إن هذا يمكن أن يكون خطأ طبيعياً وكان في استطاعتي أن التمس له العذر لولا أنه استمر أربعة أيام دون أن يبذل الجنرال (كانيفا) أي جهد لأيقافه، ولهذا فقد وصل إلى ذروته في اليوم الثالث، وصارت أبعاده تتسع بشكل رهيب.

لا توجد صرخة تثير جيشاً حلت به الهزيمة بسبب أخطائه مثل صرخة الخيانة، ومن المحتمل أن جيشاً لاتينياً كان من الممكن أن يطلق هذه الصرخة باقتناع أكثر من غيره، غير أن الجنود الإيطاليين هذه المرة يعتبرون أنهم قد خدعوا، ولم يقم الجنرال (كانيفا) ـ الذي يعرف سر ما حدث منهم ـ بتنويرهم، كما أنه لم يبذل أي جهد ليجنب العرب المسالمين عواقب هذه الصرخة الرهيبة، مما حدا بالمهيجين الوطنيين في إيطاليا أن يصفوا الجنرال (كانيفا) بالخرف ويطالبوا باستدعاءه. وأعتقد أن الخوف هو أفضل تفسير لعدم مبالاة القائد الايطالي في هذه الأحداث.

إن تطهير ضاحية الواحة بعد رأب الصدع في خط الدفاع الإيطالي لم يكن أمراً صعباً، فقد انطلق الرواد والعقداء والجنود في شجاعة خارقة

مقتحمين منازل العرب الآمنين العزل من السلاح، والذين كانوا يطهون طعامهم المتواضع المعروف (بالكسكس) للعشاء، وإذا بأصوات المسدسات والبنادق تنطلق من حولهم تطالبهم بالاستسلام مع عبارة «تحيا إيطاليا»، وتهشمت الأبواب والنوافذ، واستمر إطلاق الرصاص، واندفع الضباط الملتحون، وهم في حالة هياج يتحركون في كل مكان كممثل في مسرحية درامية. ولقد ذعرت النسوة العربيات الطاعنات في السن، وقد روعتهن هذه التظاهرات الرهيبة، بينما بدأ الأطفال الصغار العراة في الصراخ والعويل. ويبدو أن الجنرال (كانيفا) كان يشير إلى هذا الجزء من المعركة عندما كان يطري روح الشبات والشجاعة والتضحية التي أبداها جنوده.

ولقد كان الضباط والجنود قساة على العرب بشكل عام، مما دفعهم إلى إعدام كل عربي، وكان الجنود يصفعون أسراهم من العرب على وجوههم، فقد أخبرني المستر (ماجي Mage) مراسل (الديلي ميرور Daily Mirror) أنه شاهد ضابطاً إيطالياً وهو ينخس بسيفه أسيراً عربياً بشراسة بين فخذيه، وطوال الوقت كانت تتدفق من شفتيه سيول من الشتائم البذيئة التي أعتقد أن المعتدى عليهم لم يفهموها.

وسارت الأمور على نفس المنوال في اليوم التالي، وظلت كذلك منذ ذلك الحين، فقد صار سوء معاملة هؤلاء الأهالي التعساء ـ المذنب منهم والبريء ـ إحدى سمات الحياة في شوراع طرابلس، مثلما كان سوء معاملة الخيول سمة الحياة في شوارع نابولي.

لقد شاهدت في مدينة طرابلس جنوداً يدوسون على خوان حلوى على الأرض كان صبي عربي يتجول بها بهدف كسب بضع ملليمات من بيعها لرواد المقاهي، لقد سمعت ذلك الصبي يبكي كمن انفطر قلبه عندما رأى كل رأسماله وقد انتهى، ولكن هناك شيئاً واحداً لم أشهده على الاطلاق ذلك أنني لم أر أي ضابط أو مدني ينحاز لأحد هؤلاء الصبية.

لقد حدث أن كان على ظهر السفينة التي غادرت على متنها طرابلس أسرة تركية كان يرافقها خادم مسلم يحمل لها أمتعتها، فما كان إلا أن تحرش به أحد صغار الكتبة ممّن كانوا على ظهر نفس السفينة، وأثار موجة من الكراهية نحوه، فأعتقل في الحال، وتم تفتيشه في غرفة التدخين بالسفينة، ولو كان قد وجد بحوزة هذا التركي التعيس سكين لتم طرده إلى الساحل فوراً، ولكنه ـ لحسن الحظ ـ لم يوجد معه أي سلاح، فأطلق سراحه دون أدنى اعتذار عما لحقه من مهانة واحتقار، ورغم هذا فإن الإيطاليين في حيرة من عدم حب العرب لهم.

لقد فتشت كل المنازل وبعثرت محتوياتها، وجمع كل الأهالي في مجموعات وأرسلوا إلى المدينة، ولم أر تجمعات بشرية أكثر بؤساً من تلك إلا نادراً، فقد كان الرجال يرتدون أسمالا ممزقة، بينما قيدت أيديهم خلف ظهورهم وكانت الدوافع وراء اعتقالهم هو وجود بندقية قديمة أو عيار ناري في منزل أحدهم، ولكن ذلك ـ كما سأوضح فيما بعد ـ لم يكن دليلاً على أنهم مذنبون، ذلك أن كثيرين من الأعراب اعتقلوا لأنه عثر في منازلهم على سكاكين وشفرات أو خراطيش فارغة، ولم يوجه لعدد كبير من المعتقلين أي اتهام سوى أنهم عرب، وسوف أتطرق إلى هذا الموضوع فيما بعد.

ومن الأماكن التي وجد بها سلاح حانة، وقد نحتت عبارة «حانة» بالإيطالية على حجر عند الباب، «كان العلم الإيطالي يرفرف من أحد شرفاتها، وآخر فوق سطحها، وقد عثر الجنود على مبالغ كبيرة من المال في هذا المنزل فقاموا بمصادرتها، كما وجدوا أيضاً سلاحاً أو تظاهروا بأنهم وجدوه، كما قاموا باعتقال عربيين وجدا في هذا المبنى، وأخذ الجنود العلم الإيطالي الذي كان يرفرف من فوق الشرفة، وقدموه بمزاح إلى أصغر العربيين ليقبله ولكنه عضه بدلاً من أن يقبّله في محاولة لتمزيقه بأسنانه، وقد أدى هذا التصرف منه إلى سجنه فوراً، أما ما سوف يحدث له مستقبلاً فانني لا أعرفه، ولكنني لا أجد في نفسي حماساً على المراهنة على أنه حي يرزق حتى الآن.

وكان كل رجل تقيد يداه خلف ظهره، كما كان العرب الخلص هم
الغالبية بين الجماهير، ولكن كان من بينهم أيضاً عدد من الزنوج سود البشرة،
كما كانت توجد عدة تشكيلات فيما بين هذين النقيضين. كان عدد كبير من
النصبية العرب يسير بين المعتقلين، وقد تم فيما بعد إعدامهم مع المعتقلين،
وكانت كل مجموعة يحرسها جنود إيطاليون وقد شهروا أسلحتهم.

وفي المساء كان الخطباء الإيطاليون المتعصبون يخطبون في المقاهي
والمعسكرات والمحلات العامة، يتهمون كل من وقع في أيديهم من عرب
الواحة بأنهم ثوار وخونة. إن هذا رأي واحد فيما حدث، ولكنه ليس رأيي،
ففي مساء الثالث والعشرين من أكتوبر جلست وكتبت ما أشعر به إزاء هذا
الموضوع، وقد بعثت برأيي إلى صحيفة أمريكية محترمة، كانت قد بعثت بي
إلى طرابلس لكي أوافيها - فيما أظن - بصورة قلمية سارة عن عمليات
الإيطاليين، ومقالات مصورة بهدف كسب رضاء الجالية الإيطالية في نيويورك،
وهي جالية لا يمكن أن يستهان بإعلاناتها واشتراكاتها حتى لدى مديري
الصحف الكبرى اليومية الأمريكية، (أما بدو الصحراء فلا إعلانات لديهم
ولهذا فهم كم مهمل من وجهة نظر إدارات الصحف).

إن ماكتبته لم ينشر، ولكنني سأذكره الآن:

«لقد اتهم الإيطاليون بالخيانة كل العرب الذين هاجموهم اليوم ولكنني
لن استعمل هذا الوصف حتى بالنسبة لعرب الواحة المسالمين، الذين حملوا
أسلحتهم وأطلقوا النار بشجاعة على (البرسالييري)، بل إنني على العكس
أعتبرهم أبطالاً في مثل عظمة (برشيا Bersica) أو (ماتزيني Mazzini) أو
(غاريبالدي Garibaldi) أو (واشنطون Washington) أو (وليم تل W. Tell)
إن لهم ألف حق في أن يطلقوا النار على كل إيطالي من خلف الحواجز، أو
الأسوار، أو شواهد القبور أو الأشجار، أو أي شيء آخر يحتمون وراءه. إن
الإيطاليين لم يحضروا إلى بلادهم ضيوفاً عليهم، كما أن العرب لم يخرقوا

عرف كرمهم التقليدي عندما قاموا بضرب مختصبي بلادهم مثلما يضربون الكلاب المسعورة».

سأتعجل قليلاً لأروي كيف عومل بعض العرب الناجين من هذه المعركة، إن أربعة عشر جندياً عربياً كانوا قد اقتحموا الواحة وجرحوا هناك، قد تمكنوا من الزحف نحو المدينة واللجوء إلى فندق محلي، وقد أفشى أحد اليهود الخائنين سرهم إلى الايطاليين مقابل بضعة دراهم، فتم اعتقالهم فوراً وحوكموا وشنقوا علناً في الشوارع بحجة أنهم جواسيس مارقون. وقد نفذ الحكم فيهم بكل ما يمكن من أبهة، وقد جلس أحد القساوسة الفرنسسكان على كرسي في موقع ظاهر، ولست أدري ما السر وراء جلوسه، وقد ألصقت على صدر كل جثة من الجثث ورقة توضح أن صاحبها قد أعدم جزاء إطلاقه النار بخيانة وغدر على مؤخرة الجيش الإيطالي في الثالث والعشرين من أكتوبر، هذا على الرغم من أن هذه التهمة لم تثبت ضد هؤلاء الرجال، الذين كانوا ولا شك من الجيش العربي المتمركز في الصحراء الذي اخترق مؤخرة الجيش الايطالي.

ولقد كان الحكم على هؤلاء الرجال مجحفاً لدرجة أنه أثار سخط بعض الايطاليين المتعصبين، فلم يكن هناك من يؤيد الحرب عند اشتعالها مثل النائب الصقلي (دي فيليس De Felice)، ولكنه بعد أن رأى كل الشنق، واطلع على البيانات والأدلة التي بنى عليها الحكم كتب إلى صحيفة (سيكولو Secolo) التي تصدر في ميلان قائلاً:

«لقد أيدت الحرب لأنني كنت أعتقد أنها عمل من أعمال الحضارة، ولكنني أرى الآن أن هذا العمل قد نفذ بواسطة المشانق. إن الحكم الذي سلم للجلاد هؤلاء الرجال الأربعة عشر كان خرقاً واضحاً لأسس وقواعد قانوننا الجنائي الذي لا يسمح بعقوبة الأعدام حتى في أوقات الحرب. إن ذلك القانون يسمح بتوقيع عقوبة الإعدام فقط في حالات نادرة، ولكنه لا يسمح بالشنق إطلاقاً، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأحكام التي اعترض عليها بنيت على

كراهية وحقد أعمى جعل هؤلاء الرجال مسؤولين عما وقع في الثالث والعشرين من أكتوبر، لقد اطلعت على حيثيات الحكم واقتنعت بأنه لا توجد أدلة دامغة تثبت تلك الاتهامات.

«ولقد كان أهم شاهد عيان على التنفيذ هو النقيب (التينا Altina)، وبناء على روايته قال إنه عاش بين العرب نحو سبعة عشرعاماً، وأنه على معرفة تامة بالشخصية العربية، وقال إنه يعتقد أن هؤلاء العرب مذنبون بسبب الطريقة التي كانوا يجيبون بها على اسئلته، وبسبب سلوكهم الذي كان بليداً أحياناً ومخادعاً أحياناً أخرى، وأضاف هذا الضابط قائلاً إن المسلم عندما يقسم بالقرآن فإنه لا يرتجف إن كان بريئاً، ولكن إذا ارتجف يكون بالتأكيد مذنباً.

«إن هذا ليكفي للتدليل على صحة شهادة النقيب (التينا). لقد كان في نيتي أن اكتب في القريب تسجيلاً كاملاً عن المآسي التي وقعت في تلك الأيام، وأن أوضح أن مسؤولية سفك الدماء في هذه المعارك كانت تقع على رؤوس هي أكبر بكثير من النقيب (التينا)، إنني أرغب في معاملة شريفة للشعوب المنهزمة، ومراعاة قوانين الدول وعدلها، وليس غضب المنتصر.

إذا كانت إيطاليا قد ذهبت إلى طرابلس باسم الحضارة والمدنية فقد كان يجب عليها أن تكون رسول العدالة، وإذا لم تكن كذلك وشغلت نفسها بإقامة المشانق بدلاً من نشر لواء العدالة، فإنني لن أتردد لحظة في أن أعلن أن إيطاليا قد أضرّت بالقيم التي حاربنا من أجلها، وأن الحماس من أجل نشر المدنية والحضارة التي تذرعت بها الحكومة الإيطالية للقيام بهذه الحرب لم يكن سوى كذبة مخزية ولا أخلاقية.

لقد حاولت الحكومة الايطالية أن تجعل جنودها يصدقون أن مغامرة طرابلس إنما هي حرب صليبية، وأن مهمة الجنرال (كانيفا) هي إعلاء كلمة الصليب في بلاد ملحدة، ولكنه بدلاً من ذلك نشط في القتل والتشريد والشنق والسجن، كما أن موسيقى نصره كانت هي أصوات الأصفاد، وهي لم تكن

أصفاد سجناء اعتقلوا في حرب عادلة متكافئة، ولكنها أصفاد جنود أتراك أنهكهم المرض، وانتزعوا من مستشفيات طرابلس وأرسلوا إلى إيطاليا للاحتفال بعيد روماني».

الفصل الثالث

الفزع الأكبر

منذ منتصف نهار يوم الثالث والعشرين من أكتوبر، وبعد صباح مليء بالعمل والتوقيع على الأوراق الرسمية كان الجنرال (كانيفا) يمد رجليه تحت مكتبه المريح في القلعة وهو سعيد لعدم معرفته أن شيئاً غير عادي قد حدث في (شارع الشط) بينما كان الأهالي في طرابلس قد علموا بطريق غير معروفة بأن خطوط الدفاع الإيطالية قد اخترقت وأن الأتراك قد وصلوا إلى الواحة، وكان من نتيجة ذلك انتشار الرعب والفزع بين الضباط والجنود والعاملين في المعسكرات مع الجيش الإيطالي حتى إنهم كادوا يفقدون عقولهم، وسأحاول أن أصف هذه المأساة الهزلية بالتفصيل وذلك لما لها من تأثير مباشر على المذابح التي تلت، كما أنها توضح كيف أن الجيش الإيطالي من السهل استجابته للرعب الأحمق، كما أن تطهير الواحة قد تم في غمرة موجة من هذا الرعب الأحمق.

لقد كنت أتناول طعام الغداء في حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم في فندق (مينرفا) حين حدث اندفاع جنوني في الطريق، فقد مرت أولاً عربة وبعدها مر جندي محمول والدم ينزف من وجهه، وقد اختفت العربة والجندي دون أن أتمكن من الاستفسار عنهما، ولكن من مصدر مجهول ويحتمل أنه واحد من السفرجية الذي كان يتحدث مع أحد الطباخين انطلق تفسير غريب، وصار يدور حتى وجد القبول لدى الجميع وهو:

١ ـ أن العربة مليئة بالعرب الذين يطلقون النار يميناً ويساراً.

٢ ـ وأن الجندي قد أطلقت عليه النار من إحدى النوافذ المجاورة، وبعبارة أخرى لقد ثارت المدينة. لقد انتفض العرب على الأوربيين من النوافذ، لقد كان هذا مضمون الأخبار التي كان أحد الأشخاص في أحد الممرات يوصلها إلينا بأعلى صوته وفي الحال انتفض الموجودون في حجرة الطعام المكتظة وقاموا كرجل واحد واندفعوا نحو الباب، وأستطيع أن أقول ـ بدون مبالغة ـ أن النزلاء قد انفضوا كأن قنبلة سقطت بينهم.

لقد بقيت مع صديقي الألماني، وكنا نحن الأثنين الوحيدين من غير الإيطاليين ظللنا جالسين، وكان ذلك يرجع إلى أننا شهدنا مثل هذا الهلع والرعب يسيطر على الإيطاليين من قبل، ومن ناحية أخرى فإننا كنا جياعاً بدرجة كبيرة. في هذا الوقت كانت هناك جلبة، وفوضى، واضطراب بين أناس مذعورين يمرون أسفل النافذة المطلة على الشارع، وقد أخذت طلقات مسدس تتردد في الخارج، أما في داخل الفندق فقد هرع الضباط إلى أعلى لأمر ما، ثم نزلوا الدرج مرة أخرى، وقد شهروا مسدساتهم عالياً حتى إنني صرت قلقاً على سلامتي، ثم اندفع الضباط إلى الشارع، ووقتها حاولت أن أتناول قليلاً من الطعام، وربما أكون قد حاولت رفع الأطباق، وذلك لأن النزلاء المالطيين كانوا جميعاً يتجادلون برعب في الشارع.

وكان يجلس على المنضدة المقابلة لي مدني إيطالي وهو ـ على ما اعتقد ـ صاحب صحيفة، وقد اكفهر وجهه الذي يعلوه منظار، ثم اختفى فجأة، وعندما نظرت من خلال النافذة المطلة على الشارع ألفيته في وسط جمع كثيف من الإيطاليين، وهو يقفز كدب على حديد ساخن، ويبدو أنه أخذ يرتفع إلى أعلى ثلاثة أقدام في كل مرة يقفز فيها، وقد كانت يداه ورجلاه تدوران في الهواء كطاحونة هواء، بينما ظل المنظار رغم كل هذا مثبتاً على عينيه، بينما كان يقف بالقرب منه صاحب الفندق ويداه تضربان الهواء كمدرس الحنطة، بينما انطلق صوت: بانق، بانق، بانق. هل هذه أصوات الآلات الشيطانية وهي تدور أم هي طلقات مسدس؟ إنها لا هذه ولا تلك،

إنما أبواب ونوافذ تغلق على طول الطريق، بل إن بعض التجار لم يغلقوا أبواب متاجرهم فقط، بل إنهم سمروها من الخارج، حتى صاروا لا يستطيعون فتحها فيما بعد إلا بالعتلات. بينما أخذت النساء المالطيات يغلقن نوافذ حجرات نومهن ويكوّمن الأثاث خلف الأبواب حتى إن المرء ليسمعهن وهن يسحبن الأسرة والأرائك وبعض الأشياء الثقيلة الأخرى في غرفهن.

لم يكن للرجل الإيطالي العادي في أي وقت من الأوقات صوت رقيق. أما في طرابلس على الأطلاق فيبدو أن الطبيعة قد حبته بصوت يشبه بوقاً مشوشاً، إن مثل هذا الصوت قد يكون صالحاً إن لم يكن رخيماً على سفن بعيدة في البحر، ولكن عندما تنطلق مجموعة من هذه الأصوات مرة واحدة في حجرة طعام صغيرة، فإن تأثير ذلك يكون شديداً جداً، وفي الحالة التي نحن بصددها كان الهدير مرعباً حتى اضطررت لأن أضع أصابعي في أذني، ورغم ذلك فقد كان في استطاعتي أن أسمع صوت الآنسات المسيحيات وهن يغلقن المزالج على أنفسهن في خدورهن. لقد كان لفظ: الأتراك، الأتراك، الأتراك يتردد في كل الجوانب، وبكل طبقة من طبقات الصوت من الطفل الرضيع إلى الرجل الطاعن في السن. لقد كان الشعور السائد والمؤكد أن العثمانيين قد اقتحموا الخطوط الايطالية ودخلوا المدينة، بينما كان حلفاؤهم العرب يعاونونهم بإطلاق النار من على أسطح المنازل ومن خلال النوافذ، فيا للرعب الذي يثيره لفظ التركي حتى في وقت ضعفه، وإزاء توسلات الفتيات المسيحيات العذارى فإن سلوكه كان لا بد أن يكون حازماً.

وبعد أن فشلت في الحصول على قليل من الحساء أكلت خبزاً وجبناً ثم اندفعت إلى الشارع، وشعرت وكان قدمي قد فارقتا الأرض من شدة الاندفاع الجنوني الذي يسير به الناس متجاوزين باب الفندق. إن الشارع كان مكتظاً بكل الأنواع البشرية، ويمكنني أن أتبين في وسط هذا الحشد الكبير الطرابلسيين، والقبعات، والعمامات، والقبعات المصنوعة من السعف، وأنواعاً مختلفة من الشعر. إن الفناء الواقع أمام الفندق كان يبدو وكأنه قد سكنته

مجموعة من أشرس المجموعات على الأرض، إن مثل هذا الرعب والهدير لم يقدر لي أن أشهده في حياتي من قبل.

لقد احتشدت مجموعة من الرجال والنساء والأطفال أمام باب القنصلية الفرنسية وهم يدقون على الباب مطالبين بالسماح لهم بالدخول، وقد كان من بينهم مالطيون، وإيطاليون، ورعايا فرنسيون من تونس، والجزائر، وأتراك، وعرب وخاصة اليهود. هذا وقد سبق هؤلاء المئات من البشر إلى داخل القنصلية عن طريق النوافذ والسقوف المجاورة والشرفات القريبة.

وفجأة انفتح باب القنصلية وظهر على عتبة الباب المسيو (سيون Scon)، وهو رجل نحيل أشيب الشعر متقدم في السن، فتراجع الحشد إلى الوراء ليس فقط لأنه القنصل، ولكن لأنه كان أيضاً يحمل مسدساً في يده، وصاح قائلاً: ماذا تريدون؟ فكانت إجابة الجميع: اللجوء، اللجوء، اللجوء... الأتراك... الأتراك، فالتفت القنصل إلى حرسه العربي المزركش الثياب قائلاً: «افتح الأبواب الداخلية وامنح الحماية لكل هؤلاء الناس، وعندما تنتهي من ذلك ارفع العلم فوق السارية».

إنني لست بحاجة إلى القول بأن رفع العلم تمارسه كل القنصليات والمفوضيات في حالات الطوارىء الخطيرة، مثال ذلك عندما يجتاح المدينة جيش غاز. لقد كان حرس القنصلية يرتدي البزة الفرنسية الفاخرة وبالرغم من ذلك فإنه ما إن ظهر على سقف القنصلية لرفع العلم مثلث الألوان حتى أطلقت عليه النار مجموعة من الجنود الإيطاليين من على سقف مدرسة مجاورة، وكان من بين هؤلاء الجنود رهبان فرنسسكان ظنوا أن الحرس ربما كان عربياً صعد فوق السطح من أجل تصيد المارة في الطريق من تحته. إن هذا الحادث يعد أحد الشواهد على العشوائية التي استخدم بها الايطاليون مسدساتهم، كما أنه ينهض دليلاً على قتلهم الجماعي للعرب الأبرياء في السادس والعشرين.

لقد نجا الحارس دون أن يصاب، ولكن القنصل احتج لدى الجنرال (كانيفا) الذي اعتذر له مؤكداً أن مثل هذا العمل لن يتكرر مستقبلاً، ويجدر بي أن أذكر هنا أن الحكومة الفرنسية قد أظهرت قدراً كبيراً من الاحتمال إزاء الإيطاليين خلال هذه الحرب. فلم يتحدث ولا القليل من الصحفيين الفرنسيين عن مذابح الثالث والعشرين والسادس والعشرين من أكتوبر، إذ أن بعض المراسلين الصحفيين الفرنسيين في إيطاليا لم يكتفوا فقط بغض النظر عما يدور بل ونفوا حدوثه إطلاقاً لقد كان واضحاً من أول وهلة أن فرنسا تسعى جاهدة لأن تجعل كل فرنسي موالياً لايطاليا حتى تنجح سياستها الرامية لفصل طرابلس عن باقي المنطقة من حولها.

وباستثناء حادثة أو اثنتين فإن الفرنسيين في إيطاليا لا يأبهون مطلقاً لقتل العرب بل كانوا فقط يفكرون في لإلزاس واللورين، كما أن الحركة المعادية للإيطاليين بين الألمان جعلت الفرنسيين يفركون أيديهم من الفرح، كما جعلتهم يعلنون تأييدهم السافر للأيطاليين بشكل لم يسبق له مثيل. فلماذا ـ وفي مثل هذه الظروف ـ قام الإيطاليون باحتجاز البواخر الفرنسية فيما بعد؟ إن هذا التصرف غير مفهوم إلا على أساس أنه أحد التصرفات الناجمة عن حالة الفوضى والاضطراب السائدة في روما عن إدخال الأتراك للذخائر والأسلحة بل والجنود عبر الحدود التونسية، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل احتجزوا حتى السفن المحملة بالأغذية، وسمحوا للسفن الايطالية المحملة بالأطعمة بالابحار من تونس إلى مدينة طرابلس، بينما كانت فرنسا تقوم بتصنيع الطائرات لحساب الحكومة الايطالية.

لقد اكتظت القنصلية الإنجليزية باللاجئين أكثر من مثيلتها الفرنسية، وقد ساد الرعب والهلع في الحي اليهودي المجاور لها، بينما كان إطلاق النار من جانب الجنود الايطاليين عنيفاً في السوق المقابل للقلعة، وقد امتلأت أسطح القلعة والمنازل المجاورة لها بالجنود، وكان هناك تدافع شديد طلباً للنجاة في المساجد، والمعابد اليهودية، والكنائس، بل وحتى في السفن والقوارب الراسية

في الميناء لقد كان هنالك مدفع رشاش يطلق النار باستمرار في وسط السوق الكبير الواقع على ساحل البحر، كما جرى إطلاق نار متفرق في جميع أنحاء المدينة، وقد كان إطلاق النار هذا كله صادراً من الجنود الإيطاليين المذعورين. لقد تدافع حراس المستشفيات، والحجاب وعمال الرصيف والجنود المتمركزون في المباني العامة شاهرين بنادقهم يطلقون النار يميناً ويساراً، دون أن يكون لديهم أحياناً أدنى علم عن كنه ما يدور أو لماذا تسابقوا مذعورين.

لقد كان البرساليري الصقليون يتعثرون في الطرقات والدم يقطر من على رؤوسهم قائلين إن النار أطلقت عليهم خيانة وغدراً على الجبهات ويحثون رفاقهم من الجزيرة على الانتقام من العرب، واندفعوا لقتل بعض الأهالي، ولذلك فإن رفاقهم من سيراكيوز وبالرمو شهروا أسلحتهم، وهكذا انقلبت الحرب فجأة إلى ضغائن صقلية لسفك الدماء بينما كان الجنرال (كانيفا) على جهل تام بكل ما يدور، أو ربما كان مع الكابتن (سكوت Scott) في مناطق القطب الجنوبي، حيث إنه لم يكن هناك دليل على وجوده، ويبدو أن فترة ارتخائه لم تنته بعد.

لقد امتلأت الشوارع بمجموعات غير منظمة من الإيطاليين والعرب والأرمن واليهود كل يرتدي زيه الوطني، أما اليهود فقد كانوا أكثر المجموعات رعباً لتأييدهم السافر للإيطاليين وخوفهم من عودة الأتراك، واعتقاداً منهم بأني إيطالي فقد رمى بعض نساء اليهود أنفسهن تحت قدمي طالبات أن أحميهن محاولات قدر استطاعتهن أن يبدين مسيحيات، وقد بذلت ما في وسعي لطمأنتهن، بينما بدأ أحدهم يعض صبياً عربياً مسالماً كان في خدمة زميلي الكولونيل (بافلوف Pavloff) مراسل صحيفة (نوفي فريميا Novoe Vremya) بينما كان الجنود المسلحون يتدافعون في كل اتجاه ولم يكن من الممكن إيقافهم، أو أخذ أي معلومات منهم.

ومما زاد من الفوضى والاضطراب أن عدداً من أصحاب الجمال العاملين مع الأيطاليين، حوّلوا جمالهم من فناء السوق إلى داخل الأزقة والشوارع العتيقة بالمدينة مما جعل كثيراً من الأماكن في الطرقات مغلقة تماماً فزاد الرعب والهلع أضعافاً.

كما سارت كتيبة مشاة نحو سوق الغلال الذي كان مكتظاً بالعرب المسلمين وكان بعضهم نائماً على الأرض والبعض الآخر يتناول طعامه. لقد روى هذه القصة النائب الايطالي (دي فيليس De Felice) في صحيفة (مساجيرو Messaggero) الصادرة في روما بتاريخ الثامن والعشرين من أكتوبر، وكان النائب المذكور وقتئذ من أكبر المؤيدين للحرب مما جعلني أميل إلى تصديق روايته.

أمر الكولونيل الإيطالي المسؤول عن الفرقة رجاله بأن يصوبوا نحو العرب، وربما كان دافعه الأول أن يذبح أي عربي في الحال، ولكنه تراجع عن قراره عندما رأى عدم مبالاة العرب بالخطر القادم نحوهم (إن الموت لا يهم العربي) وهذا ما خلص إليه (دي فيليس) المحترم، فقد قال: «جلس أحد الأعراب فوق متاعه على حافة إحدى النافورات مواصلاً ابتسامه بينما استمر رجل مسن في النوم على الرمال بجواره وعند أقدامه».

اندهش القائد الإيطالي من مثل هذا الشعور بعدم المبالاة بالموت وأمر جنوده بأن يخفضوا أسلحتهم، وأرسل بعض الجنود ليأمروا الاهالي بمغادرة منطقة السوق فوراً، فغادر العرب ببطء سالكين أحد الأزقة الضيقة، بينما ذعر الكولونيل مرة أخرى ووضع حارساً عند مدخل الزقاق آمراً إياه بألا يدع أحداً يخرج منه مرة أخرى، وغادرت المكان وأنا لا أدري ماذا حدث لهم بعد ذلك، فلربما يكونون قد نفوا، ومن المحتمل أيضاً أن يكونوا قد ذبحوا تحت وطأة الرعب الذي ساد في الأيام الثلاثة التي تلت، رغم أنه لم تكن هناك أية اتهامات ضدهم، فقد كانوا يبيعون ويشترون ببساطة كما تعودوا أن يفعلوا،

كما أنهم لم يكونوا مسلحين.

وعندما عاد بعض الهدوء إلى المدينة تقدم الجنود الإيطاليون إلى الأسواق مثلما يتقدمون إلى بلاد معادية ثم بدأوا في حصار وتفتيش المنازل المشتبه فيها. واشتبه الجند فجأة في منزل يقع في زقاق مسدود بجوار القنصلية البريطانية به بعض الثوار، وفي لحظة قاموا بإغلاق الشارع وحصار المبنى ودلف بعض الرجال إلى داخله ومسدساتهم في أياديهم، بينما تأهب بعضهم لاطلاق النار على أي شخص يظهر فوق السطح. إنني متأكد تماماً من أنه لم تكن هناك خسارة في الأرواح في هذا الحادث وذلك لعدم وجود ثوار بالمنزل، ولكنني أخشى أن تكون هناك خسائر في الأرواح في أنحاء المدينة الأخرى.

لقد كان من الممكن تجنب كل هذه الفوضى في الشوارع لو أن القائد العام اتخذ إجراءات منذ وصوله لحراسة المدينة، ولكنه احتفظ بكل جنوده عند خط النار،ولم يبق أي احتياطي بالمدينة، وقد كنت أسير ساعات بالمدينة دون أن أرى أي جندي إيطالي، بل إن الرجال المسلحين الوحيدين الذين مررت بهم كانوا هم رجال (الضبطية) أي الشرطة الأتراك الذين احتفظ بهم الإيطاليون في خدمتهم عن جهل وحمق، بل إن الجنرال (كانيفا) كان يظهر عظمته ورأفته بأن جعل نحو ستة من هؤلاء الرجال يركبون في عربة من خلفه عند طوافه بشوارع المدينة، ولا بد أنه كان يتخيل نفسه غازياً رومانياً يسير في موكب النصر متبوعاً بأعدائه المهزومين، ولكن الجنرال سمع في الثالث والعشرين من أكتوبر أخباراً خطيرة جعلت الدم يتجمد في عروقه وهي أن اثنين من حرسه كانا يدبران لاغتياله، ومنذ ذلك الوقت لم يعد يشاهد في موكبه محفوفاً بهؤلاء الناس.

وإبان معظم أحداث الثالث والعشرين من أكتوبر اسندت حراسة معظم أجزاء المدينة لشرطة السلطان هؤلاء، وقد قابلتهم كثيراً،وهم يجلسون على أرصفة الأزقة الضيقة، وبنادقهم بين أرجلهم، ولو رجحت كفة المسلمين فإنه

سيكون هناك شك ضئيل حول أي جانب سينحاز إليه رجال الشرطة هؤلاء.

ولا بد أن مثل هذا الرعب والهلع غير العاديين ربما أديا إلى عواقب وخيمة خاصة لو علم الجنود بمعنوياتهم الهابطة على ميسرة الجيش الإيطالي إن المدينة من خلفهم قد ثارت، وأنها وقعت في أيدي الأعداء، إنه لشيء سيء التفكير فيما لو أن ما حدث وقع ليلاً مقترناً بهجوم متهور مفاجيء من الخارج في نفس الوقت.

ولقد تحدث الجنرال (كانيفا) عن ذلك قائلاً: «إنه لو حدث لكان أمراً خطيراً جداً لولا هدوء أعصابنا».

لقد أوضحت من قبل إن الايطاليين هم الذين فقدوا صوابهم قبل غيرهم، فقد اكتظ مقر الجنرال (كانيفا) الخاص والسطوح المجاورة له بالجنود الذين رقدوا ممددين على الأرض وأسلحتهم مصوبة على الشوارع من تحتهم وأصابعهم على الزناد. كما كان كل مدخل في القلعة أو بجوارها مغلقاً بغرائر الرمل التي يرقد الجنود خلفها، كأنهم على خط النار، إن هذا لن يكون دليلاً على الاطمئنان والارتياح مطلقاً، بل إن الأمريكي سيسميها مشهد خوف ورعب وأقدام مرتجفة ولا شك في أن لها وقعاً سيئاً على المدينة، وبالرغم من هذا فإن الجنرال (كانيفا) وصف ما حدث في برقية رسمية قائلاً: «إنه وقع بسبب الحادث المضحك التالي: أن أحد الأطباء كان يحضر إلى المدينة ضابطاً جريحاً، فأمر الطبيب الجندي المرافق له بأن يبعد العرب المتفرجين الذين تجمهروا حول العربة، فقام الحارس بتنفيذ الأمر، وتدافعت الجماهير هاربة فأثارت الفوضى التي عمت جميع الأرجاء»[1].

---

(١) كانت هذه هي رواية الجنرال (كانيفا) للصحافة الإيطالية، وقد كانت لديه رواية مختلفة تماماً للصحافة الإنجليزية حيث ذكر في مقابلة مع مستر (بنت بيرله Bennett Bur-leigh) التي نشرت بدون توقيع في صحيفة (الديلي تلغراف Daily Telegraph) ولكنني عثرت عليها موقعاً عليها ـ فيما بعد ـ في صحيفة (روما Roma) الصادرة في

لقد تجولت بالمدينة خلال هذه الفوضى، ولكنني لم أجد دليلاً على أن الحضر من العرب قد أطلقوا رصاصة واحدة. لقد وصلت بضع طلقات من الجبهة إلى السوق، بينما نقل بعض الجنود الذين جرحوا في الواحة إلى المدينة، وانتشرت في الأسواق قصة انتفاضة العرب الموالين وتضخمت قليلاً قليلاً وصارت على كل لسان. إن مثل هذه القصة البسيطة قد أثارت مثل هذا الرعب وخلقت جواً أدى إلى المذابح في الواحة في الأيام التالية.

وأكرر مرة أخرى أنني تجولت بالمدينة وخارجها في الواحة في هذا اليوم، وإنني لعلى يقين تام بأن عرب الواحة عموماً لم يثوروا إطلاقاً، وأن إطلاق النار الذي يفترض أنه أتى من العرب الموالين جاء بالفعل من المقاتلين العرب المعادين الذين تسللوا من خلال الخطوط الإيطالية كما ذكرت من قبل، كما أنني أعترف أيضاً أن نحو مائة عربي من الواحة قد انضموا لهؤلاء، ويؤكد رأي هذا رواية المستر (ماجي Magee) المراسل اللندني الذي كان مندوباً خاصاً في حرب جنوب أفريقية. لقد كان المستر (ماجي) برفقة الإيطاليين في الجنوب الشرقي عندما أطلقت النار عليهم، ولكنه اعتقد أن الموقف بسيط ولم يصب أحد، ولكن العرب الموجودين في المؤخرة اعتقلوا واعدموا فوراً. لقد حضر المستر (ماجي) للمدينة وهو يحمل صور هذا الحادث، ولو كانت الواحة تجتاحها نيران الثوار من كل جانب كما يقول الايطاليون لما أمكنه الحضور عبرها.

وباختصار فإنه لم تكن هناك انتفاضة عامة في الواحة، كما أن عدداً كبيراً من عرب الواحة قد ذبحوا منذ هذا اليوم فصاعداً لا لأنهم ثاروا ولكن لأن الجنرال (كانيفا) كان لا يريد أن يحتفظ في مؤخرة جيشه بأعداد كبيرة من

السادس من نوفمبر، وفي كل الصحف الايطالية فتحدث عن «ثورة متعمدة في المدينة» ثم أعلن: لقد عرض علم الرسول الأخضر في شوارع المدينة ثم أطلقت النار على جنودنا من أسطح، المنازل ثم هوجموا وطعنوا في المنازل وفي وسط الشوارع».

العرب وهم ربما يثورون عليه . إن حالة الحرب تعطي فرصة كبيرة لأي جنرال لأن يفعل ما يشاء متذرعاً بها، ولكنني لا أعتقد أنها تسمح له بالذهاب إلى هذا الحد.

الفصل الرابع

دروس من الفزع الأكبر

إن أسوأ سمات هذا الفزع الأكبر في نظري هو عدم مبالاة القادة الايطاليين وقلة نفعهم، فقد كان من الممكن أن يكون سلوك الأتراك في مثل هذه الظروف أفضل بكثير، فمنذ بدء الحرب كانت أسطمبول الصامتة هي الحكيمة الحريصة على الحياة الرحيمة، بينما كانت روما الملكية والمقدسة فاسدة التفكير بعيدة عن الانسانية والرحمة.

وقبيل أواخر سبتمبر الماضي ترددت توقعات مؤكدة في الصحافة البريطانية بأن الأتراك سيسممون الآبار الموجودة على خط تراجعهم بقصد منع الايطاليين من اقتفاء أثرهم، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل إنهم لم يقطعوا مورد الماء في (بومليانة) كما لم يحرقوا المدينة خلفهم، رغم أنه كان في استطاعتهم تنفيذ الامرين بكل سهولة، ومن النادر في العصور الحديثة أن يظهر جيش متقهقر مثل هذه الاعتبارات نحو السكان المدنيين، بل وحتى نحو عدوه مثلما أظهر جيش (نشأت بك) عند إخلائه طرابلس في أكتوبر الماضي.

لقد أشرت فيما سبق إلى هذا الأمر، والآن رغم أنني أكرر نفسي فإنني سوف أشير إليه مرة أخرى لأقارن بين الكفاءة التركية في أوقات الملمات وبين عدم الكفاءة الإيطالية.

فإنه قبل قصف الثالث والرابع من أكتوبر احتفظ (نشأت بك) و (منير باشا) بالأمن في المدينة بدرجة تدعو إلى الإعجاب، فقد أكد لي البريطانيون

الذين كانوا يعيشون في طرابلس خلال تلك الأيام الحرجة أن السلطات التركية خلال هذا الظرف كانت تتصرف بضبط نفس وقوة ومقدرة تفوق كل إطراء. لقد كان هناك خوف من نزول مذابح عامة بالأوربين، ولو اعتداء بسيطاً، كما كانت القنصليات الأجنبية والمنازل والكنائس تحت حراسة مشددة، كما أن الجالية المالطية البريطانية كبيرة العدد كانت تحت حراسة الأتراك، وذلك لأن السلطات الإيطالية لم تف بوعدها للقنصل البريطاني بإمداده بسفينتين لنقل اللاجئين البريطانيين، ولم يحدث أن توفي أي مالطي خلال هذه الأيام الصعبة، ولكن بعد أن آلت المدينة للايطاليين قتل سبعة أو ثمانية من المالطيين وذلك لعجزهم عن إعطاء كلمة السر أو لسبب آخر. كما حظي رعايا إيطاليون آخرون بالحماية، وذلك لأن إيطاليا تركت مواطنيها مبعثرين في كل أنحاء طرابلس وبرقة، وقد فعلت ذلك على أمل أن تتعرض بعض الإرساليات للذبح مما يخلق نوعاً من حالة الحرب تكون ذريعة للهجوم.

لو كان الأمر كذلك فإن التفكير كان وليد الرغبة، وذلك لأن الصحافة الإيطالية كانت تردد في بداية الحرب وقوع مثل هذه المذابح بالإيطاليين من جانب الأتراك في طرابلس، وربما كانت تتمنى حدوث مثل هذه المذابح. لقد كانت هناك مذبحة الفرنسسكان في بنغازي، ورغم أنها قد أذيعت محاطة بهالة من الأسى والحزن والرثاء فإنها لم تحدث مطلقاً. ثم سمعنا بعد ذلك عن مصرع بعثة إيطالية علمية كانت تتجسس داخل البلاد، ونتيجة لانعدام الروح الوطنية فقد تمكن أفراد هذه البعثة من النجاة، ثم أعلن الإيطاليون أن القنصل الإيطالي في درنة في موقف حرج، وذلك لأن العرب يودون قتله هو وكل أفراد الجالية الإيطالية، ولكن الأتراك منعوا الاعتداء على حياة أي شخص، وبعد أن حرسوهم لمدة أربعة أيام سلموا القنصل ومن معه لقائد إحدى السفن البحرية الإيطالية ومن الطبيعي أن يستعمل القنصل بعد وصوله إلى (أوغسطا Augusta) الألفاظ النابية للاساءة إلى الاتراك الذين أبقوا على حياته، وترك انطباعاً بأنه أرهب كل حامية (درنة) بمسدسه.

وفي أثناء قصف طرابلس في الثالث والرابع من أكتوبر بقي الرهبان الفرنسكان وكذا الراهبات وعدد من مرضى المستشفى في المدينة، ولم يحدث أن ضايق الأتراك أيا من هؤلاء، ولم تطأ أقدامهم الكنيسة، وعندما حان الوقت ليظهر الإيطاليون عطفهم ورأفتهم قاموا بإحراق قرى عربية وذبح الأشداء فيها، ثم قاموا بإلقاء المرضى في الطرقات ليموتوا كالكلاب، وقد كانوا يتخيلون أنهم لن يسمحوا بأي شيء للأتراك بينما يسمحون لأنفسهم بكل شيء، لإيطاليا الثالثة، أي للجنس الذي حمل الحضارة إلى العالم ثلاث مرات كما جاء في آخر خطاب تهديد تسلمته من أحد الإيطاليين.

ويبدو أنه قد رسخ في أذهان الإيطاليين أنه يجب أن يكون هناك معيار معين لمعاملة الإيطاليين مختلف تماماً عن معيار معاملة الأتراك، فعندما سأل الأتراك الإيطاليين أن يغادروا طرابلس قبل القصف خوفاً عليهم من الذبح والقتل،رفض أحد الصحفيين الإيطاليين التحرك متحدياً السلطات العثمانية قائلاً: إنه لن يغادر إلا بين جنديين تركيين،وذلك لأنه يود أن يرى القصف من المدينة ذاتها، ورغم أنني أعترف بأنه شجاع وغير هياب، فإنني يجب أن أقرر أن سلوكه في هذه المناسبة يماثل سلوك طفل شقي أرسل إلى فراشه، وإنني لأتساءل كيف كان سيتصرف الإيطاليون لو أن صحفياً تركياً تصرف على هذا النحو ورفض مغادرة الواحة في الثالث والعشرين من أكتوبر؟ والإجابة على هذا السؤال سهلة جداً، فعندما يقتل الإيطاليون الجواسيس الأتراك فإن هذه هي العدالة وعندما يحدث العكس ويقتل العرب جاسوساً إيطالياً فان صحافة شبه الجزيرة الإيطالية تعلن أنه ذبح بطريقة همجية بربرية.

لقد وجه كل المراسلين الصحفيين الإيطاليين الشكر والامتنان (لمنير باشا) وذلك لتمكنه من الاحتفاظ بطرابلس في هدوء وأمن، مما منع حدوث إنفجار ثوري ضد الإيطاليين في الثاني من أكتوبر، وذلك رغم المشاكل العديدة التي كان يمر بها الأتراك وقتئذ، فقد كانوا بغير توجيهات من أسطمبول، كما

كانوا لا يتلقون رداً على برقياتهم إليها بينما كان عليهم:

١ ـ الاهتمام بتفريغ حمولة السفينة درنة.

٢ ـ واستدعاء الاحتياطي.

٣ ـ وتنظيم القوافل المحملة بالأسلحة والمؤن.

٤ ـ وإخلاء المدينة.

٥ ـ وحماية الأهالي المسيحيين.

كيف استطاع الأتراك إنهاء المهمتين الأخيرتين وفي نفس الوقت؟ إن هذا لسر عظيم، ذلك لأنهم إذا أخلوا المدينة فإنه لن يكون في مقدورهم ترك عدد كاف من الجنود بها لحفظ الأمن والنظام، ولكنهم نجحوا رغم هذه الصعاب، ورغم عيوب التركي العديدة، فإنه ولد يتحكم، وذلك لأنه يمتلك القدرة على قيادة الرجال وحفظ نوع من النظام والأمن حتى بين أكثر الناس ميلا للفوضى في العالم. لقد جاءت ملكة القيادة بشكل طبيعي للتركي كما جاءت للجندي والإداري البريطاني في أنحاء العالم الوعرة.

كان القائد التركي في منطقة زوارة هو الرائد محمد موسى بك، وعندما انتشر الرعب بين سكان المدينة عند أول قصف الإيطاليين لها شهر مسدسه وقام بإعدام مروجي الرعب مما أدى إلى إيقاف الرعب والهلع، ولو كان لدى الجنرال كانيفا أو أي من ضباطه مثل هذه المقدرة على القيادة ومجابهة المحن فإن رعب طرابلس الأكبر في الثالث والعشرين ما كان ليستمر أكثر من نصف ساعة، ولشهدت مذابح الواحة نهايتها فور إعدام أول جندي يقبض عليه، وهو يطلق النار على المواطنين الأبرياء.

ومن ناحية أخرى فإنه يجب الاعتراف بأنه لم يكن الجنرال كانيفا ومن معه هم وحدهم الذين لم يتعودوا على معاملة الأجناس المختلفة، بل إن الجنود الذين تحت إمرتهم كانوا أيضاً غير متعودين على ذلك. إن الجيش الإيطالي جيش حديث قليل التجربة، ولما كان جيش الحملة الإيطالية في

معظمه يتكون من أهالي جنوب إيطاليا، فإن ذلك جعله أكثر قابلية للهلع والرعب، وزاد من هذه القابلية للهلع ترفع قادته وغيابهم عن جنودهم ونقص الهمة لديهم.

إن جيش الاحتلال في طرابلس ما هو إلا تجمع عشوائي لأفراد في زي عسكري ولا يمكن أن يسمى جيشاً بأي حال من الأحوال وذلك لاختلافه عن الجيش الأنجليزي، أو الروسي، أو الألماني، أو الفرنسي، أو الياباني، فهو أشبه بسيارة جمع بعض الهواة أجزاءها فتبدو جميلة المنظر من الخارج ولكنها لا تقوى على الحركة نتيجة انعدام التناسق بين أجزائها الداخلية، ولا بد من جرها بالخيل. إن الضباط لشجعان بدرجة كبيرة، ومعظمهم قد تأثر بدعاية الوطنيين المتعصبين، ولكن الجنود لا يجدون في أنفسهم أي اهتمام بالحرب أو الرغبة في القتال[1].

---

(١) إن التفسير الحقيقي لسلبية الايطاليين لمدة تزيد على نصف العام رغم أنه كان يوجد ما لا يقل عن أربعة وعشرين جنرالاً في طرابلس هو أن الجندي الإيطالي جبان رعديد، وفي الحالات التي لا يكون فيها كذلك فإنه يكون فوضوياً أو متمرداً عاصياً. ففي نوفمبر الماضي اندفع جنديان فوضويان في جنون لاجئين إلى القنصلية الفرنسية وأخذا يطلقان النار من نوافذها على رفاقهما. ويوجد الآن في طرابلس خمسة منازل مليئة بالجنود المتهمين بالتمرد والعصيان.

وطبقاً لما جاء في صحيفة (نيو فراي برس Neue Freie Presse) في عددها الصادر في ١٠ أبريل يقص (جوارينو Guarino) مراسل صحيفة (أفانتي Avanti) في طرابلس قصة مشؤومة عن السخط بين الرجال الذين انتهت مدتهم وازداد تشوقهم للعودة إلى وطنهم، فقاموا بتثبيت بيانات على كل نخلة يقولون فيها إن جنود ١٨٨٨ (أي الذين من مواليد هذه السنة ـ المترجم) يريدون العودة للوطن، وعندما أمرت الكتيبتان الثالثة والعشرون والسابعة والثلاثون بالإضافة إلى المهندسين بالسير إلى جهة غير معلومة على ساحل البحر، للاشتراك في العمليات الحربية، كان هؤلاء الجنود في حالة من الهياج لا يمكن وصفها، فقد بكوا، وغنوا أغنيات عنيفة غاضبة، ولم يكن أمام ضباطهم مفر إلا الصبر على كل هذا وأضاف (جوارينو) قائلاً: «إن الحرب بمثل هؤلاء الرجال مستحيلة».

وفي خلال المعركة فإن معظم الجنود كانوا لا يستطيعون رفع رؤوسهم عن الخنـدق خشية أن يصـابوا بـإحدى الـطلقات، ولهـذا كـانت خسـائـر الجيش الإيطالي في جميع معـاركه أمـام (بوملـيـانة)، و (قـرقاش) فـادحة، على أن نسبـة كبيرة من الإصابات في الجانب التركي كانت نتيجة لنيران المدفعية ونسبـة ضئيلة فقط كانت نتيجة نيران البنادق.

ومن السمات المميزة لهذه الحرب فظاظة ألفاظ الضباط والصحفيين من ناحية والنتائج المتواضعة التي حققها الجيش من ناحية أخرى، وربما لاحظ بعضنا مثل هذه الصفة في أحد أجناس شرق أوربا وهم الأغريق، ففي أثينا وقبل الحرب اليونانية التركية كانت هناك موجة عارمة بين المتعصبين مما جعل كل منزل أشبه بالقلعة كأنما عادت اليونان القديمة إلى الحياة مرة أخـرى، وكانت هناك مظاهرات متـواصلة أمام قصـر الملك، وكان واضحـاً أن أمام الملك خيارين: إما أن يعلن الحرب أو يتنازل عن العـرش، وكانت اللغـة الطنانة في الصحف الأثينية هي نفس لغة صحافة روما الآن.

إن القلق الـزائد والنقـد الخفيف من المتعصبين الوطنيين كـان صورة مماثلة تماماً هنا لمـا كان عنـد المتعصبين الإيطاليين، ففي كلتـا الحالتين كـان أي شخص يدعو إلى الحكمة والتروي يتهم بالجبن وانعدام الوطنية وأنه باع نفسه للأعداء وفي الحالة الأولى كانت النتيجة (لاريسا Larissa) ، أما في الحالة الثانية فقد كانت النتيجة سيئة أصلاً ومن الممكن أن تزداد سوءاً، ولم يمض على حياتي بين الجنود الإيطاليين أسبوع كامل حتى لاحظت وجه الشبه الكبير بينهم وبين الأغريق المعاصرين، كما أنه من الحقائق المعروفة أن الصقليين وأهل جنوب إيطاليا لا يمكن التفرقة بينهم وبين الإغريق، ففي كليهما تجـد القابلية للاستثارة ونفس الاستعدادبـالسكين، ونفسالتهور لدى الفرد، وانعدام النفع بين المجموع في الأغراض العسكرية التي تتطلب شجاعة دائمة وصبراً كبيراً وطاقة احتمال.

إن وجوه الشبه هذه قد لفتت انتباه أي مراسل أجنبي شهد جيش الاحتلال الإيطالي في طرابلس، وبخاصة القائد التركي (فتحي بك) فقد صرح في محادثة مع مراسل صحيفة (فوسيش زيتونج Vossische Zeitung) قبل أسابيع فقال إنه «بوضع كل شيء في الاعتبار فإنه يعتبر جنود جيش الجنرال (كانيفا) أقل مستوى من الجندي الإغريقي الذي حارب في (لاريسا Larissa) ». واستطرد فشرح كيف أن أفواجاً كاملة من الإيطاليين ألقوا بنادقهم وأسلحتهم وكل ما يملكون من متاع ولاذوا بالفرار، وإنه لو كان مقدّراً للإيطاليين أن يواجهوا الجيش التركي كله مثلما جابهه الجيش اليوناني؛ لسقط صليب (سافوي). بلا شك أمام هلال اسطمبول.

إن المخاطرة التي خرج منها اليونانيون خاسرين شأنها شأن نظيرتها الإيطالية التي هي نتاج الخيال والشاعرية وعدم الواقعية، التي أدارها المهووسون بالتطلع إلى المستقبل والانطباعيون. وفي مقال بعنوان «معركة طرابلس Bataille de Tripoli» تباهى السنيور (ف. ت ماريتتي F. T. Marinetti) بأن الحكومة ورجال المدفعية الإيطاليين تقدميون حقيقيون، كما أن الطيارين أيضاً تقدميون، كان الله في عونهم جميعاً.

إن الصحفيين اليونانيين المتحمسين أثاروا ضجة تأييداً للحرب لأنهم قرأوا عن (سلاميس Salamis) و (الماراثون Marathon) كما أن الصحفيين الإيطاليين أثاروا ضجة تأييداً للحرب، لأنهم قرأوا عن (يوليوس قيصر)، وفي كلتا الحالتين فإن كلاب أوربا المدللة قد انتشوا وسكروا بفكرة مؤداها أن في استطاعتهم محاكاة مشروعات أسلافهم، رغم أن إيطاليا لم تستطع أن تكون دولة متحدة، كما أن اليونان لم تنل استقلالها إلا بفضل إنجلترا وفرنسا وبروسيا عليها. أما الآن فلو صدر أي نقد من قبل تلك الدول التي ساندت إيطاليا وأشركتها في النشاط الاستعماري فإن رد الفعل سيكون خطيراً وسيصل إلى حد الادعاء بأن إيطاليا هي التي خلقت انجلترا. إنني أمتلك مجموعة من خطابات التهديد والشجب الصادرة عن الحكومة الايطالية وفيها تنبهني دائماً

عبارة: «إن ايطاليا قد نشرت الحضارة والمدنية في العالم ثلاث مرات».

وإزاء احتمال تلقى مزيد من هذه المراسلات فإنني يجب أن أكرر أن الجيش الإيطالي في طرابلس يعتبر قليل الخبرة والتجربة لأن معرفة هذه الحقيقة سوف تساعد في تفسير ما سيأتي من أحداث.

حتى صحيفة (بنش Punch) التي اعتادت أن تهزأ من جنودنا في مستعمراتنا نحن فإنها لا بد أن تعتبر أن كثيراً من تصرفات الضباط الإيطاليين اكثر من أن تكون صالحة للرسم الكاريكاتيري. ففي منتصف شهر أكتوبر زرت مع القنصل الأمريكي وصديقين من المراسلين البريطانيين المراكز الواقعة في غرب المدينة، فشاهدنا ـ بواسطة مناظيرنا ـ عموداً من الدخان يثير الشك وهو يتصاعد من مكان ما في الصحراء نعتقد أنه غير مأهول، ولكن أحداً من الضباط لم يلاحظ ما رأيناه، فلفتنا انتباههم له، ولكن بعد فترة اتضحت الرؤية عن بعض الجمال والأهالي، فسأل الضابط رجاله عن كمية الذخائر التي بحوزتهم، مما يدل على حداثة عهد الجيش الإيطالي وعدم تجربته، كما أنه نظراً لأن هذا الجيش مكون من المجندين الالزاميين فإن هذا لا يجعله صالحاً للعمل في الخارج كالجيش البريطاني، أو جيش المستعمرات الفرنسية.

كل هذه الأحداث كان لها تأثيرها الكبير على ما حدث من رعب وهلع في الثالث والعشرين من أكتوبر والمذابح التي أعقبتها، كما أن بعض أسباب ذلك يجب أن تعزى إلى أن الجنرال (كانيفا) ومعظم ضباطه الكبار كان يبدو عليهم التقدم في السن والاجهاد، في الوقت الذي كان فيه معظم الجنود في ريعان شبابهم. ففي خلال أعمال اغتيال الأهالي التي حدثت في السادس والعشرين من أكتوبر والأيام التالية لم أشهد أي ضابط برتبة أعلى من نقيب على رأس الجماعات التي نفذت هذا العمل، وقد شهدت مرة أحد المدنيين الإيطاليين يقود إحدى هذه المجموعات، كما رأيت أحياناً جنوداً خصوصيين يتصيدون العرب على مسؤوليتهم الخاصة. إن كل هذا ناتج عن انعدام الرقابة، وحداثة هذا الجيش، وعدم خبرته، وتقدم كبار الضباط ذوي الرتب العليا في السن.

إن الجيوش الالمانية والفرنسية وحتى الانجليزية قد قامت باغتيالات مماثلة للأهالي الأبرياء وذلك عندما تكون في حرب وحشية طاحنة، ولكن في مثل هذه الحرب فإن كبار الضباط يمسكون بزمام الأمور ليس على جنودهم فقط، ولكن أيضاً على الضباط الصغار من مرؤوسيهم أيضاً.

ففي خلال الزحف على بكين في أيام اضطرابات (بوكسر Boxer) كان الجنود الروس يخرجون أحياناً عن سيطرة قوادهم، مما جعل ضباطهم في بعض الحالات يعدمون الخارجين على الانضباط بعد إيقافهم قبالة الحائط، وكان هذا ما يجب على الجنرال (كانيفا) أن يفعله مع جنوده الذين بدأوا في قتل العرب الأبرياء في السادس والعشرين من أكتوبر هذا إذا افترضنا طبعاً أن الجنرال (كانيفا) لم يكن هو الذي أمر بهذه المجازر[1].

---

(١) وهناك نقطة يجب علم إغفالها في هذا الشأن وهي تفوق إيطاليا وبروزها في أعمال القتل إذا ما قورنت ببلادنا، فان متوسط نسبة القتل في إيطاليا هي ٨١٫٢ للمليون من السكان مقابل ٣٠٫١ في انجلترا. إن أشهر رجال عصابات الاغتيال الدولية في عصرنا هذا من الايطاليين أمثال (سانتو Santo) و (جوللي Golli) و (لوتشيني Lucchini) و (سيبيدو Sipido)، و (أورسيني Orsini) و (برسكي Bresci). وثمة أمر آخر وهو العاطفة العنيفة الخفية التي تشبه حالة السكر والانتشاء التي يحدثها منظر الدم لدى معظم الرجال وبخاصة الأوربيين الجنوبيين. لا شك في أن النمر يرقد في أعماقنا ولا شيء يوقظ هذا الوحش المفترس بدرجة مؤكدة وسريعة سوى مشهد الدم البشري يتدفق من مئات الشرايين التي مزقتها طلقات الرصاص أو طعنات الحراب.
وحول هذه النقطة يجب على القارىء أن يرجع إلى فصولي «احراق قرية البدو» و «تطهير الواحة» ففي مشاهدة الألم شعور كريه ثم رعدات شديدة، ثم افتتان وأخيراً بهجة مروعة ظاهرة الوضوح، وكل التاريخ وبخاصة تاريخ أباطرة الرومان وسلاطين الأتراك يقف شاهداً على تلك الحقيقة المخزية المروعة بأن في داخلنا تعطش للدماء - يحتمل أن يكون مصدره أسلافنا المتوحشون بل وأكلة لحم البشر - لا يلبث أن يسيطر علينا اذا أتيح له قليل من الانطلاق. وكل من قرأ عن المدرجات الرومانية أو حتى الذي شاهد مصارعة الثيران الاسبانية سوف يفهم ما أعني. هذا الضعف المروع والخفي الكامن في البشر قد تحدث عنه أخيراً (سيرراي لانكستر Ray Lankester).

لقد ذكرت من قبل حالة الرعب والهلع التي كان عليها جيش الاحتلال الإيطالي في طرابلس بأن هذا يعزى ـ من ناحية ـ إلى انعدام الخبرة، ومن ناحية أخرى لوجود شعور غامض بأن الأمور لم تكن على ما يرام في القمة. ومثلما يعرف الجواد فوراً نوعية الراكب الذي يمتطي صهوته، فكذلك الجيش وحتى أدنى رتبة فيه يستطيع أن يعرف نوعية القائد العام الذي يقوده، ولكن هذا الشعور بالهلع كان مرده أولاً إلى المزاج العليل، وذلك لأن هذا الجيش مكون في معظمه من سكان صقلية، وجنوب إيطاليا وهم الأكثر حساسية واستعداداً للجزع بطبعهم. كما أننا هنا أمام سبب آخر أدى للأحداث الأليمة التي وقعت في السادس والعشرين من أكتوبر. ولكي أعطي القارىء فكرة عن مدى عصبية الجندي الإيطالي وسرعة تقلبه، فإنني أشير فقط للأنذار الذي يعلن كل ليلة على أطراف الصحراء، فإن الحراس يطلقون النار على الكلاب والخفافيش وأشياء وهمية حتى يوقظوا المعسكر كله ويستمر إطلاق النار لساعات. وذات مرة خرج بعض الضباط الايطاليين إلى الصحراء عند حلول المساء فأطلق الجنود النار عليهم معتقدين أنهم عرب، مما أضطر الضباط لأن يقضوا الليل في الصحراء ممددين على الرمال. ومن أجل وقف هذا الاستهلاك الزائد في المؤن والذخيرة وسهر الجنود المتواصل وضع الايطاليون أنواراً كاشفة قوية، تتحرك من مكان لآخر ولو ثبتت في مكان واحد لوقت طويل، فإن الجنود في الموقع الذي ترك في الظلام يبدأون في إطلاق النار على أشياء وهمية فيتحرك النور إلى الموضع المهدد فيبتهج الحراس هناك كالطفل العصبي الذي فزع في الظلام، ثم أضاءت أمه له النور لتهدئته.

إن هذه العصبية كانت تؤدي أحياناً إلى نتائج وخيمة. ففي السادس والعشرين من أكتوبر شاهدت فرقة من الجنود كانوا يزحفون على طول طريق (بومليانة) وهم يطلقون النار على فرقة أخرى من رفاقهم، كانوا يطاردون العرب تحت أشجار النخيل بعيداً داخل خطوط الدفاع الايطالية. وقد اشتبهت الفرقة التي كانت متجهة نحو الطريق في أنهم من الأعداء واستمر إطلاق النار لفترة

طويلة ولم يكن هناك أي ضابط برتبة أعلى من نقيب في الموقع وخشيت أن يحسب الرجال في الجبهة أن العدو قد هاجمهم من الخلف، فيندفعون عائدين إلى المدينة وتحدث كارثة فادحة.



الفصل الخامس

إعدام حارس القنصلية الألمانية

وبينما الرعب في ذروته في الثالث والعشرين من أكتوبر هوجم جندي من فرقة المدفعية الخامسة بجوار القنصلية الألمانية على يد مجموعة من العرب، فسقط تحت ضرباتهم، وبينما كان ممدداً على الأرض طعنه شخص ما، وسرعان ما انتشر الخبر، فخف جنديان كانا بالقرب منه إلى الموقع وأجريا بحثاً عن العرب الموجودين في المكان، أسفر عن اعتقال أحد الشبان العرب ويدعى حسين ـ الحارس الثاني للقنصل الالماني ـ وهو فزاني، والفزانيون مسلمون عرفوا بالشراسة، وكانت هذه الحقيقة ضده منذ البداية.

قامت السلطات الايطالية أولاً بتطويق القنصلية بالجنود، وعندما علم الضابط قائد المجموعة أن الدكتور (فون تلجر Von Tilger) القنصل الالماني لم يكن بالمنزل بل كان على ظهر إحدى السفن الالمانية المقلة للاجئين الأتراك ـ ومعظمهم من النساء ـ متجهة إلى اسطنبول، أبلغ هذا الضابط المسؤول السينور (جاللي Galli) ـ الذي كان النائب السابق للقنصل الإيطالي في طرابلس والرئيس الحالي للحكومة المدنية ـ لكي يخطر الدكتور (تلجر) بما حدث، فعاد القنصل الألماني فوراً، وبعد إجراء بعض التحريات سلم (حسين) للسلطات الإيطالية.

لقد كان الدكتور (تلجر) والقنصل (جاللي) على عداء قديم، وبما أن الإيطالي عرف مدى علاقة زميله الالماني بخدمه،فقد علق وهو يغادر دار

القنصلية بفكرة مريرة قائلاً: «غداً سأرسل إليك أيها الدكتور شهادة الوفاة».

كان الشهود الرئيسيون ضد الحارس هم: (١) شقيقه الذي رآه في وسط الحشد عندما ضرب جندي المدفعية، (٢) طفل من الأهالي رآه وهو ينحني على جثمان الجندي، (٣) خنجر وجد مخبأ في قبو (مخزن) الفحم ولم يكن عليه دماء، وقد ذكر الحارس أنه خاص به، ولكنه ـ وبشجاعة ـ أعلن براءته، كما لم يكن توجد دماء على ملابسه.

وقد اتهم بعض المراسلين الألمان علانية قنصلهم بالضعف والتهاون في هذا الأمر وأعلنوا أن المحاكمة كانت صورية، كما ذكروا أن حكم الايطاليين كان غير متزن نتيجة لحالة الرعب التي يعيشون فيها وتعطشهم للدماء، وكان على القنصل معالجة الأمر بنفسه، وفيما يختص ببراءة (حسين) أو إدانته فإنني لا أستطيع أن أقطع برأي، كما أنني لا أستطيع القول أنه كان بإمكان القنصل ـ في ظل الأحكام العرفية ـ الإصرار على ممارسة صلاحياته الدبلوماسية.

ولكن لما كان (حسين) موظفاً لدى الأمبراطورية الألمانية، ويعلق النسر الالماني على طربوشه، فقد جعل الإيطاليون محاكمته عملاً مؤثراً، حيث عقدت المحاكمة في الشارع العام في الرابع والعشرين من أكتوبر، وهيء لها احتفال، إذ التقط المصورون الإيطاليون العديد من الصور لها، وقد رأيت تلك الصور منشورة في صحيفة (نيويورك أميريكان New York American) الذائعة الصيت، كدليل على عدم وقوع مذابح في طرابلس ضد العرب، وأن جميع العرب تمت محاكمتهم بكل أمانة، وفي الواقع فإن هذه هي الحالة الوحيدة التي كانت لها مظاهر محاكمة عادية، وربما كان المليونير صاحب تلك الصحيفة الذي نشر تلك الصور يعلق الآمال على أصوات الإيطاليين عندما يخوض الانتخابات لمنصب حاكم ولاية نيويورك، وعلى آية حال فإن عرب الصحراء ليست لديهم إعلانات تنشر في صحيفته، ولا يدفعون اشتراكات فيها مثلما تفعل الجالية الايطالية في نيويورك.

ومع ذلك فلنعد الآن إلى قضية (حسين) لقد أحضر في تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر أمام محكمة عسكرية عقدت جلساتها على قارعة الطريق بين مكتب الجندرمة وقلعة شارل الخامس بالقرب من البحر، ولقد نصبت منضدة ومقعدان في الطريق، وعلى المنضدة وضعت محبرة وأفلام وأوراق قانونية كبيرة الحجم مكتوب على بعض أجزائها، ولها هوامش عريضة من طرفها الأيسر، وجلس على المقعدين ضابطان من ذوي الرتب العالية تقدم بهما العمر، ولهما شاربان قد وخطهما المشيب، يرتديان الزي العسكري الأنيق، ويعلقان شارات براقة، وقد ظهرت أشرطة أفقية صفراء وخضراء على قمصانهم من الناحية اليسرى من صدريهما وذلك دليل على أنه مسموح لهما بارتداء أية نياشين إذا أرادا، وقد تقلدا قبعاتهما وسيوفهما، وهما جالسان، كما أحاطا نفسيهما بجو يدل على أنهما يمثلان الحضارة والمجتمع الانساني والنظام السائد هنا ناهيك عن القوة العليا في السماء.

إن المرء لا يجد في مظهرهما الوقور وحركاتهما الرشيقة المتحضرة المنتقاة، وعمرهما المتقدم ما يدل على أنهما هم القتلة والسفاحون، الذين لا يمثلون شيئاً على رمال شمال أفريقيا سوى المجازر والعداء والأعمال اللعينة.

وكان يقف حول هذين الضابطين كتيبة من لواء المهندسين الأول، وكان الجنود يشكلون مربعاً خالياً من الوسط، حيث يقف بداخله السجناء، وكل منهم يقف بين رجلين مسلحين، وقد كانوا ستة أو سبعة من بينهم (حسين)، الذي كان شاباً غير ملتح يبلغ من العمر حوالي الثامنة عشرة، بشرته غامقة شأن الفزانيين ولكن وجهه مليح رقيق وملامحه منتظمة كما لو كان أوربياً، وعيناه براقتان سوداوان، وبخلاف أغلبية عرب فزان كان ارتفاع قامته حوالي خمسة أقدام وخمس بوصات، نحيلاً كالقناة، يرتدي جلباباً أبيض يغطيه من رأسه الى قدميه، كما غطت قلنسوة رأسه فأخفت طربوشه وشعره.

لقد كان الصبي ينظر إلى وجه «قضاته» نظرات حادة شجاعة، ولم يدل بأي اعتراف أو تعليق على إجراءات المحاكمة التي تجري أمام عينيه، بل كان

يبتسم مرة أو مرتين، وكانت ابتسامته تكشف عن صفين من الأسنان ناصعة البياض، وقام مترجم بترجمة الأدلة الموجهة ضده تدريجياً، وكان (حسين) ينصت ثم يرد دائماً بقوله: «لقد فهمت ولكن الأمر ليس كذلك». لقد تلى قرار الأتهام، وأقوال الشهود، ثم استجوب المتهم، فقال: إنه ترك القنصلية بدافع حبّ الاستطلاع ليرى سبب هذا التجمهر، وباختصار لقد أنكر كل شيء، ولكن ـ كما ذكر كاتب يكن له العداء يصف المشهد بقوله: «لقد أنكر من غير اعتراض وفي كلمات معدودة وبرباطة جأش ووقار».

ثم نودي على الشهود وكانت إحداهم فتاة عربية في حوالي الثالثة عشرة من عمرها، وتلا ذلك الرائد (كيابيرولي Chiappiroli) ممثل الاتهام فذكر عبارات قليلة، ثم أعقبه الرائد (كارافا داندريا Carafa d'Andria) ممثل الدفاع فذكر بعض ملاحظات تافهة.

مضى على السجين وهو يقف برباطة جأش أمام قضاته نحو ساعة دون خلجة من وجهة، ودون أن يكشف عن أي مظهر للارهاق أو الخوف، أو حتى الاهتمام، وعندما قرىء عليه الحكم قال: «لقد فهمت، ولكنه غير عادل» وصاح القاضي وكأنه يود الاقتصار في الكلمات قائلاً: «إعدام، حرك السجين».

ولدهشة الايطاليين فان الرجل المحكوم عليه بالاعدام كان أقل الناس اهتماماً بالأمر، وحتى عندما أخبره المترجم بأنه سيعدم بعد قليل لم يبدُ عليه الانزعاج «إعدام. . . حرك السجناء»، بينما وقف بقية السجناء خلف (حسين) وهم خمسة شبان من العرب نحيلي القوام مثله وقد غطوا رؤوسهم بعناية فائقة ولكن ملابسهم كانت رخيصة وبالية، إذ كانوا من عرب المدينة الفقراء، بينما كان سادسهم عربياً من الصحراء، وهو رجل عجوز قوي البنية يبلغ طوله نحو ستة أقدام، ذو وجه معبر للغاية، انه وجه ثائر حر متحدّ، اذ كان فكه قوياً صارماً، وعيناه ثابتتان، كما أن فمه والخطوط التي حوله تدل على قوة إرادة غير عادية، كان رأسه خالياً من الشعر، كما لو كان قد تم حلقه هو واللحية

بطريقة السجون لجعل الرجل يبدو موضعاً للسخرية، ولكنها أسفرت عن نتيجة عكسية، فقد كشفت عن ملامح قوية ووجه صارم يمكن أن يكون لأحد جنود (كرومويل).

لقد تم اعدام (حسين) بعد نصف ساعة من النطق بالحكم، وكان مكان الاعدام فضاء مكشوفاً بجوار البحر أمام مكتب الجندرمة، وبين القلعة القديمة والنادي الحربي الذي كان تركياً في الماضي، وكان المكان يبعد بأقل من مائة قدم عن مكان إعلان الحكم. فقد كان يوجد تحت جدران القلعة الأسبانية المتهدمة مكان معزول في شبه زاوية يستعمله الجنود الايطاليون كمرحاض، وكان مليئاً بالفضلات حتى إن المرء لا يجد موطئاً نظيفاً لقدمه بين الأوساخ، وفي وسط هذا الجو الخانق وضعت كومة من الحشائش المضغوطة حيث جلس (حسين) ولقي حتفه، وعندما تدحرج جثمانه وقع فوق الأوساخ التي امتلأ بها المكان.

عندما تم النطق بالحكم قاد الجنود المحكوم عليه إلى مبنى الجندرمة، وقد وقف صف من رجال سلاح المهندسين على مسافة عشرين خطوة من كومة الحشائش تحت قيادة النقيب (فرشيللي Vercelli) ، وقد عبأوا بنادقهم تنفيذاً لأوامره ووقفوا في حالة استعداد ووجوههم نحو حائط القلعة، وبشكل عمودي على صف آخر من الجنود محاذ للبحر، وخلف هذه المجموعة الأخيرة من الجنود جلست مجموعة من المراسلين والضباط وقد رفع معظمهم آلات التصوير استعداداً للالتقاط، بينما كان معظمهم أيضاً يضع سيجارة في فمه، كما كانت هناك آلة تصوير سينمائية كبيرة قد نصبت في مكان بارز، بينما كان الضحك يعم المكان، وكان الضابط المسؤول عن الترتيبات رجلاً ضخم الجسم ساذج المنظر ذا شارب مفتول الأطراف إلى أعلى، وكان يعرف أن آلة التصوير السينمائي ستجعل منه «بطلاً» بعد قليل وسوف يكون هناك تصفيق حاد من كل الوطنيين والفضوليين عندما تظهر صورته على الشاشة في أي مكان من (سيراكيوز) وحتى (تشياسو Chiasso) .

وفجأة شعر الناس بحركة بين الجماهير، إنه السجين (حسين) وحراسه يتقدمون، إن هذا المهرجان الذي نصب لقتل (حسين) كان يهدف إلى إثارة الرعب والهلع، ولكن لسوء الحظ فإنه على الرغم من أن هذا المهرجان قد نصب في الشارع العام من أجل العرب وحدهم فإنه لم يحضره أي عربي بين شهود المحاكمة أو الإعدام، وكان الوحيدون الذين حضروا من الأهالي هم اليهود.

لو أن أحد الطوارق أو الفزانيين أو غيرهم من عرب الصحراء حضر هذا المشهد، فإني أخشى أن يكون لشجاعة هذا الشاب النادرة أثر كبير عليهم أكثر من أي شيء آخر، وذلك لأن هذه الشجاعة الخارقة قد أدهشت حتى الايطاليين أنفسهم الذين دهشوا وهم يرون الرجل المحكوم عليه يسير بخطى ثابتة، وأنه لم يفقد تمالكه لنفسه حتى آخر لحظة.

اقتيد حسين نحو كومة الحشائش فاستدار مرة واحدة ناظراً إلى الجنود الذين يشكلون فرقة إعدامه، وقال أحد الكتاب الإيطاليين الذين حضروا المشهد «لقد نظر ببرود إلى الجنود الذين يقفون بجانبه وبنادقهم معبأة منذ فترة» إنه ربما يكون قد تعرف عليهم جميعاً مرة أخرى في العالم الآخر وذلك لأن الفزانيين الذين يحاربون مع (نشأت بك) في الصحراء لجديرون بأن يوردوهم نفس المورد. وحتى في هذه اللحظة الأخيرة لم تكن توجد دمعة واحدة في عينيه العربية الزرقاء ولا خلجة على شفتيه، ولو كانت هناك دمعة لاستغلها العديد من الصحفيين الإيطاليين المتعصبين وضخموها. فقد كان هناك العديد من آلات التصوير الجائعة متأهبة لالتقاطها، وكان يقف على كل جانب (حسين) جنديان وهم ـ كصقليين ـ يؤمنون بالخرافات ولذلك كانوا يتناولونه بعناية ورفق كأنه طفل صغير مدلل، وقد لفه جلال الموت، فقد امتصت روعة المشهد كل حقد أو كراهية لدى الايطاليين. وقد ذكروا أنه يجب أن يجلس على الحشائش ووجهه إلى الحائط وظهره إلى جلاديه والجمهور وذلك لضربه من الخلف وهو ما يجري به العرف العسكري الإيطالي عند

معاقبة الخائن. كيف يمكن اعتبار هذا الفزاني الحر خائناً لملك إيطاليا؟ إن هذا لأمر غير مفهوم.

إن الجالس هناك لجسم نحيل، كالشبح مغطى بأكمله بالبياض، حتى إن أعضاءه السفلى غير واضحة إطلاقاً، بينما ظل رأسه مغطى بالعمامة، وقد كان مستقيماً في جلسته لا يتحرك مثل أي تمثال روماني بجوار النادي التركي السابق. كان على كل جانب منه جنديان، قاموا فجأة بإسدال طرف جرده الأبيض على وجهه حتى غطى وجهه كله وطربوشه الأحمر، حتى صار الجسم الجالس على الحشائش أبعد ما يكون شبها بالإنسان حيث لا يرى شيء منه، وبمجرد أن أرخى الجنود الغطاء هرعوا مسرعين بعيداً، اثنان منهم إلى اليمين والآخران إلى اليسار، هرعوا فزعين كما لو كانوا يهربون من روح غادرت جسدها.

أعطى النقيب أوامره الحازمة فرفع الجنود بنادقهم، ثم أصدر أمراً حازماً آخر: اضرب.. «فوكو Fuoco» وانطلقت ثماني طلقات دفعة واحدة، وبقي الجسد الأبيض سامخاً بلا حراك، فقد أخطأت كل الطلقات الهدف وهو على بعد عشرين خطوة.

ألم يخطر ببال هذا العربي أن يهرب في تلك اللحظة؟ حيث يقع خلف هذا الموقع منظر لانهائي للبحر والأرض تضيؤهما الشمس وتدعو للحرية والحياة المفعمة بالحيوية. وفي حفيف الرياح القادمة من الصحراء يهتز سعف النخيل مثل الريش في قبعات الفرسان، وقد اختفى من الواحة الخضراء كثير من أصدقائه. وعلى شاطىء البحر بلونه الأبيض في شارع الشط تتكسر الأمواج الهائلة المتحررة وهي في طريقها تتراقص في كثير من الغمزات، بينما يرقد البحر المتوسط على مسافة صغيرة منه، وقد تعدى الحواجز، وحيث لا يوجد بينه وبين البحر عائق: «قم، اجر.. الق بنفسك بين الأمواج واسبح فإنه ما زالت أمامك فرصة».

لا يوجد شيء يمكن أن يخطر على البال فعلى الرغم من أن هذه الكلمات كانت تدق بعنف في عظام رأسي كالنسور السجينة التي تدق قضبان النوافذ كان الرجل المتهم يجلس صامتاً كما لو كان ميتاً، وكانت رجلاه طليقتين ولكن يديه مقيدتان خلف ظهره، وليس بوسعه أن يزيح الغطاء الذي غطى وجهه حتى كتفيه ولكن ماذا ستكون النتيجة لو أن هذا العربي هب على قدميه وأعدم ووجهه إلى جلاديه، وتتردد على شفتيه صرخة الإسلام المرعبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وهي الصرخة التي حملها بنو جنسه من وطنهم في الصحراء العربية على طول الساحل الشمالي لأفريقية إلى طنجة وعبر أسبانيا من جبل طارق إلى جبال البرانس، بل وإلى قلب فرنسا حتى (بواتييه)[1].

وصدر أمر آخر بالضرب، وانطلق وابل آخر من الرصاص، فتهاوى الجسد الأبيض في بطء إلى الأرض على جنبه الأيسر. «لقد مات كشهيد شاب» هكذا قال أحد الكتاب الإيطاليين الذي وصف المشهد «ورغم هذا فقد مات والكذب على شفتيه».

ومن يدري غير الله، ربما كان بريئاً، فقد ارتكب الايطاليون أخطاء عديدة، منذ جاءوا إلى طرابلس، وربما تكون هذه إحداها، ولو كنت عربياً لما تمنيت لنفسي أن أحاكم أمام رجال سيطر عليهم الرعب وأفقدهم الحقد العنصري عقولهم، مثل هؤلاء القادة الايطاليين في طرابلس في الرابع والعشرين من أكتوبر.

---

(١) مدينة تقع جنوب نهر اللوار في قلب فرنسا حيث دارت معركة طاحنة بين القوات الاسلامية بقيادة عبد الرحمن الغافقي وبين قائد الفرنجة (شارل مارتل) سنة ٧٣٢ م، وتسمى في الكتب العربية (بلاط الشهداء) بسبب كثرة من استشهد من المسلمين في هذه المعركة التي لم يكن النصر فيها حليف المسلمين رغم بلائهم البلاء الحسن (المترجم).

ولكنه إن كان بريئاً فإن العالم أجمع يتحمل وزر إدانته، إذ يدعي الإيطاليون أنه قاتل وكذلك يقول معظم الأجانب، وإلا فسيكون الموقف حرجاً بالنسبة لمستر (تلجر Tilger) لخروجه على إجماعهم وقد أكد لي أحد القناصل أن (حسين) قد اعترف، ولكنني فيما بعد وجدت أن الأمر لم يكن كذلك.

سقط الشبح الأبيض دون صرخة ألم أو حتى مقطع واحد من كلمة، فقد ظل صامتاً صمتاً مطبقاً، وقد ارتعدت إحدى رجليه في ضعف، ثم اقترب منه بسرعة رجل في زي أسود وهو طبيب عسكري، وانحنى على الجثمان الممدد ثم رفع يده وقال شيئاً بالإيطالية ثم تراجع بجسارة إلى الخلف، ثم حدث شيء غريب شاذ بعد ذلك، لقد حضر الحارس الأول للقنصلية الألمانية وعربي آخر وقد أحضرا معهما كلب (حسين) لقد كان شرساً ذا شعر أسود مجعد وقد قص إلاّ من حول رقبته وطرف ذيله، ويبدو أن شخصاً حاول أن يجعله شبيهاً بالأسد، ولكنه نجح في أن يجعله يبدو مضحكاً.

وبمجرد أن انطلق الوابل الثاني من الرصاص قفز الكلب وبدأ يدور حول الجثة ويشمها ويقفز إلى الوراء لاوياً ذيله وجسمه ولكنه لم ينبح أو يمس الجثمان قط. لقد كان الجنود يحرصون على ألا يقتلوا هذا الكلب، فقد صاروا يصفرون له في محاولة لابعاده عن المكان ولكنه رفض أن يهجر سيده، وبالرغم من وجوده بدأ الجنود أخيراً في إطلاق النار بطريقة عشوائية على الجثمان الممدد على الأرض، والذي يشبه المومياء، ولكنهم لحسن الحظ لم يصيبوا الكلب، فقد كانوا حريصين على تجنبه إذ كانوا يصوبون نحو الرجل فقط، وقد بلغ مجموع الطلقات في المرتين ثلاثين طلقة، وبعد أن استمر إطلاق النار لمدة دقيقتين حضر الرجل ذو الزي الأسود وبرفقته آخرون من رجال الشرطة، وكان أحدهم يرتدي شارة الصليب الأحمر على ذراعه وجس هذا الأخير نبض الجثمان على الأرض ثم ترك اليد التي فارقتها الحياة لتسقط مترنحة، ثم قام قائد الشرطة بتصويب مسدسه على رأس الجثة وأطلق

طلقتين.

وفي نفس هذه اللحظة انطلق من بعيد ما يعتقد أنه صدى ضخم لطلقات مسدس ثم آخر... وآخر... وآخر... وتحولت أنظار الجميع نحو البحر والشريط الساحلي الرملي الأصفر، وقد أضاءه نور الشمس إلى الشرق من قلعة شارع الشط. لقد كانت السفينة (صقلية) تتهادى في الماء، وفي الداخل انطلقت من القلعة سحب من الشظايا غطت الأرض في نقطة صدر عنها صوت إطلاق النار إن أصدقاء (حسين) قد بدأوا يثأرون له بالفعل.

إن إعدام (حسين) لم يكن الوحيد الذي نفذ في ذلك اليوم، فقد أعدم رمياً بالرصاص - ستة رجال في الثامنة من صباح نفس اليوم بجوار مدرسة الفنون بينما أرغم آخرون - ويقدر عددهم بثلاثمائة، على المشاركة في الاحتفال، وقد أوقف الرجال المحكوم عليهم قبالة الحائط في الفناء واصطف الجنود أمامهم، وقد كان المكان يلفه صمت رهيب بينما أخذ المترجم يقرأ الحكم بالإعدام من فوق منبر، وقد أخذ يصيح بأعلى صوته باللغة العربية. وعندما وصل إلى اسم ملك ايطاليا في نهاية المستند صفق الإيطاليون الحاضرون، ثم حذا حذوهم أحد المحكوم عليهم. فقد رفع هذا الرجل يديه المقيدتين بالأغلال وأخذ يضرب إحدى راحتيه بالأخرى، بينما يردد في صوت جهوري اسم الملك (فكتور عمانويل).

ربما يكون قد فقد عقله، أو ربما ظن أن مثل هذا التظاهر سينجيه ولكن هذا لم يحدث، فقد تم إعدامه بعد لحظات مع رفاقه الخمسة.

الفصل السادس

واحة الموت

في مساء الثالث والعشرين من أكتوبر كانت طرابلس أكثر صمتاً وقلقاً واضطراباً من (بورت آرثر) عشية مذبحة (توجو) الأولى، واكثر من الآستانة عشية أن عصف بها محمود شوكت باشا.

وإذ اقتنع الإيطاليون بأن أي عربي عدو لهم، ويستبد بهم القلق والرعب خوفاً من فقدان المدينة، فقد راح الايطاليون يرسلون المنادين العرب في أنحاء المدينة يصيحون منذرين العرب بعقوبة الإعدام مما يجعل الدم يتجمد في الشرايين. كان كل مناد يرتدي رداء وطنياً له مدلول خاص، ويرافقه موظف إيطالي في حراسة جنديين، وكان المنادي يقف كل مائة ياردة تقريباً ويصيح بأعلى صوته معلناً الانذارات بطريقة منغمة: «إن من لا يسلم للسلطات فوراً أية ذخائر أو أسلحة بحوزته سيعدم»، كما طالب الأهالي بأن يلزموا منازلهم قبل غروب الشمس وأن عليهم ألا يظهروا في الطرقات خوفاً على حياتهم، وأن أي شخص لا يقف عندما يسمع الحارس يصيح (من هناك؟) سيطلق عليه الرصاص، كما أنه يجب إطفاء كل الأنوار.

لقد كنت أخرج في المساء على ساحل البحر فأجد المدينة أشبه بالمقبرة ولم يكن هناك أحد من الأهالي في الطرقات إلا بعض ماسحي الأحذية، والشحاذين، وعمال التنظيف، وآخرين من المتشردين لا مأوى لهم، والذين ينامون بجوار الأسوار خارج المنازل، وجميعهم قد لبسوا الجلباب

الأبيض وتجمعوا ملتصقين ببعضهم، ومنظرهم أشبه بالجثث التي تنتظر الدفن، وكانوا لا يبدون حراكاً، ولست أدري إن كانوا مستيقظين أو نائمين وذلك لأنهم يخافون حتى من الحركة.

لقد كانت فرق الجنود والبحارة تطوف بالشوارع جيئة وذهاباً كل بضعة دقائق، وكان صديقي القديم الرقيب يتبعه جندي يحمل بندقية، كما أن اثنين من الضباط كانا قد مرا بي ويرفقتهما جنود مسلحون، بالاضافة إلى أنهما هما أيضاً كانا يحملان مسدسات في أيديهما وأصابعهما على الزناد. إن كل ضابط في هذا الوقت كان يرافقه جندي مسلح وذلك لأن شائعة وصلت إلى القيادة العليا بأن محاولة ستجري لاغتيال كل الضباط الايطاليين بالمدينة.

وخلال الأيام القليلة التالية لم يكن هناك إبط الى واحد عسكرياً كان أو مدنياً يتجاسر على أن يمر بأحد الأهالي في السوق أو في الطريق، وحتى في رابعة النهار دون أن يضع يده على سلاحه المخبأ، وأن يستعد لاحتمال أن يقفز عليه هذا المواطن بسكين.

لم يكن هناك أي داع مطلقاً لكل هذه الاحتياطات في مواجهة عرب المدينة المسالمين، ولكن الحقيقة الواضحة ظلت تؤكد أن الايطاليين قد جن جنونهم من الأهالي.

ولم يكن هناك أي ضوء على الشاطيء فقد أغلقت جميع المتاجر والفنادق والمقاهي، ولكن جهة الساحل كانت تضاء من حين لآخر بالأضواء الكاشفة الصادرة من السفن الحربية، بينما تظهر من بعيد على طول ساحل البحر نيران هائلة مشتعلة ناتجة عن احتراق أخشاب وقش منازل الاهالي التي دمرت وأشعلت فيها النيران.

كان هناك صمت مطبق رهيب يقطعه من حين لآخر صوت طلقات مسدس أو بندقية أحياناً في قلب المدينة، وأحياناً أخرى في الواحة، وكان هناك من حين لآخر صهيل بعض الخيول، ثم يعود الصمت المطبق كما كان.

وإذا كانت المدينة بهذا الشكل لا تحتمل فإن حدائق النخيل خارجها كانت هي الرعب بعينه وذلك لأنها سوداء كالقبور وقد بعثرت الجثث خلالها، كما أنه ليس من السلامة لأي إنسان صديقاً كان أو عدواً أن يقترب من نقط الحراسة العديدة التي ملأت الواحة، وحتى بالنسبة للإيطالي المدني فإن النزهة في الواحة في هذا المساء بالذات كانت محفوفة بالمخاطر. وبالرغم من حماسه للحرب وللجيش بالذات فإن النائب المحترم (دي فيليس) قد تعرض بأن وضعت فوهة بندقية الحارس على بطنه في هذا المساء عندما كان في زيارة شارع الشط، فصاح قائلاً: «تمهل، تمهل، أنزل بندقيتك. . . ألا ترى أننا لسنا بأتراك؟»، فكانت الأجابة المرتجفة: «إن رفاقنا قد اغتالهم المدنيون اليوم، تراجع وإلا أطلقنا النار».

ومن المؤكد أن المرء يلتمس العذر لعصبية الحراس، لأن رائحة الحرب تملأ المكان، بينما كانت الخيول التي كان يمتطيها الضباط عبر الواحة تقف كثيراً وتصهل من الخوف، وقد كان وقوفها دائماً يرجع إلى الجثث الملقاة على الأرض حيث ترقد جثث العرب ملقاة فوق الرمال في كل الأوضاع، وقد تلطخت ثيابهم البيضاء بالدماء القانية، وفي بعض الأحيان كانت رؤوسهم غارقة في برك من الدم، وفي بعض الأحيان الأخرى كانت الخيول تلمح أجساماً بيضاء ترقد بلا حراك في أيكة النخيل وهي أجسام الإيطاليين العارية التي لم تجمعها سيارات الإسعاف بعد. وكان المرء يمر أحياناً على مجموعة من خمسة أو ستة من العرب وقد ربط بعضهم إلى بعض، وهم على وشك أن ينفذ فيهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص وفي كل الاحتمالات فقد طردوا خارج منازلهم بعد حرقها واحتموا بالأيكة، ولكن هذه الأدغال كانت تقع بالقرب من خط الدفاع الإيطالي «قبض في ظروف مشبوهة بالقرب من خط دفاعنا» هذه هي الجريمة وتصدر تعليمات الضابط آمراً باطلاق النار Fuoco ، وينتهي كل شيء.

ويجثم الجنود الايطاليون معاً في الخنادق وقد صار كل واحد يفزع

الآخر ويرهبه بأن يتبادلا رواية القصص الدامية عن حملاتهم في أفريقيا إن كلمة أفريقيا لها رنين مشؤوم في آذان الايطاليين. إن العار والمهانة التي لحقت بهم في (عدوه) لم تنشر بالكامل حتى الآن ولا يحتمل نشرها، ولكن المجندين الايطاليين يعرفون كل شيء عن أهواله وربما ببعض المبالغة.

ومن الطبيعي أن القصص التي رويت عنه وهم جالسون حول النيران المشتعلة في المعسكر، بدأت تصير أكثر إثارة كل عام، مما جعل شبح ذلك العار يخيم كشبح فوق جيش الحملة الحالية. وما وفرة حيوية الصحافة وما كثرة حماس الشعب الايطالي، إلا فرح مفروض قسراً على أطفال مذعورين، حاولوا أن يطمئنوا أنفسهم وهم يدخلون حجرة مظلمة تنبعث منها روائح المأساة.

«إيطاليا! طرابلس الايطالية! البحرية! المشاة! الملك! الأسطول الإيطالي! «عندما يسمع المرء هذا السيل من الصيحات التي اعتاد أن يسمعها كثيراً في إيطاليا وطرابلس فإن المرء يتخيل أنه يسمع بعد كل صيحة رنة أسى، لأن الايطاليين يتلمسون طريقهم في المنزل المهجور كأطفال لا حيلة لهم. إنّ الظلام الشديد هناك، حيث ترقد في الطابق الثاني جثة إحدى العربيات وقد قطعت حنجرتها، بينما تحوم في المكان من وقت لآخر روح لعينة تردد كلمة «عدوه».

إن الأمر يسير على نفس الوتيرة بالنسبة للصحافة الايطالية التي ظلت تردد ما أسمته (السلوك الرائع للقوات العسكرية)، وقد كان هذا العزف متواصلاً بشكل يكشف عن الضيق والقلق.

وبنفس الطريقة كانت رغبة الصحافة الايطالية في اختيار وغربلة الأخبار الجميلة عن الجيش والأسطول الإيطاليين من الأجانب والصحافة الأجنبية مما يعتبر شيئاً محزناً.

(إن كل أوربا أبدت إعجابها ببسالة بحارتنا وجنودنا) كان هذا هو العنوان

الرئيسي في إحدى الصحف الإيطالية. وفي أخرى: (شهادات رائعة من الملحقين العسكريين الأجانب عن بسالة القوات الإيطالية إن الملحقين العسكريين المشار إليهم كانوا قد تبادلوا بعد العشاء بعض عبارات الإطراء المهذبة مع ضباط الجبهة.

لقد كانت خيانة العرب هي مدار الحديث حول النار في كل معسكر وخندق، وكان مغزى كل قصة تروى هو أن العربي لا أمان له ولا يمكن الوثوق به أو الاطمئنان إليه. وربما تسمع مرة أخرى ـ كما حدث في أثيوبيا ـ الحديث الطريف حول النيران في المعسكرات عن التمثيل والتشويه اللذين كانا أكثر بشاعة من القتل وعن وحشية الأهالي وقسوتهم. إن الايطاليين يمتلكون عبقرية خارقة في الاندساس بين الأشخاص الذين يمكن رواية مثل هذه القصص بينهم، ولكنني أتمنى أن تكون كثير من هذه القصص من نسج الخيال.

وفي أثناء سير المعركة ظهر أحد رجال الصاعقة (البرساليري) فجأة وسط رفاقه الذين اعتقدوا أنه فقد، وبما أنهم اتهموه بأنه نزل من فوق شجرة فقد اختلق قصة حول نفسه، مفادها أنه اعتقل ونقل مع ستة آخرين من رفاقه على يد مجموعة ضخمة من العرب، وعندما وصل معتقلوه إلى مكان آمن في خلاء الواحة أوثقوا الرجال السبعة إلى سبع شجرات، وراحوا يمثلون بهم الواحد تلو الآخر وسط الرقص وتلاوة وممارسة الشعائر الدينية والضحك والسخرية.

وطبقاً للقاعدة التي لا تتغير كان هو آخر السبعة. ولكن تبريره لهروبه كان غير مقنع وغير مترابط، ولكن ـ لحسن الحظ ـ تصادف أن كان المعسكر الايطالي مليئاً بمثل هؤلاء الأذكياء الذي سيجدون بالتأكيد خاتمة مناسبة لقصتهم، ولا بد أن تكون قد صارت الآن مادة لقصيدة جديدة للشاعر (جبرائيل دانزيو Gabriale d'Annunzio) الذي تصلح مثل هذه القصص

لأشعاره.

لقد سرت شائعة في طرابلس وانتشرت فيما بعد في إيطاليا مفادها أن عربياً قبض عليه بينما كان يجري مخترقاً الواحة وهو يحمل حقيبة مليئة بقطع من لحم الايطاليين. إن أخباراً عن أكل لحوم البشر من جانب العدو (العرب) قد صورها أحد البرساليبري الهاربين.

إن الكآبة التي أحاطت بنيران معسكرنا لم تنقشع، عندما أدخل أحد المشعوذين الصقليين العنصر الديني والخرافي، فقد ذكر هذا الصقلي أن حرباً مقدسة قد بدأت وتحدث عن قلق شديد شهده بين العرب قبل عدة أيام. لقد بدأت علامات الترقب والتوجس تظهر في عيون الجميع وقد امتلأت المساجد بالتراتيل، بينما يشير بعضهم إلى الهلال الذي ظهر عالياً في السماء كدليل على قرب انتصار الجيش التركي، كما أخذ بعضهم يشير إلى نبذة قديمة مفادها أن أمة مسيحية ستحتل طرابلس، ولكنها ستطرد منها بعد أربعين يوماً وسط الأعاصير والرعود والأمطار.

وإذ أعجب الصقلي بالأثر الذي أحدثه، فقد استمر في الحديث عن السنوسي البناء المسلم الحر الذي كان مركزه في الكفرة داخل الحدود المصرية، بينما يمتد نفوذه من النيل إلى المغرب، وجنوباً لمسافة بعيدة في قلب القارة السوداء.

كان الصقلي يتحدث أحياناً عن العدو بقوله «المسلمين» بينما زحمت رؤوسهم أساطير المسلمين وقصصهم أثناء احتلالهم لصقلية دون وعي. وقد تردد الحديث عن احتمال ظهور مفاجيء لقوة كبيرة من العرب في مؤخرة الخط الايطالي عند شارع الشط، وكان التفسير الوحيد الذي يؤكد ذلك هو أن هناك نفقاً تحت الأرض يمر بين المعسكر التركي وطرابلس، وصار الجنود يحكون كيف أنهم تتبعوا أعراباً ولكنهم لم يلبثوا أن اختفوا فجأة (لا بد عن طريق حفرة تحت الأرض).

ويجب أن أذكر هنا كيف صارت قصة هذا النفق ـ فيما بعد ـ تستحوذ على أفكار الجنود بل والمدنيين الايطاليين، وبعض الضباط أيضاً، وقد قيل إن جواسيس من الاتراك كانوا يتسللون دائماً عبر هذا النفق إلى المدينة، كما أن هناك كثيرين من العرب تحت الأرض وأنهم ربما ينسفون نصف المدينة، وقد أبلغ أكبر معمري الأهالي سناً ـ وهو يهودي متزن ـ رجال الشرطة بالقصة الواقعية عن هذا الممر، كما أن بعض السلطات المسؤولة تدعى أن هنالك ممرين وليس ممراً واحداً، وأن أحد هذين الممرين من الاتساع بحيث يسمح لأربعة رجال ـ جنباً إلى جنب ـ بالزحف فيه، وقد اختلفوا فيما يؤدي إليه:

١ ـ ساحل البحر.

٢ ـ وسط مدينة طرابلس.

٣ ـ داخل الواحة.

٤ ـ قصر الحاكم.

وفي النهاية انزعجت السلطات لهذه الشائعات إذ من الممكن أن يكون هناك نفق روماني قديم أو من العصور الوسطى يؤدي إلى داخل القلعة، وقد قام الكولونيل (فيشنانزا Vicinanza) ببحث مستفيض عن هذه الأنفاق الغريبة فدخل إلى قاع الآبار والكهوف واختبر الأسوار للتأكد مما إذا كانت بها فجوات محفورة في المقابر، ثم استجوب (حسونة باشا) الممثل الحالي لعائلة القره مانلي التي حكمت البلاد لفترة طويلة عن القلعة القديمة، فأعلن (حسونة) أنه لا يوجد نفق تحت القلعة، وذلك لأن التربة رملية ومشبعة بالماء ولو وجد مثل هذا النفق لانهار في الحال.

ولكن على الرغم من ذلك فقد ذهب المتحمسون إلى (قرقارش) واختبروا كل المواقع المشبوهة، وقد بدأ المراسلون الأجانب في هذا الوقت يهتمون بالأمر ويكتبون عنه، وقد كتبوا بحماس شديد وكأن هذا هو الموضوع الوحيد الذي سمح لهم الرقيب بالكتابة فيه بكل حرية.

لقد كانت خيانة العرب موضوعاً لأقاصيص عديدة، وكان محـور هذه القصص جميعاً هو انعدام الثقة في أي عربي، وذلك لأنه قادر تحت تـأثير التعصب الديني على القيام بقتل أكرم المحسنين إليه إذا كان غير مسلم، إن بامكانك أن تنقذ طفلاً عربياً من الموت وأن تغذيه وتكسوه وتعلمه ولكن عندما تقوم الحرب المقدسة ثق إنه سيطعنك بخنجر.

إن هذه الموجة من انعدام الثقة قد سيطرت على عقول الايـطاليين، وعندما كـان القناصـل ـ قبل القصف ـ يتناقشون فيمـا يفعلون عند حـدوث انتفاضة من الأهالي ضد الأوربيين ـ وكانت محتملة في ذلك الوقت أجـاب نائب القنصل (جاللي Galli) رفاقه قائلاً: «إن أول شيء يفعله هو أن يقوم بقتل حارسه العربي، وبعدها سيقوم هو وأصدقاؤه من الإيطاليين بالالتجاء إلى مبنى القنصلية»، هذا رغم أن هذا الحارس العجوز ظل في خدمة القنصلية لسنوات طويلة. إن الذين عاشوا في الشرق الأدنى يعرفون جيداً مدى إخلاص مثل هؤلاء الخدم وكيف أنهم على استعداد لبذل أرواحهم من أجل سادتهم.

ومن قصص الخيانة العربية التي تروي، واحدة تدور حول صبي عـربي. كان في خدمة ضباط من فرقة البرساليري وقد اعتقد أنهم يسيئون معـاملته ويحتقرونه، وعندما كان الضباط يتأهبون في الصباح لمنازلة العدو اقترب هذا الصبي من أحد الضباط واغتاله بخنجره، وقد أطلق الـرصاص على الصبي فوراً.

ولا بد من الحديث عن رأي الإيطاليين الخاص فيما يتعلق بهذا الأمر رغم أنه لا يوجد ما يبرر الخلط بين المذابح والفوضى التي جعلتها السلطات العسكرية العليا مبرراً للحملة.

لقد كان الأفراد العاديون يعتقدون أنهم قد عاملوا الأهالي عمومـاً بود ولطف، وكانوا يتقاسمون خبزهم مع الأطفال العرب عن طواعية عندما يمد هؤلاء أيديهم إليهم يسألونهم ما يقيم أودهم، كما أنهم كانوا أحياناً يبتاعون

قماشاً قطنياً لستر الأطفال الصغار العراة، وقد ظنوا أنهم بذلك قد أقاموا علاقات وطيدة مع آباء هؤلاء الأطفال، وذلك لأن الابتسامة الودودة بين الآباء تكشف عن ذلك.

إن الجندي الصقلي ليس مغتاظاً لأن العربي حنث بعهده مع روما، ولكنه مغتاظ لأن العربي حنث بميثاقه معه شخصياً بعد أن وثق بالابتسام والمصافحة بالأيدي.

إن تذكر تلك الابتسامات والملابس والطعام قد جعلت الصقلي يستشيط غضباً وذلك لأنه لا يدري أن من هاجموه من الخلف ليسوا في معظم الأحوال عرب الواحة، بل هم العرب المعادون القادمون من خلف الجبهة، لقد علم أو سمع عن حالات نادرة من الغدر والخيانة وهذا في رأيه كاف للعن كل الجنس العربي.

لقد سمع الجندي الصقلي أفظع القصص عن شراسة العرب وقسوتهم، وكيف يمثلون بالجرحى بل وبالموتى، وكيف أن الحمالين الذين ذهبوا لنقل الجرحى الأتراك قد أطلق عليهم المحتضرون النار، ففاضت أرواحهم وهم يشكرون الله، ثم إنه سمع كيف وجد جنود البرساليري في الأدغال مصلوبين عراياً.

ومعظم هذه الأقاصيص من صنع الخيال، أو مبالغ فيها على الأقل، ولكن الصقليين والنابوليين صدقوها وروجوها وهوّلوا فيها من عندهم وذلك بما لسكان جنوب إيطاليا من خيال خصب، فقد كانوا يصفون بالاشارات هول الانتفاضة والقمع إن الظروف التي روجت فيها تلك الاقاصيص زادت من تأثرهم.

لقد كان الليل حالك الظلام، والأعصاب مشدودة والأصابع على زناد بنادقهم والآذان تنصت إلى الأرض، فالحراس يبدو أنهم ينصتون أكثر مما

يراقبون، فقد كانت تحركات العرب فوق الرمال خلال المعركة الأخيرة كدبيب الثعابيين تحتاج إلى آذان صاغية وعيون مفتوحة لتكشف تقدم العدو. وفجأة لفت أحد الحراس انتباه رفاقه الى صوت غريب بعيد قادم، وكان صوت طبل فاتر ولا بد أن يكون آتياً من مكان بعيد في الصحراء. ما معنى صوت هذا الطبل؟ هل هو إشارة حرب؟ أم هي مصاحبة لرقص شيطاني قام به بعض الحلفاء المتوحشين الذين جمعهم المسلمون من قلب أفريقيا المظلم؟ وكانت هناك علامات أخرى غريبة ففي أعماق الفيافي الرملية لمع ضوء لبعض الوقت ثم اختفى ثم ظهر مرة ثانية ثم اختفى نهائياً. أضف إلى هذا أن عدداً من الرجال رأوا أو تخيلوا أنهم رأوا نجماً باهت الضوء في السماء.

إن هؤلاء الجنود الذين يرقبون السماء كانوا ينزعجون مرة بعد أخرى من جنود يتحدثون وهم نائمون حولهم، كان أحدهم ينادي باسم امرأة وآخر باسم تدليل لطفل وآخر باسم قرية في صقلية، وهي كأحلام الفردوس الحالمة.

إن ما حدث في طرابلس كان أكثر من مأساة غريبة على الجنود الصقليين وعلى كل واحد في طرابلس بما في ذلك القناصل ورجال الأعمال الأجانب، تجري أحداثها أمام عيونهم «هل المأساة تقتضي تعقب خطوات الجنود الايطاليين ثانية في أفريقية؟» كان هذا هو السؤال الذي يسأله الجميع لأنفسهم ولبعضهم البعض في تلك الليلة.

إن اقتحام خطوط دفاع الجنرال (كانيفا) والهجوم من الخلف والتأكد من أن كل العرب الآن قد انضموا للجانب التركي كل هذه تعتبر من الحقائق الخطيرة إن الجيش لحيوان كبير يمكن بسهولة أن يشله الرعب والفزع، كما أن مشهد جند مذعورين هابطي المعنويات يتدافعون في طرقات طرابلس نحو السفن الراسية في الميناء أمور لم تطرأ على ذهن التاجر الإيطالي العادي، أو وكيل الشحن في طرابلس وذلك لأنه غادر وطنه من أجل المال لا كي يسلخ

وهو على قيد الحياة[1].

لقد كانت أحداث النهار مروعة بالنسبة للايطاليين أنفسهم، وذلك لأن الأرض التي يقفونْ عليها ليست آمنة من تحتهم، كما أن الجيش الذي قرروا أن يقيموا عليه أمبراطوريتهم الاستعمارية قد انزلق سريعاً كالرمال من تحت الأساس الحجري، وماذا سيحدث لو انحرف جيشهم الجديد غير المجرب هو الأخر؟ وماذا سيحدث إن كان يوم أشد سوادا من يوم (عدوه) في انتظارهم؟

لقد ابتدعت قصص جديدة عن القسوة والشراسة حول نيران المعسكر، وفي الصباح يصدق هذه القصص مخترعوها أنفسهم، وهكذا كانت حالة الرعب بين الجنودْ، ممّا ستؤدي بالتأكيد إلى الانتقام ما لم يسيطر الضباط على جنودهم بقوة، ولكن ما عاد الضباط من القوة بحيث يستطيعون تحقيق مثل هذه السيطرة.

وقد كتب مراسل صحيفة (فرانكفورتر زيتونج) بعد أيام قائلاً إنه: «ونتيجة لانعدام فعالية الضباط بدأت المطاردات البشرية» وعندما تبدأ هذه المطاردات كتب عنها الجنود بشكل يوضح مدى رعبهم وجنونهم وذلك في خطاباتهم إلى عشيقاتهم وأمهاتهم وإخوانهم، فقد وصفوا استئصالهم القاسي للعرب المسالمين كمن يصف استئصال أفاعي فتاكة. فقد ذكر أحدهم في خطابه المؤرخ في الخامس والعشرين من أكتوبر، وقد أرسله من طرابلس إلى والديه قائلاً: «والدي العزيزين ـ إنني أكتب خطابي هذا وقد انتصف الليل. إن الليل

---

(١) لقد كان هناك هروب كبير من طرابلس، وأولئك الذين بقوا فيها كانوا على استعداد لتقبل تغيير الحكام، وقد اختفت كل العملات التركية، لأن أصحاب الحوانيت ادخروها اعتقاداً منهم بأنها ستكون في المتناول عندما يعود الأتراك. وهذا (فون جوتبرج) الذي كان يسكن مع أحد اليهود وجد سيده مهتماً بتنظيف طربوشة التركي وكيّه بعد أن كان قد استبدل به قبعة إيطالية في الرابع من أكتوبر. «إن الأنسان لا يعرف ما قد يحدث» قال اليهودي ذلك رداً على نظرة زميلي المتسائلة.

حالك الظلام رهيب السكون. وفي وسط الصمت المأساوي أسمع صوتاً ينادي: «من هناك؟» إنه صوت الحرس، ثم انطلقت طلقات بندقية مزقت بقسوة تلك الأفاعي التي تعرف بالعرب». ثم يعود ليصف أهوال يوم الثالث والعشرين من أكتوبر المفاجئة: فيقول: «وفجأة ظهرت آلاف الهوام في شكل بشر من كل الاتجاهات وفاجأت الكتيبة».

الفصل السابع

الطريق الى الجبهة

في معركة شارع الشط التي دارت رحاها في الثالث والعشرين من اكتوبر ظهر الأتراك عند ميمنة الجيش الإيطالي وقلبه وسددوا ضربات قاصمة إلى ميسرة الإيطاليين وبذلك تمكنوا من اختراق خطوطه متقدمين إلى وسط الواحة. وبعد ثلاثة أيام ـ أي في السادس والعشرين من أكتوبر ـ أعاد العثمانيون هذا التكتيك نفسه، وبنفس النتيجة، وقد يتبادر إلى ذهن المرء في ذلك الوقت أن الجنرال كانيفا أخذ درساً قاسياً من هذا الهجوم فاحتاط لأي هجوم جديد، غير أنه لم يتخذ التدابير اللازمة، ومثلما حدث في شارع الشط حدث في سيدي المصري حيث صارت الواحة مغطاة «بالعرب المتوحشين» على حد تعبير الجنرال (كانيفا)، ولكن في الحقيقة كان عدد الذين هاجموا التحصينات الايطالية مائتين وخمسين بالضبط.

ويقول الجنرال كانيفا إنه كرس يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين «من أجل إعداد خط دفاعه والمراقبة الدقيقة الجادة داخل وخارج المدينة حيث لوحظت مظاهر الاهتياج نتيجة إجراءات القمع التي قام بها الطليان في الواحة في الثالث والعشرين».

وقد أصدر القائد العام للقوات الايطالية تقريراً رسمياً قال فيه إنه بعد ظهر الرابع والعشرين من اكتوبر أصدر أمراً عسكرياً بنزع السلاح تماماً من سكان واحة الشط، وقد علل القائد ذلك الأمر العسكري بأنه ضروري للغاية

لحماية القوات من أي «هجوم غادر» على المؤخرة. وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن لماذا لم ينزع الجنرال كانيفا السلاح من أولئك المواطنين قبل ذلك؟ وقبل أسبوع واحد كان من الممكن تفتيش بيوت الأهالي وسحب السكاكين وشفرات الحلاقة وبنادق (بوصوانة) العتيقة قبل أن يتعرضوا لأي ضرر. أما الآن فإن الجند الإيطاليين كان يسيطر عليهم الهلع والخوف الشديدان فأخذوا في قتل كل عربي يجدون في حوزته أي نوع من السلاح. وقد تمت عملية نزع السلاح أولاً على أيدي أربع مجموعات من رجال الأسطول الإيطالي، بالإضافة الى مجموعتين من كتيبة المشاة السادسة الايطالية.

ويقول الجنرال كانيفا «إنه في هذا الوقت تماماً طالما رأينا مدى عدم فعالية وجدوى سياسة القمع العادية التي لم تكن رادعاً لقسوة وضراوة المتمردين ولكنها نفذت بكل الاحتياطات الممكنة في مثل هذه الحالات التي يمر بها المحاربون». وهذه الاجراءات «القاسية والفعالة» تمثلت في قتل كافة الذكور العرب بتلك الواحة ممن يبلغون من العمر الثانية عشرة أو الرابعة عشرة فأكثر. وسواء أعطى الجنرال (كانيفا) أوامره بارتكاب هذه المذبحة أو لا ـ حيث إنني لا أعرف ـ فإن وقوعها كان أمراً محتوماً ـ طالما أنه أطلق العنان لجنده الهائجين الذين سيطر عليهم الرعب والحقد ـ على العرب المسالمين وبدون أن يكون هؤلاء الجنود تحت إمرة ضباط.

وقد قال مراسل جريدة (التايمز) كل ما يمكن قوله في مدح الايطاليين ولكنه اعترف في ٨ نوفمبر بأن «درساً واحداً يبدو واضحاً من ذلك العمل الشنيع ألا وهو أنه من المعروف جيداً أنه في مثل هذه المهام القمعية لا بد من استخدام عدد كاف من الضباط، ولكن على قدر فهمي فإن الجنود الإيطاليين الذين كلفوا بتفتيش منازل الواحة بحثاً عن السلاح كانوا بدون ضباط يأتمرون بأمرهم وهذا هو الخطر بعينه. إن إطلاق العنان للعساكر الصقليين والجنوبيين المتهورين بعد أن رأوا رفاقهم وقد سفكت دماؤهم ـ حسب اعتقادهم ـ أصبحوا مصدر خطر جسيم بعد أن تركوا أحراراً في تلال الضواحي بأسلحتهم

في ظروف كان الاشتباه فيها في أي مواطن يحمل سلاحاً كفيلاً بإنزال عقوبة الموت العاجل به». واختتم ذلك الصحفي حديثه بقوله: «إن كافة الجيوش ـ حتى جيشنا ـ تحتاج لضباط يلائمون كل مقتضيات الحرب».

وسأعود بعد قليل لأتناول سياسة القمع التي مارسها الجيش الايطالي تحت قيادة الجنرال (كانيفا)، أما الآن فإنني سأصف أولاً معركة (سيدي المصري)، وأود أن أقول إن ضراوة الإيطاليين وقسوتهم تجاه الأهالي في الواحة كانت ناجمة عن الهلع الشديد الذي انتابهم. فقد كان لدى رجال الجيش الإيطالي انطباع عام بأن ما حدث في الثالث والعشرين ما هو إلا استطلاع عربي تقدم كثيراً، وكان الإيطاليون يوجسون خيفة من أن يقوم هؤلاء العرب بهجوم عظيم، ربما كانت معركة (شارع الشط) مجرد لعبة أطفال بالنسبة له.

وقد تأكدت هذه الهواجس والشكوك بتقارير الطيارين الذين أبلغوا ـ في الخامس والعشرين ـ عن وجود طوابير عديدة وكبيرة من الجيش العثماني على بعد ثلاثة أميال صوب الجنوب الشرقي، ومما زاد الأمور سوءاً، وكان بمثابة نذير شؤم على الايطاليين، ذلك الضابط التركي الذي جاء من الصحراء ممتطياً جواده وحاملاً علماً أبيض، طالباً تسليم مدينة طرابلس خلال ساعتين.

وقد انقسم الايطاليون ـ إزاء هذا الانذار ـ فريقين، الفريق الأول اعتبر ذلك الطلب مهزلة مضحكة لا تستحق الاعتبار، في حين أن الفريق الثاني اعتبرها إهانة بالغة. أما أنا فإنني أميل إلى الاعتقاد بأنها إحدى الاتصالات العربية ولم يكن منها في هذه الحرب إلا القليل لمصلحة الغزاة، وقد عجبت للثقة المطلقة بالنفس والتي كان يتمتع بها ذلك الضابط التركي الشاب ومظهره العسكري، وتحيّته الجافة، وإنذاره المقتضب، مما جعل الايطاليين يظهرون وكأنهم لا يعرفون في الشؤون العسكرية شيئاً.

ولربما حمل الأتراك مزيداً من الاحترام للجنرال (كانيفا)، لو أنه بعث

ـ ولو مرة واحدة ـ بضابط إلى معسكرهم مزوداً برسالة جريئة كتلك التي جاء بها الضابط التركي، إلى المعسكر الإيطالي. إن (كانيفا) لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، بل إن الشيء الوحيد الذي قام به هو إرسال بعض الاطفال السود وبرفقتهم بعض الأهالي مزودين برسالة سرية وكلفهم بالذهاب إلى الصحراء، وكان هدف تلك الرسالة هو محاولة جذب بعض شيوخ العرب وإقناعهم بالتخلي عن معاضدتهم للترك، ولو أن هؤلاء الغلمان البائسين رفضوا القيام بتلك المهمة لربما قتلهم الإيطاليون، وإن حملوا تلك الرسالة إلى العرب لأعدموهم، إنه مشهد يدعو إلى الألم أن نرى بعضهم يخرج إلى الفيافي وقد استولى عليهم رعب قاتل خوفاً من أن يطلق عليهم الإيطاليون الرصاص من الخلف، ولو ذهب هؤلاء الغلمان ولم يمزقوا الرسائل في الطريق لقام العرب بشنقهم.

أما فيما يتعلق بالمطلب التركي الغريب فإن كثيرين من الايطاليين أخذوا ما جاء به مأخذ الجد، فانزعجوا، وأسرعوا بتقوية الدفاعات بنشاط محموم، فقامت القيادة الايطالية العامة بالتفتيش على المواقع الأمامية، وتدعيم المواقع الضعيفة، ونشط الجند طوال الليل في بعض المواقع في إقامة المتاريس (الموانع). وقد كانت استعدادات الجنرال كانيفا الدفاعية كالآتي: تعزيز الفرق المرابطة في الواحة بجنود البحرية وكتائب من سلاح المدفعية مزودة بالبنادق لأنها لم تتسلم مواقعها بعد، إضافة إلى بطاريات المدافع سريعة الطلقات وعدد من البنادق الآلية مما لم يكن قد وضع في مكانه ـ يوم الثالث والعشرين ـ في خط الواحة بعد أن صارت ذات فائدة كبرى في اليوم التالي. كما رست البارجتان البحريتان (كارلو البرتو) و (صقلية) أمام نقطة قريبة من الشرق من مدينة طرابلس، والتي منها تستطيعان قصف الأتراك الزاحفين.

ومن ناحية أخرى كانت الاستعدادات التركية تجري على قدم وساق وبدون أن يشاهدهم أو يسمعهم أحد زحفوا من كل جانب صوب خط الدفاع الايطالي حتى صاروا ـ في بعض جهات الواحة ـ لا يبعدون أكثر من بضع

مئات من الياردات.

وفي أثناء ليل الثامن والعشرين شعر الحرس الايطالي الموجود بين أشجار النخيل الباسقة أنه أصبح كالصيادين الذين يطاردهم جيش من النمور ذات الأقدام اللينة التي لا يصدر عنها صوت، نمور لها عقول الشياطين ومتعطشة للدماء اكثر من أي نوع من فصائلها. وكأن (فتحي بك) في الخامس والعشرين ـ قدمرّت يده بخفة على طول الجبهة الايطالية مثلما يمر الخبير الفني بيده على قطعة فنية، وبمعنى آخر فان (فتحي بك) ـ القائد التركي ـ تظاهر بالقيام بهجوم وهمي عرف به مدى دفاعات واستعدادات الايطاليين من (قرقارش) وحتى (شارع الشط)، وما لبث أن قام الأتراك بعد الخامسة صباحاً بقليل من اليوم نفسه بالهجوم الحقيقي.

وقد سمعت وأنا بفندق (مينرفا)، الأرض تميد والنوافذ تقعقع من زئير مدافع الأسطول، وعلى الفور صعدت إلى سطح الفندق وأنا نصف مكتس ونصف نائم، حيث وجدت أن الفجر ما زال يصارع الظلام وما زالت النجوم تسطع وهب من البحر نسيم عليل. وفي هذه الأونة كان خط الدفاع الايطالي في حالة نشاط، ولم تلبث أن حومت فوق شارع الشط سحب صغيرة من القذائف، وفوق هذه السحب ظهرت الطائرات الإيطالية، وهي تقوم بأعمال جسورة، وفي الحال رأيت القتال تدور رحاه فوق شارع الشط ومنطقة الهاني بشكل كان أكثر ضراوة منه في أي مكان آخر، وعلى الفور وبدون أية جلبة ارتديت ملابسي وأخذت آلة التصوير ومسدساً ومنظاراً ونزلت مهرولاً تجاه الجناح الشرقي، وفي طريقي كانت كافة الحوانيت مقفلة والشوارع مهجورة بطبيعة الحال، باستثناء مجموعة متناثرة من البحارة والجنود الذين كانوا يسيرون فيها.

وعند مدخل الواحة وإلى الخلف قليلاً من مصنع الحلفا التابع لبنك روما أوقفني ضابط صغير وأخبرني أنه لا يمكن السماح لي بالتقدم أكثر من ذلك، وعندما أطلعته على إذن (التصريح) الذي أحمله معي اقتنع، ولكنه

أبدى قلقاً حول سلامتي الشخصية إذا ما واصلت السير في تلك الواحة، ونصحني بالانتظار حتى تمر بنا الدورية الايطالية فأذهب بصحبتها، وأكد لي أنه من الجنون أن أذهب بمفردي. ولا شك في أن بقية رحلتي كانت كئيبة فقد سرت على طول شارع كانت بيوته قد نسفت ونهبت لتوها، وأنا أسير بمفردي، فأسمع صدى خطواتي كأنني أمشي في قبر سحيق. إن هذه الضاحية التي كانت منذ أربعة أيام تعج بالحياة والضجيج صارت الآن مهجورة وكأنها مدينة (بومبي Pompeii) ، وعلى طول الطريق لم أرَ عربياً أو إيطالياً واحداً.

إن اقفرار الواحة كان شديد الوطأة لدرجة تبلغ حد المأساة، فحتى السكون المخيم على ذلك الشارع كان عدائياً، وحتى الهواء كان يحمل خطراً أو تهديداً يجل عن الوصف، فالأبواب والنوافذ كانت منفرجة وكأنها أفواه موتى فاغرة، كما أن الجدران العارية وقد تلطخت بالدماء وامتلأت بالثقوب من أثر طلقات الرصاص، صارت وكأنما تنبعث منها خلاصة الشر والكراهية، وحتى كلاب الواحة التي طالما كانت تثير الضوضاء والنباح أبت في هذا اليوم إلا أن تلوذ بالصمت كما لو كانت قد قضت نحبها وقد شاهدت بعضها تتسلل بعيداً وذيولها متدلية وفي عيونها تعبير عن الشعور بالاثم، فهل كانت تتغذى على (لحوم البشر)؟

إلا أنني لم ألبث أن تجاهلت تلك الخواطر السمجة وأصبحت أفكر جدياً في الخطر الذي يحدق بي من كل مكان، لأنني يجب أن أعترف بأنني أحسست بالندم، لعدم انتظاري الدورية الايطالية قبل أن أدخل بمفردي منطقة الموت هذه الملطخة بالدماء.

وساورتني الشكوك بأن عربياً نجا من المذبحة التي جرت منذ ثلاثة أيام قد يبرز من بين أشجار الصبار وانقاض البيوت، وتحت تأثير حالة اليأس التي استولت عليه يظن أنني إيطالي فيقتلني.

وأخيراً فإنني عندما سمعت جلبة إطلاق النار أدركت أنني لست ببعيد عن الخطوط الإيطالية، ولم ألبث أن صادفت مجموعة من الجنود واقفين ومعهم حوالي اثنا عشر حصاناً وهم مختبئون وراء بيت عربي وجدار من الطوب. لقد كان هذا مخفراً يطل من ناحية نحو مدينة طرابلس ومن ناحية أخرى صوب العرب، وعندما رأوني قادماً أخذ بعضهم يشير إلى مستغرباً، ولربما أثارهم مظهري، الأمر الذي دعا لأن يتقدم مني ضابط صغير السن بعد أن زجر جنوده، واستقبلني بترحاب. ولم أعرف أن خطراً جسيماً كاد يلم بي إلا عندما اكتشفت بعد ذلك أن كافة الجنود كانت لديهم أوامر صريحة بإطلاق النار على كل مدني ونص الأمر: «اطلق النار على كل مدني يقترب من مؤخرة الخنادق الايطالية». وقد سأل صحفي فرنسي ـ فيما بعد ـ أحد رجال الخفر الايطالي لماذا ظل يحدث طوال الليل؟ أجاب الجندي ببساطة وسذاجة «إن الاوراق لدينة تقول: اطلق النار أولاً ثم اسأل من الذي يسير هناك». وأردف قائلاً: إن هذه أوامر وزارة الحربية الايطالية.

إن هذه الحقيقة توضح كيف أن كثيرين من الأبرياء من مدينة طرابلس ومن بينهم سبعة أو ثمانية من المالطيين قد لقوا حتفهم في أثناء هذه الأيام الرهيبة لقد كنت أنا وهؤلاء الجنود الايطاليين نبعد بحوالي خمسمائة أو ستمائة ياردة عن الجبهة، ولكن طلقات العرب كانت تصفر وهي تمرق فوق رؤوسنا حتى اضطررنا للاختباء وراء الحائط، وفي هذه الأثناء رأيت فريقاً من جنود البحرية الايطاليين فانضممت إليهم، وواصلنا الزحف على بطوننا على طول الطريق الذي لم يكن آمناً، لأنه في كل لحظة كان طنين رصاص العرب يمر في وسطه ومن صوته عرفت أنه كان قريباً من رؤوسنا. إن هؤلاء الجند الذين سرت برفقتهم جاءوا لتعزيز مجموعة من الجنود الايطاليين الذين كانوا منحنين وراء جدار من الطين على بعد مائة ياردة من الجبهة والذين كانوا يطلقون النار باستمرار على العدو (العرب)، وكان القصف ثقيلاً ومستمراً، وكان من المستحسن ـ إن لم يكن من الصواب ـ الامتناع عن التطلع من وراء الجدار

الذي كنا مختبئين وراءه. وقد حدث أن نظرت من فوق مرة واحدة وهذا ما رأت عيناي:

إن اقصى نقطة في الجبهة الايطالية كانت على مقربة مني وهي تتألف من خط من جنود البحرية منبطحين على الأرض وراء ساتر من أكياس الرمل ويطلقون النار بهدوء وثبات. كما رأيت ضابطاً إيطالياً يشير بأصبعه إلى أعرابي بدا للعيان إلا أن ذلك العربي اختفى عن الأنظار قبل أن أراه، ولم أر إلا أيكة من النخيل والصبار وأشجار الزيتون وجدراناً من الطين. وفي منتصف المسافة بيني وبين الجبهة لاحظت بئر ماء عتيقة بجدرانها العمودية وبجوارها جدار وخلف ذلك الجدار كان يختفي بعض الجنود الايطاليين، وعندما رأى أحد هؤلاء الجنود قبعتي التونسية الكاكية التي كنت أرتديها لحمايتي من حرارة الشمس بدا عليه الانزعاج، إلا أنه سرعان ما عاد إلى صوابه، عندما وجد بعض رفاقه معي.

ومن الواضح أن هجوم الثالث والعشرين على مؤخرة الخطوط الايطالية لا بد أنه هز أعصاب الجيش بأسره، وقد اتضح أيضاً أن مدفعاً آلياً يطلق نيراناً باستمرار من مكان ما على الجبهة الايطالية، وقد كان ذلك مفيداً للغاية، لأن نيران العرب كانت تشتد كلما توقف هذا المدفع لحظة، ولذا فإن الدخان الذي كان يتصاعد من بنادقهم كان دائماً يكشف مكانهم، الأمر الذي مكن الجنود الايطاليين بمدفعهم الآلي من تحديد مكان وجود العرب. وعند نهاية الحائط الذي أرقد وراءه كانت توجد أعمدة بئر أخرى، وشاهدت جندياً إيطالياً منبطحاً يراقب الجبهة الجنوبية، وفجأة لاحظت ذلك الجندي يطلق نيراناً وكأنه يريد حماية حياته ولكن سرعان ما شاركه جنود آخرون بطلقاتهم، واتضح لي أنهم كانوا يصوبون عياراتهم على بعض العرب الذين حاولوا تطويق الايطاليين من الخلف، وقد أطلق هؤلاء العرب طلقتين أو ثلاثا تجاهنا، وأشيد هنا بأنه لو أن هؤلاء العرب خفضوا بنادقهم قليلاً نحو سطح الأرض لاصابونا بعياراتهم ولربما قتلوا أو جرحوا ستة منا بكل طلقة لأننا كنا متراصين في صف واحد.

وبالقرب منا كان هناك كوخ عربي استخدمه الايطاليون كمركز إسعاف ميداني متقدم وكان أقرب إلى الجبهة من أية وحدة إسعاف حربية شاهدتها في أي حرب. لقد كان مركز الاسعاف مزوداً بأعلام الصليب الأحمر البيضاء والحمراء، ولقد هرولت إلى ذلك الكوخ، وبينما كنت أهم بدخوله مرقت بجواري رصاصة طائشة كادت تصيبني. وعندما دخلت الكوخ وجدت به أطباء عسكريين ومساعديهم، وعندما تفرست وجوههم رأيت عليها مسحة من الحزن والاكتئاب لكنهم أعطوني فنجاناً من القهوة قبلته شاكراً، وعندئذ فقط وجدت نفسي مراقباً بدقة. فقد كان على مقربة مني ضابط من الكارابينييري Carabi-nieri يتحدث العربية بطلاقة ويبدو عليه شيء من الفظاظة واعتقد أنه كان من إدارة الخدمة السرية (المخابرات). لقد اقترب مني، وأمعن فيّ النظر متفحصاً عن قرب، وسألني بجفاء عن أوراقي الرسمية التي تجيز لي التنقل في مثل هذه الظروف. ولقد كان من الممكن أن يتملكني الرعب أكثر عندما لمسني بيده لو كنت أعلم مسبقاً أين سأراه في المرة التالية، وكان ذلك في طريق (بومليانة) وكان وجهه ارجوانياً داكناً من شدة الاثارة، وكانت عيناه محتقنتين بالدماء، وكان يجأر كالثور وبيده مسدس، يتبختر في وسط جمع من الأهالي المكبلين بالأصفاد يتمرغون على الأرض في بركة من الدماء.

وبعد أن أنجز مهمته الرهيبة زحفت مرة أخرى على طول الحائط وخرجت إلى الطريق، وقمت بسلسلة من الاندفاعات القصيرة صوب الجبهة، واتجهت أولاً للاحتماء بأعمدة البئر، ثم الى مؤخرة عربة مهجورة في الطريق، أعطت مزيداً من لمسات الخراب أكثر من أي شيء في المنظر. ومن مخبئي خلف هذه العربة التقطت صوراً لخط الدفاع الايطالي المتقدم. وعندما عدت إلى الجدار دهشت للهدوء والكآبة التي كانت تخيم على الجنود الإيطاليين الذين كانوا عادة مرحين. إنهم بالتأكيد ليسوا برجال حرب عظام، إذ أنهم الآن يواجهون رجالاً أحراراً من الصحراء، يحملون بنادقهم في أيديهم. وإزاء ذلك بدت وجوه الجنود الإيطاليين ولم يعد يعلوها المرح مثلما كانوا عندما أطلقوا

النار على أبناء شعب مسالم مقيدة معاصمهم خلف ظهورهم.

وعلى العموم فإن المرء لا يستطيع أن ينحو باللائمة على الجندي أو البحار البائس المتجهم الوجه تحت تأثير هذه الظروف، إنها حقاً لم تكن نزهة عسكرية كتلك التي وعدوا بها.

الفصل الثامن

موقعة سيدي المصري

العرب يخترقون خط الدفاع الإيطالي مرة أخرى

عندما تمكن العرب من اختراق خط الدفاع الايطالي في الثالث والعشرين من أكتوبر ادعى الإيطاليون أنهم أخذوا على غرة، وأن العدو (أي العرب) اقتربوا جداً قبل اكتشاف أمرهم، وأن «العدو كان يعرف كل شجرة نخيل» على حد قول البعض أي أن العدو كان على دراية تامة بالأرض، بالاضافة إلى أنه كان يمتاز بأشياء أخرى رجحت كفته، وباختصار فإن العدو «لم يلعب» (أي أنها ضربة حظ). وكأنما أراد العرب أن يثبتوا للغزاة الايطاليين أن بامكانهم اختراق خطوط دفاعاتهم في أي مكان يختارونه، إذ هاجم العرب أيضاً نقطة إيطالية في الصحراء في السادس والعشرين، وهذه النقطة كانت فيلا تقع بين ثكنات سلاح الخيالة الايطالية (وبوملیانة)، وكانت هذه الفيلا تعرف باسم (فيلا جمال بك)، الذي كان القائد العام للقوات التركية في طرابلس، وربما كان هو الذي قام بتوجيه ذلك الهجوم بنفسه.

وبسبب هذا الانكسار المركب فإنه في الثامن والعشرين أمر الجنرال (كانيفا) بإخلاء خط دفاع (سيدي المصري) ـ (شارع الشط) إلى الوراء لمسافة ميلين اثنين، ولكن على الرغم من ذلك فقد ادعى بأن قواته قد حققت انتصاراً حاسماً في السادس والعشرين، وقدم القائد الإيطالي تبريرات لهذا الانكسار (الاختراق) الثاني، فهو يقول إن الأرض التي اجتيزت أمام بيت جمال بك كانت مغرية للعدو وكارثة كبرى على الايطاليين، ويؤكد لنا مراراً وتكراراً أن

«الترك كانوا يعرفون الأرض معرفتهم لراحات أيديهم» ومن السهل الاعتقاد بأن الضابط التركي الذي قاد الهجوم كان معتاداً على ما يحتمل أن يكون حديقة بيته الخلفية، غير أنه من المؤكد أن الإيطاليين كان لديهم من الوقت ما يكفي لدراسة طبيعة ذلك الموقع الذي لم يعد أن يكون حديقة صغيرة لا تتجاوز مساحتها ثلاثة أفدنة.

إلا أن الحقيقة المجردة هي أن العرب قاموا بهجوم تمكنوا على أثره من طرد السرية السابعة التابعة لكتيبة المشاة الرابعة والثمانين بعد أن قتلوا قائد تلك السرية الضابط (هومبرت).

لقد قام أولئك الصحراويون كالعادة بهجومهم في أنسب لحظات اليوم بأكمله، أي في اللحظة التي كان فيها نور الصباح ينبلج، ولم يكن في استطاعة الحارس الذي يغالب النوم والتعب أن يعرف ما إذا كان هذا الضوء المعتم الباهت منبعثاً من الشمس التي بدأت في الشروق، أو أنه نتيجة اشعاعات ضعيفة تنبعث من الصحراء. وفي هذه الأثناء مر نسيم مرور الطيف واحدث حفيفاً غامضاً بين هامات النخيل الباسقة فبدت للناظرين وكأنها ريش يعلو عربات الموتى. وفي نفس الوقت كانت الديكة تصيح، وكلب ينبح نباحاً كئيباً مقبضاً للصدر. ومما زاد الأمور غموضاً أنه كانت هناك نقرات لا تفسير لها وتحركات بين الشجيرات مما أثار في خيالات الحارس أشكال الأشباح التي يحفل بها قصص صقلية الشعبي.

وفي نفس اللحظة التي بدأ فيها الهجوم على (منزل جمال بك) بدأ هجوم على طول الخط الإيطالي من سيدي المصري إلى (بومليانة). كانت الدنيا حينئذ لا تزال مظلمة وبدأت كثبان الرمل يتحدد شكلها تحت السماء الداكنة بسبب آلاف من طلقات بنادق الترك والعرب من حافة الكثبان، وقد بدت الصحراء بعد هذا الهجوم وكأنها مبنى عام تحدده مصابيح كهربائية بمناسبة أحد الاحتفالات، ولكنه ـ واحسرتاه ـ لم يكن هناك احتفال.

إن يوم السادس والعشرين من أكتوبر كان أقبح وأسوأ يوم في التاريخ العسكري الايطالي، أكثر سواداً من يوم (عدوه) نفسه.

وسرعان ما استجابت المدفعية الإيطالية بازيز قنابلها لأن البنادق الإيطالية بالخنادق كان قد أخرسها العرب، وأصبحت هذه الخنادق تبدو في وسط الظلام وكأنها خط واحد من اللهب المستطير.

وفي الوقت نفسه فإن بقايا السرية السابعة التي طردت من فيلا جمال بك هرعت إلى مدينة طرابلس، ولكي يبرر رجالها وجودهم هناك لقيادتهم عادوا مرة أخرى لحبك رواية باهتة مفادها أنهم تعرضوا لهجوم غادر من الخلف من جانب «الأصدقاء العرب». نعم، (عندما نفدت مؤونتهم تعرضوا لهجوم غادر من تلك الحفنة من العرب، الذين ظلوا في بساتينهم المجاورة بدون أن يتعرضوا لأي أذى من رجالنا نظراً لما أبدوه من روح الصداقة والتعاون). إنها ذلك النمط من الأقاصيص والمعاذير الإيطالية الواهية التي نسجت خيوطها لكي تبرر مذابح ٢٦ اكتوبر، ومرة أخرى صار عرب الواحة المسالمين هم كبش الفداء، ولكن خلال الأيام الثلاثة السابقة كان الجنود قد أجهزوا أو طاردوا كل عربي في الواحة، ومن بقي من هؤلاء (الأصدقاء) كان تحت رقابة شديدة في كل تحركاته، وحتى الجنرال (كانيفا) رفض اعتماد حكاية أن العرب (الأصدقاء) هم الذين قاموا بالهجوم. فتقارير (كانيفا) التي خرجت فيما بعد أعطت الانطباع الأكيد بأن الهجوم الذي وقع على خطوطهم من الخلف قام به عرب الصحراء الذين تمكنوا من التسلل دون أن ينتبه إليهم أحد فوصلوا إلى مواقعهم خلف الخطوط الإيطالية وقبل أن يقوم رفاقهم بالهجوم على مقدمة خط الدفاع الايطالي.

إن رأياً مماثلاً لذلك ذكره بعض ضباط (كانيفا) الذين لم يقتنعوا بنظرية «الهجوم الغادر» فعلى سبيل المثال لدينا شهادة من الضابط (تامايو) التي أدلى بها إلى ذلك الوطني المتطرف وعضو مجلس الشيوخ الإيطالي السنيور (انريكو

كورادِيني) والذي جاء في تقريره (فتح طرابلس) حيث قال الضابط (تامايو) «إنه من المحتمل أن العرب الذين قاموا بالهجوم من الخلف ربما جاءوا مع من جاء مع الأتراك من الصحراء وتمكنوا بطريقة أو بأخرى من عبور الخنادق الإيطالية في نقطة ما».

وكما جرى في الثالث والعشرين فإن العرب الذين قاموا بغزو الواحة وجدوا رجالهم الذين كانوا قد تسللوا أثناء الليل قد سبقوهم وفي هذا الخصوص فإن عضو مجلس الشيوخ (كورادِيني) كان مصيباً في هذه النقطة، فقد قال: «إن العرب تدفقوا من خلال ثغرة كالسيل الجارف والتحقوا برفاقهم الذين استطاعوا أثناء الليل الزحف على الواحة من خلال سرداب طويل بأتجاه الصحراء، وتمركزوا وراء جدران أو خلف نتؤات أرضية، وعملوا جاهدين على تمزيق السريتين الايطاليتين السادسة والسابعة».

بيد أن مراسلي صحيفة «كورييري ديلا سيرا» الأكفاء لم يذكروا شيئاً فيما يتعلق بزحف العرب على الخطوط الإيطالية دون أن يشعر بهم أحد بل يبدو أنهم يعزون كل الهجمات التي وقعت في ذلك الصباح على الخطوط الايطالية من الخلف إلى أولئك الرجال الذين تمكنوا من اختراق خط الدفاع الايطالي عند فيلا جمال بك.

وكما سبق أن أشرت آنفاً، فإن العرب قاموا بهجوم على الخطوط الإيطالية من الخارج قبيل الفجر، ثم تقدموا حوالي مائتي ياردة داخل الخطوط الإيطالية قبل أن يتنبه الإيطاليون لوجودهم، «إن العرب في الواقع كانوا في الخنادق الإيطالية عندما بدأ الجنود الايطاليون في إطلاق النار».

ويعترف المراسلون السابق ذكرهم بأنه «عندما وجد رجال السرية الايطالية أنفسهم غير قادرين على مقاومة المذبحة فانهم نكصوا إلى الوراء وتوغل بضع مئات من العرب داخل دائرة المراكز المتقدمة، وكان رجال العدو (أي العرب) يصرخون كالشياطين النزقة».

إن هتافات «الله أكبر» . . . طغت على صرخات الجرحى وأنين المحتضرين، «وقد أخبرنا (والكلام هنا لا يزال للمراسلين الإيطاليين) بأن الجنود الإيطاليين تعرفوا على رجل يتقدم المغيرين العرب وكأنه يدلهم على الخنادق، وقد اتضح أن ذلك الرجل كان يهودياً متقدماً في السن عرفه الطليان كبائع سجاير متجول في الجبهة في اليوم الذي سبق الهجوم، وقد أحاطوه بعطفهم لأنه كان بشوشاً رغم أنه كان لا يتكلم الايطالية بطلاقة». إن أولئك المتعصبين نجحوا في اختراق الخطوط الإيطالية متجهين صوب ثكنات الخيالة الإيطالية منتشرين في كل مكان بالواحة، يهاجمون الخنادق المجاورة في مؤخرة الثكنات».

ومرة أخرى يقول الجنرال (كانيفا) واصفاً العرب المغيرين: «إن قطيعاً يتألف من مئات عديدة من العرب تدفقوا كالبحر الجارف إلى الواحة من خلال ثغرة مفتوحة في خط دفاعنا»، غير أنه في الواقع لم يتجاوز هذا القطيع مائتين وخمسين رجلاً، ولقد أحدث إطلاق النار من جانب العرب الذين اخترقوا الخط في مؤخرة السريتين الرابعة والسادسة في الخنادق التي كان يوجد فيها جنود السريتين ما وصفه الايطاليون بأنه اضطراب دموي، ولسوء الحظ فان الأهالي ارتكبوا نفس الخطأ الذي ارتكبوه في الثالث والعشرين والذي حول انتصارهم إلى هزيمة جعلتهم ـ بمجرد أن طردوا الايطاليين من خنادقهم ـ يعملون على تجريد جثث القتلى من ملابسهم ويأكلون بنهم ما عثروا عليه من بسكويت وقطع اللحم، كما استولوا على حقائب المهمات التي يحملها الجنود على ظهورهم، وكل ما صادفوه بالقرب من الخنادق.

ومما يؤكد ذلك أن عربياً قتل في ذلك اليوم في مكان آخر وعثر على جثته وفي قدميه زوج من الأحذية تبين فيما بعد أنها أحذية عريف إيطالي قتل في صباح ذلك اليوم في الخنادق، ولعل شخصاً آخر قد ظفر بالبقية الباقية من مخلفات ذلك العريف الإيطالي. وعندما أطلق الرصاص على ذلك العربي ربما كان وقتئذ يجوب الواحة بحثاً عن جندي إيطالي آخر يرتدي زوجاً من

الجوارب يتفق ولون الحذاء الذي استولى عليه من قبل، ولكن يبدو أن الحذاء كان بمثابة عائق له، فلربما كان يستطيع الفرار لو لم يكن ترتدي ذلك الحذاء عندما كان الإيطاليون يطاردونه.

وبنفس الطريقة أطلقت النيران على عدد كبير من العرب في منزل جمال بك فسقطوا صرعى بينما كانوا مشغولين في تجريد جثث الجنود الايطاليين القتلى بدلاً من مواجهة هجوم الإيطاليين المضاد، ولا بد أن كمية كبيرة من الأسلاب والغنائم قد نقلت بعيداً في الصحراء لأنه في أثناء الهجمات التالية ظهر بعض العرب وهم في زي كامل للجنود الإيطاليين. وقد تناول الجنود الايطاليون هذا الموضوع في رسائلهم إلى ذويهم في إيطاليا، وكم كانت هذه الرسائل تفوح بشكاوى مريرة من أولئك الجنود من جراء النقص الكبير في احتياطي الأسرة بسبب استيلاء العرب عليها مغ غيرها من الملابس لدرجة أن الجندي الإيطالي كرر في رسائله أنه لم يتمكن من تغيير ملابسه وغطاء سريره منذ شهور.

إن قضية تجريد القتلى الإيطاليين من ملابسهم عادة عربية غير حميدة فقد اعتقد الجنود الايطاليون أن العرب كانوا يقصدون من ذلك إهانة وتحقير القتلى الإيطاليين وذلك بتركهم عراة الأجساد، بيد أنني أعتقد أن ممارسة العرب لهذه العادة لا يمثل أمراً بشعاً شريراً، فمنذ مئات السنين كان خلع ملابس قتلى الحروب عادة متعارف عليها وقاعدة مسلّماً بها من قواعد الحروب في أوربا. أما فيما يتعلق بتصرف العرب الحالي فلا يقصد به سوى السلب والنهب ولا شيء سواه. وطبقاً لتقارير جريدة (كوريير ديلا سيرا) فإن العرب سلبوا وخلعوا حتى ملابس قتلاهم هم. أما وقد حصلوا على كميات كبيرة من الأسلاب من الإيطاليين، فإنه لا يساورني أدنى شك في أنه قبل أن تنتهي هذه الحرب فإننا سنرى كل العرب يرتدون الملابس العسكرية الإيطالية مزودة بالنظارات والبنادق والقبعات العسكرية وقنينات الماء الايطالية وغيرها. وعلى الأقل فان هذه هي الحقيقة التي توصلت إليها بعد أن قرأت روايات الشهود

الذين لا يرقى إليهم الشك أمثال السيد (أرنست بنت) ممن كانوا يرافقون القوات الإيطالية في الدواخل.

ولم يترتب على هجوم أعراب الصحراء من الخلف اضطراب دموي في الخنادق الايطالية فحسب، ذلك أن عملية قتل أخرى ارتكبها عربي «صديق» للايطاليين، مما أضاف زخماً جديداً للذعر بين الإيطاليين. أن الذي ارتكب هذه الجريمة عربي مسن يعمل بستانياً في حديقة فيلا جمال بك ثم ما لبث أن نقل للعمل كطباخ للضباط الايطاليين وكان الضحية ملازم إيطالي يدعى (اورسي) تابع للكتيبة الرابعة والثمانين. وقد ارتبطت عملية قتل هذا الضابط بحكاية مفادها أن ابنة هذا العربي الشابة كانت تعاني من مرض الحمى، وقد وجدت في أثناء مرضها عناية مفرطة وعطفاً كبيراً من الملازم الايطالي الشاب الذي كان يعطيها الدواء، وقد تصادف في ذلك الصباح أن أحضر الملازم الدواء لتلك الفتاة كما أحضر لها فنجاناً من القهوة الساخنة من مطعم الكتيبة، غير أن والد الفتاة فقد صوابه، عندما سمع بعد لحظات وابلاً من الطلقات النارية المدوية التي أطلقها العرب المهاجمون مشفوعة بصرخة المعركة «الله أكبر ولا إله إلا الله محمد رسول الله»، إذ أنه عندما سمع ذلك لم يتردد في التقدم نحو ذلك الرجل الذي أنقذ حياة ابنته وسدد له طعنات حادة في قلبه. إلا أن ذلك البستاني لم يمهل طويلاً اذ طعن في الحال بحربة اردته قتيلاً يتخبط بالقرب من ضحيته التي كانت لا تزال ساخنة.

وأستطيع أن أشير هنا إلى أن هذه القصة قد ترددت على ألسنة كل مراسلي الصحف الايطالية في طرابلس بصور متباينة من السخط والفزع الشديدين وقد نوه بها على أساس أنها مثال من أسوأ قصص الغدر ونكران الجميل، ولكننا لم نسمع دواعي هذه الجريمة من ذلك البستاني المسن، ولا يمكن أن يكون إلا أن ذلك الملازم الشاب كان غير مدرك لشعور الغيرة الحادة لدى المسلمين في كل ما يتعلق بنسائهم. ألم يعرف ذلك الضابط أن والداً مسلماً يفضل أن يرى ابنته ميتة على أن ينقذها من الموت كافر يتطلع إلى وجهها السافر.

وفي كل هذه الأمور فإننا لا نرى بطبيعة الحال إلا جانباً واحد من القضية وهو الجانب الإيطالي، أما الجانب الآخر فلن نظفر به لأن المسلمين عادة يشعرون بالاعتزاز فلا يكاتبون جرائدنا عن المعاملة السيئة التي يلقاها نساؤهم، وعلى كل حال فهم لا يستطيعون الكتابة طالما أنهم أموات. وفي الحقيقة فإن كل أفراد عائلة هذا البستاني المسن قد لقوا حتفهم إذ أبلغنا أحد المراسلين الإيطاليين «أن جميع أفراد أسرة البستاني قد قتلوا خلال المقاومة»، وهذه عبارة غامضة لها عدة تفسيرات وتأويلات ومنها ذلك التفسير القاتم المحزن عندما نتذكر ذلك اليوم الذي حدث فيه ذلك، يوم السادس والعشرين من أكتوبر الرهيب ومناظر المذبحة التي كان على الواحة أن تشهدها قبل حلول الليل. إنها حقاً لعقوبة يحيط بها الغموض من كل جانب، وقد تجنح أفكار المفسرين فتأتي بأسباب عديدة دفعت ذلك البستاني إلى الإقدام على قتل الملازم الإيطالي، وبخاصة بعد أن يتذكر المرء ما شهدته تلك الواحة في عشية السادس والعشرين من أكتوبر الرهيب.

وعلى أية حال فإنه يبدو أمراً غريباً أن يبحث هذا البستاني عن الضابط (أورسي) بينما يقف الأخير في الخنادق بين جنوده، ما لم يتخيل هذا الرجل العجوز أن مكروهاً أصاب ابنته، وإلاّ لهاجم شخصاً آخر، واعتقد أن الملازم أقدم ـ وهو يجهل عادات المسلمين ـ على رفع حجاب الفتاة ببراءة، ولكن المؤسف أنه لم يحدث تحقيق في هذه القضية.

لقد سمعت بمحاولة اغتيال أوربي في طرابلس، وقد تردد أن القاتل المزعوم كان مبعوثاً من جمعية تركيا الفتاة وهو أمر مناف للعقل، وقد تلقى المعتدى عليه برقيات تهنئة على نجاته من الموت من البلديات والصحف والمختارين والشعراء في إيطاليا، ولكنني علمت أن الاعتداء عليه لم يكن بسبب تعاطفه مع إيطاليا. ولكن كان العرب قليلي العدد والعدة، وأسلحتهم سيئة للغاية بحيث لم يكن في استطاعتهم الاحتفاظ بمواقعهم، فكيف يقومون بهجوم؟

وإلى جانب ذلك فإنهم (أي العرب) استمروا في ولعهم الشديد بالبسكويت، لأنهم عندما اقتحموا معسكر الكتيبة الإيطالية الرابعة والثمانية اكتشفوا أن هناك مستودعاً للبسكويت فأخذوا في الحال يلتهمون محتوياته بشراهة.

إنني لا أحب أن أعطي الجنرال (كانيفا) أية إيماءات قد تساعده في مواصلة هذه الحرب الجائرة، إلا أنه لو كان الجنرال (كانيفا) بارعاً حقاً لجلب أنواعاً مختلفة لذيذة من الخبز ووضع صناديق منها على مسافة داخل خنادق جنوده فيجعل من ذلك خطاً دفاعياً ثانياً.

لقد لاحظ (شارل مارتل) نقطة الضعف هذه لدى العرب إزاء الاسلاب عندما حذر من مهاجمة هؤلاء الغزاة الذين لا يقهرون إلى أن «يثقلوا بأحمال الغنائم»، وقد قام العقيد (سبينللي) الذي كان قائداً على ثكنات الخيالة قبيل الهجوم العربي بقتل عدد لا يستهان به من أكلة البسكويت (العرب)، وفي الوقت نفسه بذل قصارى جهده لمحاولة زحزحة الغزاة، عن مناطق الكثبان الرملية والأحراش المجاورة لفيلا جمال بك، فقد بعث (سبينللي) بمجموعتين من السرية الثانية عشرة قطاع المدفعية الميكانيكية وجميع خيالة اللودي، وكانت الأخيرة تسير على الاقدام، وكان الجميع تحت قيادة الضابطين جاند ولفي ولاندولينا. لقد قامت هذه القوة المنجدة وهي تشق طريقها إلى الأمام خطوة خطوة إلا أنها فقدت قائدها بينما كان يقود رجاله، كما قتل أيضاً ملازم آخر، وقد ظل هذا الملازم ممسكاً ببندقية جندي، مصوباً طلقاته نحو العدو ولم تفارقه الحياة حتى كان قد قتل ثلاثة من الأعداء. إننا نسمع الكثير من مثل هذه القصص عن البطولة الإيطالية، ولا شك في شجاعة الضابط الإيطالي، ولكن ألم يكن ذلك الاختراق للخطوط الايطالية الذي قام به مئتان وخمسون عربياً عملاً بطولياً رائعاً؟ ويا له من قتال مستميت قاموا به فيما بعد في الواحة.

لقد استولوا على أحد المنازل وصمدت بداخله مجموعة منهم حتى

اليوم التالي عندما نسف المنزل بالديناميت والجميع بداخله، ولم يهرب أحد من أولئك العرب البالغ عددهم مائتين وخمسين، وحتى لو هربوا فإنه من المشكوك فيه أن يروي الايطاليون أسطورة هؤلاء العرب كما تروق للأوربيين، لأن العربي شخص لا يوثق به، وهم يتصورون أنه يستطيع أن ينسج قصة (لا يصدقها أحد) بأنه دخل طرابلس وأرغم الجنرال (كانيفا) على العودة إلى سفينته، ولكنه لن يقول شيئاً عن هربه من البيت المحترق الذي يحيط به الجنود الإيطاليون، وربما يكون متأكداً من أن الايطاليين لن يقولوا شيئاً.

ولكن لم تكن الشجاعة الايطالية هي التي أنقذت الموقف ولكنها بطارية البحرية الايطالية وبخاصة بطارية (كروب) التي منعت (نشأت بك) من تعزيز رجاله الذي كانوا يقاتلون في الواحة.

فعندما فتحت ثغرة في جناح الجيش الايطالي ظهر في الأفق على قمة الكثبان الرملية البعيدة عدد لا يستهان به من العرب بملابسهم البيضاء، وتحركوا بسرعة تجاه تلك الثغرة، ولو أنهم تمكنوا من الدخول منها للقي الجيش الايطالي مصيره المحتوم. فالفضل يعود بالدرجة الاولى إلى نيران مدفعية ثكنات الخيالة وبطاريات (جولزيو) التي تصادف أن وصلت إلى طرابلس في نفس اليوم، حيث أنها نقلت على وجه السرعة إلى (بومليانة)، وتمكن الإيطاليون من نقلها إلى المراكز المخصصة لها بالرغم من المحاولتين الجريئتين البارعتين اللتين قام بهما اثنان من العرب كانا مختبئين في أحد البيوت لاقتناص الخيول التي كانت تجر تلك البطاريات، وفي بومليانة أثبتت هذه البطاريات الجديدة فعاليتها وجدارتها، وفي تلك الاثناء قامت البطاريتان الأخريان اللتان أقيمتا في بومليانة منذ الاحتلال بقصف العرب المتقدمين بشكل مميت، مما جعل من المستحيل على (نشأت بك)، أن يبعث بامدادات وتعزيزات لرجاله، بعد أن أدرك مدى عنف نيران المدفعية الإيطالية المنطلقة من بومليانة، فبطارية البحرية هناك التي كانت تحت قيادة الضابط (سامنينو) اجتاحت بعنف الصحراء وكثبانها الرملية، وفي آن واحد كانت الخنادق

الايطالية تقذف حمماً من ألسنة لهب البنادق فسلاح مدفعية الميدان العظيم الذي وضع في هذا الوقت إلى الشمال من بطاريات البحرية منع تقدم أية تعزيزات تركية من وراء الكثبان كما أن المدافع الضخمة في السفن كانت في كل لحظة تلقي قنابلها التي تنفجر وسط الأعداء فتثير في الهواء سحباً من الغبار والدخان، وفي الوقت نفسه ظلت الرشاشات تقعقع بدون انقطاع.

وقد كان الإيطاليون يغيرون مواقع بطاريات الميدان عدة مرات لكي ينزلوا خسائر أفدح بالأتراك، وفي بعض الأحيان كانت عجلات المدافع تغوص في الرمال وعندئذ لم يتوان حتى الضباط الايطاليون من مد يد العون لجنودهم لزحزحتها.

وفي وسط هذه الانفجارات كان المرء يسمع من حين لآخر صرخات الضباط الايطاليين في جنودهم من أجل بذل أقصى جهدهم «فورسا» و «الدو» وفي بعض الأحيان كان يسمع نداء بالأرقام للدلالة على المسافة التي حددت لتفجير القنابل.

إن شظايا القذائف القاتلة كانت تهوي في كل مكان باحثة عن ضحاياها من العدو، إنها كانت تنفجر على حافة التلال الرملية وفي الشعاب الواقعة خلف التلال الرملية. وفي الواقع لم يكن هناك مكان يحتمى فيه الأتراك إلا تحت الأرض، ومع هذا فإنه من حين لآخر كان يظهر البعض منهم فوق قمة تل، وفي وسط دخان القذائف الإيطالية كان من الممكن رؤيتهم بين الفينة والأخرى وهم ينهضون ويجرون، وعلى الرغم من ذلك فقد واصلوا إطلاق النار على الخنادق الإيطالية غير أن مدى بنادقهم كان قصيراً ولذلك كان من الممكن رؤية قذائفهم وهي تصطدم بالرمال على بعد مائة ياردة من الخطوط الإيطالية. فسلاح المدفعية كان منظماً للغاية ولذا استطاع منع أي تجمع للعدو، وكلما ظهرت مجموعة من العرب خلف نتوء في الأرض يطلقون نيرانهم فتنهمر على رؤوسهم شظايا متوهجة فتسكتهم إلى الأبد. وعندما

يلجأون إلى كوخ فإن القذائف تلاحقهم فتدك السقف والجدران فتهوي على رؤوسهم. وعندما تلوذ الحامية التركية بالفرار ينهمر عليهم وابل من القذائف القاتلة. وأخيراً تمكن الايطاليون من طرد العدو من حيث أتى ولكن بعد أن استطاع بعضهم بشجاعة لا تصدق ـ كما قال الجنرال (كانيفا) ـ أن يصبحوا على مسافة ثلاثين ياردة من البطاريات الايطالية، بل إن عربياً واصل زحفه حتى سقط في خندق، وعندما استقر في قاعه استوى على ظهره ميتاً فاغرا فاه، وكان وجهه لا يزال أغبر داكناً عليه مسحة من الغضب. وفي منطقة الهاني شوهد شاب أمرد وهو يعاني من جرح بليغ ورغم ذلك ظل يزحف حتى الخط الايطالي أسفل منزل القائمقام ووضع رأسه الملطخ بالدماء فوق أكياس الرمل أمام الخندق كما لو كانت وسادة.

وقد يتداعى على خواطر المرء ما قاله (جيبون) في هذا الخصوص عن ذلك الشاب العربي في حصار (أمسا Emesa) الذي صرخ قائلاً أنه رأى حورية سوداء العينين تومىء إليه من أحد أبواب الجنة، جزاء له على حسن بلائه. ورغم مرور الف عام على هذه القصة فأننا ما زلنا نجد العرب يتميزون بشجاعة منقطعة النظير.

وقد قال كاتب إيطالي إنه «في هذا القتال الرهيب كانت شجاعة قواتنا مذهلة» وإذا كان الأمر كذلك فكيف كانت شجاعة ذلك «العدو السيء العنيف»، كما وصف السنيور (كوراديني) العرب أنهم «الشيء الذي لا يمكن تصديقه». هذا هو التعبير الوحيد الذي استطاع الايطاليون إطلاقه على العرب في هذا الخصوص.

لقد كان هناك ألف وخمسمائة من العرب يهاجمون عشرين ألف مقاتل إيطالي مختفين ومحصنين في خنادقهم ومن ثم فانهم كانوا يتمتعون بحماية ومزايا لا يتمتع بها عدوهم. إن نظرة إلى الصور العديدة المرفقة بهذا الكتاب توضح إلى أي مدى كانت الخنادق الإيطالية محصنة، وأية حماية كان الجنود الايطاليون يتمتعون بها.

إن قوانين الحرب جميعاً تجمع على أنـه من العبث إن لم يكن من الجنون أن يهاجم ألف وخمسمائة قوة محصنة في خنادق تتألف حتى من ألف رجل، ولكننا هنا نجد أن الألف وخمسمائة يهاجمون عشرين ألفاً ويحرزون نجاحاً باهراً في اختراق خطوط الدفاعات الإيطاليـة مسببين الانسحاب بعـد يومين، فكيف تصرف الغزاة الإيطاليون عندما كانوا هم المهاجمين والعرب ينتظرونهم دون أن يكونوا مدفونين في الخنادق مثلما كان الإيطاليون، بل كانوا ينتظرون وهم منبطحون على الأرض على طول حافة الكثبان الرملية، إن هذا ما قاله رجل بريطاني يدعى السيد (ارنست بينت) الذي كان مراسلاً إنجليزياً في الجانب التركي، فهو يصف شجاعة العرب بقـوله إنـه في الخامس من ديسمبر قامت سفينتان إيطاليتان بإلقاء مراسيهما بالقرب من الساحل الليبي عند سيدي سعيد بالقرب من الحدود التونسية الليبية، وأنزلتا إلى الشاطىء مائـة وخمسين رجلاً إيطالياً، وتصادف أن كان في هذا المكان أربعة وثلاثون عربياً اختبأوا في وسط الكثبان الرملية. «وبمجرد أن بدأ الإيطاليون الذين نزلوا إلى البر في صعود الكثبان الرملية أطلق العرب عليهم نيرانهم فأصيب ضابط بتلك المجموعة بجـرح بالغ، وسقط على ركبته، وأودت طلقـة أخرى بحيـاته في الحال، إن أثر تلك المفاجأة على المجموعة الايطالية، كان مروعاً، وبسرعة وبساطة نكص هؤلاء المائة وخمسون إيطاليا على أعقابهم فراراً وفي اضطراب كامل عائدين إلى الشاطىء، وطاردهم أولئك العرب الذين لم يمنعهم شيء من تعقب آثارهم. وقد ترك الايطاليون على الرمال ثلاثمائة خرطوش وخمسين معولاً وجاروفاً وعدداً من قبعات البحارة وقد تمكن الايطاليون من نقل جثمان الضابط القتيل مع ستة من القتلى الآخرين وجريح واحد من رفاقهم.

ولم يكن لدى الترك سوى سبعة مدافع لم تكن تعمل في هذه المناسبة، وفي مقابل هذه المدافع العتيقة كانت أسلحة الإيطاليين تتألف من أسـطول بحـري بمقـدرتـه أن يقـذف على أعـدائـه أعـداداً هـائلة من القـذائف ذات العشر بوصات. إن قنبلة واحدة من ذات الـ ٥٢٢ كيلوجراماً من نوع (الملك

امبرتو ـ ري امبرتو) لقادرة بشظاياها وغازاتها المؤذية على سحق وابادة لـواء بأسره. أما في البر فقد كان لدى الإيطاليين سبع بطاريـات مدافـع ميدان ضخمة وتسع بطاريات مدافع جبلية وستة عشر مدفعاً آلياً وأضواء كاشفة بحرية تغمر الشاطىء ليلاً، وكشافات برية تغمر الصحراء، وخطوط بـرق لاسلكي، وتليفونات، وكل وسائل العلم الحديث.

أما العرب فإنهم كانوا كما مهملاً مرفوضاً وغير معترف بهم كمحاربين وحتى أعلامهم البيضاء لم يكن معترفاً بها، فأوربا سمحت للذخيرة الالمانية والطائرات الفرنسية بالمرور إلى ايطاليا، ولكنها لم تسمح بانتقال خرطوشة رصاص واحدة بعبور الحدود المصرية أو التونسية إلى ليبيا، أما فيما يتعلق بالقيادة الايطالية في طرابلس فقد كان هناك أربعة وعشرون من كبار الضباط مع هيئة القيادة العامة، أما في الجانب التركي فقد كان هناك ضابط واحد برتبة عقيد ومعه عدد قليل من ضباط القيادة مجردين من كل الأساليب والمعدات الحديثة.

ولم يكن على العرب مواجهة هذه المشكلات وحدها بل كان عليهم أيضاً أن يأخذوا في الاعتبار الطائرات الإيطالية التي كانت تهوي على رؤوسهم في أثناء المعركة كالعقبان الضخمة التي تنقض على فريستها، وكـان المرء أحياناً يجتاحه شعور بالرغبة في أن يقول «والآن انظروا أيها السادة، أرجو أن تسمحوا لي بأن أقول: إن هذا حقاً ليس من العدالة بمكان».

والأسوأ من كل ذلك أن العرب كان عليهم أن يواجهوا نظاماً من أعمال الجاسوسية أخشى أن يكون قد وصل إلى داخل معسكراتهم ذاتها، إنني في الحقيقة أشك في بعض أولئك الشرقيين الذين أبدوا تعاطفاً جارفاً مع الأتراك في دواخـل طـرابلس، ولا يـستبعـد أن يـكـونـوا يـعـمـلـون كـجـواسـيس لايطاليا. فان أسراب المالطيين واليونان والفرنسيين والايطاليين في صفاقس وابو قردان على طول حدود طرابلس مع تونس يقضون كل وقتهم في جمع المعلومات من المسافرين.

وفي دراسة هذه الحرب برمتها ومعركة سيدي المصري على وجه الخصوص، يجب ألا تغيب عن ذهن القارىء الأفضلية التي كان يتمتع بها الإيطاليون على خصومهم بسبب مدفعيتهم. فالعرب مقتنعون تماماً بأنهم لو كانوا يمتلكون معشار ما يملكه الايطاليون من المدفعية لأمكنهم قهرهم وردهم مدحورين، ومن ثم كانت رغبة العرب عارمة في الحصول على مدفع أجنبي وهي رغبة طالما كان من العسير تحقيقها عن طريق الاستيراد بالطريق العادي. فقد لجأوا إلى الحصول عليها عن طريق الاستيلاء عليها من المواقع الايطالية، حتى إنهم عندما رأوا قافلة الصليب الأحمر الالمانية التي جاءت لتلتحق بمعسكرات الأتراك محملة بصناديق الدواء فانهم كانوا يهتفون ويهللون ظانين أنها كانت تحمل مدافع قائلين: «لقد ارسل الالمان المدافع، بوركتم يا من جئتم بمدافعكم!!».

إن حقيقة واحدة تتعلق بهذه المعركة ربما تروق للانجليز فقط وهي أن الايطاليين وحتى موقعة سيدي المصري كانوا لم ينزلوا مدافعهم إلى الشاطىء، بل إن بعضاً من المدافع وضعت في مواقعها عندما كانت المعركة مستعرة الأوار، فالغزاة الايطاليون كانوا يعتمدون أساساً على المدافع الجبلية والسفن الحربية لأكثر من ثلاثة أسابيع بعد احتلالهم لمدينة طرابلس، وعلى هذا الأساس فلو أن الأتراك كانت لديهم أية مدفعية مناسبة نوعاً لأمكنهم تمزيق جيش الجنرال (كانيفا) إرباً في قلعته قبل نهاية هذه الأسابيع الثلاثة.

إن هذه الحقيقة تدل على مدى الصعوبة التي تواجهها أية قوة أجنبية يمكن أن تقوم بعملية إنزال في بريطانيا، حتى لو حلت بالأسطول البريطاني الهزيمة فإن عملية إنزال مدفعية الغزاة تستغرق وقتاً طويلاً، وفي تلك الأثناء فإنه يمكن إزعاج الغزاة بالطائرات واجتياحهم بالمدفعية القوية التي تجمع من كافة أنحاء الجزر البريطانية، بينما تستطيع قوارب الطوربيد التي تكمن في الموانى القريبة أن تصبح تهديداً دائماً معوقاً لعمليات الانزال.

إن اكتشاف البخار أفضى إلى تقريب المسافة بين إنجلترا والقارة، إلا أننا في الوقت نفسه مدينون بالعرفان للمدافع والطائرات وغيرها من أدوات الحرب الضخمة التي يجلبها معه الجيش لمساعدته في الإنزال، بحيث صار إنزال حملة في أرض معادية في الوقت الحاضر عملية أكثر حرجاً مما كانت عليه في أيام يوليوس قيصر أو ليام الفاتح.

الفصل التاسع

كيف أمكن سد الثغرة في خط الدفاع الإيطالي

وهكـذا كان في استـطاعة الايـطاليين ـ بفضل مـدفعيتهم ـ أن يصدّوا أعداءهم ويحبطوا محاولة (نشأت بك) الجريئة للالتفاف حول لواء المشاة الرابع والثمانين وتمزيقه. لقد كان تحطيم هذا اللواء ـ على وجه الخصوص ـ هو الهدف الاستراتيجي لهذا القائد التركي في (سيدي المصري) مثلما كان تحطيم كتيبة البرساليري الحادية عشرة هو هدفه في (شارع الشط) في الثالث والعشرين من أكتوبر. فالمـلازم (فرانكيني) ومعـه السريـة السابعـة استطاع استعادة فيلا جمال بيك مرة أخرى ولكنه لم يلبث أن حوصر فيها. فإن تفتت الأرض حول المنزل جعل الخيالـة الإيطاليـة الذين تـرجلوا من على ظهور جيادهم وكذلك جزء من السرية الثانية عشرة يجدون أنفسهم في وضع حرج، وإلى جانب ذلك فإن بعض الأعراب كانوا يسيطرون على بعض البيوت القريبة وبخاصة ذلك المعروف باسم (السكت).

وفي الحال بعث الإيطاليون بمجموعة مزودة بخبراء في الألغام لإنقاذ السرية السابعة، وقد كان بإمكان العرب سحق السرية والمجموعة التي جاءت لانقاذها لولا مبادرة أحد الضباط الايطاليين حين أرسل في أثرها الكتيبة الثالثة التابعة للواء المشاة الثاني والثمانين والتي استدعاها من مكان آخر.

وكانت السرية الثانية عشرة قد تمكنت من قبل من الوصول إلى المنطقة المحاصرة، وأخيراً تمكنت هذه القوة من محاصرة البيوت التي كـان يسيطر

عليها العدو (العرب)، وعلى هذا النحو تمكن الإيطاليون من سد الثغرة التي أحدثها العرب في خط الدفاع الايطالي، وبالتالي منعهم من اندفاع مزيد من العرب إلى داخل التحصينات، ولولا وصول السرية الثالثة عشرة التابعة للواء الثاني والثمانين في الوقت المناسب لما أمكن تنفيذ هذه الحركة. إن هذه السرية كانت قد أرسلت للانقاذ ولكن العرب غير النظاميين أوقفوها في منتصف الطريق إلى الواحة تماماً مثلما أوقفت في اليوم السابق، ولكن اليوم استطاع الكابتن (روبيوني Robiony) قائد هذهالسرية تنفيذ مهمته بطريقة رائعة بفضل خدعة حربية قدر لها النجاح.

فقد كانت هناك مجموعة من العرب يبلغ عددهم نحو الثلاثين معظمهم من النساء والأطفال والرجال المسنين الذين كانوا يهرولون في طريق جانبي بعد أن تركوا بيوتهم خاوية يريدون الوصول الى المدينة. وعندما رآهم هذا الضابط الايطالي استوقفهم ووضعهم في مقدمة طابوره وأمرهم بالتقدم نحو (الهاني) وكانت النتيجة عجيبة حقاً فقد توقفت كل المقاومة وتوقفت النيران التي كانت تنطلق من البيوت وأشجار الزيتون والنخيل وأشجار التين.

هذه المجموعة التي لم يكن أمامها مفر من القتال طوال اليوم وصلت إلى الهاني في الساعة العاشرة مساء، مثل تلك الكتيبة التي أرسلت لنقل النجدة إلى شارع الشط يوم الثالث والعشرين والتي لم تصل إلى مقصدها حتى المساء عندما كانت المعركة قد انتهت، وكان هؤلاء الرهائن جالسين على شكل دائرة على الأرض على يمين الجنود، وكانوا في صمتهم ولا مبالاتهم وعدم حركتهم ورؤوسهم مغطاة بأغطية بيضاء يبدون كما لو كانوا غارقين في سبات عميق.

ولا عجب فإن الأسرى كانوا مشدوهين من تصرفات رجال أمة «حملت مشاعل الحضارة إلى العالم ثلاث مرات». والذين جعلوهم درعاً يختفون وراءهم خوفاً من نيران عرب الواحة، وها هم الآن يجعلون منهم مرة أخرى درعاً للوقاية في الجبهة من بنادق عرب الصحراء. إن الاقتباس السابق مأخوذ

من وصف كتبه السنيور (جيوسيبي بيفيوني) الذي كان يعد واحداً من أعظم الكتاب الإيطاليين الليبراليين الذين كتبوا عن هذه الحرب.

ويعتقد السنيور (بيفيوني) أن الخطة التي أقدم عليها الضابط (روبيوني) كانت «فكرة عبقرية» وأنها «كان من الممكن أن تنقذ أرواحاً كثيرة لو أنها تبادرت إلى أذهان من كان بأيديهم الأمر في يوم الثالث والعشرين». إن كافة الكتاب الايطاليين الذين وصفوا هذه الحادثة متحمسون لها، بيد أنه من المؤكد أن ذلك أمر لا يتفق والعدل طالما أنه في اليومين السابقين تم قتل أو سجن كل عربي في ذلك الجزء من الواحة وصودر كل سلاح في البيوت العربية، حتى مقصات النساء وشفرات حلاقة الرجال. ولذلك فإن طلقات الرصاص التي انهالت على مجموعة الضابط (روبيوني) جاءت من عرب الصحراء الذين تمكنوا من التسلل من خلال الثغرة عند فيلا جمال، بل والذين اعتبرهم الايطاليون جنوداً أتراكاً نظاميين[1].

وبعد أن تمكن الايطاليون من سد هذه الثغرة في خط دفاعهم أصبح من

---

(1) وقد نشرت صحيفة (المساجيرو) في عددها الصادر في ٢٨ اكتوبر تحت عنوان «خدعة حربية ناجحة» إنه عندما أرسلت مجموعة من لواء المشاة الثاني والثمانين إلى الجبهة كان قائد هذه المجموعة يسير عبر منطقة من الواحة محفوفة بالأخطار ولذلك فقد كان عليه (أن يفكر في خطة كان نصيبها النجاح، فقد جمع نحو أربعين من العرب رجالاً ونساء وغيرهم من السكان، الذين وجدهم في حدائق الواحة وأرغمهم على السير في مقدمة مجموعته).

هذه هي الحادثة ذاتها، وكل الصحف الإيطالية تشير إليها بحماس كبير وهذه الحقيقة تظهر عدم جدوى المجادلات التي دارت بين البريطانيين من ناحية والإيطاليين من ناحية أخرى حول المذابح التي نفذت خلال الشهور الستة الماضية. فإنه من الصعب إقناع جندي صقلي بخطأ اصطياد عرب الواحة بالمدفع مثلما أنه من الصعب إقناع سائق عربة في نابولي بعدم إساءة معاملة حصانه.

السهل عليهم نسبياً أن يسحقوا العدد القليل الباقي من عرب الواحة. فقد كان هناك أربعون من الايطاليين مقابل كل عربي، ولما كان معظم الأهالي قد استنفدوا كل مؤونتهم فقد صارت أمام الصقليين فرصة عظيمة لاظهار «معجزات في الشجاعة» وهم يشعرون بأمان واطمئنان. فقد تمكن الكولونيل (سبينللي) من تطويق فريق من العرب بمساندة ثلاثة أنصاف من سرايا خيالة اللودي المترجلة ومفرزة تابعة للسرية الثانية والثمانين. وقد لقي جميع العرب حتفهم سواء من قتل منهم في الحال أو من أسر لكي يسفك دمه فيما بعد. إن هؤلاء الرجال الأبطال لم يلقوا أية رحمة بعد أسرهم، ولم يعاملوا معاملة الأسرى، رغم أنه من المعتقد بأنه من حقهم أن يعاملوا كمحاربين. صحيح أن هؤلاء العرب كانوا لا يرتدون ملابس عسكرية عندما وقعوا في الأسر، إلا أن مقاتلي شعب البوير الذين وقعوا في الأسر عندما نفذت ذخيرتهم لم يقتلوا عندما وقعوا في قبضة القوات البريطانية.

لقد كان هناك انتصار عسكري رائع للقوات الايطالية هللت له اليوم الصحف الايطالية، وكذلك الضباط الذين أعيدوا إلى وطنهم بسبب إصاباتهم، بل ولربما أيضاً (جابريل دانتزيو)، ذلك الانتصار هو استيلاء السرية الثامنة الباسلة التابعة للواء الرابع والثمانين على (راية الرسول الخضراء).

وقد بالغت الصحافة الإيطالية في سرد القصص المثيرة حول الطريقة التي استطاعت بها تلك العصبة الباسلة من أبطال الجيش الايطالي أن يمزقوا العرب الذين كانوا ملتفين حول رايتهم الخضراء المقدسة إرباً، حتى استولوا على ذلك الكنز الثمين. وحتى (كوارد وزولي) المعروف باعتداله وعدم تهوره يصف كيف أن «مفرزة من اللواء الرابع والثمانين حققت نجاحاً باهراً باستحواذها على راية الرسول الخضراء التي كان يحملها بعض العرب»، غير أنه أخفى عن قرائه أن كل أولئك العرب قد سقطوا قتلى.

وفي السابع والعشرين من اكتوبر سمحت وزارة الداخلية الايطالية للصحف الايطالية بالحصول على شيء قليل من فبركتها الخاصة بعد أن كانت تمنع نشرالروايات الخاصة عن قتال اليوم السابق باستخدام قلم الرقابة الأزرق، بكل همة ونشاط. وكان هذا الشيء القليل الذي سمحت بنشره تحت عنوان «رسمي»، وكان مؤرخاً في طرابلس في مساء السادس والعشرين من أكتوبر.

وقد أرادت أن توهم القارىء بأنها تعطي ملخصاً لوقائع القتال، ولكنها تناست تماماً ـ لسبب أو لآخر ـ أن تقول كلمة واحدة عن خط الدفاع الايطالي الذي تم اختراقه، إلا أنها لم تنس بالتأكيد أسطورة (الراية الخضراء) فقالت «إن السرية الثامنة التابعة للواء المشاة الرابع والثمانين تمكنت من الاستيلاء على تلك الراية في هجوم منقطع النظير اشتبكوا فيه بالسلاح الأبيض مع العرب».

إنني لا أعرف إذا كان أحد من أفراد تلك السرية الثامنة لم ينل حظه من الأوسمة، غير أنني أعتقد أن الحقائق الصادقة عما جرى هي: «العلم الأخضر قد وجد بعد المعركة تحت كومة من جثث العرب القتلى أمام فيلا جمال بك، وعليه فلم يكن هناك هجوم باسل من جانب الإيطاليين، فقد كانوا مختبئين، ومدفعيتهم وبنادقهم هي التي حققت لهم هذا العمل البطولي.

ولكن من حين لآخر كان الإيطاليون يصادفون بعض العرب الذين لم يلقوا حتفهم، وتصادف أن التقت فجأة السرية الثانية عشرة التابعة للواء الرابع والثمانين بفريق من العرب عند ملتقى أحد طرق الواحة، وكان عدد هؤلاء العرب مساوياً لعدد أفراد السرية الايطالية تقريباً، ولو كان العدو من عرب الواحة غير المسلحين لسحقهم الايطاليون بشجاعةوتصميم، ولأظهر القائد الايطالي نفسه شبيهاً بنابليون أو بسمارك، ولأثبت مساعدوه من الضباط حقهم في أن يسموا (حفدة سيبيوس Scipios) .

إن الكابتن (فايتيني Faitini) العبقري دقيق الملاحظة الذي كان على رأس طابوره والمونوكل على عينه، كان يعتقد في البداية أن هؤلاء العرب من العرب المسالمين ذوي المظهر الكئيب المعتاد ساقهم القدر، ليلقوا حتفهم لا برصاص الايطاليين فحسب، بل ولينخسوا في مؤخرتهم بالحراب أيضاً. ولكن كلما اقترب أولئك العرب رويداً رويداً من السرية اكتشف الحقيقة المرة المرعبة ألا وهي أن هؤلاء الأوغاد الأنذال كانوا مسلحين، وعندئذ فإن ورثة روما القديمة هرعوا كالأرانب هاربين تاركين وراءهم قائدهم (فايتيني) والملازم (بلليني Bellini) وعدداً كبيراً من ضباط الصف والجنود ليلقوا حتفهم. أما معظم من كتبت لهم النجاة فقد تسلقوا الأشجار وظلوا هناك حتى وصول سرية من الكتيبة الثانية والثمانين مما أدى إلى نكوص العدو. ولو أسعف الحظ الضابط (فايتيني) لاستعمل خطة الكابتن (روبيوني) المعروفة «بالفكرة الماكرة» وهي أن يخفي نفسه وراء جمع من الأطفال والنساء والشيوخ، وعندئذ فقط ربما بقي (فايتيني) حياً حتى اليوم يرتدي ميداليته[1].

إن المنهج الذي طبق في تصفية تلك الواحة كان يشبه إلى حد كبير

---

(١) وفي مارس سنة ١٩١٢ كتب مستر (رتشارد باجوت) في (باجوت) متهماً إياي بقبولي شهادة العرب، وقد أجبت قائلاً بأنه قبل خمسين سنة عندما كان شمال ايطاليا يحاول أن يهز دعائم النير النمساوي لم يأخذ الأنجليز برواية Pall Platz (النمساوية) للأحداث ويصموا آذانهم عن الرواية الإيطالية، وبالنسبة للحادثة التي ذكرتها آنفاً ماذا كان مستر (باجوت) يريدني أن أفعل إنه من المؤكد تماماً أن مائتين وخمسين من العرب اقتحموا خط الدفاع الإيطالي وكان عملهم هذا معجزة في الشجاعة فهل كان مستر (باجوت) يريدني أن أصم أذني عن الحادث، يجب أن أرى ذلك السيد الإيطالي وهو فوق الشجرة وأستمع لروايته وحدها دون غيرها»؟

ولسوء الحظ فإن هذا السيد القابع فوق الشجرة هو الذي يحتكر عملياً كل الأخبار التي تتصل بهذه الحرب، وكما قال شاعر محلي: إن العربي يحارب في صمت ويموت في صمت، أما عدوه فإنه يهبط من فوق الشجرة ليروي أكاذيب.

حصار شارع سيدني فقد كان العرب أحياناً يدخلون البيوت، وكان القبض عليهم يحتاج إلى ذكاء لأنهم كانوا يقتلون بثبات أي شخص قبل أن ينزع سلاحهم، ثم بعد ذلك يموتون سعداء. وقد تصادف أن اجتمع منهم في منزل واحد أربعون شخصاً وطنياً، وقد صعد جنديان إيطاليان إلى سطح ذلك المنزل ومن هناك أخذا يطلقان عيارات نارية إلى أسفل. ولما أدرك الايطاليون أنهم لا يجرؤون على المغامرة بدخول ذلك البيت فإنهم صمموا على إضرام النار فيه، فسارعوا بجمع جذوع الأشجار والأغصان ووضعوها أمام الباب وأشعلوا فيها عوداً من الثقاب فلما اشتعلت النار أرغمت ألسنة اللهب العرب على الخروج، فكانت فرصة لكي يمطرهم الإيطاليون برصاصهم، وهكذا أبادوهم عن بكرة أبيهم.

وفي بعض الأحيان كان الإيطاليون لا يجرؤون على الاقتراب من المنزل لاشعار النار فيه وعندئذ كانوا يسلطون عليه نيران مدافعهم أو يفجرونه بالألغام، وعلى فترات متقطعة خلال اليومين التاليين أصبح دوي الألغام هو التذكار الوحيد للحاميات العربية الصغيرة التي كانت تصمد بإصرار لا مثيل له هازئين من الموت عندما يقترب. وهذا ما حدث للكثيرين، فإن الموت كان يزحف في تلك الأيام بين نخيل الواحة. وفي وسط الأفنية المهجورة للبيوت المهدمة كان الإنسان دائماً يصادف جثثا ترقد بين الحشائش بأذرعها الملتوية، وقد ديست الطرابيش بالأقدام، وأحياناً كان المرء يجد طربوشاً فيرفعه ولكنه سرعان ما يلقيه على الأرض مرة أخرى بشدة، لأنه كان مختلطاً بالدم وقد سقطت منه مادة رمادية من المخ.

وقد كان بعض أفراد من الجنود العرب يكتشف أمرهم في كل أنواع الأماكن غير المألوفة، ونظراً لأنهم لم يحاولوا الاختباء أبداً فقد ظلوا يطلقون الرصاص حتى آخر طلقة، وبعد ذلك يخرجون المدى ويطعنون أول جندي إيطالي يصادفونه، ولكن في بعض الأحيان كان يراهم الإيطاليون قبل أن

يصلوا إلى هذه المرحلة.

وكانت مجموعة من الجنود معسكرة في الواحة تستمع على فترات منتظمة إلى أزيز طلقات الرصاص تمر فوقهم، وبعد أن وجدوا أن عدداً من زملائهم قد سقطواجرحى، تقدموا للتحقق من الأمر، وفتشوا - دون جدوى - كوخاً أبيض لأحد الوطنيين كان يبدو أن الطلقات تصدر منه، وكان الكوخ مظلماً مهجوراً، وبينما كانوا على وشك مغادرته لاحظ الجاويش الصقلي الذي كان يقود المجموعة شيئاً أبيض يتحرك في الداخل كما لو كان وجار كلب، ثم حدث اندفاع شرس من جانب الجاويش ورجاله، وباختصار نشب صراع حاد بالغ العنف دمر في أثنائه وجارالكلب، ووقف الجاويش يلهث وهو يمسك برجل عربي أشعث الشعر وقد تمزقت نصف ملابسه من على ظهره وكان في يده بندقية موزر لا تزال ساخنة وحول وسطه حزام عليه نحو خمسين خرطوشة رصاص. وتمتم الجاويش الصقلي قائلاً بسخرية: والآن لا تنزعج لا تدعنا نقلق راحتك يا سيدي.

ولكن السجين لم يكن منزعجاً، إذ نظر الى الجنود بهدوء، ورغم أنه كان يقرأ الحكم بإعدامه على الوجوه القاسية فقد كان يبتسم، لقد كانوا واقفين في فناء بيت عربي أبيض صغير يغمره ضوء الشمس وكانت السماء زرقاء وأشجار النخيل مملوءة بالطيور التي كانت هي الأخرى تطير فوق الفناء المهجور وفوق الحائط. وبعد ذلك خيم سكون عميق، بينما كان الجنود الصقليون يقومون ببعض الاستعدادات العاجلة.

وأعلن الجاويش لجنوده: استعداد!! وصوب الجند بنادقهم اللامعة ووضع العربي - وهو ما زال يبتسم في هدوء - أمام الحائط، وفجأة دوي في الهواء صوت قعقعة البنادق العنيف الذي تردد صداه مثل الرعد في أنحاء البيت الخالي، وسقطت قطعة كبيرة من الجص من الجدار وطارت الطيور بعيداً وهي تصيح وسقط العربي على ظهره فوق الأرض، وقد التوت ساقاه

تحته، وسال الدم في حوض المطبخ، وتحول وجهه المائل للسمرة المشوبة بالاصفرار إلى السواد، وذقنه مرتفعة إلى أعلى، وضاعت ابتسامته، وانفرجت شفتاه فظهرت أسنانه البيضاء، لقد كانت أشبه بأسنان كلب قتل وهو على وشك أن يعض فريسته.

ولما كان العرب في الخارج قد تقهقروا فقد قام الايطاليون بمحاولة ضعيفة كهجوم مضاد من أجل قطع خط الرجعة على هروب العدو، لقد كان مشهداً مضحكاً يذكر الانسان بأرنب خرج من جحره الآمن لكي يحول دون هروب كلب الصيد الذي كان يحاول لقاءه دون جدوى.

وتقدمت مفرزة من اللواء الأربعين ببطء وحذر شديدين على الرمال، وملابسهم البنية تتباين مع لون الصحراء الرمادي. وفي المقدمة كانت تسير مجموعة صغيرة من الحراس مثبطي الهمة يتقدمون كرجال الإعلانات، وتسير خلفهم معظم المجموعة، وببطء تسلقوا قمة أقرب الكثبان الرملية. وكانت قذائف السفن الحربية تحرث الصحراء أمامهم، ثم بدأوا في إطلاق النار (باندفاع) غير عادي وهو اللفظ الذي استخدم كثيراً في أثناء هذه الحرب، لأنه - لسعادتهم - اختفى العدو عن الأنظار.

وجاءت مجموعة أخرى تقدمت واستولت على الكثبان في اتجاه البحر، والآن الساعة العاشرة والمعركة وصلت إلى نهايتها.

واغرورقت عيون الايطاليين بدموع الفرح وعانق كل منهم الآخر بحماس وأخذوا يتباحثون في نقل (راية الرسول الخضراء)، ويتبادلون قصص البطولة والمغامرة، وقد ذكر أحدهم كيف أنه قتل بيديه خمسة من العرب في الواحة، ولم يذكر ما إذا كانوا مسلحين أو غير مسلحين، وذكر آخر قصة خيالية عن ضابط تركي تخفى في زي امرأة مسلمة وحاول التوغل في المدينة، وأفاض الإيطالي في التفاصيل: كيف استجوبت هذه المرأة وماذا قالت، وتحدث ثالث حديثاً طويلاً عن جنازة عربية زائفة أوقفت وهي في طريقها إلى المدينة،

وسرعان ما تحولت إلى جنازة حقيقية واسعة النطاق حيث تبين أن النعش ما كان يحتوي إلا على بنادق موزر.

وتبعهم آخر ليقص كيف أن متسولاً مزيفاً (تبين فيما بعد أنه جندي تركي) وصل إلى سوق الخبز قبل أن يقبض عليه ويؤخذ منه خطاب هام باللغة العربية كان يحمله. ورويت قصص كثيرة عن الأثر الرهيب الذي أحدثته القنابل الملقاة من الطائرات وإفلات الطيارين من رصاص بنادق العدو. ولكن ـ بطبيعة الحال ـ كانت أعمال الشجاعة تبحث وتناقش أكثر من غيرها، وكل رجل كان يحكى بصراحة قصصاً عن نفسه، وأحياناً كان يجري الحديث عن بعض الضباط المحبوبين، وما أكثر الأعمال ذات الصفة البطولية من جانب الضباط.

فمثلاً استعاد الليفتنانت (مانيرا) من فرقة الكارينييري الخنادق. وأسر مائتي أسير، وهذا الليفتنانت (دي بالما) من المهندسين وهو مسلح ببندقية انتزعها من الأتراك يصمد لمدة خمس ساعات في قلعة المصري. والكابتن (كاراشيولو) نفق حصانان تحته ضرباً بالرصاص وذات مرة حاصره وثلاثة آخرين عشرون من العرب، ولكن (الشجعان الأربعة) لم يفقدوا حضورهم الذهني، وبطلقات البندقية والمسدس أرغموا مهاجميهم على الفرار تاركين وراءهم خمسة من القتلى وثلاثة مصابين بجروح خطيرة على أرض المعركة.

كما أبدى المشاه والفرسان الكثير من مظاهر الجرأة، إذ كانوا احياناً يخرجون من الخنادق لكي يوجهوا لطمة للعدو ثم يعودون دون أن يصابوا بسوء.

كل هذه القصص يمكن قراءتها في صحيفة (جورنال ديتاليا) الوطنية المتطرفة كما أن الصحف الايطالية الأخرى (وكذلك بالطبع صحيفة النيويورك هيرالد) تحتوي على قصص حمقاء مختلقة عن (الضغط القاسي) الذي مارسه الترك على العرب من أجل إرغام هؤلاء على القتال وكيف كان الترك يحتفظون

بالأسر الوطنية كرهائن، وكيف أنهم ظلوا في المؤخرة بينما يرغمون العرب على التقدم.

ومثل هذه القصص الخيالية كانت تروي حول كل معركة، وكان كل قائد حكيم عاقل يشجع على ذيوعها وانتشارها، وأحياناً كان القائد نفسه هو الذي يبدأ في روايتها.

وخلال الفترة الحرجة في معركة (لياويانج) أتذكر أنه وصلت إلينا شائعة قوية على تل (شاوشان) بواسطة أحد ضباط القيادة، وكان مؤداها أن الجنرال (ستويسل) قد شق طريقه خارج (بورت آرثر)، وأنه يتجه شمالاً بجيشه ومن المتوقع وصوله في أية لحظة. وقد هلل الجنود الروس بشدة ولكن الكولونيل (واترز) أحد الملحقين البريطانيين لم يلبث أن ألقى بماء بارد هدأ من ثورة التهليل والحماس بسؤال بريء عما إذا كان (ستويسل) وفرقته قادمون في بالونات.

وفي العصور القديمة كان هناك أفراد مجهولون ذوو خيالات شعرية يخترعون هذه القصص المثيرة أو يحلمون بها، وبعد ذلك قام الشعراء بصقل هذه القصص وربما كانت هذه القصص بعد صقلها هي الروايات الوحيدة التي وصلتنا عن بعض المعارك القديمة. ولكن في العصور الحديثة صارت هذه القصص في نظر وزارات الحربية وغيرها من الهيئات الرسمية غير ذات قيمة شعرية. إن سيل الأكاذيب الرسمية التي يصادفها المرء في هذه الحرب تجعله يميل الى القول بأن الحرب ما هي إلا كذب وبهتان. ومنذ بضعة أيام قامت إحدى الطائرات الايطالية بالقاء آلاف المنشورات باللغة العربية على العرب، جاء فيها بيان موقع من رئيس الوزراء الايطالي ووزير الخارجية، وفحواه أن إيطاليا كانت أكثر دول أوربا ثراء وقوة، وأنه لا جدوى من استمرار العرب في الحرب طالما أن الأسطول الايطالي قد تمكن من إغراق ست عشرة ناقلة عثمانية.

لقد كانت الخسائر الإيطالية في هذا الاشتباك فادحة بشكل واضح وبخاصة بين الضباط، وكان أبرز الضباط الذين سقطوا صرعى الكابتن (بيترو فيري) من هيئة ضباط القيادة العامة، وكان على صلة بمكتب الخدمة السرية (المخابرات) في طرابلس، ولقد سبق للكابتن (فيري) أن كان مندوباً سرياً في أرترية، وعدن، والصين، وتريست، وطرابلس، وكان يتمتع بين كل من يعرفونه بشهرة كبيرة في الشجاعة والمقدرة.

وقبل القصف مباشرة جاء إلى طرابلس تحت اسم (فينشنزو باريزيو) وبصفته «مفتش مكاتب البريد الإيطالية»، وكان هدفه بطبيعة الحال جمع كل المعلومات التي يمكنه جمعها عن توزيع القوات التركية وتسليح القلاع والحصون التركية. وكان قد سبق لوزارة الحربية الايطالية أن حصلت على تفاصيل كاملة عن هذه الأمور، ولكنها كانت تريد التحقق من صحتها وحتى تكون معبرة عن أحدث الأوضاع Up to date وكان الكابتن (فيري) ـ بمفرده أحياناً وبصحبة ترجمان القنصلية الايطالية أحياناً أخرى ـ يسافر فوق حصان مخترقاً كل أنحاء البلاد في طرابلس من زنزور في ناحية إلى تاجورا في الناحية الأخرى. وحصل على أدق التفاصيل عن كل بطاريات المدافع وجميع القلاع والحصون.

وأستطيع أن أضيف ـ بالمناسبة ـ أن مفتشي البريد وغيره مثله أرسلتهم الحكومة الايطالية إلى درنة، وبنغازي وكل الأماكن الأخرى على الساحل، بينما كانت هناك بالتأكيد بعثات «علمية» و «تجارية» تتوغل في الدواخل، وكل هذه البعثات سمح لها الترك بالذهاب إلى هذه المناطق على هواها، ومع ذلك فإن إيطاليا ـ طبقاً لبيانها الطافح بالسخط كانت تدعى أنها اضطرت إلى خوض الحرب بسبب الصعوبات والعقبات التي كانت تركيا تضعها في طريق استغلالها لطرابلس اقتصادياً.

ويبدو أن الكابتن (فيري) كان في ذلك الوقت يعمل سراً مع (جاللي)

نائب القنصل الذي كان ممثل إيطاليا المغرور في طرابلس، بل إن (جاللي) نفسه كان متورطاً كلية في العمل السري واستغل ضيفه الذي كانت زياراته استجابة لتعطش الفلورنسيين للتآمر والتخفي واجتماعات منتصف الليل والأعمال المثيرة.

وقبل القصف مباشرة كان نائب القنصل الايطالي يقف مع أحد الصحفيين في شرفة القنصلية يراقب أضواء السفن الحربية الايطالية عندما تقدم إليه ـ بطريقة عصبية ـ شخص مدني طويل القامة نحيل مهندم، وعندئذ التفت (جاللي) إلى المراسل وقال له «لا تخبر أحداً عن هذا الشخص الذي رأيته معي كثيراً، فإن كلمة واحدة قد تكلفه رأسه» وكان الشخص الغريب هو بطبيعة الحال (فينشنزو باريزيو).

لقد غادر هذا الجاسوس طرابلس مع القنصل،ولكنه سرعان ما عاد بصفته الكابتن (فيري) من ضباط أركان الحرب، وكان أول من نزل إلى البر في طرابلس، فقد جاء إلى الشاطىء عند قلعة الحميدية قبل الآخرين ليرى ما إذا كانت محطة الطوربيد القديمة هناك قد تحطمت نتيجة للقصف، وبعد ذلك وضع الخطط لأول دفاع عن طرابلس يقوم به مشاة البحرية، ولكن على الرغم من أنه في البداية حصن بوමليانة وجدد خطوط الخنادق للمستقبل فقد كان يؤيد بشدة التقدم في الصحراء معتقداً بأن جماعات الترك المبعثرة يمكن أسرها أو تشتيتها بسهولة قبل أن تتاح لها فرصة إثارة العرب. وهناك ما يؤكد وجهة النظر هذه، فأما أن إيطاليا كانت أو لم تكن في حالة تمكنها من الاستيلاء على جزء من ولاية طرابلس خلاف بعض المدن القليلة على ساحل البحر، فإذا كان في مقدورها ذلك لتقدمت، وإذا لم يكن لما زجت بنفسها في الحرب. ولكن الجنرال (كانيفا) كان يؤمن بالأساليب البطيئة ورفض العمل بمشورة مساعده الأكثر منه مغامرة وإقداماً.

لقد كان هناك سر يحيط بوفاة هذا الضابط الكفء، أقصد الكابتن

(فيري)، ويقال إنه كتب بأنهم لن يفعلوا ذلك، ولذلك جاءت أحداث الثالث والعشرين من أكتوبر مخيبة لآماله، ويقال إنه نتيجة لخيبة آماله انتحر في السادس والعشرين. ولكن التفسير الذي يقدمه أصدقاؤه يذهب إلى أنه رغم أن الكابتن (فيري) كان مؤهلاً بالطبيعة بشكل نادر لانجاز مهامه كمندوب في الخدمة السرية فإنه لم يكن يحب هذا العمل كثيراً، وكان دائماً يود لو تولى قيادة الرجال في الميدان، يقود الجنود ضد العدو، ويمكنني القول بأن معظم الضباط العسكريين الذين يكلفون بأعمال التجسس يشعرون غالباً بنفس الشعور.

وفي صباح السادس والعشرين تصادف أن كان ضيفاً على الكولونيل (فارا Fara) في (الهاني) وخلال القتال المستمر رأى فصيلة من العدو تتحرك صوب شارع الشط من أجل الالتفاف حول البرساليري وقرر الكولونيل (فارا) أن يرسل إلى الميسرة مجموعة من بحارة السفينة (صقلية) وطلب الكابتن (فيري) الأذن له بقيادتهم فسمح له، ولكن الكابتن (فيري) كشف نفسه ـ بلا مبرر ـ في الخنادق ولم يلبث أن خر صريعاً بالرصاص، وسقط ما لا يقل عن عشرين من مجموعته الصغيرة قتلى أو جرحى.

ولعل الخسارة الفادحة في الضباط الإيطاليين كانت ترجع إلى اندفاعهم في كشف أنفسهم، علاوة على حقيقة أخرى مؤداها أن العرب والترك كانت لديهم تعليمات باصطياد أكبر عدد ممكن من الضباط. ومن السهل تمييز الضباط الايطاليين من سترتهم، بينما ـ في الناحية الأخرى ـ كان من المتعذر تبيان القواد الترك، لأن كل ضابط تركي كان يرتدي زياً عربياً ويحمل بندقية مثل رجاله ولم يكن لذلك يمكن تمييزه عن ضباط الصف والجنود.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الضباط الإيطاليين كانوا يقفون في الخنادق، بينما كان الضباط الترك من الحكمة بحيث يستفيدون من كل بوصة من أجل تغطية أنفسهم. وذات مرة، في أثناء معركة (سيدي المصري) شوهد عربي في نهاية طابور الأعداء يتقدم صوب (الهاني)، شوهد وهو يلوح ببندقيته كما لو

كان سيفاً، وكان في الوقت نفسه يصدر بعض التعليمات لرفاقه، وقد كلفه هذا التصرف حياته، لأن الرماة الايطاليين المهرة قرروا في الحال أنه ضابط ولم يبدأ لهم بال حتى تصيدوه. وتحت الرداء الأبيض الخشن الذي كان على جسد كل قتيل عربي كان يظهر زي ضابط تركي.

لقد كان الترك والعرب يستهلكون الذخيرة بإفراط ولكن إذا ما قورنوا بالايطاليين فانهم (أي الترك والعرب) كانوا يطلقون النار بعناية وليس عشوائياً، وكان الايطاليون يعزون أنفسهم بقولهم إن هذا يرجع إلى أنهم لم يكن لديهم الكثير من الذخيرة. وقد شهد الطيارون بأنه حالما يسقط مقاتل عربي فإن أحد رفاقه يأخذ دائماً حزام خراطيش زميله الذي سقط وهذا أكد اعتقاد الغزاة بأن الأعداء (العرب والترك) كانت ذخيرتهم على وشك النفاد، ولكن من ناحية أخرى فإن العرب الذين صرعهم الرصاص في الواحة كان يعثر معهم على كمية كبيرة من الذخيرة وفي الحقيقة لقد كان لدى الترك في ولاية طرابلس خراطيش يحرقونها اذا لزم الأمر حتى لا يستولي عليها (الايطاليون).

وهكذا كانت معركة سيدي المصري فماذا كانت نتيجة هذا (النصر الايطالي المؤزر؟

لقد كتب أحد الكتاب الايطاليين يوم الثامن والعشرين فقال: «اليوم، ونتيجة لنصر يوم السادس والعشرين فإن الجبهة الشرقية قد تراجعت لمسافة تقرب من ميل ونصف ميل صوب المدينة، وذلك لكي تكون خطاً مستقيماً من مقابر القره مانلية إلى مربط سيدي المصري... وهكذا تنازلنا للعدو عن قلعتي المصري والحميدية ومكان آخر على جانب كبير من الأهمية (الهاني) بالإضافة إلى مساحة كبيرة من الأرض قريبة جداً من طرابلس، ومنها كان العدو يستطيع إطلاق مدافعه على المدينة، وعلى قتلانا الذين دفنوا في اليوم الثالث والعشرين».

كان هذا هو حصيلة نجاح الايطاليين العظيم و «نصرنا المؤزر» و «أعظم

انتصاراتنا وأكثرها حسماً كما أسماه السنيور (ماريتتي Marinetti) .

ومن الصعب وصف الرعب الذي ساد في الليلة التالية لهذا (النصر) لقد وصفها أحد الايطاليين العاطفيين بأنها كانت «ليلة رهيبة مليئة بمآس لم تعرف من قبل، ليلة كانت الأشباح تتجول فيها في ساحة الموت». إنه لشيء مروع حقاً، ذلك أنها لم تكن ليلة (النصر) فقط بل إنها كانت ليلة المذابح أيضاً، فكل طريق وممر وحديقة في الواحة كانت مغطاة بجثث القتلى، جثث رجال ونساء وأطفال أبرياء.

ولزيادة الاضطراب والهلع بدأ في الساعة العاشرة والنصف قصف عنيف من المدفعية، وفي البداية ظن المراسلون الصحفيون في المدينة أنه الرعد، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتقدوا أن العرب قد بدأوا هجوماً ليلياً عنيفاً عند سيدي المصري، ولكنه لم يكن الرعد ولم يكن هجوماً ليلياً وإنما كان قصفاً إيطالياً بالمدفعية بسبب ظهور جماعات صغيرة من العدو اكتشفتهم الأنوار الكاشفة التي حولت الليل إلى نهار في الصحراء أمام سيدي المصري. هذه المجموعات كان أفرادها يلوّحون بأعلامهم البيضاء مشيرين إلى أنهم يرغبون فقط في نقل قتلاهم وجرحاهم، وتعاطف الايطاليون تعاطفاً عميقاً ويقول أحد الكتاب المتباكين النائحين يصف المنظر بقوله «إنه من المحتمل مع ذلك أن يعود في الليل أكثر من واحد من العرب ـ مدفوعين بحبهم الذي لا يتزعزع لضحاياهم الأعزاء ـ لكي يؤدوا الشعائر الأخيرة لأجساد القتلى».

وإذ ينفطر الايطاليون عطفاً سمحوا لرجال الأسعاف العرب بالأقتراب، وبعد ذلك فتحوا عليهم نيراناً رهيبة من المدافع والبنادق غطت الصحراء بجثث جديدة حيث أن الغزاة صاروا الآن يحددون مدى التصويب بدقة، كما أن الأنوار الكاشفة سهلت عملية التصويب.

وتقهقر العرب في اضطراب، ولكن لا شك في أنهم ظنوا أن ثمة خطأ قد وقع لأنهم لم يردوا على النار بالمثل، وبعد برهة عادوا للتقدم مرة أخرى،

ومرة أخرى سمح (ورثة روما القديمة) لرجال الأسعاف بالاقتراب، ومرة أخرى أيضاً وجهوا إليهم الأضواء الكاشفة وفتحوا عليهم النيران العنيفة من بطاريات المدفعية والبنادق ومرة أخرى سقط بعض رجال الأسعاف العرب بينما هرب الناجون ولم يحاولوا العودة في تلك الليلة.

إن قليلين من الطليان هم الذين يعتقدون أن المسلمين فقط هم الذين يغامرون ويخاطرون مرتين بهذا الشكل لمجرد أن يقدموا كأساً من الماء البارد لصديق يحتضر وصلت إليهم صرخته وهو يتلوى من العطش، أو لكي يدفنوا - طبقاً للشريعة الاسلامية - قتلاهم الأبطال. ولذلك فقد اعتقد هؤلاء الايطاليون أن شخصية عربية كبيرة المقام كانت بين القتلى، وأن العدو (العرب) كانوا يريدون نقله.

أما بالنسبة للجرحى العرب فإنهم إذا كانوا داخل الواحة الايطالية، فإن صراخهم وتأوهاتهم سرعان ما تسكتها طلقة رصاص، أما إذا كانوا في الخارج راقدين في الصحراء فلا الإيطاليون يساعدونهم ولا يدعون آخرين لمساعدتهم، بل إنهم يتركون لتصعد أرواحهم إلى بارئها مختنقين تحت أكوام الجثث دون أن يقدموا لهم كأساً من الماء.

لقد كانت طرابلس في ذلك الوقت مليئة بالعاطفيين، ودعاة التجديد من الايطاليين، فقد كانت هذه هي حربهم التي أشعلوها، وقد وصف كاتب من هؤلاء بذكاء كيف أن العرب - وهم يرقدون فوق الأرض على ظهورهم بلا حراك - يتطلعون إلى السماء بيأس وتحملق عيونهم إلى (سماء الرسول).

وبانتقال أنينهم وحشرجتهم وهم في سكرة الموت والتي حملتها رياح الليل من الصحراء إلى الخطوط الايطالية زادت من رعب المنظر الذي كان مرعباً من قبل بما فيه الكفاية، وبطبيعة الحال لقد أحسن الايطاليون صنعاً بمعاملة «العدو الغاضب الشرير» بهذه الطريقة جزاء وفاقاً له على إثارة الكثير من المتاعب للايطاليين الطيبين!!.

ولأسباب عسكرية جرت العادة في الحروب دائماً على فحص جثث القتلى من الأصدقاء والأعداء على السواء، وفي حالتنا هذه فقد تم فحص جثث العرب الذين سقطوا أمام الخنادق وكذلك جثث الايطاليين والترك والعرب الذين سقطوا داخل الواحة. وقبالة فيلا جمال بك وضعت جثث العرب في كومة بلغت من الارتفاع درجة جعلتها تكون حائطاً صغيراً، كان زملاؤهم الأحياء يطلقون النار من ورائها، وتحت هذه الكومة تم (الاستيلاء) بمحض المصادفة على «راية الرسول الخضراء» الشهيرة.

وفي الحقيقة كان كل القتلى في هذه النقطة من العرب، وجثة واحدة فقط هي التي كانت ترتدي سترة تركية تحت ملابسها العربية، وعلى جسد كل عربي كان يوجد دليل للمجندي، وكتيب يتضمن تعليمات مبسطة عن طريقة استخدام البندقية، وهذا يدل على أن هؤلاء المحاربين كانوا من الجنود العرب غير النظاميين في الاحتياطي (الرديف).

ولا بد أن عدد الذين قاموا بالهجوم كانوا نحو ألف وخمسمائة عربي من (طرهونة) و (مصراته) و (تاجورا) و (العجيلات) و (غريان)، ويدعي الايطاليون بأن عدد أعدائهم كان أربعة آلاف من الرجال الأشداء، وحتى إذا كان الأمر كذلك فقد نجحوا (أي العرب) في أن يطردوا من الخنادق قوة يبلغ عددها خمسة أمثال قوة العرب، وكانوا في الوقت نفسه متخندقين، وفي التاريخ العسكري الحديث يصل هذا العمل البطولي إلى مستوى معركتي (بليفنا) و (سلستريا).

أما الايطاليون الذين سقطوا في الواحة فقد تبين أن كثيرين منهم قتلوا بطعنات متقاربة من سلاح أبيض، وهذا يدل بالتأكيد على أنه كان هناك تلاحم بين الجانبين في بساتين النخيل، وحيثما يكون رجل في مواجهة رجل آخر (قتال رجل لرجل) فإن الايطالي الذي تؤازره هذه المرة السفن الحربية والمدفعية والطائرات لم يستفد من كل هذا.

ولا شك في أن ساسة روما عندما قرأوا التقرير الذي أرسل إليهم عن هذه المعركة شعروا بالأسف؛ لأنهم تهوروا بالسعي إلى قبضة الموت على يد شعب مثل هذا الشعب، الذي جاء ذكر عنفه في الدفاع عن حريته في نص الكتاب المقدس، وفي سطر من (هوراس): الجنس الذي «ذابت أمامه فيالق أغسطس من جراء المرض والإعياء».

الباب الرابع

المخابح

الفصل الاول

إحارق قرية البحو

لقد تحدثت من قبل عن تطهير الواحة، أي قتل كل العرب الذكور فوق سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة في بساتين النخيل الإيطالية. وقد قتل هؤلاء العرب أو نفوا لأنه كان هناك شك في أنهم أطلقوا النار على المؤخرة الإيطالية أو يستطيعون فعل ذلك في المستقبل. وكما شرحت من قبل عدة مرات فإن الخطأ جاء من حقيقة مؤداها أنه في مناسبات عدة كان العرب يزحفون على بطونهم من الصحراء إلى داخل الخطوط الإيطالية ويهاجمون هذه الخطوط من الخلف. وفي البداية ظن الإيطاليون خطأ أنهم من العرب الأصدقاء (الخونة) ولكنهم لم يكونوا كذلك، وقد أوضحت باقتباسات مأخوذة من تقارير الإيطاليين أنفسهم، أن هؤلاء الرجال الذين أطلقوا النار على مؤخرة الايطاليين كانوا من العرب الاحتياطيين (القوات الاضافية) التي جاءت من مسافات بعيدة لمساعدة الترك. ولكن في يومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من أكتوبر قتل الايطاليون عمداً الكثير من عرب الواحة الأبرياء رغم عملهم ببراءتهم، لقد كان مهرجانا (كرنفالا) للقتل، مذبحة منظمة، وقد استمرت هذه المذابح بشكل منتظم إلى حدما، لبضعة أيام، ولكنها بلغت ذروتها في صباح السادس والعشرين من أكتوبر وكانت الأسباب واضحة وهي كما يلي:

لقد سرت في المعسكر الايطالي في الليلة السابقة كل أنواع الشائعات، وقيل أن زعيم السنوسيين قد أعلن الحرب المقدسة (الجهاد)، وأن أربعين ألفاً من السنوسيين المسلحين تسليحاً جيداً كانوا في طريقهم للزحف على

طرابلس. لقد اعترف الايطاليون بأن عملية الثالث والعشرين من اكتوبر لم تكن سوى مجرد استطلاع بسيط، ولكن في المرة التالية فإن (نشأت بـك) سيستهدف عملاً جدياً، وكل الدلائل تشير إلى أن المرة التالية هذه ستكون في السادس والعشرين والسابع والعشرين من أكتوبر.

وكان من المعروف أن القوات التي هاجمت البرساليري في الواحة يوم الثالث والعشرين، والتي قال الايطاليـون إنهم طهروا الأرض تقـريباً منهم، لم تتراجع لأكثر من نصف ميل وتتخذ الأهبة لهجوم آخر. وقد اكتشف الطيارون الايطاليون أن قوات جديدة من العرب قادمة من الداخل صوب (تاجوره) عند الحافة الشرقية للواحة. وأن انضمام هذين الطابورين من العرب إلى بعضهما من المتوقع أن يتم يوم السادس والعشرين. ومن قمة قلعة المصري أمكن رؤية طوابير أخرى صغيرة للعرب بعيداً في الصحراء.

كل هذه الظروف مجتمعة خلقت الرعب واليأس في صفـوف الإيطاليين، ووصل الأمر إلى ذروته عندما عاودت القـوة العربيـة الهجوم مـرة أخرى في صباح السادس والعشرين، وتمكنت من اختراق خط الدفاع الإيطالي مرة أخرى.

وكان هذا ـ في نظر الجيش الإيطالي ـ يعتبر بداية النهاية تقريباً، فإن الواحة صارت ـ وقد غمرها مرة أخرى سيل من عرب الصحراء خطر عليهم ـ وكما رأينـا من قبل، كـانت الأمور ميؤسـاً منها تمـاماً تقـريباً، وكـان الإيطاليـون يبذلـون محـاولات مستميتـة، ولكن دون جـدوى من أجـل إغـلاق الثغـرة التي فتحت في جناحهم، تلك الثغرة التي كان العدو يضغط من أجل التوغل خلالهـا أكثر وأكثـر، ولكن لعل قشة تغير الموقف وتقلب الميزان، فلربما تقـوم حفنة من عـرب الواحـة بهجوم في المؤخرة، فتحل كارثة تصبح معها معركـة (عدوه) مجـرد حادث طـريق بسيط، وتفقد أسره (سافوي) الأمل في الحياة بعدها.

وللحيلولة دون وقوع هذا الهجوم على المؤخرة قتل الايطاليون معظم عرب الواحة الأبرياء الموجودين عند مؤخرتهم، ويقول مراسل (التـايمز) إن

القسوة التي أنجز بها الجيش الايطالي هذه العقوبة على العرب سكان الضاحية الذين ثاروا يوم الأثنين الماضي يمكن أن توصف بأنها مذبحة بكل ما يحمله المعنى، فإن الجهتين اللتين هاجم منهما العرب قوات البرساليري في المؤخرة تحولتا إلى مجزرتين بشريتين.

لقد كان ذلك عملاً مخزياً.... فإن الايطاليين وقد أعدوا أنفسهم لترويع العرب فتحوا الباب أمام التعطش لفيضانات الدماء، وفي كثير من الحالات كان الرجال الإيطاليون يفقدون السيطرة على أنفسهم وقاسى من ذلك الأبرياء والمذنبون على السواء.

إن قصة العقوبة هذه كان لها وقع ثقيل كالصدمة، وأن ذكرى هذا العقاب الرهيب سوف تعيش طويلاً قبل أن تمحي، ورغم التذرع بضرورات ومتطلبات الحالة العسكرية الملحة فإن هناك احتمالاً قائماً بأن القسوة البشعة في العقاب سوف تفتح المجال لحرب دموية وأعمال انتقامية بدون رحمة على سيئي الحظ الذين يسقطون في الطريق.

إن الحرب لا تعرف الرحمة، وقد شاهدت بعيني إحدى مراحلها التي خلت من الرحمة، ومن الصعب على المرء أن يعرف مدى الحدود التي تمتد خلالها عبارة (ضرورات الحرب) في القرن العشرين.

وقد قال مراسل (الديلي كرونيكل) «إنه لمدة ثلاثة أيام والقوات الايطالية تصرع بالرصاص كل من يصادفها بدون محاكمة: الأبرياء والمذنبون على السواء، وهلك كثير من النساء والأطفال وسط هذه الفوضى، ومن بين الذين لقوا حتفهم في القتال قتل أربعة آلاف من العرب بين يومي الجمعة والاثنين من الأسبوع الماضي. وقد أصدرت السلطات تعليماتها بإفناء كل العرب الموجودين في الواحة والقيام بتفتيش معظم للبيوت بيتاً بيتاً بحثاً عن الأسلحة والذخيرة، واستمر هذا العمل المرعب ثلاثة أيام، وكانت مجموعات الجنود تتوغل في كل جزء من أجزاء الواحة وهي تطلق النار، ورغم أن بيانات

الجنرال (كانيفا) لم تأمر بمذبحة عامة، ولكن هذه البيانات فسرت بطريقة أدت إلى حدوث مذبحة عامة.

وقد ذكر شاهد عيان إنجليزي حسن الإطلاع في مجلة (بلاك وودرز مجازين) في عددها الصادر في ديسمبر ١٩١١ بأنه وصدرت الأوامر بتطهير الواحة فوراً وأن كل العرب الذين توجد في أيديهم أسلحة، أو الذين يبدو من أي دليل أنهم كانوا مشتركين في الثورة يجب أن يعدموا دون إبطاء. وكانت الأوامر غامضة، وغير دقيقة وعامة، بحيث تسمح بإعطاء درس قاس ومفيد، حيث إنه سبق تحذير العرب بإعلان أن حيازة بندقية سوف تعتبر جريمة كبرى.



صورة توضح طائفة من العرب في طريقهم الى التصفية الجسدية.

ولكن الجنرال (كانيفا) وهيئة أركان حربه لم يحسبوا حساباً لما يمكن أن يعينه هذا الأمر لقوات شاهدت قتلاها مشوهين، وهم يعتقدون أنهم على وشك أن يهاجموا في المؤخرة على غرة. والذين كانت لا تزال ذكرى (عدوه) عالقة بأذهانهم.

وكان تنفيذ الأمر يستلزم تجزئة القوات إلى فصائل صغيرة مما أدى إلى إضعاف السيطرة على عواطف الجنود الملتهبة كما لم تعرف هيئة أركان الحرب كيف أو متى تحدّد فترة للتصريح الذي منحته للقوات بالقتل، وكانت النتيجة توقيع عقوبة على العرب سوف تظل في ذاكرة أهل ولاية طرابلس لأجيال عديدة، وسوف يكون لها رد فعل على مرتكبيها أنفسهم لعدة سنوات.

وليس من المرغوب فيه هنا الدخول في تفاصيل الأيام التي شهدت سفك الدماء في الجزء الإيطالي من الواحة، فالحرب مروعة لا تعرف الرحمة، وتزداد رهبتها وقسوتها إذا جرى القتل على يد رجال تملكهم الفزع».

وقد ذكر مسيو (كوسيرا Cossira) المراسل الخاص لصحيفة (اكسلسيور) الباريسية «من كان يستطيع أن يتصور ما قدر لنا أن نشاهده؟ إن الاندفاع والتهور في القتل، وذبح الشيوخ والنساء والأطفال بالمئات، إن أكوام القتلى أكوام من اللحم البشري المشوه يتصاعد منه الدخان تحت غطاء الرأس، كما لو كان رجل من البشر يحرق أمام مذبح قرباناً مقابل الحصول على نصر عزيز غال.

وفي أثناء تجوالي بين مواقع الخيالة صادفت مائة جثة ملقاة على الأرض بشكل بشع، وقد اختلط بعضها ببعض، أمام حائط حيث تم إعدام أصحابها، وقد أسرعت هرباً من هذا المنظر، ومررت بقرية عربية حيث تجمعت أسرة من الأهالي حول نار مشتعلة، ومن الواضح أنهم كانوا على وشك

تناول الطعام، ولكنهم صرعوا، وهذه بنت صغيرة أدخلت وجهها في صندوق حتى لا ترى شيئاً مما حدث، وأخرى سقطت إلى الخلف على شجرة صبار».

أما المستر (أليس أشميد بارلت) الذي كان يمثل (رويتر) فقد أبرق بما يلي: «في الرابع والعشرين، والخامس والعشرين، والسادس والعشرين، والسابع والعشرين من أكتوبر تقدمت القوات من أجل القيام بعملية تطهير لكل ذلك الجزء من الواحة الذي صار تحت سيطرتهم، وليس هناك دليل قاطع على أن أي عربي في الطرف الغربي منها اشترك في الثورة، ولكن حتى إذا سلمنا بأنه كان هناك من اشترك منهم في الثورة، فقد كانت هناك أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا أبرياء تماماً، وقد صرع بالرصاص كل الرجال تقريباً وحتى الأطفال الذين كانوا فوق سن معينة، بينما هلك بدون شك كثير من النساء في أثناء الفوضى والاضطراب، وفي أحد الأمثلة أعرف جنوداً بدون ضابط يقودهم امتنعوا عن إطلاق الرصاص على امرأة بسبب تدخل أحد الأجانب فقط. ولكن حتى إذا افترضنا أن عمليات الإعدام بالجملة هذه كانت بسبب عقوبة يستحقونها، وكدرس تأديبي لأشرار، فإن الطريقة التي نفذت بها عمليات الإعدام لا بد من إدانتها بشدة، ومن العدالة فقط القول بأن كثيرين من الضباط الإيطاليين ـ عندما فكروا في العملية بهدوء بعد حدوثها ـ كانوا على نفس الرأي. فإنه على مدى أربعة أيام قامت مجموعات من الجنود تطوف بكل جزء من الواحة وهي تطلق الرصاص بدون تمييز على كل عربي يصادفونه. فقد جرى الدم في رؤوس الجنود من الاهتياج، وهذا شيء طبيعي، فقد رأوا رفاقهم يطلق عليهم النار من الخلف، بل ـ وكما قيل ـ شوهت أجسادهم، ولكنني لا أستطيع أن أؤكد هذه الحقيقة الأخيرة، وبدافع الثورة التي تعتمل في نفوسهم، وازدياد تصوراتهم كانوا يشكون في كل كائن حي على أنه مذنب وبالتالي فقد قرروا معاقبة الجميع. وعلى هذا فإنه طوال أربعة أيام وجماعات الجنود بلا ضباط يقودونهم وهم يطلقون الرصاص على كل شخص».

وعلاوة على ذلك فقد أبرق مستر (أشميد بارلت) من مالطة وصفا لجولة قام بها مع مستر (جرانت) عن (الديلي ميرور) والمستر (ديفيز) من (المورننج بوست) وقد وقع الرجال الثلاثة فيما بعد على هذا البيان في القنصلية، ولكن مستر (جرانت) ومستر (ديفيز) أبديا بعض التحفظات بشأن الحالات التي لم يرياها بأنفسهم».

ويقول المستر (اشمد بارلت) أنه «عند مغادرة المدينة كان أول شيء وقعت عليه عيوننا مجموعة من الأفراد يتراوح عددها بين ٥٠، ٧٠ رجلاً وغلاماً. كان قد قبض عليهم في المدينة في اليوم السابق أي في يوم ٢٥أكتوبر، وأطلق عليهم الرصاص بدون محاكمة من أي نوع. وقد كان معظمهم عندما قبض عليهم لا يحملون اسلحة، وقد تم إعدامهم طبقاً لأمر عام أصدره الحاكم الجنرال (كارلو كانيفا) بهدف استئصال كل العرب الموجودين في طرابلس أو في الواحة، فاقتيدوا إلى هذه البقعة وقد قيدت أيديهم خلف ظهورهم وأطلق عليهم الرصاص بدون تمييز. هذه الكتلة من الجثث التي ترقد في كل اتجاه ككتلة صماء متراكمة في كومة، كل جثة فوق الأخرى، ولا يمكن أن تغطي هذه الكومة مساحة أكثر من خمس عشرة ياردة طولاً في خمس ياردات عرضاً.

«والشيء الثاني الذي وقع عليه بصرنا كان جسد رجل كهل مسن يرقد في وسط الطريق، ومن الاتجاه الذي اتخذه الجسد الممدد كان من الواضح أنه أطلق عليه الرصاص وهو يعدو أو يسير في الطريق، وكل بضعة ياردات كنا نصادف مزيداً من الجثث ترقد في كل اتجاه حيثما أطلق عليها الرصاص، ولكن لم يكن الجميع قد قتلوا بهذه الطريقة، حيث إن بعض الجثث كانت مصابة بطعنات الرماح، أو ضربت حتى الموت بأعقاب البنادق، وكان من الواضح أن كثيرين منهم أصيبوا بجراح فقط،وزحفوا إلى جانب الطريق حيث لفظوا أنفاسهم.

«وصار الطريق من المدينة إلى الصحراء مهجوراً خالياً تمـاماً إلا من الموتى، بعد أن كان يعج بالعرب رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكانت المنازل على كلا الجانبين قد اقتحمت عنوة وقتل سكانها بداخلها أو اقتيدوا إلى الخارج، حيث أطلق عليهم الرصاص. وفي الطرق الجانبية المتفرعة من الطريق الرئيسي كانت توجد كثير من الجثث بعضها يرقد فرادي والبعض الآخر في مجموعات صغيرة، وفي أحد الأماكن كان يرقد اثنـان من اليهود لقيـا نفس المصير الذي لقيه كل سكان البساتين والمنازل الخارجية تقريباً.

وخلال السير لمسافة ميلين لم يحدث أن رأينا قط عربياً على قيد الحياة رجلاً كان أو امرأة أو طفلاً، وفي خارج الخط الأمامي مباشرة كـانت ترقـد مجموعة أخرى من حوالي خمسين رجلاً وغلاماً، من الواضح أنهم أخرجوا من ديارهم إلى هناك في الليلة السابقة وأعدموا بالجملة، وكان العديد منهم مطعونين بالحراب، أو مزقت أجسادهم بالسيوف، وكانت رأس أحدهم مهشمة تماماً وهو جرح لا يحدث إلا نتيجة ضرب بعقب (كعب) بندقية».

«ثم ركبنا خارجين إلى خطوط البرساليري الذين كانوا متمسكين بمكان يعرف بالقلعة، ولكننا لم نمكث هنـاك طويـلاً لأن القوات تلقت تعليمـات بإخلاء موقعهم والانتقال إلى موقع آخر أقرب إلى المدينة، وهكـذا أخليت القلعة ونسفت. وفي نفس الوقت أخلى الايطاليون موقعاً آخر كان عبارة عن بناء كبير أبيض أعتقد أنه كان يعرف بكلية الزراعـة، وكان الإيـطاليون قـد تمسكوا به منذ احتلال طرابلس، وكان هناك بعض العرب المقيمين فيه مع القوات يجلبون لهم الماء أو يرعون الماعز في الصحراء الواقعة إلى الوراء مباشرة ويعودون إلى الخطوط عند حلول الظلام كما أنني كثيراً ما رأيت عدداً من الأطفال حول هذا البناء.

«والآن لم يكن من الممكن توجيه اتهام لهؤلاء الرجال بأنهم هاجموا الايطاليين لأنهم كانوا يعيشون تحت رقابتهم منذ الاحتلال، ولو كانوا مذنبين لأعدموا في يوم الثالث والعشرين وهو يوم الثورة في المدينة، ولما سمح لهم

بالتجول داخلين خارجين بمنتهى الحرية لمدة أربعة أيام. وعندما أخلت القوات الايطالية الموقع تبعهم أحد هؤلاء الرجال ولا شك في أنه كان ينوي مرافقتهم إلى داخل المدينة من أجل الأمان، ولكن فجأة، وعندما صار على بعد ثلاثين ياردة أخذ نحو اثني عشر من الجنود يحوّلون اتجاههم إلى الخلف وبدءوا في إطلاق سيل من الرصاص عليه.

وحاول الرجل العربي الجري ليحتمي خلف أحد الخنادق المهجورة ولكنه لم يستطع السير لأنه كان جريحاً، ثم أطلق عليه أحد الجنود عياراً آخر لا بد أن أرداه قتيلاً، وذلك لأن إطلاق النار توقف، وهذا ما سأطلق عليه (الحالة رقم ١) لتسهيل المراجعة.

«أما (الحالة رقم ٢) فإنها كانت حالة كهل عربي عجوز جداً، كان يجلس معظم فترة ما بعد الظهر أمام حائط الكلية، ورأى ما حدث ولم يبذل أية محاولة للهرب ولكن الجنود عادوا وأطلقوا عليه الرصاص من مسافة بعيدة وهو جالس أمام الحائط، وقد انحنى رأسه كما لو كان قد تعب من الحياة، أو غير مبال بها بعد المذبحة التي نزلت بأصدقائه وأقاربه.

«ثم ركبنا مارين بكتلة من الجثث ممددة أمام الخنادق مباشرة، وعرفنا أن مجموعة من الرجال العرب كانوا يعملون في حفر خندق لدفنهم فيه وكان الجنود والبحارة وبعض الصحفيين الايطاليين يقفون هناك يتحدثون ويضحكون ويلتقطون الصور. ثم بعد ذلك سلكنا نفس الطريق المؤدي إلى المدينة عبر ثكنات الخيالة».

«(الحالة رقم ٣): وفجأة سمعنا طلقة رصاص وشاهدنا شبحاً يخرج من أحد البيوت ويسقط في وسط الطريق على بعد نحو مائة ياردة منا، وقال لي مستر (جرانت): «انظر إنني أعتقد أن أحد الجنود أو العرب راقد لكي يرمينا بطلقة، رصاص، فأجبته: «لا! انني لا أعتقد ذلك، إنني لا أعرف من هو ولكنني بالتأكيد رأيته يتحرك، ثم ركبنا فرأينا عباءة عربية ملقاة في الطريق قد خرج منها

أحد العرب زاحفاً إلى كوخ على اليمين الطريق. كان يرقد بجوار الباب وكان ينزف بشدة وهو على شفا الموت، جاءت امرأة عربية يبدو أنها زوجته تهرول من الكوخ الذي خرج منه أولاً على يسار الطريق ومعها إناء في يدها، ولكنها عندما شاهدتنا قادمين دخلت الكوخ مرة أخرى، ولم نستطع أن نفعل شيئاً، ولذلك تابعنا سيرنا متعجبين، من الذي أطلق الرصاص على الرجل؟ إذ أننا لم نر جنوداً، ولكن بعد أن انعطفنا في الطريق صادفنا فصيلة تحت قيادة ضابط، وكان هؤلاء هم الذين انتزعو الرجل من بيته، وأطلقوا عليه الرصاص، أمام عيني زوجته، ثم تركوه يلفظ انفاسه عبر جانب الطريق.

(الحالات رقم ٤ و ٥ و ٦): وبمجرد وصولنا الى هذه الفصيلة من الجنود قابلنا ثلاثة من العرب منظرهم يدل تماماً على أنهم غير مؤذين، يسيرون في الطريق ولا يحملون أية أسحلة، ويرتدون ثياباً بيضاء نظيفة، ومن الواضح أنهم كانوا من علية القوم، ويتضح من أول نظرة إليهم أنهم لم يكونوا من الطبقة المحاربة، ولكنهم من أصحاب الأملاك ميسوري الحال في الواحة، وآخر من يخطر ببالهم المجازفة بأرواحهم وممتلكاتهم في عصيان لا جدوى من ورائه، وكان أحدهم يبدو في الخمسين من عمره تقريباً، والثاني في حوالي الثلاثين، أما الثالث فكان شاباً في سن المراهقة في تقديري، ولكن مظهرهم لم يفدهم بشيء، فقد أمر الضابط الايطالي بالقبض عليهم، وبدون سؤال أو استيضاح حيث لم يكن لدى الايطاليين مترجم ولم يكن أحد في مجموعتهم يعرف العربية، اقتيدوا إلى داخل الكوخ، وأوقفوا أمام الحائط حيث أطلق عليهم الرصاص، لا بوابل منتظم، ولكن بسلسلة من الطلقات الفردية. هذه أمثلة لستة رجال قتلوا رمياً بالرصاص أمام عيني في اليوم الرابع بعدما سمي بالعصيان.

وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة قتال بعد ظهر السابع والعشرين من أكتوبر فقد كان هناك إطلاق مستمر للرصاص في كل أنحاء الواحة، وكان هذا كله صادراً عن جماعات صغيرة من الجنود كانوا في كثير من الحالات بدون

ضابط، يتجولون في كل الأرجاء، ويقتلون كل من يصادفونه دون تمييز. ولا بد أننا مررنا بجثث أكثر من مائة شخص في هذا الطريق وحده، ولما كانت مناظر مشابهة حدثت في طول الواحة وعرضها فإنه يمكن تقدير أعداد الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال الذين ذبحوا مع كثير ممن أدينوا بمهاجمة القوات الايطالية في المؤخرة».

وقد كتب المستر (بينت بيرلي) المراسل العسكري (للديلي تلجراف) بتاريخ ٧ نوفمبر أنه «اتخذت خطوات وما زالت تتخذ لضمان الأمان لنا في طرابلس، إن واحة النخيل قد أخليت بقسوة من أهلها المزارعين والفلاحين الصغار، وقد قتل كثيرون وتناثرت جثثهم في الحقول والطرقات. إن رائحة منجل الحرب تسمم الهواء. وقد أعلن رجل عربي مسن أن أربعة آلاف (عربي) قد قتلوا ومعهم ما لا يقل عن أربعمائة امرأة والعديد من الاطفال. وحتى اذا افترضنا أن القتلى كانوا نصف هذا العدد فعليك أن تتصور نصباً تذكارياً دموياً رهيباً لفظائع الحرب والغزو، إن لم يكن أسوأ من ذلك، مذبحة للأقوياء والضعفاء على السواء، للمسنين والشباب، ولا شك في أنه قتل الكثيرون بوحشية وهذا أمر غير ممنوع في الحرب دائماً، ولكن في القرن العشرين وفي عمليات حربية متحضرة فإن إطلاق الرصاص بالجملة على رجال وغلمان بمجرد رؤيتهم وبدون محاكمة وإنما لمجرد بشرتهم ونوع ملابسهم، إنه لأمر يتجاوز الحدود.

ولقد رأيت متسولاً مقعداً، كانت أطرافه مشوهة لدرجة أنه كان يتحرك بدفع نفسه إلى الأمام وهو في وضع الجلوس، أطلق عليه الرصاص عمداً بالقرب من القنصلية النمساوية، ولقد رأيت عشرات من الأهالي الآخرين يجمعون ويقبض عليهم ثم يطلق عليهم الرصاص في وضح النهار. ولكن هناك عدد من زملائي الإنجليز والفرنسيين والألمان الذين يؤكدون أنهم رأوا أعداداً من العرب يطلق عليهم الرصاص في مجموعات، وهي أمثلة تدل على أن الجنود والضباط كانوا يطلقون الرصاص على هؤلاء الأهالي سيئي الحظ

بدون تمييز.

وفي أي ساعة من ساعات النهار كنت ترى جماعات من الأهالي التعساء وهم يساقون في الشوارع أسرى، ثم يتركون لحملة البنادق يتولون أمرهم أو يسجنون وقد وصل عدد الأسرى في المدينة وضواحيها يومياً بالمئات إن لم يكن بالآلاف من الرجال والنساء والأطفال».

وقد أبرق مراسل (فرانكفورتر زيتونج) في طرابلس أنه «ونظراً لعجز الضباط فقد بدأت عملية صيد بشري وحشي، إذ سمح للقوات حتى باطلاق النار على النساء والاطفال، وهكذا قتل ما لا يقل عن ثلاثة آلاف، وفي تنفيذ هذه الأوامر شاهدت بنفسي فظاعة ووحشية لم أسمع عنهما».

وقد لاحظ أحد المراسلين الايطاليين «أن الرصاص كان يطلق على العرب في كل مكان، وفي بومليانة كانت هناك حفرة كبيرة ينزل اليها المرء بطريق ضيق، حفرة حفرت في الأرض الساخنة الموبوءة أشبه بجرح في الأرض، له منظر جرح ضخم فاسد، وقد ألقى العرب (أحياء) في هذه الحفرة من أعلى، ثم نزل إليها أحد الجنود ثم سمعت سلسلة من الانفجارات كما لو كان هناك إطلاق رصاص يجري في جوف هذه الحفرة، ثم صعد الجندي بمفرده».

ولقد أحاط الجنود بقطاعات كاملة من الضواحي، وكانوا يصيدون كل من كان بداخل الأكواخ والبيوت وبساتين التمر، تماماً مثل الرياضيين في مباراة صيد كبرى، ولم يكونوا يطلقون الرصاص على كل عربي يصادفونه فحسب بل إنهم ـ وقد أعماهم العرق الذي يتصبب منهم من الهلع ـ كانوا يطلقون الرصاص خطأ على بعضهم البعض وهذه الحوادث أدت إلى مزيد من المذابح الجديدة.

فإنه في كثير من الحالات كان الجنود يقابلون بطلقات البنادق والمسدسات على عتبات بيوت المواطنين الذين جاءوا لتفتيشها، ولربما كان

السكان متحالفين مع الترك، ولكن من المحتمل جداً أن بعضهم كانوا أبرياء، دفعهم اليأس لمشاهدة المصير الذي كان من نصيب أصدقائهم وجيرانهم. وفي ظل العهد التركي كانوا يحتفظون بأسلحة في بيوتهم للدفاع عن أنفسهم، ولم يبلغهم الحكام الجدد لمدينة طرابلس أنهم يريدون منهم تسليم هذه الأسلحة والا كان نصيبهم الموت، واذا كان البيان الصادر في ٢٣ اكتوبر يطلب تسليم الاسلحة خلال أربع وعشرين ساعة قد وصل اليهم، فقد وصل اليهم في وقت كان فيه الجنود المهووسون قد اجتاحوا الواحة وكانوا بالتأكيد يطلقون الرصاص على أي عربي يضبط ومعه أسلحة في يده سواء كان في طريقه لتسليم هذه الأسلحة أو لا.

وفي مثل هذه الظروف ـ فانه ـ حتى الدودة ـ لا بد أن تتحرك، ولم يكن العربي مجرد دودة، فانه عندما رأى أن لا سبيل أمامه للخروج من هذه المشكلة لزم بيته وأعد استقبالاً ساخناً حاراً لمبعوثي الملك (فكتور عمانويل)، وبمجرد أن عبر الجندي عتبة الباب سمع دوي مرتفع من ظلام الغرفة وسقط الجندي، فقام الجنود الآخرون باطلاق الرصاص في كل أنحاء البيت ثم أشعلوا فيه النار. كانت هذه مباراة في قتل العرب. إن العربي لم يكن ليذل فيترك نفسه يسحب للخارج ويركل ويصفع على وجهه، ثم يوضع أمام الحائط ويصرع. فلما كان ميتاً لا محالة فانه من الأفضل أن يقتل واحداً أو اثنين من الكفار قبل أن يموت. ولا يستطيع أحد أن يلوم العرب على مثل هذا التصرف نحو أعداء كانوا في نظرهم مخبولين فقدوا عقولهم.

وخلف مصانع الحلفا التابعة لبنك روما كانت توجد قرية بدوية تحتوي على بضع مئات من السكان، وفي صباح السادس والعشرين من أكتوبر حرقت حتى سويت بالأرض وذبح معظم السكان، وبين الجمرات المشتعلة وجدت جثة امرأة عربية مسنة وفي كتفها الأيسر جرح من طلقات رصاص، وعلى بعد أقدام قليلة وجدت غلاماً مريضاً وامرأتين مسنتين مريضتين طريحتين في الفراش راقدين جميعاً على الأرض بالقرب من جثث العديد من النساء

والرجال القتلى. هؤلاء المرضى الثلاثة لم يجدوا أحداً يحميهم من حرارة النيران.

أما الغلام الذي كان يبدو أنه في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، فقد ترك ممدداً على الأرض وهو نصف عار، ومعرضاً طوال اليوم بأكمله لحرارة الشمس المحرقة التي لا تحتمل، دون طعام أو شراب، وطوال رقاده في رماد النيران والتراب وهو يئن ويتوجع بشكل يدعو إلى الرثاء، وكان يلطم صدغيه بشدة. وعلى بعد عشرين ياردة كان هناك مستشفى مؤقت في خيام للصليب الأحمر، وعند بابه كان يقف اثنان من الأطباء العسكريين في ملابس أنيقة، ولم يكن لديهم في تلك اللحظة ما يفعلونه إلا برم أطراف شواربهما، المدهونة بالشمع، وخلفهما كان عشرون من جنود الصليب الأحمر ليس لديهم هم أيضاً ما يفعلونه. وقد سألت الضابط عما إذا كان من الممكن نقل هؤلاء المرضى إلى داخل المستشفى وإعطاؤهم على الأقل جرعة الماء التي يستجدونها بشكل يدعو إلى الشفقة، وقد وعد الأطباء ببحث الأمر بسرعة قائلين: «نعم! نعم! نحن لسنا همجيين وسوف نطلب فوراً نقالات لننقل هؤلاء الناس إلى المستشفى». وفيما هم يعطون تعليمات في هذا المعنى شعرت بالثقة في أن هؤلاء المرضى سيجدون عناية، فخرجت متوجهاً إلى الواحة. ولكن عندما مررت بهذا الطريق مصادفة بعد بضع ساعات وجدت أن الضباط قد نكثوا بوعدهم وأن المرضى العرب مازالوا على حالهم، ولذلك قررت أن ألجأ إلى أحد الفرنسسكان الموقرين والذي لم يكن فقط من كبار العاملين في منظمة الصليب الأحمر ولكنه كان أيضاً من كبار رجال الكنيسة، وأقصد به الأب المبجل (جيوزيب بيفيلاكوا) الذي كان قد عاد لتوه من ايطاليا لكي يقدم معونته القوية للصليب الأحمر. وكنت قد قرأت في الصحيفة الايطالية المحلية البالغة التطرف الممعنة في «الوطنية» أن الأب (بيفيلاكوا) قد لبّى النداء بدافع «نكران الذات غير العادي» الذي عنده. وقد شعرت بالاقتناع بأنني إذا قمت بلفت انتباه الأب (بيفيلاكوا) إلى حالة هذا الغلام العربي

العربي فإنه سوف يستجيب على الفور. وقد وجدت الأب المبجل يسير بمحاذاة جبهة البحر ومعه العديد من مواطنيه المهندمين.

إن الاقدام العارية والحبل الذي يتمنطق به، ورداؤه الخشن وشارة الصليب الأحمر، كل هذه تشير إلى التفاني من أجل المشردين والفقراء، ولا شك في أنه سوف يمسك بهذه الفرصة بكل شوق، لكي يظهر للعرب الجهلة تفوق الأخلاق المسيحية وسموها.

وقد وعد الأب (بيفيلاكوا) ـ بالفرنسية ـ بأنه سوف يعرض بنفسه حالة الغلام على السلطات الطبية، ولم يخف الرجال المهندمون الذين كانوا معه نظرات الدهشة والاستنكار عندما سمعوا بمطلبي ولذلك فقد أسرعت بإيضاح أنني سوف أتحمل كل تكاليف علاج الغلام.

وبعد ساعة عدت الى المكان الذي كان يرقد فيه الغلام، ولدهشتي وجدت أن الأب (بيفيلاكوا) لم يف بوعده، إذ كان الغلام لا يزال في نفس المكان، وكانت عيناه ومنخراه وفمه جميعاً سوداء من الذباب الذي يغطيه، كما لو كان قد فارق الحياة، وكانت المرأتان العجوزتان ما زالتا على نفس الحال.

ثم أتصلت بفرانسسكاني آخر، وكان شاباً فرنسياً، وكانت تبدو عليه التقوى والتعاطف، ولكنه كان ضعيفاً وساذجاً. وفي طريقنا لرؤية الغلام قابلنا الأب (بيفيلاكوا) الذي تجنب أن تلتقي عيناه بي، ولكنه بسرعة نصح رفيقي بألا يزعج نفسه بشأن الغلام العربي الذي يحتضر، وكانت العبارة التي جاد بها وهو يغادرنا «دعه يموت» إنني لم أسمع هذه العبارة ولكن الفرنسسكاني الفرنسي ترجمها لي ووجهه ممتقع من الفزع.

وذهب معي الراهب الفرنسي الشاب وحاولنا معاً بكل الوسائل العناية بالعرب سيئي الحظ لكن دون جدوى، فإن الغضب الذي كان ينتاب الايطاليين جعل دخول أي عربي لأي مستشفى أمراً مستحيلاً تماماً. وها هنا

مستشفى إيطالي ترعاه راهبات فرنسيات، ولكن صديقي الفرنسسكاني الفرنسي أكد لي أنه من المستحيل تماماً إدخال الغلام إلى هذا المستشفى أو أي مستشفى آخر. ولم يؤد تجديد عرضي بدفع كل التكاليف إلى تحسن الموقف.ولم يمكن عمل أي شيء، فقد كان غضب الإيطاليين على العرب فوق كل تصور.

وعلى بعد بضعة ياردات من مكان وقوفي كان أحد الجنود يركل إحدى الجثث بوحشية، فعرضت عليه مالاً إذا اعتنى بالعربي المحتضر ولكنه رفض، بل إنني كدت أقنع عاملاً إيطالياً بهذا العمل، ولكنه عندما فحص الغلام صاح فجأة بأنها حالة كوليرا، وأبلغني أنه لا شأن له به.

وقام أحد المترجمين المرافقين للفرنسسكاني بسؤال الغلام المريض باللغة العربية، فقال الغلام أنه كان يعاني من الجوع والعطش، وحاول الوقوف على قدميه، ولكنه لم يستطع، ومما يدل على أنه لم يكن يكذب أنني عندما زرت المكان في صباح اليوم التالي وجدته قد فارق الحياة، وكان فمه وأظافر يديه مليئة بالتراب مما يدل على أنه وهو في حشرجة الموت كان يمزق الأرض بأسنانه وأظافره، مات دون أن يكون بجواره أحد يقدم له جرعة من الماء لأن كل قبيلته رجالاً ونساءً وأطفالاً قد أبيدوا. كما أن المرأتين العجوزتين اللتين كانتا ترقدان بالقرب منه فارقتا الحياة هما أيضاً.

وعند مدخل الحظيرة التي كان يرقد فيها الغلام والأمرأتان العجوزتان يوجد عدد من الجنود شبه المجانين ممّن يقومون بالحراسة طوال الليل. وطوال النهار كان من المستحيل على أي عربي أن يقترب من المكان وإلا أطلقت عليهم نيران الرصاص فوراً. وفي الليل كان نفس الخطر يتهدد أي مدني أوربي يحاول الاقتراب، وحتى المعرفة التامة باللغة الايطالية لم تكن تكفل السلامة. وفي اليوم التالي وفي وضح النهار فإن (لورنزو فالكون) وهو صياد سمك مالطي مسالم من رعايا بريطانيا قتله بالرصاص أحد الحراس في جبهة البحر حيث يقع أكثر الشوارع أزدحاماً في المدينة، وقد تقبلت وزارة الخارجية

البر طانية تبرير الايطاليين بأن الرصاص أطلق على الرجل بعد أن رفض الوقوف أو إعطاء كلمة السر.

لقد مات هذا الغلام العربي وحيداً مخذولاً أكثر من خذلان المسيح نفسه عندما مات على الصليب، لأن الجنود الايطاليين على أيام المسيح سمحوا لأمه وحوارييه بالاقتراب منه، أما هذا العربي لقد مات على الأرض عرياناً مخذولاً(١).

---

(١) عندما رأينا أنا و (فون جوتبرج) هذه الجثث قررنا أن نعيد أوراقنا الى الجنرال (كانيفا) ونغادر الجيش الذي تصدر منه هذه التصرفات، ولقد تأثر هذا السيد الالماني الشجاع لدرجة أن دمعت عيناه، وأذكر ما قاله ونحن نقف عند جثة العربي: «هذا ما سوف يترتب على النزاع بين انجلترا وألمانيا ـ أضعاف الجانبين وبالتالي إطلاق يد الشعوب التي تقترف مثل هذه الأعمال. ويجب أن أقول إنني خلال إقامتي في طرابلس شعرت بالجاذبية والتعطف نحو الألمان والنمساويين، وذلك بسبب السخط الرجولي الذي أثارته فيهم وحشية الايطاليين. ان هذه الأعمال الوحشية بدا أن تأثيرها على الفرنسيين وغيرهم من الأوربيين المقيمين كان أقل بكثير، حيث إنني عند نقطة من أسوأ النقاط في الواحة التقيت بسيدة فرنسية شابة من تونس، وهي تلتقط الصور في هدوء للجثث التي كانت مبعثرة على الأرض دون أن يبدو عليها أقل قدر من الضيق. وفي مسألة القتل أعتقد بوجود خلاف جوهري بين الألمان وبيني في جانب وبين الإيطاليين الجنوبيين والفرنسيين الجنوبيين والفرنسيين التونسيين في جانب آخر. وإن القصة الرهيبة للمذابح التي أرسلتها وكالة (رويتر) من مالطة في ٦ نوفمبر كانت صدمة لكل لندن، ولكن إحدى الصحف الإيطالية التي نقلت اليها هذه القصة عبرت عن دهشتها لأن حوادث القتل القليلة هذه أثارت مثل هذا الاحتجاج، كما أبدت صحيفة إيطالية أخرى نفس الملاحظة عندما نشر (فون جوتبرج) في صحيفة (لوكال انزيجر) قصة أكثر تأثيراً. وفي أحاديثي مع الايطاليين أجد أنهم أحياناً يعترفون بكل الحالات التي أذكرها ولكنهم يعترضون على استخدام كلمة «مذبحة»، وكان هذا ـ في الحقيقة ـ هو كل ما اعترضوا عليه. ويجب أن أقول أنهم يعترفون أيضاً بأن النساء والغلمان الذين أطلق عليهم الرصاص كانوا يطلقون الرصاص على الإيطاليين. ويروي (فون جوتبرج) في صحيفة (لوكال ـ انزيجر) القصة التالية عن الكيفية التي قررنا إعادة تصاريحنا إلى الجنرال (كانيفا) فيقول إننا اتخذنا هذا القرار بعد رؤيتنا لجثة الغلام العربي. ولقد لحق بي ماكولي، قابلني واحدى يديه مرفوعة كما لو كان يؤدي قسماً وقال (بسبب

وفي اليوم التالي رأيت الأب (بيفيلاكوا) على درج كنيسة الفرنسسكان يستقبل القناصل وزوجاتهم وكبارِ الماليين والرؤساء العسكريين الذين جاءوا لحضور القداس الذي أقيم على أرواح الموتى من الايطاليين.

وقبل أن اختتم قصتي عن العرب المرضى الذين شاهدتهم في القرية المحترقة أحب أن أروي قصة فتاة عربية في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها تركت أيضاً على الأرض لتلفظ أنفاسها الأخيرة، إذ أنها كانت مريضة أو جريحة حيث كانت عاجزة عن السير ولذلك فقد قام الجنود بجرها من أقدامها مما جعل ملابسها تنحسر عن جسدها فتغطي رأسها وأصبح كل جسدها عارياً. ولقد ضحك الجنود من هذا المنظر وكذلك الضابط الذي كان يرافقهم، وقد احتج عليهم أحد الأجانب مشيراً إلى أن الفتاة كانت مريضة للغاية، وعندئذ أمسك الجنود بضحيتهم من معصميها وجروها على الأرض وسقط حجابها عن وجهها وهو أمر مكروه بغيض لدى المسلمين مما سبب للفتاة خجلاً أكثر من كشف جسدها، وأخيراً ترك الجنود الفتاة عند باب مستشفى الصليب الأحمر، حيث ظلت الفتاة راقدة تستجدي بشكل مثير للشفقة جرعة ماء لم يعطها أحد لها، وقامت مجموعة من الجنود والضباط بتفتيشها بشكل محرج، فقد كانت فتاة جميلة.

فعلة هذا اليوم ستكون هناك اجتماعات في لندن وسنلقي خطب احتجاج في البرلمان). وأستطيع أن أضيف أن كلتا النبؤتين قد تحققتا ولكن لم تكن لدي في ذلك الوقت فكرة عن أنني أنا نفسي سوف أقف خطيباً في إحدى هذه الاجتماعات. إذ عندما ألح على المرحوم المستر (ستيد) لكي اتحدث رفضت على أساس عدم خبرتي في الأحاديث العامة، وعندئذ قال المستر (ستيد) بطريقته المازحة (حسناً انني أعرف ما يجب علي أن أفعله معك، يجب أن ألقي بك في ماء عميق مثلما يلقي الأب بأبنه الذي يريد أن يجعله سباحاً وننفذ تهديده فعلاً، لأنني في اليوم رأيت إعلاناً في الصحف بأنني سوف أتحدث أمام اجتماع في قاعة (فارنجدون) التذكارية، ولما كان المستر (ستيد) قد سبق وحجز القاعة، وطبع بطاقات الدعوة، فقد شعرت بأنه من واجبي أن أذهب لأتحدث في الأجتماع الذي كان يرأسه المستر (ستيد)، وقد فعلت.

كل هذه الأمور لم أشاهدها وحدي ولكن شاهدها أيضاً (فون جوتبرج) مراسل (لوكال - أنزيجر) الذي أعاد فيما بعد أوراقه مثلي إلى الجنرال (كانيفا) تعبيراً عن الاحتجاج على هذه الهمجية والبربرية. كما شاهدها ترجمان القنصلية الالمانية الذي كان يتحدث الالمانية والايطالية والعربية، وقد أبلغ الحكومة الالمانية - عن طريق القنصل الألماني الدكتور تلجر الذي قدم الى برلين - روايات مؤكدة لثلاثة من الألمان حول هذا الموضوع.

إنني أعرف أن هؤلاء الألمان اتهموا بمعاداة الايطاليين، ولكن فيما يختص بهذه الحادثة، فإنني أرى أن الالمان اتخذوا موقفاً يمكن أن يقال إنه مؤيد لوجهة النظر الايطالية، فإنهم لم يصدقوا أنه يمكن إحراق هذه القرية البدوية بغير ما سبب، وأن هؤلاء الناس قتلوا لأنهم ربما يحملون السلاح في المستقبل ويطلقون النار على الإيطاليين، وقد أفترض هؤلاء الألمان أن هؤلاء الفلاحين أطلقوا النار على القوات الايطالية، وحتى إذا كان ذلك صحيحاً فقد كانوا يرون أن العقاب الذي أنزل بهم كان غاية في القسوة.

وكان قد ذكر الدكتور (ويبل) مراسل (فرانكفورتر زيتونج) أنه سمع طلقتي رصاص أطلقتا بالقرب من هذه القرية في الصباح وأعتقد أن هذه الطلقات أطلقها الفلاحون على القوات الايطالية وأن ذلك كان سبب إبادتهم واستئصال شأفتهم فيما بعد. وقد قبل الهر (فون جوتبرج) على الفور وجهة النظر هذه وسلم بأن الفلاحين أطلقوا النار على بعض الجنود وهم في طريقهم إلى الجبهة وجرحوا عدداً منهم.

والآن هل سيسود الاعتقاد بأن الفلاحين لم يطلقوا أية طلقات ولم يرتكبوا أية جريمة كائنة ما كانت، وأن إبادتهم حدثت ببساطة كاجراء وقائي، أي خوفاً من أن يثوروا في المستقبل؟ ومع ذلك فإن هذا هو التفسير والتعليل الذي يذكره الإيطاليون أنفسهم لإحراق هذه القرية ولكل أعمال القتل التي ترتبت على هذا العمل.

إن السنيور (جيوزيب بيفيوني) يمكن أن يعتبر المؤرخ الرسمي للحرب طالما أنه لم يوجه أي نقد للسلطات العسكرية، بل كان دائماً يوجه إليهم المديح والثناء بل وأهدى كتابه المعنون «Come Siamo Andati a Tripoli» إلى السنيور (جيوفاني جيوليتي) رئيس الحكومة الايطالية نفسه، ويقص علينا السنيور (بيفيوني) ببرود وبلا مبالاة كيف أن هذه القرية البدوية بالقرب (ظهره) قد أبيدت «على سبيل الاحتياط».

إنني سأقدم الفقرة الكاملة التي تحتوي على هذا الرأي، أنه يصف كيف أنه مر بالقرية في الصباح راكباً، وفجأة رآها وقد اشعلت فيها القوات النار، ثم يستطرد فيقول: «لقد ارتفعت سحابة كثيفة من الدخان خلف الطاحونة، وانطلقت ألسنة اللهب في الظلام نحو السماء، وتجمع قطيع من البؤساء كما لو كانوا قطيعاً من الغنم،وتدفقوا خارجين من شارع الطاحونة إلى ميدان السوق متجهين صوب الشاطىء وسط نطاق من الجنود، ومن باب الاحتياط أشعلت النار في المخيم البدوي الذي أقاموا فيه».

«يا لها من عصابة تتكون من هؤلاء البدو».

وأضاف السنيور (بيفيوني) بحقد «عندما رأيتهم كانوا في طريقهم للبحث عن ملجأ على شاطىء البحر».

والمراسل الايطالي الوحيد ـ على قدر علمي ـ الذي يقول أن أهالي القرية البدوية أطلقوا النار على الإيطاليين هو المستر (لويجي بارزيني) من صحيفة (كوريري ديلا سيرا) اذ يروي كيف أن جندياً من جنود المدفعية أصابة جرح بسيط من طلقة رصاص وهو واقف في ميدان السوق، وقال الجندي إن الرصاصة التي أصابته جاءت من القرية البدوية، وعلى الفور هاجم بعض الجنود القرية وأحرقوها. ولم يذكر أي من المراسلين الإيطاليين أنه جرى تفتيش للقرية بحثاً عن الأسلحة، وأعتقد أنه يمكن أن نختم هذه القصة بالقول إنه لو تم العثور على خرطوشة واحدة لذكروا هذه الحقيقة،

ولكنهم جميعاً أجمعوا على أنه بمجرد إحتراق الكوخ سمعت أصوات خراطيش وهي تنفجر بفعل الحرارة، وقال أحدهم إن الانفجارات ذكرته بمعركة، ولكن ربما كان الصوت صوت طقطقة الأخشاب المحترقة، لقد مررت بنفسي في أثناء احتراق القرية في الصباح ولم أسمع صوت الطلقات التي تحدثوا عنها.

وحتى إذا قبلنا تفسير المستر (برزيني) فإننا يجب أن نعترف بأن تصرفات الإيطاليين في هذه المناسبة أشبه ما تكون بشنق رجل أولاً ثم محاكمته بعد ذلك.

فإنه بناء على مجرد كلمة قالها جندي مذعور، وبدون أي بحث أو تقصٍ أحرقت القرية وقتل كل أهلها. ثم بعد ذلك يسمع الجلادون وسط ألسنة اللهب شيئاً غامضاً يذكرهم بانفجار خراطيش رصاص، فيقول كل منهم للآخر «ما أسعدنا وقد حرقنا هذه القرية! ان هؤلاء الناس كانوا بالتأكيد سيطلقون علينا الرصاص عاجلاً أو آجلاً».

وعلاوة على ذلك فإن الجندي الذي أصيب بجرح قد تكون إصابته بفعل طلقة عربية من الواحة، ذلك لأنه في نفس تلك اللحظة حدث اختراق لخط الدفاع الإيطالي عند منزل جمال بك، وكان من السهل على العرب الذين اخترقوا الخط أن يطلقوا النار على المدينة من قمم الأشجار.

وفي اليوم التالي أصابت إحدى الطلقات سقف القنصلية الأمريكية وهي لا تبعد كثيراً، وأصابت طلقة أخرى جندياً كان بجوار القنصلية، ولكن في كلتا الحالتين كانت هذه القذائف آتية من الجبهة بأعتراف الجميع. ويؤيد مراسلون صحفيون إيطاليون آخرون رواية السنيور (بيفيوني) فيقول أحدهم ان السلطات العسكرية استمرت بهمة في إجراءات تطهير الواحة، ويضيف ـ عرضاً وبدون قصد ـ إنهم أحرقوا البيوت، والأكواخ، وقرية بدوية عند أبواب مدينة طرابلس».

ولو كان هؤلاء الفلاحون من البدو مذنبين بالخيانة، وحتى إذا كان في حوزتهم شفرات حلاقة وصناديق خراطيش فارغة لوردت هذه الحقيقة على لسان الجنرال (كانيفا) وأكثر من واحد من الأربعين مراسلاً إيطالياً شبه الرسميين الموجودين في طرابلس، أو على لسان أكثر من واحد من مئات الضباط والجنود والنواب الذين كتبوا عن «معركة» ذلك اليوم.

وعلى الفور أبلغت الحقائق المذكورة آنفاً الى صحيفة (وستمنستر جازيت) و (الديلي نيوز)، ولو كان هؤلاء العرب خونة أي إذا كانوا قد أطلقوا النار على الايطاليين لذاعت هذه الحقيقة، وانتشرت بسرعة بواسطة عملاء وأصدقاء الحكومة الايطالية حسنى الاطلاع في هذه البلاد، وهم كثيرون.

وكونها لم تنشر دليل على أن القرية البدوية بالقرب من (ظهرة) قد أبدت خوفاً من أن تصبح في المستقبل غير موالية للايطاليين[1].

---

(١) ان القصة الرهيبة التي رويتها في هذا الفصل أكدها (أتوفون جوتبرج) في صحيفة (لوكال انزيجر البرلينية)، وهناك جدال ونقاش كبير في صحيفة (ديلي نيوز) اللندنية حول موضوع الغلام العربي. لقد لفت بعض الأنجليز من الروم الكاثوليك نظر الأب (بيفيلاكوا) إليه، وتلقوا منه رداً اعترف فيه بأنني قابلته وطلبت منه نجدة الغلام المحتضر، ويقول إنه عندما ذهب إلى المستشفى العسكري وجد فيه شاباً عربياً جريحاً وأنه أفهم أنه الغلام الذي أبديت اهتمامي به. وقد وجه اللوم لأنني لم أساعد الغلام بنفسي، ودفاعاً عن نفسي أشرت مراراً إلى أنه كان من المتعذر علي أن أفعل ذلك، بسبب حالة الفوضى والأضطراب السائدة، وبعد أقرب آبار الماء واستحالة الحصول على معونة أي عربي أو ايطالي في حمل الغلام، فما من عربي يجرؤ على الأقتراب من المكان، ولو فعلوا لفقدوا حياتهم، وكان تعطش الإيطاليين للدماء رهيباً لدرجة أن الأب الفرنسسكاني الفرنسي الذي تحدثت عنه آنفاً كان قلقاً غاية القلق على سلامة تلميذ صغير من كاثوليك المشرق، كان بصحبته ويرتدي طربوشاً، فقد خشي الأب ـ وله العذر في ذلك ـ أن يخطىء احد الجنود المذعورين فيظن الغلام عربياً ويطعنه وهو يسير بيننا. وأخيراً فقد أقنعنا الغلام الفرنسسكاني بوضع الطربوش في جيبه. ولذلك، ولما كانت بقية ملابسه أوربية فقد نجا بجلده، ولكن هذه الحادثة

تظهر لنا كيف كان من المستحيل احضار عمال عرب الى المكان لنقل الغلام المريض. كما كان من المحتمل جداً في تلك اللحظة أن يجهر العمال الإيطاليون على الغلام بدلاً من تقديم المساعدة له.

وبالأضافة إلى ذلك فقد ضاع وقت طويل بسبب تأكدي أولاً من ان سلطات المستشفى سوف تقبله كما وعدوا، وثانياً بأن الأب (بيفيلاكوا) سوف يشمله برعايته حسب وعده، ويلومني الأب (بيفيلاكوا) في خطابه لأنني طلبت منه وهو الرجل العجوز أن يرعى حالة كان في استطاعتي أن أهتم بها بنفسي، ولكن هذا اللوم ينطوي على تجن، فقد كان له مركزه الديني المرموق، وكانت حكمته لدى هؤلاء الجنود الصقليين بمثابة قانون مطاع واجب التنفيذ. وعلاوة على ذلك، فقد كان له مركزه الرسمي إذ كان مرتبطاً بالصليب الأحمر ويحمل شارته، فكان من الطبيعي أن أتوقع بأنه إذا قال كلمتين إلى أحد الأتباع لأنقذ حياة الغلام. وطبعا لم أكن أتوقع منه أن يظن أحد أبناء القديس فرنسيس أن ذلك أمر غير جدير به.

وعنما حل الليل أحاط الحراس بالمكان الذي كان يرقد فيه الغلام وكان اقتراب أي مدني من هذا المكان في الظلام يعني الموت المحقق، ولم تصدر تقارير أو بيانات عن عدد الاهالي الابرياء الذين عجزوا عن تذكر كلمة السر فكان جزاؤهم الموت بالرصاص في تلك الليلة، ولكنني استطيع أن أقدر عددهم بأثني عشر شخصاً. وكان هناك أطلاق متقطع للنار في كل أنحاء المدينة وفي كثير من الحالات لا بـد أن الحارس أصاب هدفه.

ولقد كتب الهر (فون جوتبرج) إلى الصحافة البريطانية مؤيداً روايتي، كما أن المستر (توماي جرانت) عن (الديلي ميرور) أرسل الخطاب التالي الى (الديلي نيوز) التي نشرته بتاريخ ٢٨ نوفمبر:

وعند عودتي من طرابلس أمس قرأت في صحيفة (أخبار الكنيسة Church Times) في عددها الصادر في ٢٤ نوفمبر عن محاولة من جانب كاتبها الذي كان يوقع باسم (الرحالة) حاول فيه التشكيك والاستهزاء بقصة الغلام العربي المحتضر الذي رآه المستر (فرانسس ماكولا) في طرابلس وروي قصته القاسية في صحيفة (الديلي نيوز).

ولا يوجد أدنى شك في وجود هذا الغلام فعلاً، وقد رأيته بنفس يوم ٢٧ وقد فارق الحياة. لقد كان المسيو (ماكولا) في روايته للموضوع في غاية الأعتدال والتواضع في سلوكه. ورغم أن الغلام كان يعاني بلا شك من الكوليرا فان المستر (ماكولا) لم يذكر أنه خاطر بحياته مراراً بلمس الغلام وذب الذباب الذي كان يضايقه، إلا أنه فحص جسمه لمعرفة ما إذا كان جريحاً، محاولاً توفير الراحة له، إن كل ما كان الغلام في

حاجة ماسة إليه هو العناية الطبية وهي شيء لم يكن في استطاعته أن يقدمه بطبيعة الحال.

وبعد ذلك حل الظلام وأحاط الحراس بهذه القرية المعزولة المحترقة، وكان من الجنون أن نجرؤ على دخولها مروراً بهم ونحن في ملابسنا المدنية وبدون معرفة جيدة باللغة الايطالية. وإلى جانب ذلك فقد كان هناك عشرات من الحالات المماثلة مما يجعل من المتحيل علينا معالجتها جميعاً، رغم أنه كان من السهل على الايطاليين ذلك حيث أن جيشهم في ولاية طرابلس مزود بدرجة مذهلة بالمستشفيات ورجال الصليب الأحمر، وكان معظم هؤلاء يقفون بدون مبالاة أمام هذه الحالة.

وعندما عدنا في الصباح وجدنا الغلام وقد فارق الحياة.

انني لا أعرف الا القليل عن المستر (ماكولا) وليست لي به إلا صلة بسيطة، فقد قابلته مصادفة مرة أو مرتين في عمل صحفي بالخارج، ولكن في الحالة هذه أشعر بانني مدفوع بشدة لكي أكتب عنه مؤيداً من أجل الانصاف والعدالة في مواجهة النقد الساخر اللاذع الصادر عن مجهولين يجلسون في مقاعد وثيرة. قد يظن القارىء أنني أطلت بغير ما ضرورة في هذا الموضوع الكريه عن الفظائع، ولكن للحقيقة فانني لم أمس الا أطرافه فقط. إنني لم أذكر شهادة الهر (ماجيند) من (المورجن بوست) و (الدكتور ويبل) من (فرانكفورتر زيتونج) أو الدكتور (جوتلوب ادولف كراوس) أو شهادة أي مراسل نمساوي.

انني لا أريد أن أجعل كتابي عرضاً أدبياً للفظائع والأهوال ولكنني من ناحية أخرى أشعر بأنه لزاماً على أن اجعل القارىء يحكم بنفسه على مدى صدق البيان الايطالي الذي ذكر أنه لم يقتل عربياً واحداً بريئاً، ومدى صدق بيان السنيور (جيوليتي) بأن سلوك الجيش الايطالي والبحرية الايطالية في هذا الظرف «سيجعل هذه الحرب مثلاً للحضارة التي تتسم بالكرم والشهامة».

الفصل الثاني

تطهير الواحة

وفي تلك الأثناء كان يجري اصطياد الناس في كل أنحاء الحي العربي الفسيح الذي كان في يوم من الأيام في حالة من الثراء والرخاء، ويمتد من يسار طريق (بومليانة) ليغطي كل المنطقة حتى الصحراء. وكان الرجال القتلى ممددين على الأرض في كل اتجاه، وكان رجل فزاني طويل القامة يرقد عارياً تقريباً في وسط الطريق وقد انتزعت قمة جمجمته برمتها، وكان هذا إما بفعل فأس أو مؤخرة بندقية وقد تناثرت محتويات جمجمته على بعد أقدام عديدة، ولم يكن جسده بارداً، وكان أحد الجنود يتسلى بركل الجثة ويراقبها وهي تختلج خلجات جثة ما زالت دافئة.

وكان بضع عشرات من الجنود يتجولون ومسدساتهم في إيديهم يطلقون النار على كل عربي يظهر أمامهم، وكثيراً ما كانوا يطلقون على زملائهم ظناً منهم أنهم عرب لبعد المسافة. ويمكن القول بأن هؤلاء الجنود كانوا منتشين بالدماء. فقد كانت تبدو عليهم سمات التسمم الكحولي: الوجه الذي يشع فيه الدم، والعيون المحمرة، واليد المرتعشة، والسلوك المضطرب، والمشية المتعثرة، وفقدان السيطرة على النفس بالكامل. وكان كثيرون منهم قد خلعوا معاطفهم وشمروا أكمامهم مثل الجزارين.

وكثيراً ما كان (فون جوتبرج) يسأل الجنود: لماذا تطلقون النار على هؤلاء الناس؟ وكان الرد دائماً واحد: «لأنهم خونة». ويا لها من إجابة

غامضة.

وصادفنا في طريقنا عشرة جنود والمسدسات في أيديهم، وكانوا يتجولون خلال البيوت المهجورة التي هدمت، يدققون النظر في كل ركن ويطلقون النار فوراً على كل شيء يتحرك، وفجأة شاهدوا عدداً من الرجال على مسافة بعيدة يكادون يختفون وسط شجيرات الصبار والنخيل والحوائط الطينية، وعلى الفور فتحوا عليهم النيران، وبعد لحظة رد الآخرون ـ الذين كانوا بالتأكيد ايطاليين ـ على النار بالمثل، وأخذت الطلقات تدوي فوق رؤوسنا، واختبأ الجنود العشرة خلف حائط، بينما هربت أنا وجوتبرج والمترجم الالماني.



نساء العرب واطفالهم يمررون لمشاهدة جثث بني جلدتهم الملقاة على الارض.

وبعد ذلك سرنا في حراسة جندي لكي يرينا بعض الجثث، وكان معه هو الآخر مسدس في يده، وكان يسير في طرقات الواحة وقد بدت عليه سمات صياد فخور معجب بنفسه، أحضر زواراً ليروا ما في جعبته من صيد، ويا لها من جعبة، فقد كانت هناك جثث متناثرة في كل أتجاه، وكانت إحداها جثة امرأة، وعلى مسافة صغيرة منها جثة رجل يرقد على ظهره، ولم يكتف مرشدنا بالإشارة إليه بفخر وخيلاء، ولكنه أيضاً قفز في مرح فوق الجثة وهو يصيح: «إنني أنا الذي صرعته».

لقد كان هذا المشهد أكثر مما يحتمله أو يتصوره أحد، ومرة أخرى هربت، فقد اندفعت مجموعة من الجنود مارة بنا عبر بساتين النخيل، وكم كانت دهشتنا أنه لم يكن يقود هذه المجموعة أحد الضباط، ولكن أحد معارف (فون جوتبرج) وهو مدني إيطالي ولنرمز إليه بالكونت «إكس»، لقد كان هذا الكونت يرتدي زياً مدنياً ولكنه كان يحمل في يده مسدساً، وكان وجهه محمراً، وكلامه سريعاً وغير واضح كالمخمور.

وقد سأله رفيقي سؤالاً بالالمانية ورد عليه بنفس اللغة قائلاً: «خذ حذرك! إنه لا يزال يوجد بعض الأحياء مختبئين هنا». ثم أسرع في سيره يتبعه جنوده وكلهم يحملون بنادقهم في حالة استعداد.

ونظرت أنا و (جوتبرج) كل منا للآخر في دهشة، إنها حقاً عملية صيد بشري منظمة، إنهم يقتلون العرب بدون أن يوجهوا إليهم سؤالاً، بدون محاكمة، تماماً كما لو كان هؤلاء العرب حيوانات مفترسة.

والآن سأترك (فون جوتبرج) ليتحدث، إنه يقول: «إن عصبة من الجنود اندفعوا خارجين من وراء بعض البيوت، ومن الشارات التي على أكتافهم يعرف المرء أنهم ينتمون إلى كتائب مختلفة، من الواضح أنهم يشكلون جماعة لهو، مختارة من مختلف أقسام الجيش ويقودها ملازم، وعندما اقتربوا استطعنا أن نرى بينهم مجموعة من الأسرى، خمسة من العرب، وقد قيدت

أيديهم خلف ظهورهم، وفجأة سمعنا صياحاً من ناحية أخرى، وظهر عدد من الجنود خارجين من أحد البيوت وهم يجذبون أحد العرب، وأضيف هذا العربي إلى الخمسة وأطلق الرصاص عليهم جميعاً معاً، ولربما حوكم الخمسة الأولون وأدينوا أمام محكمة نظامية، رغم أنه من المؤكد أن ذلك لم يحدث، فإن السادس قبض عليه بمحض المصادفة أمام أعيننا، وأضيف إلى مجموعة المذنبين دون أي اعتراض من جانب الملازم الذي يقود مجموعة الجنود.

إن هذه لم تكن عدالة عسكرية، إنها إعدام على نطاق واسع بدون محاكمة قانونية.

«وفي أحد أركان حديقة اكتشفت أسرة عربية مختبئة، ولاحظت بينهم طفلاً لا يزيد عمره على بضعة أشهر قليلة، ومن الواضح أن الرجل العربي رب هذه الأسرة كان يتسلل من باب ربما للحصول على بعض الطعام، وكان يبدو عليه منظر الحيوان المطارد، وقد نكص على عقبيه فجأة عندما رآني، ولم أره وهو يضرب بالرصاص، ولكنني متأكد من أنه لم يستطع الافلات من هذا المصير، بل انني أشك في أن أحداً من أفراد أسرته قد نجا.

«ولا بد أنه كان في هذا الإقليم الذي حل به الدمار كثير من الأطفال الرضع، فماذا كان مصيرهم؟ وماذا كان مصير أمهاتهم؟ لقد بلغني أن أربعمائة امرأة وطفل أطلق عليهم الرصاص خلال الأيام الثلاثة التي سادت فيها الفوضى وأربعة آلاف رجل، أي معشار أهل الواحة جميعاً، وقد كان الجنود يلمحونهم من بعد ويطلقون عليهم الرصاص فوراً. وفي معظم البلاد لا يجري إعدام رجل ما لم يكن هناك أمر رسمي بذلك، وفي ولاية طرابلس كان كل عربي ـ لكي يؤمن نفسه ـ لا بـد أن يحمل شارة رسمية، ووثيقة باللغة الأيطالية تفيد بعدم التعرض له بالقتل، وكانت جثث الذين ماتوا من الكوليرا عليها شارات صفراء على الذراع، أما المراسلون الحربيون فقد كانوا يحملون شارات بيضاء، وهكذا.

«وعند القنصلية الألمانية استوقفت رجلاً عربياً أستفسر منه عن اتجاهات الطريق، واذ تملكه الخوف من أنني قد اقتله فقد أخرج من جيبه بسرعة تصريحاً إيطالياً رسمياً يسمح له بالحياة، وأطلعني عليه بأصابع مرتعشة، وكان هذا السيد العربي رجلاً ذكياً مثقفاً، وهو الذي قال لي فيما بعد ـ بشأن المذابح ـ أن الترك كانوا سيئين ولكنهم على الأقل لم يمسوا النساء والأطفال».

وفجأة انفتح باب جهنم، لقد كان هناك زئير وصياح وسحق بالأقدام كما لو كان جمهور من السكارى قد طردوا من حانة بعد أن حان موعد الاغلاق، وفي الركن كان هناك خمسون رجلاً مسحلاً يرتدون بزة ملك إيطاليا، كانوا يقودون ستة من الأسرى قيدت أيديهم خلف ظهورهم، وكان من بين هؤلاء الأسرى رجل فزاني طويل القامة في رداء أوربي وغلام ذو بشرة فاتحة يتراوح عمره بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، وعلى رأسه طربوش أحمر، وبزئير عنيف طلب منا الجنود أن نقف وأخذوا يترنحون ذهاباً واياباً كالسكارى، وكان على رأسهم ملازم، وكان وجهه شديد الاحمرار، ويده مضطربة كأيدي جنوده المذعورين، وكان قد فقد السيطرة تماماً على جنوده مثلما فقد السيطرة على نفسه وكان هؤلاء الجنود الخصوصيون يرتطمون به دوي أي اعتذار، وكانوا يدفعونه ويصطدمون به وهم يسيرون جميعاً في غير نظام، رغم أن هذا الضابط كان يرتدي بزة ملك إيطاليا وعلى خوذته التاج والصليب، صليب المسيح المتسامح!!

إنني متأكد من أن أحداً من هؤلاء الرجال لم يذق طعم الخمر، إنه الدم وحده الذي أسكرهم، لقد صار من الخطورة أن يقترب أحد منهم في أي مكان، لأنه نظراً لحالة الهياج التي انتابتهم والطريقة التي كانوا يمسكون بها بنادقهم فإنه من الممكن أن يصيب الرصاص أي شخص قريب منهم مصادفة. إنهم كانوا يدركون ذلك، ومن ثم كانت صيحاتهم علينا وإيماءاتهم العنيفة لنا بالابتعاد عن طريقهم رغم اننا لم نكن في مرمى النار بالمرة.

لقد قادوا أسراهم إلى كوخ صغير من الطين وكان أحد جوانبه محطماً تماماً ولا شك في أن أرضية الكوخ كانت قد استخدمتها إحدى الفصائل على الأقل ولبضعة أسابيع كمرحاض، وفي هذا البيت القذر دفع بالأسرى اثنين اثنين، ووضعوا أمام الجدارالداخلي، وفي الحال أطلق عليهم الرصاص، دون أن يصدر أمر باطلاق النار، وكان الجنود يطلقون النار بسرعة وحسب هواهم، ولم يكن ثمة أي مظهر للنظام والوقار الذي يصاحب عادة تنفيذ حكم إعدام في جيش من جيوش البلاد المتحضرة مثل المانيا وانجلترا وتركيا واليابان وغيرها. واشترك الضابط الذي كان يقود المجموعة في إطلاق النار على الأسرى من مسدسه، وكان الأسرى الذين ينتظرون دورهم يرقبون زملاءهم الذين يسقطون، ولكنهم احتفظوا بهدوئهم كما لو كانوا مجرد متفرجين فحسب. وكان الجندي الواقف بجوار الرجل الفزاني مستمراً في إلقاء حديث عنيف على مسامعه، بينما كانت أصابع جندي آخر تعبث بالزر الاسود على الطربوش الأحمر الذي يرتديه الغلام، وكانت الأصابع المضطربة تجدل خيوط الزر الحريرية الطويلة السوداء كما لو كانت ضفائر رأس فتاة. ولم يتحرك الغلام بل ظل هادئاً صامتاً تماماً شأنه شأن جميع العرب الذين شاهدتهم ينفذ فيهم حكم الإعدام في طرابلس.

ولما كان خط إطلاق النار لا يبعد اكثر من ستة أقدام فإن كل رصاصة تطلق كانت تصيب، لقد أعدم الغلام مع المجموعة الثانية، وقد تحول وجهه البرونزي إلى الشحوب، ولكنه ظل هادئاً، وسار بقدمه الصغير فوق جثتي الاثنين اللذين أعدما قبله، ومن أول وابل من الطلقات أطلق على وجهه خر صريعاً، أما رفيقه فقد أطلق الرصاص أولاً على خده الايمن ثم على كتفه الأيسر، وكان الانسان يستطيع أن يرى ذلك من الدماء التي سالت، وبحركته العصبية السريعة مرة على أحد الجانبين ثم على جانب الآخر، ولكنه ظل واقفاً منتصباً في ثبات، وحتى بعدما أصابته جروح أخرى عديدة ظل يحاول جاهداً مواجهة جلاديه باعتزاز وتماسك وظهره إلى الحائط، وعندما سقط في

النهاية كان جسده لا يزال صلباً كما لو كان جندياً في عرض عسكري، لقد مات الميتة التي يجب أن يموتها فارس من الصحراء.

أما الفزاني طويل القامة الذي يرتدي الزي الأوربي فقد كان آخر من اقتيد ولا بد أنه كان يتكلم الايطالية، لأنه ـ قبل أن يوقف أمام الحائط ـ سأله الجنود وألحوا عليه من أجل أن يفعل شيئاً ما، ومن الواضح أنهم كانوا يحاولون استخلاص أحد الأسرار منه، وكانوا يريدون أن يجعلوه يوقع بالآخرين ثم يطلقون عليه الرصاص مثلهم تماماً ولكنه اكتفى بهز رأسه، فوضع في الركن النائي حيث إن بقية المكان صار مغطى بالجثث التي كانت أطرافها العارية وأجسادها الملطخة بالدماء معوجة بشكل غريب.

وإلى جوار الفزاني كان يقف عربي ملتح كبير السن عليه سمات النبل ووجهه ممتقع، عميق التجاعيد مستغرق في التفكير، وقبل ثانية أو اثنتين من إطلاق وابل الرصاص الذي قضى عليه التفت العربي إلى رفيقه بشكل كما لو كان يريد أن يقول شيئاً لصديق في الشارع، وأبدى ملاحظة أومأ إليها الفزاني بالموافقة، فماذا يا ترى قال له؟ لن يعرف ذلك أبداً، لأنه في نفس اللحظة دوى صوت وابل الرصاص والمسدسات الذي يصم الآذان، وسقط الفزاني في لمح البصر، ولكن الآخر دار حول نفسه كالنحلة، وقد امتقع وجهه الأسمر، والتوت ملامحه من الألم، وعندما أطلق وابل الرصاص للمرة الثانية انزلق هو الآخر إلى الأرض صريعاً.

لقد شهد هذا المشهد عدد من الجنود والضباط الذين أخذوا يرقصون ويصيحون فرحاً كلما سقط زوج من العرب، واندفع أحد أطباء الصليب الأحمر، إلى الأمام وفي فمه سيجارة وفي يديه آلة تصوير ضبطت على المسافة المناسبة ومعدة للتصوير، وكان هذا الطبيب أحد الجراحين العسكريين الذي وعد بمساعدة الغلام العربي ولكنه لم يف بوعده.

إن وجود الضابط المصور عند هذه المشاهد سمة ضرورية لها

متسلزماتها، إن عادة يدخن السيجارة وهو يلتقط الصـور، فإنـه عند إعـدام حسين حارس القنصلية الألمانية شاهدت اثنين من الفرنسسكان كان أحدهما مشرق الوجه تعلوه الابتسامات وهو ينظر إلى جسد الرجل الصريع.

لقـد جذب صـوت إطلاق الـرصاص الكثيـرين من الضبـاط والجنـود فتزاحموا قريباً من حفل إطلاق الرصاص وتدافعوا حتى يكون كل منهم أقرب ما يكون إلى المكـان. وفي أثناء أحـداث هذه التمثيليـة أزدحمت الجدران والنوافذ المحيطة بالمتفرجين من الجنود، وعندما سقط آخر العرب صـريعاً حدث اندفاع مجنون من جانب الضباط والجنود والمدنيين لمشاهدة الجثث، وامتلأ الجو بالملاحـظات والتعليقات السـاخرة على الـوضع الغـريب الذي اتخذته الجثث التي تبدو كالخرق المبللة بمجرد أن فارقتها الحياة، لقد كانت ترقد ملتوية بشكل غير طبيعي أو متوقع.

لقد أطلقت أكثر من أربعمائة طلقة على هؤلاء الأشخاص الستة، وتطلق الصحف الإيطالية على عمل هذا اليوم «النصر العظيم» و «الانتقام لعدوه». يا إلهي! حتى يوم عدوه لم يكن في مثل هذا السواد بالنسبة لإيطاليا. إن تعبيرات الأسى والرثاء التي ارتسمت على وجوهنا لا بد أنها أثارت انتباه الملازم الذي بدأ يهدأ ويشعر برد الفعل، فأوفد إلينا جندياً يتكلم بعض الانجليزية لأنه كان في أمريكا، وتظاهر الجندي بأنه يريد أن يطالع أوراقنا، ولكن مهمته اتضحت ـ بعد اطلاعه على الأوراق واقتناعه بها ـ عندما حاول أن يقنعنا بأن (هؤلاء الرجال) ـ مشيراً إلى الجثث الست ـ كانوا خونة، كما أخبرنا بالقصة المعتادة عن العثـور على أحد جنـود القناصـة (البرسـاليـري) مصلوبـاً يـوم الثـالث والعشرين، كما تحدث عن تعذيب الأسرى الإيطاليين.

إنني لا أستطيع أن أفهم بالمرة كيف أن هؤلاء البرساليري المصلوبين أو المشوهين لم يكتشفوا أو يصوروا حتى السادس والعشرين من نوفمبر ـ أي بعد شهر. لقد تحدث الإيطاليون عنهم على أساس أنهم كانوا في (الهاني)

يوم الثالث والعشرين من اكتوبر، ولكنهم لم يقوموا بإخلاء (الهاني) حتى الثامن والعشرين، ومن المفروض أنهم دفنوا رفاقهم الموتى قبل الإخلاء، ثم عادوا لاحتلال الهاني في ٢٦ نوفمبر ـ أي بعد نحو شهر، ويا للعجب! لقد خرج القتلى من البرساليري من قبورهم وأعيد صلبهم على الأشجار. إن المفكرين الإيطاليين الأحرار الذين يتلاعبون بمكتب النشر لديهم ما يكفي من المكر وما يساعدهم على الإصرار والتمسك بكلمة (صلبوا) لأنها تجد صدى في إنجلترا وأمريكا. وباختصار فإن الدفاع عن وجهة النظر الإيطالية تتركز فيما يلي:

لقد قتلنا العرب يوم الثلاثاء لأن العرب قتلوا رجالنا يوم الجمعة من نفس الأسبوع (أي يوم الجمعة التالي).

لقد حاولت أن أبتعد عن هذا الرعب، ولكن لكي أقع في رعب أشد، ذلك أنه في أسفل الطريق الرئيسي الذي يمتد في الداخل من (بومليانة) كان يسير نحو خمسين جندياً على شكل مربع أجوف، وفي داخل المربع كان يسير نحو خمسين عربياً بين رجال وغلمان، وكان هناك غلام واحد فقط في حوالي العاشرة أو الحادية عشرة من عمره يبدو من منظره أنه طفل نحيف رشيق ومعه عربة كما لو كان مهراً عربياً صغيراً. وكان الأطفال يشعرون بالأمان طالما أنهم في صحبة آبائهم وأعمامهم وأبناء أعمامهم وكل الناس من أهالي شارعهم، وكانوا يتطلعون إلى الخلف من وراء صف الحراب اللامعة، بعيون واسعة ولكنها رائقة صافية لا يبدو عليها الأنزعاج، وكانوا يعجبون: إلى أين يقودهم هؤلاء الأجانب؟

واقتادهم الأجانب أسفل الطريق صوب الواحة في ضواحي المدينة، ولكن على بعد نصف ميل أو نحوه من حافة الصحراء والخنادق الإيطالية حدث شيء غريب، ذلك أنه من وسط حدائق النخيل دوى صوت طلقة وتبعتها أخرى وثالثة، وأخذت الطلقات تدوي فوق رؤوسنا، وسيطر على الجنود ذعر مفاجيء فاندفعوا إلى خطوط الخنادق على جانبي الطريق تاركين

أسراهم واقفين في وسط الطريق العريض مقيدين بعضهم إلى بعض بالحبال، هادئين صامتين جميعاً بحيث كانوا في أرديتهم البيضاء ومظهرهم العام أشبه ما يكون بقطيع من الغنم والحملان، ولم يبق منهم إلا جندي واحد أغمد حربته في اثنين من الأسرى: رجل عجوز وشاب، وقد سقط الأخير على ظهره صريعاً، بينما جذب الجندي ملابس القتيل حتى وسطه وظل عرياناً هكذا في وسط الطريق لمدة أربع وعشرين ساعة. أما الرجل العجوز الذي جرح جرحاً مميتاً فقد ترك ينزف حتى الموت، وكان أنينه يمزق القلب. وبعد ذلك رأيت جندياً يقفز فوق جسمه ويركله بقدمه.

وفي اليوم التالي رأيت على طول هذا الطريق موكباً طويلاً من النساء العرب يقتربن وقد أحضرهن الإيطاليون في حذر إلى هذا الطريق المكسو بجثث متناثرة لموتى لعل بعضاً منها جثث أبناء هؤلاء النسوة أو أخوتهن أو أزواجهن أو آبائهن، وكان هؤلاء اللاجئات في ثياب حسنة، وكان من الواضح أنهن من عائلات طيبة. وفي أثناء مرورهن بجثث القتلى أظهرن احتراماً ووقاراً غريباً، ورغم أن خطواتهن كانت أحياناً تضطرب، ورغم أنهن من حين لآخر كن يجذبن خمارهن ليغطي عيونهم فلم يصدر عنهن أي صوت، فما أعظم الفرق بين ذلك وبين عويل النساء اليهوديات والإيطاليات في مدينة طرابلس، عندما ظنوا يوم الثالث والعشرين من أكتوبر أن الترك قادمون.

وفي مقدمة هؤلاء النساء والفتيات الباسلات كان يسير غلام عربي صغير، وباستثناء الجنود الايطاليين كان هو الذكر الوحيد في هذه المجموعة، وكانت في يده عصا صغيرة في طرفها علم أبيض وعليه ـ يا للعجب ـ صليب المسيح الأحمر. فهل كان للمسيح شأن بهذه الحرب في أحد طرفيها المسلمون وفي الطرف الآخر من هم أسوأ من المسلمين؟

وبقدر ما استطعت من خفة حاولت أن أجعل الغلام يمسك بهذا العلم بحيث يسقط الضوء عليه بدرجة تجعل من الممكن تصويره، وكانت يد الغلام باردة كما لو كانت يد ميت، وبدون حتى أن ينظر إلي سلمني رايته وأغمض

عينيه وأطرق برأسه في صمت، وسرت رعدة في عظامي، ومن الواضح أن الغلام ظنني (بطلاً)، إيطالياً، وتوقع أن أسدد إليه طعنات من حربتي.

ولكنني متعجل، فقد كان من الواجب أن أعود إلى الرجال الخمسين المقبوض عليهم، الذين كانوا يقفون في هدوء في وسط الطريق، وإلى الخمسين من الجلادين الذين استولى عليهم الذعر فلجأوا إلى الخنادق، وقد استمر الجنود يتبادلون إطلاق النار مع بعض الناس وكان هؤلاء يردون عليهم بالمثل. وقد علمت أن كلا الجانبين كانا من الإيطاليين.

ولكن يبدو أن الله أو الشيطان قد أعمى هؤلاء المتعطشين إلى الدماء أشباه المجانين، فصاروا يطلقون النار يميناً ويساراً على بعضهم البعض، وفي هذا اليوم نفسه سيطر الأضطراب والذعر على كل أنحاء مدينة طرابلس حتى السوق الكبير أو سوق الشاطىء عند سفح القلعة، وحتى هنا قتل اثنان من الجنود بالرصاص، ولا شك في أنهما صرعا بأيدي زملائهما اللذين كانوا يطلقون النار بوحشية من مسافة بعيدة.

وقد تجاهل جنود الفرقة التي رافقتها ضابطهم الملازم تجاهلاً تاماً، فكانوا يطلقون النار دون استشارته على الاطلاق، لقد كان شاباً منتفخ الاوداج أحمر الوجه، وكان يتعمد أن يكون لصوته زئير رغم أنه ما من أحد انتبه إلى أوامره إلا لكي يعصاها، وكانت هذه الفوضى تسود كل ألوية الجيش.

وأخيراً فإن عدداً كبيراً من الضباط الآخرين بالإضافة إلى فصيلة من رجال الجندرمة ذوي البزات الزرقاء قد لاذوا بالفرار، وبعد أن أطلقوا النار لمدة نصف ساعة على زملائهم في حديقة النخيل أجبر جنود هذه المجموعة على مواصلة عملهم الرهيب فعادوا مرة أخرى للإحاطة بأسراهم واقتادوهم إلى كوخ خال من الطين وقد دمر جزء منه، وهو أشبه بالكوخ الذي سبق لي وصفه، ومن الواضح أنه كان يستخدم مثله كمرحاض لأحد ألوية الجيش.

وفي أحد أركان البيت كان يقف أحد الجنود وقد عجز عن السيطرة على تعطشه الذي لا حدود له للدماء، وفجأة أغمد حربته في جنب أحد السجناء وهو رجل عجوز لم يلبث أن سقط على الأرض صريعاً، واندفع الآخرون إلى داخل البيت في مجموعات، ثم بدأ الرعب المعتاد، ولا حاجة بي لأن أصفه مرتين، فقد صارت أرض البيت مغطاة كلها بالجثث، حتى إن الضحايا الذين حل دورهم في النهاية لم يجدوا مكاناً للوقوف،واضطروا للوقوف فوق كومة من جثث القتلى. ولمّا كانت أيديهم مقيدة خلف ظهورهم، فإن بعضهم تعثر عدة مرات قبل أن يتسلق كومة الجثث.

وعندما انتهت مهمة مجموعة القتل كانت أرضية البيت تمثل نفس المنظر المروع للأطراف والأجساد الملتوية والمتعارضة وقد سبق لي وصفه. وقد أدت طلقات الرصاص إلى تطاير أجزاء كبيرة من دهان الجدران، وفي أجزاء أخرى كانت هناك بقع من الدماء ترتفع فوق الأرض بقدر قامة رجل، ولا بد أن هذا الدم انبثق من بعض إصابات في رؤوس ورقاب العرب قبل أن يسقطوا على الأرض. وعلى الرغم من العدد الهائل من الطلقات التي تدفقت داخل البيت فقد كثير من العرب وما زال فيهم رمق من الحياة، فبدأ الملازم الذي يقود المجموعة في إطلاق رصاص مسدسه على كل رأس يراه ظاهراً من بين كومة القتلى والمحتضرين. ولقد فعل نفس الشيء رجل المخابرات المكتنز الذي كنت قد التقيت به في ذلك الصباح في الجبهة، كما عاون بعض الرفاق من الضباط ببسالة في هذا العمل الرياضي الذي استمر لمدة عشرين دقيقة. كما اشترك أيضاً رجال الجندرمة ذوي المعاطف الزرقاء في هذه المهزلة، ولكن ـ على الرغم من كل هذا الرصاص الذي أطلق فقد ظل في هذه الكومة رجال وغلمان ما زالت تظهر عليهم دلائل الحياة، ومن المحتمل أن السبب يرجع إلى أن بعض الذين أطلق عليهم الرصاص في البداية سقطوا دون أن يقتلوا في الحال، وبعد ذلك صاروا في مأمن من الطلقات التالية بسبب كتلة الأجساد التي سقطت وتراكمت فوقهم، ومع ذلك

فإنه في بعض الأحيان كانت الجثث الممددة في أماكن مكشوفة تظهر عليها علامات للحياة تسبب الرعب، فعلى قمة الكومة كان يرقد رجل عربي عجوز ذو لحية رمادية ورأسه مستند إلى الحائط وكان منظره العام يشبه تماماً منظر رجل عجوز نائم في سرير. وفجأة وبينما كان جسده بلا حراك فاقداً الحياة بدأ رأسه يتحرك ويهتز ببطء، من جانب لآخر كرأس رجل نائم نوماً غير مستقر، فكان مثل رأس دمية آلية لها رأس تتحرك داخل تجويف، وكان الفم مغلقاً، والعينان مغمضتين، والجسم لا يزال ساكناً، ولكن الرأس يتأرجح من جانب لآخر بانتظام كبندول الساعة، لقد كان منظراً مرعباً غاية الرعب.

وقد صوب الملازم الرياضي إلى هذا الرأس مرة ولكنه أخطأه، واستمر الرأس يتحرك من جانب لآخر، فصوب الملازم مرة أخرى، وفي هذه المرة أصابه، لأنه فجأة توقفت حركة الرأس، كما أنه بهزة حادة انفغر فمه وظل مفتوحاً. لقد توقفت الرأس عن الحياة.

وكان لا يزال هناك أنين في قاع كومة الجثث بالقرب من الباب، فأفرغ الملازم الرياضي ورفاقه مسدساتهم مراراً في هذا الجزء من كومة الجثث التي انبعث منها الأنين، ولكن الصوت استمر. إنها الحشرجة الخشنة الكئيبة الصادرة من رجل عجوز للغاية ومريض للغاية، ولكنه يغط في النوم. وأخيراً دعى الجنود مرة أخرى لاطلاق رصاص بنادقهم، ومرة أخرى حصدت الجثث بوابل من الرصاص. وعندما قمت بالتصنت عند الباب كان الأنين قد توقف.

ولكن كل هذا الرصاص الذي أطلق من مسافة قريبة كان كفيلاً بتمزيق الجثث شر ممزق بطريقة مرعبة، وفي بعض الأحيان أطيح بكل الوجه أو جبهة الرأس وبرز المخ والأمعاء.

ولكن الأمر مروع بدرجة تجعل من الصعب وصفه بالتفصيل، وفي الحقيقة فإنني أخشى أن يكون الكثير مما ذكرته غير مناسب ولكن من العدل

أيضاً أن يعرف القارىء أولاً: ما هي الحرب، وثانياً ما نوعية القتال الذي يشنه الإيطاليون الآن في ولاية طرابلس.

إن بعض القراء العسكريين ـ عند قراءة التفاصيل السابقة عن الأسلوب الإيطالي للحرب في طرابلس ـ قد يميلون إلى اعتبار الكاتب مفرطاً في حساسيته، ولكن الأمر ليس كذلك، فقد مررت بحرب عالمية من أولها إلى نهايتها، وشاهدت صينيين يعدمون على أيدي صينيين، وجواسيس صينيين يعدمون على أيدي الروس، وخونة من الأتراك يعدمون على أيدي الترك، وفي كل هذه الحالات لم أشعر باضطراب ولم أقدم أي احتجاج، وبدلاً من تقديم احتجاجات قمت بتصوير ما حدث.

ولكن المذابح الأخيرة في طرابلس كانت بشكل يمكن أن يثير حتى السلطان (عبد الحميد) أو (بور سكيفتش) احتجاجاً وسخطاً.

إن المستر (اوتو فون جوتبرج) وهو ضابط بروسي يؤمن إيماناً قوياً باليد الحديدية وبالعمل العسكري العنيف، أخذ لأول مرة في حياته جانب المدنيين، ولا حاجة بي إلى ذكر أسماء الصحافيين البريطانيين الذين أخذوا نفس الجانب، وأعتقد أنني على حق عندما أقول أن الصحافيين الوحيدين الذين اعتبروا أن قسوة الجنرال (كانيفا) لها ما يبررها هم الصحافيون الإيطاليون.

وقد يرد علي بأنه في الحالات التي ذكرتها آنفاً والغلمان الذين تحدثت عنهم كانوا جميعاً مذنبين وأنهم استخدموا السلاح فعلاً، ولكن من المستحيل أن يقدم على ذلك الغلام المريض أو المرأة العجوز، كما أنه من المستحيل أن يكون عشر القتلى العرب الذين شاهدتهم قد حوكموا نظامياً أمام محكمة عسكرية، إنهم في الغالب كانوا ملقين فرادى على جانب الطريق ولم يكن معهم سلاح على الإطلاق من أي نوع، وفي بعض الأحيان كانوا يبدون كما لو كانوا قد قاموا لتوهم من فراش نومهم ولم يكن لديهم وقت حتى لارتداء

ملابسهم.

والحالات التالية التي جمعتها من مصادر موثوق بها تدلنا على أن القتل عمداً كان شعار اليوم.

لقد أخبرني أحد رؤساء الجالية اليهودية عن قتل متسول يهودي أعمى وابنه، لقد قبض عليهما، وتبدو كم كانت محاكمتهما مهزلة مضحكة، فإنه رغم احتجاجهما بأنهما من اليهود فقد أصر الجنود على أنهما مسلمين وقتل كلاهما، رغم أن كل اليهود في طرابلس كانوا متحمسين للجانب الإيطالي، ولم يكونوا يخشون شيئاً قدر خشيتهم من عودة الترك، ومن الواضح لذلك أن هذين اليهوديين ترك مصيرهما لقرار عسكري جهول استولى عليه الفزع والاضطراب وأثارته لدرجة الجنون قصص تعذيب جرحى الإيطاليين.

إن (داني سعده) اليهودي الكبير لم يمت عند أول ضرب بالرصاص، ولذلك فقد حطم الجنود ساقيه بأعقاب بنادقهم وأوسعوه ضرباً حتى الموت، لقد كان في الثانية والستين من عمره، وكان ابنه في السادسة والعشرين.

لقد استمرت المذبحة لعدة أيام كان الجنود خلالها يصادفون في الطريق وطنيين يرتدون أحسن الثياب فيقتادونهم إلى داخل منازل مهجورة، ويسلبونهم ما معهم، ثم يطلقون عليهم الرصاص. لقد تخلى الايطاليون عن مراكزهم في اليوم الثاني وانسحبوا إلى الوراء، وكان الطهاة والعمال العرب الذين ربطوا أنفسهم بالقادمين الجدد قد ذهبوا وراءهم، فكان الجنود يتصيدون هؤلاء القوم التعساء. وهكذا كانت المئات تدفن في الصحراء، ومئات تلقى في البحر، وظل صيادو السمك الطرابلسيون لأيام عديدة يصادفون هذه الجثث تأتي بها شباكهم، وظلت الرائحة النتنة الصادرة من الجثث التي لم تدفن تملأ جو الواحة، ورفض الجنود أن يدفنوهم بسبب هذه الرائحة كما رفض العرب ذلك أيضاً ما لم يرغموا تحت تهديد الحراب الايطالية، وكان نسيم البحر يختلط برائحة الجثث المنتفخة العفنة الطافية فوق سطح الماء في الخليج.

ومن المحتمل ألا تعرف الحقيقة الكاملة عن هذه المذابح مالم يستطع ضابط أو جندي اشتراكي في جيش الجنرال (كانيفا) أن يجعل العالم كله يعرف تجاربه. لقد منحت التصريحات لمراسلي الصحف لكي ينتشروا في كل مكان، ولكن عندما بدأت المذابح أوقفت هذه التصريحات وبذلت محاولات لمنع أي صحفي أجنبي من زيارة الأماكن التي وقعت بها أضخم المذابح وأكثرها بشاعة، وقد احتجز الملحقون العسكريون في إيطاليا ثم أرسلوا بعد ذلك إلى بنغازي ودرنة وذلك حتى لا يشهدوا الفظائع التي وقعت في مدينة طرابلس.

وفي خلال الأيام الأولى من الاحتلال اعتاد العرب نقل جرحى الايطاليين إلى الخطوط الايطالية تحت علم الهدنة، ولم يبدأ العرب في تشويه جثث الجنود الإيطاليين الا بعد أن بدأ الغزاة في ذبح النساء والأطفال الأبرياء. لقد استغل الايطاليون كثيراً حوادث التمثيل بالجنود الإيطاليين، ولكن حتى إذا كان البدو قد ارتكبوا فظائع لم يسمع عنها من قبل، فإن هذا ليس سبباً يجعل روما تسير في نفس الاتجاه.

إن المجرم الحقيقي ليس الجندي الايطالي، ذلك أنه في ميدان المعركة يميل كل جندي لأن يصير كالوحش، ولكن من واجب الضابط أن يكبح جماحه. إن الضابط الأنجليزي، والألماني، والأمريكي، والفرنسي، سيفعل ذلك، ولكن الضابط الإيطالي فشل في ذلك.

والآن سأقدم مزيداً من التفاصيل عن حوادث القتل العمد التي ارتكبها الجنود الإيطاليون خلال تلك الأيام الرهيبة. لقد أطلق الرصاص على رجل مسن من رجال الدين كان جالساً على الرمل بالقرب من (سكره) في الواحة يجمع الزكاة، فوضع الفلاحون جثته على حمار، وطافوا به في الواحة؛ ليشهدوا الناس كيف يعامل الأجانب رجال الدين.

وهذا (علي فريفر) القصاب في قرية (ساينة) بالواحة، كان يذبح شاه

عندما وصل بعض الجنود الايطاليين إلى المكان وانتزعوا منه سكينة وذبحوه بها. وفي طرابلس قتل الجنود متسولاً أعمى.

وكان لدى أحد أصدقائي خادم عربي أعرج أرداه الجنود قتيلاً بالرصاص، ومئات من الأمثلة يمكن ذكرها، وكل مراسل تقريباً وكذلك كل مقيم أجنبي لديه قائمته الخاصة عن الأحداث الفظيعة، وكل قنصل أرسل تقاريره الرسمية عن هذا الموضوع إلى حكومته.

ولم تكن حيازة البارود والبنادق هي فقط التهمة الكبرى، بل إن امتلاك شفرة حلاقة، أو خنجر، أو سكين، أو أي شيء يشبه السلاح، كان يعتبره تهمة كبرى وشفرة الحلاقة تعتبر في الوقت الحاضر من الضروريات لدى الأسرة المسلمة؛ لأن لها دلالة دينية حيث تستخدم في حلق شعر رؤوس الرجال، وشعر ما تحت الابطين عند النساء، ومع ذلك فقد اغتال الإيطاليون العرب لحيازتهم شفرات حلاقة، وذُبح الجزارون بسكاكينهم.

وقد عثر لدى العرب على ساعات وأزرار وأشياء أخرى من المفروض أنها للايطاليين الذين اختفوا أو قتلوا، وقد أطلق الرصاص على هؤلاء العرب دون القيام بأي استفسار أو تحر.

ويسرد مكتشف نمساوي هو (الهر ارنباور) التفاصيل التالية: «لقد ظهر ثلاثة من المتسولين المكفوفين عند صف من البيوت في قرية (سكره) عندما أطلق عليهم الرصاص وقتلهم بعض البرساليري الذين كانوا في كوخ في ركن الشارع، وتركت جثثهم حتى المساء ممددة حيث سقطوا.

كما هرب ثلاثة من الأطفال من الواحة إلى مدافن (سيدي المصري) فقام الجنود الذين يتكون منهم مركز إيطالي هناك بفتح النيران السريعة على هؤلاء الصغار الذين كان أكبرهم لا يتجاوز الثامنة من عمره.

وفي (سانية) كان أحد السكان المسالمين وهو (محمد المسوري) عائداً من السوق ومعه بعض المال، فاستوقفه الجنود وفتشوه وسلبوه ثم قتلوه. وعلى

طريق قرقارش كانت امرأتان تركبان جملين فأمرهما الايطاليون بالوقوف، ولما كانتا لا تفهمان اللغة الايطالية فقد تابعتا السير ولكن لم يكد الجملان يسيران ياردة واحدة أخرى حتى فتح الحراس النيران وقتلوا كلتا المرأتين. كما قتلت امرأة أخرى على طريق (بومليانة) لأنها لم ترفع خمارها. وكان بعض الجنود الايطاليين مارين عندما سمعوا واعظاً متجولاً ينشد فدفعوا له الصدقة على هيئة رصاصات فسقط دون أن يئن.

وبعد ظهر اليوم (السادس والعشرين من اكتوبر) رأيت غلاماً في الثانية عشرة من عمره يشرب ماء عند بئر خارج (سانية) مباشرة، وفجأة دوى صوت بالقرب منه وسقط الغلام إلى الأرض وهو يصرخ، وفي سوق الجمعة على طريق (تاجورة)، ركعت امرأة عند جثمان زوجها تبكي بكاء عالياً حسب عادات أهل البلاد، إلا أن عويلها لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما جعلتها طلقة إيطالية تتمدد صريعة إلى جانب جثة زوجها».

كما قام (أوتو فون جوتبرج) بذكر التفاصيل التالية: «في صباح اليوم التالي (٢٧ اكتوبر) ذهبت إلى اليسار من طريق (بومليانة) الرئيسي خلف ثكنات الخيالة في الواحة، ولم أذهب بعيداً حيث إن الطريق كان محفوفاً بالأخطار، فرأيت امرأة شابة تخرج من كوخ عربي،وهي تمسك في يمناها أصابع ابنها الصغير وفي يسراها إبريق ماء لقد كان الشارع يكتنفه الهدوء التام، ولكن فجأة دوى صوت ثلاث طلقات وسقطت المرأة صريعة فعاد الطفل جرياً إلى الكوخ وهو يصرخ.

ويجب أن اعترف بأن الرعب من هذا المنظر جعلني أترنح وأوشك على السقوط إلى الأرض، وعندما تمالكت نفسي أسرعت، وعندما قابلت أحد الضباط قلت له: «إن رجالك قد قتلوا لتوهم أما عند البئر» وبدا لي أن الضابط قد صدم حقاً، ولكنه قال: «إن جنودنا لا يستطيعون دائماً التفرقة ـ عند أول نظرة ـ ما إذا كان الواقف أمامهم رجلا أو امرأة».

«وهذا يدل على أن الرجل العربي فريسة مشروعة سواء كان بريئاً أو مذنباً. وسوف أقدم صورة أخرى: كان الجنود فوق حائط من الطين لأحد البيوت يطلقون الرصاص، وعندما صعدنا إليهم كانوا في الحديقة منحنين على جثمان رجل عجوز أشيب الشعر كانوا قد صرعوه لتوهم، وكان على وجوهنا سؤال: «لماذا؟ ورداً على ذلك دس مساعد الضابط يده في ملابس القتيل، وفي زهو تقدم معلناً: شفرة حلاقة.

هذا القتل كان تبريره يتمثل في أن أي سكين يزيد طوله على بوصتين يعتبر سلاحاً، وفي الوقت الحاضر فإن أي امرأة في هذه البلاد تحمل معها شفرة، حيث إنها طبقاً لعقيدتهم تستعمل في إزالة الشعر من الذراعين، وهذه الشفرة لا تقل أبداً عن بوصتين في الطول.

بل وحتى ١١ نوفمبر فان مراسل صحيفة (فوسيش زيتونج Vossische Zeitung) في طرابلس يقول (في ٢٠ نوفمبر ١٩١١): «لقد رأيت بنفسي وأكثر من مرة العرب الذين يذهبون إلى البساتين للعمل أو لجزّ بعض الأعشاب يسقطون ببساطة صرعى الرصاص».

وفي بعض الحالات التي علمت بها كان الجنود الصقليون يتصرفون كقطاع الطرق وإنني لأفكر في حالة خاصة، وفيها كان الجنود يفتشون أحد أصحاب الحوانيت في الواحة، وعندما وجدوا بعض المال في كيسه قتلوه من أجل المال، وعندما ظهر رد الفعل لدى كثير من الجنود فإنهم فقدوا عقولهم وكان لا بد من إعادتهم إلى إيطاليا!.

وقد حاول الوطنيون المتطرفون (من الإيطاليين) استغلال عجزهم وضعفهم بإعلان أن تلك التصرفات كانت نتيجة لفظائع العرب. وربما كان الأمر كذلك في بعض الحالات ولكنني أعتقد أنه في معظم الحالات فإن الجنون كان يرجع إلى الفظائع التي ارتكبها الايطاليون انفسهم.



مسجد بطرابلس
وقد اخفيت منارته بجريد النخيل من قبل الايطاليين لتبدو وكأنها قلعة المدفعية التركية.

وفي ٢٨ مارس استوقفني أمام القنصلية الأمريكية جندي ايطالي كان يتجول على غير هدى، وكان يبدو عليه الخبل والاضطراب، وكان حزامه وكل أسلحته قد انتزعت منه، ولذلك فإنه لم يكن مصدر خطر، ولكن الله وحده هو الذي يعلم عدد جرائم القتل التي اقترفها قبل أن ينزع سلاحه.

وهناك منظر يثير الاشمئزاز أكثر، رأيته في حالات قليلة، لجندي إيطالي، عيناه محتقنتان بالدم، تغطيه القذارة، وقد طال شعر لحيته وفغر فاه، وسال لعابه وتساقط على بزته العسكرية، وعندما رأى أنني غريب وأنني لذلك يمكن أن أكون فريسة سهلة اقترب مني وجمع شتات أفكاره وحاول أن يستأسد على، فسألني عما إذا كنت ضابطاً تركياً وعما إذا كان لدي أوراق تثبت هويتي، وكانت طريقته تؤكد أنه يريد ابتزازي وإرهابي، ولم أجد صعوبة في زعزعة محاولته، ولكن كم من العرب البؤساء وقعوا فريسة له ولأمثاله وقتلوا خلال أيام الارهاب المشؤومة هذه؟ وهم الآن يدفعون الثمن في مستشفيات الأمراض العقلية في إيطاليا، لأن جلادك ليس دائماً رجلاً قوي الأعصاب، وفي حالتنا هذه كان كثير من الجلادين من شباب المدينة مضطربي الأعصاب، وكان إغراء الدم المروع، والتصريح بالقتل بلا حدود أكثر مما تحتمله أعصابهم المهزوزة وعقولهم الضعيفة، لقد صاروا حطاماً تالفي الأعصاب قبل أن تصل المذابح إلى نهايتها.

ولكن هذه «المجازر البشرية» لم تكن أسوأ سمات هذه المذابح، إن أسوأ سماتها لم أصفها بعد على الاطلاق، وأقصد المجاعة والمرض اللذين تبعاها واللذين كانا نتيجة طبيعية لها. إن المجاعة والوباء قضيا على كثير من النساء والأطفال والرجال المسنين الذين لم يصل إليهم الأبطال.

لقد ضاع مورد الرزق عند كثير من الأسر المتواضعة، وأحرق الكوخ الصغير عند ساحل البحر أو تحت النخيل، ودمر مخزن الغلال الصغير، ولم تكد المذابح تتوقف إلا وكان ميدان السوق وأفنية المساجد قد ازدحمت

بالمرضى والجرحى والمسنين، لم يكن لديهم طعام أو دواء، ولا مكان للراحة سوى الأرض العارية، فجاءت الكوليرا وغيرها تحصدهم من الأرض. حقاً إن كلمة (كوليرا) هذه أفزعت السلطات الإيطالية بعض الشيء (من أجل مصلحتهم هم)، وفي ٢١ نوفمبر ظن الجنرال (كانيفا) أنه من الكياسة أن يوزع بعض القمح والأرز والملابس على هؤلاء البؤساء، وأرسلت هذه الهدية عن طريق (حسونة باشا القره مانلي) نائب الحاكم، وبطبيعة الحال فإن وكالة البرق الرسمية الايطالية (ستيفاني) نشرت هذا الخبر في كل أنحاء العالم.

وعلى العموم فقد خرج الجنرال (كانيفا) خاسراً من هذه العملية، فقد أثبت أنه مجرد ضابط صغير في إحدى الثكنات وليس إدارياً، فقد نسى أنه تولى مسؤولية حكم كثير من الناس البؤساء من جنس آخر، وسمح لجنوده بذبح هؤلاء الناس دون أدنى محاولة لايقافهم أو لإقرار العدالة أو للقيام بأي نوع من البحث والتقصّي.

والعرب ـ المعروفون بسرعة إدراكهم لمعنى العدالة حتى عند الغزاة ـ لا يمكن أن ينسوا هذا التخبط من جانب الإيطاليين. وكما توقع مراسل (التايمز) فإن أحداث الفترة بين ٢٣، ٢٧ اكتوبر سيكون لها رد فعل لعدة سنوات على الغزاة أنفسهم، بل إن رد الفعل بدأ في الظهور منذ الآن، فإن كل الانجليز الذين كانوا مع الترك يتحدثون عن الانتشار الواسع الذي حققته قصة مذابح الواحة. فقد كتب أحد مراسلي (التايمز) في ٢٧ مارس من الخطوط التركية قائلاً: «من تونس إلى العيزيزية تتردد في البلاد القصص عن التخريب الغشوم الجائر الذي ارتكبه الإيطاليون وعن المذابح التي نزلت بالرجال العزل، وعن ذبح النساء وصغار الأطفال بل وحتى الأطفال الرضع.. إن هذه القصص قد تغلغلت الآن في أطراف الصحراء والسودان (من حيث بدأت الأمدادات والتعزيزات تصل في اعداد متزايدة نتيجة لذلك). كما أثارت هذه القصص سامعيها كراهية للايطاليين لن تخمد».

إن شمولية هذه الكراهية نعتبر أحد الأدلة على أنه كانت هناك مذبحة،

وهي وحـدهـا يمكن أن تكـون كـافيـة لـدحض إدعـاء الأيـطاليين بـأنـه لم يقتـل عربي واحـد بريء، لأن العـربي لا تهزمـه المـذبحـة بسهـولـة، فقـد تعـود عليهـا على نـطاق صغيـر، وهـو يشتغـل بهـا من حين لآخـر، ولكن شيئـاً هـائـلاً ضخمـاً مخيفـاً مـذهـلاً يمكن أن يثيـره مثلمـا أثيـر الآن من اليمن إلى الجزائر، ومن البحر المتوسط إلى قلب أفريقية. ولا يمكن للترك ولا للعرب أن يختلقوا (قصة) المذبحة كما يقول بعض الموالين لايطاليا، حقاً إنهم يختلقون أشياء كثيرة ولكن ميلهم للكذب والمبالغة يتجه اتجاهاً مختلفاً تماماً عن هذا الاتجاه فهم قد يقولون مثلاً إنهم قد قتلوا عشرات الآلاف من الإيطاليين، وأنهم قد أستعادوا طرابلس، ودرنة، وطبرق، وبنغـازي، وطردوا كـل الايطاليين وأعادوهم إلى سفنهم وغنموا طائرة، ولكن لم يحدث أبداً أن قاموا باختلاق قصة مذبحة، ولم يحدث هذا أبداً من جانب (المهدي) الذي حاربنا في السودان ولا حتى من معارضي الفرنسيين في الجزائر.

ولو افترضنا أن العرب اختلقوا أو ابتدعوا مثل هذه القصة فإنهم لا يمكن أن يموتوا بالمئات مقابل اختلاقهم مثلما يحدث الآن.

إن الطبيعة القاسية لهذه الحرب، والغضب الذي لا مثيل له والذي يملأ قلوب العرب وهم يقاتلون إنما هي أدلة على المذبحة. إنه لا يكاد يـوجد عربي واحد إلا وله صديق وقريب ذبح في الواحة، وبعضهم رأى المذابح بنفسه.

وذات مرة كان هناك كاتب عربي شاحب اللون يعمل في مكتب فرنسي للشحن في مواجهة فندق (ميترفا) في طرابلس، وفي يـوم ٢٦ اكتوبـر زاره جندي إيطاليٰ وبصحبته شرطي ممن كـانوا في خـدمة الترك في الماضي، وأبلغه أن أخاه قد أعدم لتوه، ولقد كان حزن هذا الكاتب سيء الحظ عظيماً لدرجة تدعو إلى الأسى والرثاء، وربما كان أخوه هذا طفلاً أو مقعداً يجلس

في بيته الذي هو عبارة عن كوخ صغير بين بساتين النخيل في انتظار عودة عائلة، ولا بد أن جريمته كانت غير متوقعة وإلا لكان أخوه مستعداً لنتيجتها إلى حد ما، ولكنه انهار تماماً، وقد صدرت منه صيحة «آه»، وألقي بنفسه ممداً ووجهه إلى الأرض.

وفي اليوم التالي كان مقعده في مقر عمله خالياً ولم يعد إليه مرة أخرى، ولا بد أنه فعل ما يفعله أي شاب في انجلترا في مثل هذه الظروف، لا بد أنه خرج إلى الصحراء يحمل بندقية، ولا بد أن عشرات من الرجال مثله وعشرات من شهود العيان الذي لا يمكن الشك في روايتهم شرحوا تدريجياً لكل الجنس العربي جريمة المسيحية الكبرى، التي اهتزت لها كل بساتين النخيل في ولاية طرابلس الغرب.

ولم يغضب الايطاليون العرب بظلمهم فحسب، بل إنهم أغضبوهم أكثر وأكثر بعدم لباقتهم في الأمور الدينية، فقد اعتدى الايطاليون على حرمة كثير من المساجد في المناطق التي احتلوها، ولم يشعروا بعمق كراهية الأهالي وهم يرون مسيحيين يدخلون إلى ساحة المسجد، ولقد حول الإيطاليون الكثير من المساجد إلى مراكز للمراقبة، وملأوا البعض الآخر بالجنود. وقد نشرت الصحف الايطالية صوراً لمآذن اكتظت بالجنود.

ويصف أحد الكتاب الايطاليين لقرائه كيف أنه «من الشرفة التي طالما دعا منها المؤذنون المسلمون للصلاة تسيطر الآن سبع أو ثماني بنادق على البلاد المحيطة».

ولقد ارتكب الايطاليون خطأ آخر باعتدائهم على حرمة النساء على نطاق واسع ونزع حجاب النساء العربيات بشكل عام.

فقد انزعج الايطاليون للقصص الملفقة حول وجود جواسيس أتراك بالمنطقة مختفين في ملابس النساء، فأصدروا أمراً يحتم على النساء خلع حجابهن، وقد قتلوا الكثير من النساء الائي رفضن الانصياع لهذا الأمر.

ونتيجة لذلك فقد اختفت الحجب من على وجوه النساء في أواخر شهر اكتوبر حتى أن المرء أصبح لا يرى امرأة محجبة في الشوارع. وعلى ظهر البارجة الإيطالية التي أقلعت بالعائلات التركية لم تكن هناك امرأة واحدة محجبة. إن جميع من يعرفون مدى حساسية العرب نحو حجاب المرأة وقدسيته عندهم كان سلوك الايطاليين إزاء الحجاب يعتبر في نظرهم جرماً لا يغتفر.

ومما جعل موقفهم حرجاً وغير قابل للاصلاح أنهم تصرفوا بطريقة لا يتصرف بها جنس آخر على الأرض، وقد استطاع أحد قوادهم استمالة عواطف الناس في إيطاليا وتأييدهم لما فعلوا في طرابلس عندما وصف ما حدث قائلاً: «إن الجنود خاضوا الحرب بعنف وبسالة وبلطف ونبل لا يمكن لجنس آخر غير جنسنا أن يفعل ذلك، وانتصروا فيها دون أية خسارة للقوة أو العبقرية العسكرية».

ولو تركنا جانباً ما ارتكبوا من مذابح فإنه يجب علينا الاعتراف بأن كل سلوكهم منذ أن وطأت أقدامهم الأرض في طرابلس يمكن أن يشبه بالمثل الشائع حول سلوك (الثمل في مستودع الفخار).

الفصل الثالث

حسونة القره مانلي

إذا سلمنا مؤقتاً (ولو أنني لا أعتقد ذلك مطلقاً) بأن امتداد الحكم الإيطالي إلى طرابلس سيكون نعمة، فإننا يجب أيضاً أن نعترف بأنه بقليل جداً من البراعة كان من الممكن أن يتجنب الإيطاليون سفك الدماء كلية تقريباً.

لقد كان من الواجب أن يسمحوا لأنفسهم بالاستعانة بتوجيهات صديقهم المخلص الأمير حسونة القره مانلي الذي نصبوه نائباً لحاكم طرابلس. إن الأمير حسونة ـ الذي سأتحدث عنه كثيراً فيما يلي ـ هو أحد أحفاد يوسف القره مانلي الحاكم المستقل لطرابلس، والذي أزاحه الأتراك من منصبه في منتصف القرن الماضي، وقد كان بوسع الايطاليين ـ ولو أرادوا السيطرة على طرابلس ـ أن يدخلوا مؤيدين لحسونة ضد الأتراك.

فلو أنهم نصبوا حسونة ملكاً وسمحوا له بأن يوقع على كل البيانات الموجهة للسكان العرب وأن يقدم الهبات إلى رؤساء القبائل ويبقى هو حاكماً عاماً للبلاد، لو فعلوا ذلك لاستطاعوا حكم طرابلس كما حكم الفرنسيون تونس. لقد عرض القره مانلي نفسه هذه الخطة على الإيطاليين في عام ١٨٩٠ إلا أن (كرسبي Crispi) الذي كان في السلطة آنذاك والذي كانت له مخططات نحو طرابلس لم يقتنع برأي القره مانلي الذكي ولم يتحمس له وأرجعه إلى رغبة القره مانلي في العودة إلى كرسي الحكم، بينما كان بوسعه أن يرسل بضع سفن حربية لنصرة القره مانلي على الأتراك الطغاة.

ان قصة هذه الفكرة قد انكشفت الآن للجميع ولم يعد هناك ما يدعو لاخفائها، فقد نشرت المراسلات السرية بين الأمير العربي ورئيس الوزارة الايطالية. لقد طلب (كرسبي) رئيس الوزراء الايطالية وقتئذ من السنيور (جراندي Grande) القنصل الإيطالي في طرابلس أن يجس نبض القره مانلي حول التدخل الإيطالي، ورغم أن القره مانلي يعتبر الآن خائناً في نظر الكثير من الأهالي فإنه رجل دولة يمتلك قدرات كبيرة ونادرة كدبلوماسي، كما أنه رجل أعمال لبق ومعقول وغير طموح، كل هذا، إلى جانب أنه زعيم عائلة كبيرة كانت زعامتها على جميع عرب طرابلس قاطبة لا ينازعها أحد إلى أن حدث القصف الإيطالي وأنزل الجنرال (كانيفا) جنوده إلى البر، الأمر الذي حرم القره مانلي من كل اتباعه إلا من عدد قليل من خدمة الخاص وابن واحد، بالإضافة إلى مجموعة منبوذة من الزعماء السابقين. وفي رد القره مانلي على القنصل (جراندي) أعلن أنه قبل أن يلعب دور الدمية التي كان الإيطاليون يريدون أن يعلبه، وللتدليل على ذلك فها هو ما جاء في خطاب القنصل (جراندي):

«لقد أظهر السيد حسونة القره مانلي أنه على استعداد لمساعدة الإيطاليين في احتلال البلاد لاقتناعه التام بأننا (أي الإيطاليين) إذا لم نحتل طرابلس فإن إحدى القوى الكبرى الأخرى ستفعل ذلك، كما ذكر أنه يضمن مناصرة جميع سكان الجبال للاحتال لما يتمتع به بينهم من التقدير والولاء، كما أنه سيقبل بنوع من الحكم على غرار النظام المعمول به في تونس، ويقول أن مثل هذا النظام لن يجد أية معارضة من جانب العرب وسيؤدي إلى تهيئة البلاد. ورغم أنه لم ينكر أن تركيا ستقاتل فإنه يعتقد أنها لن تستطيع عمل شيء خطير طالما أنها لن تجد سنداً من الأهالي العرب».

وفي مطلع العام السابق كانت إيطاليا قد أشارت على القره مانلي بأنها ستبدأ في التنفيذ وأصر الأمير - فيما أعتقد - على ضرورة تنفيذ الاحتلال بالتدريج، وعلى العواقب الوخيمة التي ستحدث فيما لو قصف الايطاليون

المدن الواقعة على الساحل وملأوها بالجنود وأعلنوا ضم كـل الإقليم باسم الملك (فكتور عمانويل)، ولا شك في أنه أشار إلى أنه في هذه الحالة فإن جميع السكان العرب سينضمون إلى الأتراك ويشنون الحـرب على الغزاة، تلك الحرب التي لن تنته إلا بنهاية الإيطاليين أو انسحابهم. لقد أكد لهم أنهم لو دخلوا البلاد بصفتهم ورثة الامبراطورية الرومانية القديمة فإن أفراد أسرته أنفسهم سيقاتلونهم ضمن الجيش العثماني، وأنه يعتقد أنه في هذه الحالة أنـه لن يجد الإيطاليون من يقف إلى جانبهم سواه، وعدد قليل من الأفراد. ورغم ذلك أبي (جيوليتي) بعنجهيته النابوليونية البسماركية أن يصغي إليه، بل فضل الإيطاليون أسلوب التهور والتسرع كما يفعل الثور في مستودع الخزف.

لقد قيل إن (جيـوليتي) كان يسعى لجعـل الملك (فكتور عمـانويـل) امبراطوراً على إيطاليا مثلما نصب (بسمارك) الملك (وليم الأول) ملك بروسيا امبراطوراً على ألمانيا في (فرساي) وكان جيوليتي يعتقد أنه لن يستطيع فعل ذلك لو أن احتلال طرابلس تم بطريقة مقنعة أو غير مباشرة. كل هذا بالإضافة إلى ملاحقة الصحافة المتطرفة له، إذ كانت وسائل الأعلام تدفعه دفعاً لكي يظفر لإيطاليا بمستعمرة بأية وسيلة، ونظراً لجهلهم بالدور المهم الذي تلعبه إدارة الطغاة نظرياً وعملياً في الامبريالية فقد رفضوا الاستعانة بأي طاغية محلي لإعطاء عدوانهم أية صبغة شرعية، حتى إنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير فيما سوف يفعلونه من الناحية الدستورية فيما لو أعلنوا ضم طرابلس لإيطاليا مثل إقليم (كامبانا Campagna) . وهكذا يبدو أن الجشـع والطمـع استولى عليهم حتى أنساهم كل شيء سواه، فحتى الشعب الياباني الوثني عند ضم كوريا ضمها بذكاء خارق فبينما كان ممثلهم الدبلوماسي في روسيا يفاوض في الأمر، وأنهاه بمجرد إنذار في حين كان إنذار (جيوليتي) للباب العالي يبدو وكأنه صادر من زعيم بربري تعوزه الخبرة والدراية في هذا المجال.

لقد ترتب على كل ذلك أن حسونة القره مانلي بكل ماله من خبرة طويلة ومعرفة بأحوال البلاد وسكانها قد ابتلى برجال لا يستطيعون التفرقة بين رجل

من العرب وآخر من البربر، ورغم ذلك كله فقد قرروا بدء الحملة المشؤومة. لقد اعتقد الايطاليون أن القره مانلي فعل ما فعل لمصلحته الخاصة، وأنه يود أن يكون (بايا) كباي تونس، وأنه لكي يصل إلى هدفه هذا فقد ارتأى ترويعهم وتهويل الأمر عليهم وهم أحفاد الرومان وذلك بتذكيرهم بقصص عن شجاعة العرب وبسالتهم. إن هذا الصغار والجشع وعدم وجود النظرة الواسعة كان سمة وزارة (جيوليتي) وأن المرء ليمكن أن يعتمد عليهم دائماً في فعل كل شيء خاطيء.

إنه واثق من أنهم لا يملكون من الدراية والحكمة ما يمكنهم من أن يديروا إضراباً لعمال الترام، ناهيك عن تسوية لبقة لصراع خطير يثير أكثر من مسألة حساسة، وربما يجر أوربا بأسرها إلى الحرب. ولا غرابة في أن بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا كانت تنتظر بقلق الخطوة التالية التي سيتخطوها رجال الدولة هؤلاء وهم يتصرفون بعقلية التلاميذ الصغار.

ولكي يجعل الإيطاليون هزيمتهم للقره مانلي أمراً أكثر إثارة للسخط فقد أخذوا يتحدثون بكل أسى عن ما اقترفه من الخطايا في حق الأهالي، بل إنهم أشاروا إلى أن احتلالهم لطرابلس كان بدافع الانتقام منه على ذلك. وفي أعمدة جريدة (نيويورك أمريكان New York American) ذرف (جبرائيل دانزيو D'Annunzio) الدمع السخين فقال وهو يصف منظر التسليم الرسمي لاحدى القلاع بعد نزول قوات الأميرال رتشي، «إن بريقاً عميقاً ومتواصلاً برق في عيني آخر حفدة القره مانلي»، واستطرد فقال: «إن الثأر من الطاغية التركي قد انتهى أخيراً».

نعم لقد كان القره مانلي في أثناء الحكم التركي لطرابلس، أميراً وباشاً يقسم بلحيته نحو مليون عربي، وجاء الايطاليون فنصبوه نائباً لحاكم مدينة طرابلس، وهكذا تم الانتقام من أخطاء القره مانلية.

هكذا سير الغزاة الأمور بالطريقة التي تروق لهم، ولما كان حسونة باشا

معهم في نفس القارب لم يكن أمامه إلا أن يخضع، إلا أنه عند إعلانه الاستسلام للاميرال (بوريا رنشي) باسم جميع العرب كان يبدو عليه الحزن والاكتئاب لعلمه بأنه لا يتحدث باسم أي شخص سوى نفسه، ولدهشة الإميرال التفت إليه قائلاً: «أرجو عدم إزهاق أرواح قومي».

لقد كان يعتقد أن الإيطاليين سيتقدمون بضمانات للسكان العرب باحترام دينهم ونسائهم وممتلكاتهم، وعند مقابلته للمراسلين الصحفيين كرر بحزن عميق نفس العبارة وقال أنه يود على الأقل من الإيطاليين المحافظة على أرواح الأهالي. وعند سؤال الصحفيين له عن ثروات البلاد والمعادن المخبأة تحت الجبال واحتمال قيام مدينة مثل (جوهانسبرج) في بلاده هز الأمير حسونة رأسه بحزن قائلاً: إن بلاده لا تبغي شيئاً سوى السلام وأن السكان العرب لا يريدون شيئاً سوى احترام دينهم ونسائهم وممتلكاتهم، وقد وجه إليه سؤال هذا نصه: «ألا تعتقد أن الايطاليين سيلقون الترحيب الحار والقبول من السكان العرب الذين يقطنون في الأجزاء الداخلية؟» أجاب بحزن «شريطة أن يظهر الايطاليون الاحترام لدين هؤلاء القوم وعائلاتهم». ذكر هذا والحزن باد عليه، وهو غير قادر على التهرب من هذا الوجه من السؤال.

وعندما سئل «ألن تتقدم سعادتكم بقبول الزعامة وتمثيل الشعب العربي والتحدث باسمه إذا دعتك إيطاليا إلى ذلك؟» رد الأمير قائلاً: «إنني أود أن أكون بعيداً عن مجرى الأحداث، أن هدفي الوحيد هو السلم والهدوء لقومي وأن ما يريده الله سيكون، ولكن إذا لم تهدأ المياه فإن الرمال التي تحملها لا يمكن أن تستقر في القاع. إن العرب يريدون فقط الاحترام لدينهم ونسائهم وممتلكاتهم».

---

(١) ولكن يشار إليه فيما بعد بوصفه العمدة، وليس من المؤكد تماماً أي نوع من المراكز الفخرية من الدرجة العاشرة كان يشغله هذا الرجل\سيء الحظ، ولكنه رسمياً كان نائب الحاكم، في البداية على الأقل.

وبعد هذا حدثت المذابح وساءت سمعة الأمير حسونة في الحال، إذ أن سلطاته كنائب لحاكم مدينة طرابلس وهي غير حقيقية لم تلبث أن تقلصت فوراً، فقد أبرق النائب (دي فيليس de Felice) من طرابلس أنه «من أجل تحقيق الهدوء العام فإن السلطات التي منحت لعُمدة المدينة قد اقتصرت على الأمور التي تستلزمها الضرورة القصوى والعادات المحلية فقط»، وبعبارة أخرى فإن الايطاليين بعد أن جعلوا القره مانلي يحكم بشكل صوري لمدة اثني عشر يوماً عادوا فجأة ونصبوا بوقهم ودميتهم عمدة لمدينة طرابلس واعترفوا به زعيماً للسكان العرب بالمدينة والبلاد قاطبة. واستطرد (دي فيليس) فقال: «إن الزعماء في المدينة يواصلون ـ على ما يبدو ـ تأييدهم للاحتلال الايطالي».

لقد صار ذلك العمدة سيء الحظ كبشاً للفداء، لخطايا الضباط الإيطاليين الذين أغرقوا المدينة بالمذابح والفوضى وذهبوا يبحثون عمن يلومونه على أخطائهم لقد لاموه لمطالبته إياهم بأن يعاملوا السكان برفق ولين فقالوا: «لقد منعتنا من نزع سلاح البدو من أهالي الواحة وبسبب تساهلك ثاروا في مؤخرتنا الآن، وقتلوا رجال كتيبتين من أحسن قواتنا». كما قالوا له أيضاً: «لقد اخبرتنا أن العرب كلهم يؤيدوننا وها هي الآن كل تنبؤاتك يثبت بطلانها». ثم قالوا له: «لقد أكدت لنا أننا لن نواجه أية صعوبات في الاحتلال إلا من الترك والآن ظهرت لنا صعوبة الموقف الذي أوقعتنا فيه».

هكذا كان اللوم يوجه لآخر أحفاد القره مانلي من جانب الضباط الفاشلين المضطربين الغاضبين، بل إن إحدى الصحف في إيطاليا ذهبت إلى حد اقتراح تخفيض راتبه الهزيل، إذ أن حسونة السيء الطالع كان يتقاضى بضع ألوف من الليرات في الشهر لتمكينه من الحفاظ على مركزه كأمير وعمدة لطرابلس، على أساس أنه لم يف بالتزامه بأن يضمن هدوء الأهالي، ولربما لأنه رفض أن يلقي بنفسه إلى أدنى الحضيض بأن يوقع على بيان ينفي فيه الفظائع التي ارتكبها الايطاليون والتي نشرتها الصحف الأجنبية. وفي الحقيقة

فهو متهم، بأنه على صلة بالأتراك، وبمعنى آخر فهو جاسوس يتصل بالعدو عن طريق ابن له ضابط خيالة في الجيش التركي وترك مدينة طرابلس ليلحق بنشأت بك.

إن القره مانلي على الرغم من كل تضحياته لم يسلم من الاتهامات والشك، فقد حدث خلال موقعة سيدي المصري أن تحدث إليّ أحد الضباط الذي أثار الكثير من الشكوك في ولاء القره مانلي للايطاليين، بل وزعم أنه ربما كان يفشي أسرار خططهم للأتراك عن طريق ابنه الضابط في الجيش التركي بالصحراء.

ومهما يكن الأمر فإن ذلك الرجل ذا الطالع السيء يأسف الآن على أنه ساعد الايطاليين على المجيء إلى البلاد، لقد صار الرجل الآن وحيداً في دنياه، فلا أحد يرافقه سوى ابنه الصغير وأفراد حريمه، إن كل العرب في طرابلس أصبحوا الآن يكرهونه ويحقدون عليه، بل ويمكنني القول بأن أحدهم ـ طال الزمن أم قصر ـ سيقضي عليه بسكين أو بعيار ناري. ففي خلال المذابح التي جرت بالمدينة كان منظر القره مانلي محزناً، إذ أنه ـ تنفيذاً لأوامر رئيسه في القلعة ـ كان يظهر وهو يتجول في شوارع المدينة وبرفقته قلة من الرجال من أعيان المدينة الذين يبدو عليهم الخزى والعار مثله. لقد كان المفروض في مثل هذه الجولات أن يعمل على تهدئة الأهالي والحفاظ على الأمن غير أنه لم يكن في وسعه أن يتحدث إلى أي فرد من الأهالي، بل إنه لو تجرأ على مخاطبة أبسط حمال في الشارع لاعتبر الحمال أن الإهانة لحقت به ويبصق في وجه هذا الخائن الذي كان السبب في مجيء الطليان.

إن حياة القره مانلي إن لم تنته بعيار ناري على يدي أحد الأهالي العرب فلا بد أن هذا الأمير الزائف سينهي حياته الزائفة كمتهم في إحدى القلاع الإيطالية، فما أمر خبز الرجل الذي خان بلاده، ومرارة خبز القره مانلي ستكون ثلاثة أضعاف لأنه خان ثلاث مرات، إذ أنه لم يخن وطنه فحسب بل

خان دينه،والجنس العربي قاطبة وكأن إرادة الله أرادت أن تبتليه وتنتقم منه لخيانته، فقد فقد ابنه الأكبر في ميتة فجائية، ففي مطلع شهر نوفمبر، بعيداً في وسط جبال غريان ـ راح هذا الجندي الشجاع ضحية مرض الحمى.

الفصل الرابع

حذر كانيفا المفرط

لقد كان الافتراض السائد هو أن المذابح التي حدثت في الواحة كانت نتجة لثورة العرب الموالين للايطاليين، ولكن في الحقيقة لقد كان لا مفر من حدوث هذه المذابح منذ اللحظة التي وطأت فيها أقدام الجنرال (كانيفا) أرض البلاد.

إن تنظيم الجيش الإيطالي جعل حدوث مثل هذه المذابح أمراً حتمياً بالإضافة إلى الاعتقاد الخاطىء الذي جاء به الجنرال (كانيفا) معه من روما بشأن خضوع السكان العرب. إن الجنرال (كانيفا) في تنظيمه لخطوط قواته وفي أي شيء آخر فعله كان مخطئاً أحياناً لفرط حذره، وأحياناً أخرى لقلة حذره.

لقد كان مفرطاً في حذره عندما وضع جنوده جنباً إلى جنب على شكل نصف دائرة حول المدينة بحيث يصل أحد طرفي خط الخنادق إلى البحر غربي طرابلس عند (قرقارش) بينما يصل الطرف الآخر إلى البحر شرقي طرابلس عند (شارع الشط). وبينما كان محتفظاً باحتياطي قوي من القوات في طرابلس كان عليه من ناحية أخرى أن يهاجم ويستأصل الشراذم الصغيرة من الأعراب الذين أقلقوا مضجعه، فكان الأحرى به أيضاً أن يستولي على مواقع بعيدة عن المدينة غير أن خطوط قواته لم تبعد أكثر من ميلين عن القلعة الواقعة على شاطىء البحر، ولم تكن هناك طلائع من القوات للمراقبة في المساء أمام خطوطه الأمر الذي شجع العرب الثائرين على الأقتراب إلى مسافة

أربعين بـاردة من قواتـه، فبينما أخـذت المدفعيـة التركيـة ـ ولعدة أسـابيع ـ تسلّي نفسها بقصف المدينة.

وإذا أخذنا في الاعتبار قوة الجيشين الايطالي والتركي، فإن هذا الصبر وهذه المهانة من جانب القائد الايطالي كانا يتعارضان مع الطبيعة والواقع، ذلك أن الجيش التركي العربي كان لا يتجاوز ألف وخمسمائة رجل وثمانية من المدافع القديمة، بينما يصل تعداد الجيش الإيطالي إلى عشرين ألفاً، وبلغت أسلحته في نهاية اكتوبر سبعة مدافع ميدان وتسعة مدافع بعيدة المدى، وعشرة مدافع أوتوماتيكية وست طائرات مقاتلة.

إن أية مجموعة من القوات المسلحة بالبنادق الحديثة بوسعها أن تصد أية قوات أخرى أكبر من حجمها بثلاثة أضعاف، ولكننا هنا نجد أنفسنا أمام جيش في الخنادق أرغم على التراجع أمام عدو أقل من عشر قواته.

لقد حدث التقهقر في اليوم الثامن والعشرين من اكتوبر ويبدو أنه كان نتيجة للإفراط في الحذر من جانب الجنرال (كانيفا) الذي كان قلقاً حتى لا تتكرر معركة (عدوة) الحبشية، فتحدث كارثة قد تؤدي إلى الإطاحة بالأسـرة الحاكمة في إيطاليا ذاتها، إلا أن الحذر المفرط في الحرب ربما كانت عواقبه وخيمة وقاتلة لأن هذا الحذر المفرط من جانب (كانيفا) جعل العرب في حالة من الغبطة والابتهاج، فقد اعتقدوا أنهم انتزعوا نصراً، بينما كان وضعهم في داخل المدينة في حالة ترقب دائم نظراً لأنهم كانوا يسمعـون باستمرار أصوات طلقات بين أقاربهم في الصحراء، ويشاهدون القذائف التركية وهي تدك منزل الجنرال كانيفا، ويشاهدون طلقات الأعراب تدوي وتقتل الجنود الإيطاليين في السوق أمام القنصلية التركية.

إنني أشعر بالأسف إذ اعترف بأن الجنرال (كانيفا) كان شديد الحـذر على حياته الشخصية ولذا فقد توارى في قلعة شارل الخامس القديمة ولم يعد يشاهد على الاطـلاق بين الجنود، كمـا لم يكن يقوم بـالمرور بـالقوات أو الاختلاط بمعظم الضباط من قواته وخاصة عندما أيقن أن العرب الذين كانوا

موالين أصبحوا في الحقيقة معادين مما جعل الجنرال يظهر نوعاً من الجنون بالاهتمام المفرط بحماية نفسه لدرجة أن العرب الذين تعـودوا على تقديـر الشجاعة الفردية في قوادهم أكثر من أي شيء آخر صاروا يشعرون بالسخط والحقد، بينما لم يكن الجنود والضباط الايطاليون على هذه الدرجة من سمو التفكير.



الحرس الايطاليين
لمقر اقامة الجنرال كانيفا من على اسطح المنازل المجاورة.

وفي البداية كان يبدو خائفاً من النزول إلى الشاطىء بالمرة، وظل ـ كما يقال ـ في ناقلته. وقرب نهاية أكتوبر تجرأ على النزول إلى الشاطىء، ولكن كان هناك همس بأنه اعتاد العودة إلى ناقلته كل مساء، حتى يعرف الأخبار في بدايتها إذا ما اندفع العرب نحو المدينة في ظلام الليل، لقد كان يبدو كما لو كان مراسلاً لصحيفة (نيويورك هيرالد) ويريد أنْ يصل إلى مالطة ببرقيته عند حدوث أي أمر.

وحتى عندما يكون على الشاطىء فإنه يظل مختبئاً طوال النهار، في مكان ما داخل تلك القلعة الرمادية الضخمة الواقعة على حافة البحر. ولكن بمجرد أن بدأ إطلاق النار على المواقع الأمامية اتخذت الإجراءات السريعة لوضع القلعة في حالة دفاع. لقد كسر زجاج النوافذ حتى يسهل على الجنود إطلاق النار من خلالها، وأحاطت القوات بالقلعة، ووضعت غرائر الرمل أمام نوافذ الدور الأرضي المفتوحة وعند بوابات وطرقات القلعة، وخلف غرائز الرمل رقد الجنود منبطحين على الأرض، كما لو كانوا في خط النار. وازدحمت الأسطح المستوية بالجنود، وهم أيضاً منبطحون وأصابعهم على الزناد، وصارت الأفنية تعج بالحراب. وأصبحت الأسطح المستوية للمنازل المجاورة رمادية من جراء ازدحامها بالجنود، وأخذ اليخت البخاري ينفث بخاره حتى إذا حدث سوء يستطيع القائد العام أن يفر من الخطر.

هذه الاستعدادات التي بذلت من أجل وقفة أخيرة عند الباب الأمامي لمنزل الحاكم (بينما هرب سعادته من الباب الخلفي) تركت انطباعاً سيئاً للغاية بين العرب والجنود الايطاليين على السواء.

وكان السبب الوحيد الذي استطاع العرب أن يعللوا به كل هذه الاستعدادات هو أن الجنرال (كانيفا) متأكد من أن عرب الصحراء قد يصبحون داخل المدينة خلال لحظات قليلة ورغبته في أن يتاح له الوقت للابحار في يخته قبل أن يندفعوا في القلعة. أن مثل هذه الاحتياطات من جانب قائد عام

نادراً ما تحدث في حرب منذ تلك الأيام عندما كان أباطرة الدولة البيزنطية (الذين كانوا أيضاً يدعون بأنهم ورثة روما القديمة) يرسلون خصيانهم لقيادة الجيوش.

وربما يكون تفسير الجنرال (كانيفا) أنه إذا ظهر في الشارع مكشوفاً فإنه من المؤكد أن يلقى حتفه على يد أحد المتعصبين من المسلمين، وأنه يوجد لدى عرب المدينة من الأسلحة النارية ما يكفيهم للاندفاع داخل القلعة إذا لم تكن تحت حراسة شديدة.

ولكن اللوم يقع عليه هو نفسه لعدم قيامه بواجبه الأول بمجرد نزوله ومصادرة كل بندقية وكل خرطوشة في المدينة، لقد كان يجب تفتيش البيوت بيتاً بيتاً ومصادرة كل ما له شكل ناري. ولو حدث هذا لاستغنى الجنرال كانيفا عن هذه الاستعدادات المبالغ فيها للدفاع عن مقره الخاص، مما جعله موضع سخرية الأهالي كافة وهي سخرية قد ثبطت من عزائم جنوده.

إن هذه القوات لم تمر بها فترة مرح منذ يوم نزولها إلى البر، ومن أجل رفع روحهم المعنوية اعتادت جوقة عسكرية أن تقوم بالعزف كل مساء عند بئر (بومليانة)، ولكن لسوء الحظ قذف الترك في يوم من الأيام قنبلة (قذيفة) في الطبلة الكبيرة ومنذئذ لم تعد الجوقة تعزف عند بومليانة للترفيه عن الجنود. لقد أخذت تعزف عند القلعة للتسرية عن الجنرال (كانيفا)، وإنني مدين للهرفون جوتبرج بهذه القصة ذات الدلالة.

ومما زاد الأمر سوءاً أن جميع الضباط الكبار قلدوا القائد العام في التخفي، فقام قائد الفرقة بتحصين نفسه داخل منزل يقع قبالة منزل القائد العام تقريباً ولم يذهب مطلقاً إلى الجبهة إلا كضيف زائر في حالات نادرة.

وخلال المذابح التي وقعت في آخر أكتوبر لم يشاهد ضابط برتبة نقيب فما فوق مع القوات، ومع ذلك فإنه لا يظهر ضابط كبير في وقت ما إلا إذا كان ذلك ضرورياً من أجل إبقاء صغار الضباط والرجال تحت السيطرة

المناسبة.

إنني أعرف أنني أبديت هذه الملاحظة عدة مرات من قبل، ولكن من المحتمل إبداءها مرة أخرى.

الفصل الخامس

خطأ كانيفا حول استسلام العرب

لقد حاولت أن أبين كيف أن الجنرال (كانيفا) أخطأ بزيادة حرصه، والآن من المفروض بوجه عام أنه قائد على قدر كبير من الحكمة والاتزان والمعرفة، ولكن في الحقيقة، فإن إهماله وجهله الذي يشبه جهل الأطفال في بعض الاتجاهات كان أمراً يدعو إلى الدهشة، فقد أظهر في بعض النواحي سذاجة مؤثرة.

وكانت أول أخطائه تتمثل في الاعتقاد بأن العرب قد استسلموا وسوف أتناول هذا الخطأ بشيء من الإفاضة حيث كان له تأثير على المذابح، لأنه من الطبيعي ألا تكون هناك اتهامات بالخيانة إذا لم يكن الايطاليون مقتنعين بأن العرب قد أقسموا يمين الولاء لهم.

ومن أجل التوصل إلى جذور هذا التفاؤل الخاطىء يجب أن نعود إلى الوراء لفترة طويلة، فإنه قبل نشوب الحرب بأربعة أشهر، وفي الوقت الذي أعلن فيه وزير الخارجية الإيطالية صراحة بأنه لا توجد مشكلات بين الحكومة الايطالية والباب العالي أطلق وزير الخارجية قطيعاً من الجواسيس والوطنيين المتطرفين على طرابلس، وقد اتخذ هؤلاء الرجال كل الأشكال والهيئات التي يمكن تصورها فبعضهم كانوا من موظفي البريد والبعض الآخر من مراسلي صحف، .ولكنهم جميعاً كانوا من أعنف أنصار النعرة الوطنية الجديدة في إيطاليا. وهكذا فإنه قبل قطع العلاقات بفترة طويلة تحول السنيور (انريكو

كورّاديني Enrico Corradini) ـ أحد مؤسسي المدرسة الوطنية ـ في كل أنحاء ولاية طرابلس، وبعد ذلك أوضح في كتاب له بعنوان «أزفت ساعة طرابلس L'Ora di Tripoli» كيف أن هذه الولاية التركية ستعود بالفائدة على إيطاليا، وكيف يمكن أن توفر عملاً للمهاجرين الإيطاليين، وكيف يمكن أن تصبح غنية مثل تونس، بل وكيف يمكن أن تصبح صحاريها مزدهرة كالوردة. كمازار ولاية طرابلس أيضاً السنيور (جيوزيب بيفيوني G. Bevione) وهو وطني عنيف آخر، وذلك في ربيع عام ١٩١١، وأنا لا أقول أن هذين السيدين كانا بالفعل في خدمة وزارة الخارجية الايطالية، ولكن لا بد أن تقاريرهما قرئت في روما، كما أنه لا بد أن تكون هناك دلالة معينة لوجودهما ولوجود غيرهما من خبراء الدعاية في ولاية طرابلس قبل بضعة أشهر من أكتشاف السنيور (جوليتي) أنه لا يواجه هناك أية مشكلات على الأطلاق.

ولكن أبرز وكلاء وعملاء الحكومة الإيطالية في طرابلس قبل الحرب هم نائب القنصل (جاللي Galli) ، والكابتن (فيري Verri) وكان الأول رجلاً فلورنسا ضئيل الجسم ذا هيئة نابوليونية، والآخر رجلاً عسكرياً طويل القامة نحيفاً.

ومن الأمور ذات الدلالة على الاتجاه الذي أخذته أماني إيطاليا وتطلعاتها أن كلا الرجلين سبق استخدامه في «إيطاليا السليبة Irredenta Italia» ومن المعروف جيداً أن الوطنيين الايطاليين يدعون بأنها جزء من إيطاليا.

وآمل أن تقارير السنيور (جاللي) من «إيطاليا التي لم تضم»[1] كانت أكثر

---

(١) ان قوات النمسا والمجر التيرولية الممتازة يمكنها أن تصل إلى البندقية في يومين قبل نشوب حرب إيطالية نمساوية. وفي خلال جولة قمت بها قبل سنوات قليلة في الألب تأثرت كثيراً بكفاءة جنود النمسا والمجر في جنوب شرقي التيرول. ولكن على الجانب الآخر من الحدود فإن الحاميات الايطالية تعيش على أوهام بسالتهم التي كلفتهم غالياً في طرابلس.

مطابقة للحقائق من تقاريره عن ولاية طرابلس، لأنه في التقارير الأخيرة يبدو أنه أعطى روما فكرة بأن العرب كانوا جميعاً ضد الترك وأنهم قد يرحبون بالإيطاليين ترحيباً حاراً (بأذرع مفتوحة).

وبطبيعة الحال لقد تكرر حدوث مثل هذه الأخطاء دائماً، من جانب العملاء الذين يوفدون بهذه الطريقة حتى من العملاء الإنجليز. فإن هؤلاء العملاء يتوقون لتخليد أسمائهم لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يقولوا لحكومتهم: «من الأفضل الانتظار» وهم يرون في الظروف ارتباطاً مناسباً بشكل غير عادي بدرجة قد لا تتكرر مرة أخرى أبداً، وينحرف حكمهم وتقديرهم نتيجة تفاؤلهم وحماسهم ورغبتهم القوية في أن تتصرف حكومتهم فوراً فيتغاضون عن الصعاب، ويبالغون في التسهيلات ويقنعون أنفسهم بأن الأهالي (المطحونين المسحوقين) سوف يرحبون بالغزاة. وهم يفعلون ذلك عن طيب خاطر عندما يعرفون أن هذا هو النوع الوحيد من التقارير الذي تريده حكومتهم، وأن أي نوع آخر من التقارير سوف يؤدي إلى استدعائهم والحاق العار بهم.

وهذا الخطر كان متزايداً في حالة القنصل (جاللي) طالما أنه رجل ذو شخصية عنيدة مستبد في رأيه مغال في الثقة بنفسه ووطني متعصب. ولاعطاء القارىء فكرة عن شخصيته يلزمني فقط أن أذكر حقيقة واحدة مؤداها أنه بعد نزول القوات إلى البر، وبعد أن أصبح هو على رأس الحكومة المدنية توقف فجأة عن فهم أية لغة سوى الإيطالية، بينما كان قبل يوم واحد فقط يتنازل ويتعطف بالحديث مع المراسلين الصحفيين بالفرنسية أو حتى بنوع من الانجليزية ولكنه - شأنه شأن بسمارك - رغم أنه يتكلم عدة لغات فقد أصر بعد (سيدان) على التحدث باللغة الالمانية في المناسبات الرسمية، وهكذا فعل (جاللي) الذي أصر على التحدث بالايطالية فقط بمناسبة الانتصار العظيم الذي أحرزه الاميرال (فارافيلي) على بضعة قلاع تركية عتيقة في الثالث والعشرين من أكتوبر.

ولكنني أستبق الحوادث، فقبل الحرب كان (جاللي) قد نجح في أن يجمع حوله عدداً من العرب الذين قالوا إنهم رؤساء أو كانوا رؤساء، وربما كان واحد أو اثنان منهم صادقين، ولكن المزيد من الخبرة الواسعة بشمال أفريقية كان من الممكن أن تعلم القنصل أنه على الرغم من سهولة إقناع عربي ببيع بلده، فإن جعله يقدم دليل الاستسلام أمر مختلف تمام الاختلاف.

ولكن معظم هؤلاء الخونة قد أمكن ترويضهم جيداً بحيث صار في استطاعة (جاللي) أن يعرضهم مثل جوقة في صالة موسيقى وذلك عند كل مناسبة تحدث في طرابلس بعد نزول الإيطاليين الى البر.

إن دمى السنيور (جاللي) العربية تظهر في أرديتها البيضاء الطويلة وكانت تمثل لعبة التزلف عندما دخل القائد (كاني Cagni) المدينة، وانتفخت أوداج السنيور (جاللي) عندما تولي الجنرال (كانيفا) القيادة، فإن ظهورهم كان يضيف لمسة شرقية لطيفة إلى الاجتماعات الايطالية، وكانوا يظهرون دائماً بسرعة حتى ليبدو أن القنصل يحتفظ بهم في مكان ما خلف قنصليته تحت الطلب، بحيث يستطيع استدعاءهم في أية لحظة بمجرد الضغط على زر كهربائي. وحتى عندما كان مواطنوهم الأبرياء يذبحون بالآلاف في الواحة قبيل نهاية أكتوبر فقد تحرك هؤلاء الشيوخ المخلصون بناء على أمر (جاللي) ووقعوا احتجاجاً على قصص هذه المذابح التي نشرتها الصحف الأجنبية، فهل يمكن أن يذهب التملق الذليل إلى أكثر من ذلك؟

وكان في مقدمة هؤلاء الأمير (حسونة باشا) آخر ممثلي أسرة القره مانلي العظيمة التي انتزعت ولاية طرابلس يوماً ما من الترك وحكمتها كدولة مستقلة حتى أربعين سنة مضت عندما استعادها الترك[1]. وحسونة باشا ـ الذي تحدثت

---

(١) انتهى حكم الاسرة القرمانلية سنة ١٨٣٥ م ومنذ ذلك التاريخ وحتى الغزو الايطالي ١٩١١ كانت ليبيا تحت الحكم التركي المعروف بالعهد العثماني الثاني.. المترجم.

عنه من قبل في الفصل الثالث من الباب الرابع ـ رجل طويل القامة، ذو لحية سوداء، وجيه المنظر وملامحه منتظمة ومظهره مؤثر، وهو حسن الثياب على الطراز الأوربي، ويرتدي معطفاً من الفراك ولكنه يضع على رأسه طربوشاً وليس قبعة. ولفترة طويلة مضت وهو يتوق للغاية من أجل بيع بلاده، وقد ذكرت من قبل أنه في سنة ١٨٩٠ كان على اتصال مع (كرسبي) من أجل تسهيل استحواذ الايطاليين على طرابلس، ومن المحتمل أنه كان منذ ذلك الوقت يقبض راتباً من روما.

وقد كان القره مانلي لفترة طويلة قبل الحرب على اتصال وثيق مع (غاللي)[1] ولما كان أبعد ما يكون عن الحق في التحدث باسم جميع عرب طرابلس ـ مثلما فعل ـ فإنه لم يستطع أن يكون الناطق باسم أفراد أسرته هو أو حتى على الأقل فيما يختص بنقل ولائهم من الخليفة إلى ملك إيطاليا.

لقد كان له ابن وحيد كان في أكتوبر الماضي على رأس الخيالة التركية المرابطة في الصحراء وقبل مغادرتي طرابلس بأيام قلائل أرسل الأب رسالة إلى أبنه يطلب منه العودة ليقسم يمين الولاء للغزاة، ويحصل على الثروة والشرف على أيديهم، وكان رد الأبن جديراً بروماني قديم فقد قال: «نعم، انني سأعود سريعاً، ولكنني سأكون على رأس فرساني الترك، وعندما أحضر فستكون أول رجل أقوم بشنقه».

وهكذا كان ذلك الرجل أحد كبار العرب المعاونين للقنصل (غاللي)، وحتى بعد الثورة العربية في (شارع الشط) استمر القنصل في تفاؤله الشديد، ولقد استدعى إلى روما ليقدم صورة للحالة، وظهرت في كل الصحف الايطالية في ذلك الوقت تحت عنوان «تفاؤل القنصل جاللي» ما يشير إلى ثقته

---

(١) غاللي كان يشغل منصب قنصل ايطاليا بطرابلس ولعب دوراً رئيساً في سياسة التغلغل الايطالي السلمي التي سبقت اجراءات الغزو الايطالي. المترجم.

في العرب، «إن الأخبار التي عاد بها القنصل جاللي مطمئنة للغاية وبخاصة فيما يتصل بولاء الشعب العربي في مدينة طرابلس».

من هذا نرى أن القنصل الذي كان يوماً ما على استعداد للقسم بأن كل عرب طرابلس سوف يرحبون بالغزاة الايطاليين كإخوة طال الشوق لهم، صار الآن يقتصر على ضمان عرب مدينة طرابلس فقط. لقد أصبح الآن في الجانب الآمن لأنه لا يوجد كثير من العرب الحقيقيين في مدينة طرابلس حيث يتكون الاهالي في معظمهم من اليهود والمالطيين واليونان وأهالي شرق البحر المتوسط، والسوريين وغيرهم من الأجناس المختلطة والطفيلية التي نجدها متعلقة في كل مكان على حافة الامبراطورية العثمانية، إلى جانب مجموعة كبيرة ممن لا هوية لهم وليست لهم قومية محددة.

وعندما طلب من القنصل (غاللي) أن يروي قصة الثورة في الواحة شرح لمراسل صحيفة (لوريير دي لاسيرا) في روما بابتهاج أنها كانت «نتيجة مؤامرات وتهديدات من جانب الترك الذين جعلوا العرب يصدقون أن جيشاً عثمانياً قوياً كان على وشك استعادة طرابلس».

ثم نقل القنصل الحديث الى درنة حيث أعلن أن «الجنود يعيشون في وئام مع العرب في تفاهم ودي ضد الترك».

وعلى ضوء القتال العنيف المستمر بلا انقطاع تقريباً والذي يجري في درنة فإننا نستطيع أن نفهم لماذا استدعى القنصل جاللي من طرابلس بطريقة معينة. أن نبياً سياسياً من هذا النوع لخطر بالغ بالنسبة لأي دولة.

ولكن القنصل (غاللي) لم يكن هو وحده النبي المزيف، فإن الكابتن (فيري Verri) وهو جاسوس عسكري جاء إلى طرابلس متخفياً قبل القصف ـ تنبأ هو الآخر بأن الأمور ستكون سهلة هينة ويقال إنه انتابه القلق للطريقة القاسية التي كذبت بها الأحداث توقعاته لدرجة أنه أقدم على الانتحار في ٢٦ أكتوبر في الصحراء خارج الخنادق الإيطالية مباشرة، حقاً يقول أصدقاؤه أن

رصاصة تركية قتلته، ولقد سبق لي أن وصفت الحادث.

وهكذا نرى أن عملاء إيطاليا في طرابلس كانوا يجمعون على الإعلان بأن الحملة ستكون (نزهة عسكرية)، بل لقد ذهب نائب اشتراكي إلى حد القول بأنها لن تكلف فلساً واحداً أو حياة جندي واحد.

وإنني لأعبر عن أسفي إذ أضيف أن الصحافة كانت إلى حد كبير مسؤولة عن هذا الانطباع الخاطىء حتى إنه ليمكنني القول بأن الحملة الصحفية الطويلة العنيدة المتشبثة من أجل الاستيلاء على طرابلس، تلك الحملة التي شنتها الصحف الإيطالية اليومية كان لها أثر كبير على إغراء هذا الشعب الجبان غير العسكري على دخول الحرب. إن التعصب الوطني المتطرف لدى الصحف اليومية في كل البلاد إنما هو خطر عظيم يجب أن تضعه الأمم في حسابها جدياً، وتتجلى ضخامة هذا الخطر في إيطاليا بالذات نظراً لأن كبار الصحافيين في هذا البلد أدباء وعاطفيون وغير مسؤولين وليسوا على اتصال بالحقائق. لقد كان اسم روما الامبراطورية ماثلاً بشكل دائم أمام عيون هؤلاء الكتاب وتحت هذه الظروف كان هذا أسوأ ما في استطاعتهم، لقد كان من الواجب على إيطاليا أن تحذو حذو بعض الدول العملية التقدمية المسالمة (السلمية) مثل الدنمرك، ولا تحذو حذو روما القديمة الفاسدة الشريرة. يجب أن تتخلى عن خيالها بشأن إقامة أمبراطوريات استعمارية وتتجه من أجل عمل الزبد، إن المستقبل لأمم الفلاحين وأصحاب الحوانيت.

وحتى بالنسبة لمسألة موقف العرب ومسألة الخطط الاستراتيجية التي يجب اتباعها فإنه يبدو أن الايطاليين قد تأثروا إلى درجة كبيرة بالصحافة، فقد تأكد لديهم أن العرب ساخطون على الحكم التركي، وأنهم سوف يرحبون بالايطاليين بينهم، فقد اكتشف صحفيون مقتدرون نوعاً من عدم المبالاة وعدم التأثر على وجوه العرب حيثما ذكر اسم تركيا، وبترجمة ذلك بسرعة إلى كلمات أكد هؤلاء الصحفيون أن ولاية طرابلس ساخطة أقصى السخط على العسف العثماني، بل إنهم أعلنوا أن السنوسي سوف يرحب بأذرع مفتوحة

بجنود إيطاليا.

أما الحكومة الإيطالية ـ وقد ضللتها هذه البيانات التي كانت تبدو مؤيدة للتقارير السرية التي يبعث بها عملاؤها السريون الموثوق بهم جداً ـ فقد صارت تؤمن بوجهة نظر (النزهة العسكرية Passeggiata Militare) التي كانت معقولة على الأساس التالي: لقد كان لتركيا في طرابلس أربعة أفواج من المشاة النظاميين وكان من الممكن تعزيزهم بعدد معين من الاحتياطي (الرديف) وعدد من سرايا الخيالة وقلة من بطاريات المدفعية، ولم يكن من الممكن أن يزيد ذلك في جملته عن خمسة عشر ألف رجل في الميدان ضدنا. أما نحن فإننا نستطيع أن نرسل دوراً ضدهم فرقاً عسكرية يصل عددها إلى أربعين ألف رجل ستكون كافية لاحلال هزيمة بجيش لا يستطيع تلقي تعزيزات نظراً لمحاصرتنا للساحل.

أما أخطر المسائل جميعاً ـ ألا وهي صداقة العرب أو حيدتهم ـ فقد تركت ولم يعمل لها حساب سواء من جانب الصحافيين أو من جانب الحكومة وقواد الجيش.

ولذلك فإن ثورة العرب التي لم تكن متوقعة ضد الغزاة كانت بمثابة جبل جليدي حطم سفينة الايطاليين، ولكنني يجب أن أقرر أن إيطاليا في خيالاتها بشأن موضوع العرب كان يشجعها التاريخ إلى حد ما ـ كتب التاريخ القديم التي يبدو أن الأدباء الوطنيين المتعصبين قد قرأوها.

لقد كان العرب مترددين بين كراهيتين متوارثتين: كراهيتهم للترك وكراهيتهم للكفار. لقد كانوا في أحيان كثيرة يحاربون الترك بنفس الدرجة من التعصب التي يحاربون بها الأوربيين وبفضل هذه العسكرية العربية، استطاع محمد علي في النصف الأول من القرن الماضي أن يهزم جيوش سلطان إسلامبول ويعرض تركيا لخطر جسيم. ولقد كان العرب في اليمن يحاربون منذ فترة طويلة جنود السلطان، ولكن لم يكن من الممكن كسب الشيوخ

العرب المعروفين بالإباء بواسطة رجال من طراز (جاللي).

وإلى جانب ذلك فإن الإيطاليين لم يكونوا يحظون كثيراً باحترام العرب. لقد كان هناك في طرابلس كثيرون من العمال زهيدي الأجور من الإيطاليين، وربما تبدو هذه بالمصادفة استهزاء رخيصاً من جانبي، ولكنها حقيقة عميقة لها أثرها البالغ الأهمية على الصراع الحالي. إن وجود عمال من صقلية يعملون في ولاية طرابلس مقابل أجور مساوية لأجور العرب جعلت هذه الحقيقة العرب يعتبرون كل الايطاليين عمالاً غير مهرة، كشعب لا يمكن النظر إليه كشعب أوربي على الإطلاق، بل يختلفون اختلافاً عن الشعوب الأخرى القاطنة في شمال البحر المتوسط، وهذه القصة ذاتها موجودة على طول سواحل أفريقيا الشمالية والشرقية حيث يعتبر الأهالي أن الايطاليين ليسوا متحضرين بدرجة كافية، وهذه بطبيعة الحال وصمة لشعب عظيم، ولكنه سيكون خطأ من جانب الصحفي أو المؤرخ أن يدع هذا الشعور الخاطىء يمنعه من ذكر هذه الحقيقة.

ويقول مراسل التايمز (١١ أبريل) أنه «كان هناك دافع آخر قوي للغاية من شأنه أن يدعو العرب للنظر إلى الاحتلال الإيطالي نظرة السخط وعدم الرضا، ألا وهو الاعتقاد السائد بأن إيطاليا دولة فقيرة. فإن الإيطالي سواء هنا أو في تونس سيعمل بأجر زهيد، شأنه شأن العربي، والعربي لا يغفل عما يهمه هو شخصياً، وهو يعتقد أن شعباً في مثل فقره يأتي للسيطرة عليه يحمي ممتلكاته الصغيرة، وسوف يخلق منافسة قاتلة له في كل مجالات العمل التي يحصل منها في الوقت الحاضر على ما يقيم أوده، وهزأ من المنشورات التي أسقطها الايطاليون من طائراتهم وتقول بأن إيطاليا كانت أعظم وأقوى وأغنى دولة في أوربا. ومن بين المعتقدات الأخرى التي يؤمن بها العرب أن الايطاليين متأخرون جداً عن بقية أوربا وأن كثيرين منهم في حاجة إلى الحضارة والتعلم شأنهم شأن أهالي طرابلس.

وسواء أثار الترك بمكر ودهاء الرأي العام في طرابلس أو أنه تأثر من التصور المسبق والظروف، فإن هذا أمر لا يستحق مناقشة، إلا أنه لم يكن من الممكن لأكثر الادارات تنظيماً في العالم أن تخدم المصالح التركية أفضل من ذلك، فقد جمعت الرجال جميعاً ليقفوا وقفة رجل واحد ضد الغزاة، وضاعفت صعوبات إيطاليا إلى أربعة أمثالها».

لا شك في أن مسألة العمالة الإيطالية الرخيصة جعلت مركز إيطاليا في ولاية طرابلس حرجاً، فحيثما يحكم الأوربيون الأسيويين فإنه من خلال الهيبة أكثر مما هو بسبب القوة، وتضيع هذه الهيبة بمجرد ما إذا شوهد الرجل الأبيض يكنس الشوارع جنباً إلى جنب مع الوطني. فأسبانيا وهي بلد فقير، تصادفها صعوبات بشكل دائم في كوبا والفلبين حيث لا توجد مشاكل أمام أمريكا الأكثر غنى ولكن بجيش أصغر.

وتوجد اضطرابات وقلاقل مستديمة في مستعمرات البرتغال. ولكن انجلترا وفرنسا لا تصادفان من الناحية العملية صعوبات مع الشعوب الأفريقية والاسيوية التي يحكمانها لأن هاتين الدولتين تتمتعان بالغنى والثروة، ولأن مهاجريهما من البيض لا ينافسون العمال اليدويين في البلاد المفتوحة. فإن وقوع الهند والصين الهندية على مسافة بعيدة من الدول التي تسيطر عليهما ميزة لهذه الدول الكبرى تحيط الغريب الأبيض القادم من وراء البحار بالغموض. وحتى في تونس والجزائر فإن الفرنسيين يمثلون طبقة مختلفة عن العمالة العربية والإيطالية الرخيصة التي تقوم بالأعمال الشاقة. وحتى الترك لم ينافسوا أهالي طرابلس بدرجة كبيرة في الأعمال اليدوية وغير المنتظمة، والأتراك الوحيدون في طرابلس كانوا من الموظفين أو الجنود.

أما بالنسبة لايطاليا فان الأمر سيكون جد مختلف، وكان أحد القواد العسكريين الترك على صواب عندما قال أن «هذه الحرب مسألة إفناء وإبادة، إبادة العرب أو إبادة الايطاليين، فليس هناك متسع في ولاية طرابلس لكليهما معاً».

وهكذا فإن قرب إيطاليا الشديد من طرابلس وهو الأمر الذي أسست عليه إنذارها السخيف إنما هو عائق، ذلك أنه إذا غمرت المستعمرة بالأيدي العاملة الإيطالية الرخيصة فإن هيبة روما ستذهب في الحال مضغة للكلاب، وإذا لم تكن هناك هجرة إيطاليا إلى طرابلس فإن المستعمرة ستصبح مجرد فيل أبيض لأنه من المؤكد أن رؤوس الأموال الإنجليزية والفرنسية لم تستثمر في مثل هذا المشروع المتداعي.

وهنا يمكنني أن أحيل القارىء إلى «الاصلاح الاجتماعي» الذي حاول فيه (لويجي أينودي L.Einaudi) الاقتصادي الوطني المتطرف في صحيفة (كوريري ديلا سيرا) أن يعترف بأن رأس المال الأجنبي ضروري لتطوير ولاية طرابلس. ولكني أخشى أن تنتظر إيطاليا طويلاً قبل أن يجرؤ رأسمالي أجنبي على قضم مثل هذا الطعم غير المغري كالصحراء الليبية وبخاصة عندما يرى أن السنيور (أينودي) في نفس المقال يقول إنه «من الضروري من أجل كسب الجانب الأكبر من الأهالي الذي يفكر قليلاً ويعقل أقل، أن نوزع جرعة متواضعة من الأوهام الكاذبة المخادعة عن ثروة المستعمرة الجديدة».

ولقد أوضحت من قبل أن إيطاليا كانت محظوظة من وجوه عدة في اختيارها وقت الإغارة التي قامت بها، إذ لم تكن الحامية التركية في يوم ما أضعف منها في ذلك الوقت، وكان قائد القوات غائباً بينما كان انتباه أوربا كلها مستغرقاً في المسألة المراكشية. ولكن شيئاً واحداً فقط لم يكن في مصلحة إيطاليا، وهو أن كراهية الطرابلسيين للترك قد صارت قصة قديمة، فقد كان السلام التام يسود في الولاية عندما جاء إليها الإيطاليون، وأدارها الترك بنحو عشرة آلاف جندي، بينما لن يستطيع الايطاليون السيطرة عليها بمائتي ألف جندي.

وقبل الحرب بشهور قليلة اقترح محمود شوكت باشا وزير الحربية تسليح عرب طرابلس، وكان هذا الاجراء معادلاً في الحقيقة للحكم الذاتي

ولكنه لم يتخذ الشكل العملي بسبب إعلان الايطاليين الحرب ، وكان هذا واحداً على الأقل من الأسباب الكثيرة.

لقد كان عرب ولاية طرابلس سعداء (بالنير) التركي، وهم يحاربون الآن باستماتة من أجل إبقائه حول أعناقهم، ولذلك فإن الجنرال (كانيفا) كان مخطئاً في الاعتقاد بأنهم كانوا في جانبه، وأخذت كل الصحف الإيطالية تنوح بعد الثالث والعشرين من أكتوبر مرددة «أن خيانة العرب كانت بالتأكيد مفاجأة مذهلة». لم تكن هناك خيانة، ولم يكن من الواجب أن تكون مقاومة الأهالي مفاجأة، واعتقاد الجنرال (كانيفا) بأن الطرابلسيين سيسيرون معه ضد «العدو المشترك» ـ الترك ـ كان واحداً من أكثر الأفكار التي تراود قائداً عسكرياً مجنوناً. لأن عرب طرابلس كمسلمين كانوا أشد الناس صرامة وكان نزاعهم الوحيد مع الترك يرجع إلى أن هؤلاء الترك كانوا متراخين في عقيدتهم ومصادقين للكفار، وكانت فكرة قيام عرب طرابلس تحت أية ظروف بالتحالف مع النصارى ضد أبناء دينهم فكرة لا تخطر على بالهم، لقد كان الشيء الطبيعي أن يقاوم العرب الغزاة، وإذا كان القنصل (جاللي) قد توقع شيئاً آخر فإنه لا لوم على العرب إذا كانت هذه التوقعات خاطئة.

ولذلك فإننا إذا وضعنا في اعتبارنا الاعتقادات الخاطئة التي كان الجنرال (كانيفا) يعمل تحت تأثيرها عندما جاء إلى طرابلس، فإنه من السهل فهم ما حدث بعد ذلك: أولها هناك البيانات والتصريحات الأبوية، ثم تلك الحرية التي سمح بها لعرب الصحراء للتوغل في الخطوط الإيطالية، ثم ذلك التغير والتحول المفاجيء من جانب القائد الايطالي من الرقة البلهاء إلى القسوة الضارية.

إن التصريحات والبيانات يمكن أن تؤلف كتاباً صغيراً مسلياً للغاية ويبدو أن القائد الايطالي قد اكتشف مجلداً نادراً في مكان ما وأتوقع ـ والشيء بالشيء يذكر ـ أن أرى ناشرا مغامرا يعيد نشره قبل أن يهدأ الجنون الحالي

للأدب النابوليوني . وأحيل القارىء إلى تلك السلسلة من البيانات التي وجهها الجنرال «(بونابوت) إلى المسلمين في وادي النيل بمناسبة حملته على مصر، ففي هذه البيانات قال نابوليون أنه جاء لتحرير المصريين من نير البكوات الشراكسة، واقتبس آيات من القرآن لكي يظهر أن المسلمين تجب عليهم طاعته، وكان كثيراً ما يلجأ إلى الله الرحمن الرحيم وكان يكتب دائماً بأسلوب بالغ التقوى والتدين يمكن أن يكتب به حاكم مسلم تقي ورع .

لقد فعل الجنرال (كانيفا) نفس الشيء، فكان يبدأ بياناته بالعبارة الاسلامية المعتادة.

وقال انه جاء لينقذ الأهالي من «عبودية الترك» «ولكي يعاقب المغتصبين، وأن ملك إيطاليا (أطال الله عمره)» أمرني بحمايتكم من هؤلاء المغتصبين الاجانب ـ الترك ـ وضد أي سواهم ممن قد يحاول استعبادكم» ووصف الترك بأنهم «العدو المشترك».

ولم يذكر أبداً اسم ملك ايطاليا الا وأضاف اليه بعض العبارات مثل «العادل العظيم» «ليحفظه الله» «فليشمله الله برعايته».

ودعا العرب في طرابلس لكي يصلوا في المساجد من أجل عظمة الشعب الإيطالي وعظمة ملك إيطاليا «الذي وضعكم يا شعب هذه البلاد تحت وصايته وحمياته والذي ينوي أن يجعل اسمه يرهب أعداءكم ولكنه سيكون محبوباً لديكم مباركاً منكم».

ووعد بأن يحكم بالكتاب والشريعة (السنة)، ومثلما فعل نابوليون اقتبس من القرآن لكي يقنع العرب بطاعته، وقال: «تذكروا أن الله قال في كتابه ان تحسنوا الى من يحاربون ملتكم ولم يطردوكم من بلادكم. يجب أن تحموهم لأن الله يحب الخيرين والمتطهرين».

تذكروا أيضاً ما جاء في القرآن: «وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل

على الله»[1] بل انه حاول أن يحلق تحليقاً شعرياً عندما وصل ألوان العلم الايطالي الثلاثة الأبيض والأحمر والأخضر بأنها رمز الايمان والحب والأمل.

وبالنسبة للمسلمين فان نشر هذا الهراء لم يؤد الا الى ازدياد الحالة سوءاً، إذ أضافت الافتراء على الله الى الاهانة، لقد كانت حالة محاكاة من جانب كافر أخرق الكتابات السماوية بشكل يدعو الى السخرية.

وعند هذا الحد ينتهي الشبه بين الجنرال كانيفا والجنرال بونابرت، فقد اتبع نابوليون القول بالعمل، فتقدم بشجاعة في الداخل، محققاً النصر، بينما كانيفا تحصّن في أقرب مكان من الساحل، والآن، وبعد مضي أكثر من نصف عام، فإنه لا يزال يقف في حماية مدفعية سفنه الحربية.

وبعد معركة الأهرام اعتقد كثير من العرب أن نابوليون يحظى بمعونة الرسول حقاً، لأن الجنس العربي المحارب يعجب بشجاعة الآخرين ويتأثر بها، ولكن بعد شارع الشط وسيدي المصري فلم يكن هناك إلا قلة حتى بين قواته يضعون ثقتهم في الجنرال (كارلو كانيفا) ولكن كان هناك شخص فعل ذلك، وكان هذا هو الجنرال كانيفا نفسه، فحتى ٢٣ اكتوبر كان يصدق بياناته، ويصدق أن العرب ينظرون إليه كأب، وهذا أدى أولاً إلى فشله في تجريدهم من السلاح، وثانياً إلى تراخيه في جعلهم يدخلون خطوطه وقتما يريدون، فصار في استطاعة أي ضابط تركي يضع على رأسه عمامة ويرتدي ثوباً عربياً أن يتجول من الصحراء ويختبر الدفاعات الايطالية، هذا في الوقت الذي كان فيه الصحافيون في طرابلس يتعرضون لمراقبة مضاعفة إحداها في

---

(١) وكان في استطاعة الشيخ السنوسي أن يقتبس من القرآن أيضاً، ففي خطاب أخير وجهه الى أنور بك ذكر آية صغيرة ولكن كان لكل كلمة فيها وزنها جاء فيها أن الله سوف يدمر القتلة ولم يقتصر على القرآن بل كان له حس موسيقي وأورد عدداً كبيراً من أجهزة البيانو الثقيلة بشكل غير عادي، ولكنني لا أعتقد أن الايطاليين سيميلون الى تلك النغمة التي تعزفها أجهزة البيانو هذه.

طرابلس والأخرى في روما، وكانوا متأكدين من أنهم لو أفلتوا من واحدة فلا بد وأن تلحق بهم الأخرى.

وقد قطعت الراقبة الايطالية الرسائل الهاتفية بين ميلان وباريس في كل مرة يرد فيها ذكر كلمة طرابلس، ومنع كانيفا المراسلين الأجانب من الذهاب إلى (كياسو) لإرسال برقياتهم، خوفاً من أن إعادة نقل هذه البرقيات بعد ظهورها في الصحف الى الاستانة ومنها إلى نشأت بك عن طريق تونس. بل إنه صادر الرسائل في البريد، ولقد أبلغني المستر (دونوهو Donohoe) أنه عندما استدعى ذات يوم إلى مكتب الرقيب وجد على طاولة الأخير خطاباً كان (دونوهو) قد أرسله في ذلك الصباح،وكان يعتقدوا أنه أخذ طريقه إلى لندن، ومع ذلك فإنه طوال هذا الوقت كان الجنرال كانيفا يسمح بلطف ورقة لأسراب الجواسيس بفحص دفاعاته ثم الركوب داخل الصحراء للابلاغ عنها.

وكما سبق لي القول فقد خدعت الحكومة الإيطالية الجنرال كانيفا في موضوع العرب، ومع ذلك فإنه هو نفسه لا يمكن إعفاؤه كلية من اللوم في هذا الشأن.

إن موقف العرب كان أكبر العوامل التي أدت إلى المشكلة العسكرية التي تواجهه، ولكن منذ اليوم الذي وطأت فيه قدماه أرض طرابلس حتى اليوم الذي بوغت فيه في المؤخرة لم يلتفت مطلقاً إلى هذا الأمر الحيوي.

وقبل ٢٣ اكتوبر كانت خطة كانيفا تقوم على إرسال حملة بأسرع وقت ممكن إلى (غريان). وبمجرد أن وصل البرسالييري إلى الجبهة حتى سرت شائعة في الخفاء ليلة بعد أخرى بأنه في المرة القادمة سوف يشن الأتراك هجوماً وأن الإيطاليين سوف يقطع عليهم خط الرجعة، وطار النوم من عيون كثير من المراسلين وجلسوا ينتظرون في غباء وقوعهم في الأسر.

ثم سرت في الجو شائعة عن الحملة الصحراوية الكبرى وأعلن القائد العام أنه لن يصطحب معه أي مراسل في هذه الحملة ولذلك أرسل

الصحفيون الايطاليون احتجاجاً جماعياً إلى روما كما شنت الصحف حملة جماعية على وزارة الحربية، واستهلكت كمية كبيرة من حبر الطباعة بهذه الطريقة، كان من الممكن استخدامها بطريقة أفضل لأنه ها هي قد مرت ستة أشهر ولم تبدأ حملة الصحراء الكبرى وليس ثمة إلا أمل ضئيل في قيامها لتسعة أشهر أخرى، إذا كان مقدراً لها أن تبدأ على الاطلاق.

ولا شك أن أحداث الثالث والعشرين من أكتوبر قد قضت بطبيعة الحال على حملة الصحراء الكبرى فإن ذلك اليوم (٢٣ اكتوبر) أظهر أن الترك قد نجحوا في استثارة التعصب الديني لدى العرب واستغلاله عسكرياً، ومنذئذ والايطاليون محاصرون في طرابلس وبنغازي وطبرق والخمس ودرنة، وعاجزون عن المغامرة بالخروج خارج نطاق مدفعية الأسطول.

ويروي مراسل صحيفة (فوسيش زيتونج) في العزيزية قصة نابضة بالحياة للمأزق في طرابلس، فيقول أن الجنرال كانيفا لا يزال حيث كان بعد أول احتلاله للساحل، مع إضافة عائق آخر ألا وهو هبوط الروح المعنوية لدى الجيش بسبب عدم قيامه بأي عمل.

«فإن الايطاليين يرسلون العسكر (من الوطنيين) للاستطلاع، فيستسلم هؤلاء، ويجندون العرب فيقعون أسرى، ويرسلون أسراباً من الجواسيس والعملاء لا يكون نصيبهم إلا الفناء، وتوزع المنشورات والبيانات بالآلاف، والعدو (العرب) يضحك ملء شدقيه». ويضيف هذا المراسل بأن العرب يسرقون حتى معدات الخط الحديدي الذي بدىء في مده، وهم بذلك يؤدون بالتأكيد خدمة لدافعي الضرائب من الإيطاليين لأن هذا الخط الحديدي حماقة كبرى، فإنه يبدأ من طرابلس وليست له نهاية إلا في الصحراء، وليس له هدف إلا أن يوقف العربي سريع الحركة، إنه سراب في الصحراء.

الفصل السادس

إهمال كانيفا نزع سلاح العرب

لقد ذكرت أن الجنرال كانيفا ـ إلى جانب مبالغته في الحذر ـ لم يكن حذراً بما فيه الكفاية، لقد كان أول شيء يجب عليه عمله بمجرد نزوله إلى البر هو الاستيلاء على كل الأسلحة في المدينة، ثم وضع احتياطي قوى فيها، وحراسة الشوارع بشكل دقيق وشديد. ولكنه لم يبذل أية محاولة جدية لجمع الأسلحة من الأهالي، كما وضع كل جنوده ـ باستثناء حرسه الخاص ـ في الجبهة التي تبعد ميلين، رغم أن ذلك يبدو بعيداً عن التصديق، أما حراسة المدينة فقد تركها للجندرمة العرب الذين كانوا في خدمة الترك والذين استمر السماح لهم بالتجوال حاملين البنادق، وأحزمتهم عامرة بطلقات دم الكريهة المنظر.

إنني أعتقد حقاً أن الجنرال كانيفا كان ينوي أن يكون شهما رحب الصدر، ولكن الرجل الضعيف يكون أحياناً شهماً بطريقة خاطئة، فبدأ باهمال الاحتياطي وهو اهمال يجعل غلام الكشافة يهزأ به، ثم يلجأ إلى قسوة تجعل شعر عبد الحميد يقف من هولها.

والآن سوف أمضي قدماً في مسألة عدم الاستيلاء على الأسلحة رغم ما قد يسببه للقارىء من ملل، لأن اهمال الجنرال كانيفا لهذا الأمر كلف ـ فيما بعد ـ الآلاف من الأشخاص الأبرياء حياتهم.

لقد احتل مشاة البحرية الايطاليون مدينة طرابلس يوم الخامس من

أكتوبر، وكان على رأسهم ضابط كفء للغاية هو الكابتن كاني Cagni مساعد دوق ابروتزي Abruzzi أنه عندفي الرحلة القطبية. وبعد نزوله إلى البر بساعات قلائل طلب كاني من الأمير حسونة القره مانلي أن يفكر في جمع الأسلحة من الأهالي، وربما أرسل الأمير منادياً يجوس خلال الشوارع يبلغ الناس بطريقة ودية أنه يجب تسليم جميع الأسلحة، وعرض مبلغاً معيناً (٢ تالري = ١ سكودو) للبنادق التي تسلم في هذا اليوم وتالري واحد لتلك تسلم في اليوم التالي. أما البنادق التي لا تسلم قبل اليوم الثالث فإنه سيتم الاستيلاء عليها بدون مقابل. وفي اليوم الأول قدمت أكثر من ألف بندقية مع ذخيرتها للقائد، وفي اليوم الثاني خمسمائة، وفي اليوم الثالث ـ ولفترة أخرى بعده ـ استمر ورود البنادق رغم عدم مكافأة مقابلها. وكما سأوضح فيما بعد فإن معظم هذه البنادق كانت قد غنمها العرب من الثكنات التركية بعد أن غادر الترك المدينة وقبل دخول الايطاليين إليها، لأنه كلما سنحت الفرصة للغنيمة فإن العربي يفضل البنادق بعد المال. ولو كان هناك عرب في أثناء نهب مدينة بكين في سنة ١٩٠٠ لجمعوا البنادق وتركوا للأوربيين التماثيل المصنوعة من الحجارة الثمينة وغيرها من التحف والكنوز الفنية من مقتنيات أسرة المانشو. إن الرجل العربي لا يسيل لعابه لشيء بعد شجرة النسب إلا لبندقية موزر جديدة بماسورتها اللامعة. وكقاعدة فأن ثمنها المرتفع وشك حكامه فيه جعلها بعيدة عن متناول يده، ولكن طريقته في الحياة الانعزالية والمحفوفة بالمخاطر والحماية غير الكافية التي يتمتع بها في ظل الحكم العثماني كل ذلك جعل قيمتها تزداد في نظره لأسباب عملية بحتة.

وكما سيظهر فيما بعد فان هذه الحقيقة كان لها أثر مهم على موضوعي، فاليها يرجع ذلك العدد الهائل من البنادق وتلك الكمية الضخمة من الذخيرة التي وجدت فيما بعد مخبأة في بيوت العرب، والتي أدت إلى وفاة أصحاب هذا البيت.

ولكن عرب المدينة لم يلبثوا أن سلموا أسلحتهم للضابط (كاني) وكما

يقول كاتب إيطالي فان العرب وقد سيطرت عليهم القوة الجديدة التي ظهرت سلموا أسلحتهم الجديدة اللامعة التي يعتبرها جنسهم أشياء مرغوبة ومحبوبة أكثر من أي شيء آخر، سلموها بدون أن تظهر عليهم مظاهر الحسرة.

ولكن كل أوربي في طرابلس يدرك أنه لم تسلم كل البنادق التي كانت في أيدي العرب، فقد أخبرني مقيم بريطاني بذلك حوالي منتصف أكتوبر، وأضاف بأن السلطات الايطالية تعرف هذه الحقيقة ولكنها تظن أنه يكفي الاحتفاظ بسجل تسجل فيه أسماء كل العرب الذين في حوزتهم أسلحة. ولكن صديقي أكد لي أن هذا السجل لم يتضمن أسماء نصف العرب الذين لديهم أسلحة.

ومن السهل أن نفهم لماذا لم يفلح الضابط (كاني) في الحصول على كل أسلحة أهالي الواحة. فإن المنادى الذي أرسله لم يدخل الواحة، وعرب الواحة لم يذهبوا الى المدينة وبالتالي فإنهم لا يعرفون شيئاً عن الأمر الخاص بتسليم الأسلحة. وعلاوة على ذلك فان كاني لم يستطع أن يصد أربعة آلاف تركي، وأن يدافع عن خطوطه الطويلة، وأن يقوم بتفتيش البيوت بيتاً بيتاً، بالاثني عشر رجلاً الذين كانوا تحت قيادته، فرجاله كانوا مثقلين بالعمل وغير قادرين على السير لقلة النوم، والا لاستطاع هذا الضابط البحري الممتاز الاستيلاء بسرعة على كل بندقية يمتلكها الأهالي داخل منطقة الاحتلال الإيطالي.

ولكن ما فعله (كاني) هو أنه أظهر لكل من الايطاليين وللأصدقاء العرب أنفسهم أن لديه فكرة واضحة عن الخطر الناجم عن ترك الأسلحة في يد الأهالي.

وفي بنغازي وبرقة اتخذ الجنرال (بريكولا Briccola) وجهة النظر نفسها من الأمر، فإنه لم يأمر فقط بتسليم الأسلحة ولكنه أيضاً اهتم بأن تقوم قواته بالتفتيش الدقيق بحثاً عن البنادق في المنازل والحدائق وفي كل الأماكن التي

يمكن أن تخبأ فيها، حتى المساجد. وعندما أصدر الجنرال (كانيفا) بعض الأوامر الغامضة عن صواب قيام الأهالي بترك أسلحتهم في رعاية الضيوف الايطاليين الذين هم بمثابة آبائهم، فقد اكتفى بأن لصق هذه الأوامر في مكان أو مكانين على جدران المدينة. ولما كان كثير من العرب لايستطيعون حتى قراءة لغتهم، كما أن عرب الواحة ظلوا في بيوتهم، فإنه بالتالي لم يعرف أحد شيئاً عن هذا البيان.

ولم تتخذ خطوات لنشره بين العرب الأميين، وأنا نفسي استخدمت عربياً موالياً للايطاليين ليحصل لي على الأخبار، وكنت بطبيعة الحال أختلط بالايطاليين وكل أنواع الناس، ومعي رفاقي الصحافيون، من أجل الحصول على أي نوع من الأخبار عن الحالة، ولكنني لم أسمع حتى الهمس عن هذا البيان الصادر عن الجنرال (كانيفا)، وذلك عندما كنت في طرابلس، ولم أسمع به لأول مرة إلا في إيطاليا في أوائل نوفمبر بعدما غادرت ولاية طرابلس.

ولكن حتى إذا علق هذا البيان على كل بيت في طرابلس بدلاً من حائط أو اثنين فإن ذلك لم يكن كافياً، لأنه كان من الواجب اتخاذ خطوات أكثر قوة وهمة لجمع الأسلحة. والعرب جنس شكاك وهو لم يتعودوا على الأساليب الأوربية، ولقد أثار الأمر بتسليم الأسلحة انزعاج تلك القلة من الأهالي، الذين سنحت لهم فرصة رؤية هذا البيان، ومعظم الأسلحة كانت أصلاً مسروقة من الثكنات التركية المهجورة، ولربما ظن من صارت في حوزتهم هذه البنادق أنهم لو سلموا هذه الغنائم فلربما عاقبهم الأجانب على سلبها.

وكان هناك سبب آخر وهو لماذا تردد العرب في التخلي عن أسلحتهم حتى أولئك الذين علموا بصدور الأمر إليهم بذلك؟ إن هذه الأسلحة ـ كما ذكرت من قبل كانت ضرورة لهم في ظل العهد التركي بشرطته الضعيفة، فكان عليهم في ظل هذا العهد أن يحموا أنفسهم شأنهم شأن كل الأهالي في

المناطق المتطرفة من الامبراطورية العثمانية. وفي ظل نظام (كـانيفا) ربمـا كانت الأمور أسوأ فيما يختص بالمحافظة على الأمن في المدينة والواحـة، ولقد تحدث القائد العام كثيراً في بياناته عن اهتمامه الأبوي بالأهالي، ولكن في الحقيقة لقد برهن على أنه ببساطة ضابط صارم داخل ثكنته دون أن تكون لديه أية كفاءة أو مقدرة على الحكومة المدينة، وليست لديه أية فكرة عن أن عليه واجباً نحو الآلاف من الأهالي الجهلة، الذين لا حول لهم ولا قـوة، والذين كان يطالبهم بطاعته. لقد أدخل أسوأ أوغاد قوة الشرطة التركية القديمة في خدمة الإيطاليين، وعهد إليهم وحدهم بالمحافظة على الأمن في المدينة والضواحي.

لقد كان هناك جيش في الجبهة وأسطول في الميناء، ولكن بينهما كانت تسود الفوضى، وعملياً لم تكن هناك أية حكومة مدنية في المدينـة، وعلى الرغم من العشرين ألف رجل مسلح ممن كانوا تحت إمرتـه، فقد كـان الفرد العـادي من الأهالي معرضاً لخطر السرقة من اللصوص ورجال الشرطة المحليين أكثر مما كان معرضاً لذلك في ظل الحكم التركي.

ولذلك فانه كان من الأفضل ـ لكل الأطراف ـ أن يحاول القائد العام أن يخلق شعوراً بالأمان في المدينة بدلاً من قضاء وقته يسطر بيانـات قرآنيـة. وعلى أية حال فإنه لو أراد نزع سلاح الأهالي لكان من الضروري إجراء تفتيش دقيق بيتاً بيتاً، خاصة وأن الجنرال (كانيفا) كان يعمل أنه لم يتم تسليم ولو معشار البنادق التي سرقت من الترسانات التركية في فترة الانتقال. فماذا منعه من إصدار الأوامر لجنوده للقيام بزيارة بيوت الأهالي زيارة دقيقة مثلماً فعل الجنرال (ريكولا)؟ الذي بعث بكثير من الجنود لهذا الغرض، وإذا لم يشأ أن يسحب قواته من خط النار ـ رغم أنه لم يكن لديهم الكثير يفعلونه هناك ـ فإنه كان يستطيع استخدام مشاة البحرية ومعاونيه المدنيين وهم كثيرون. لماذا لم تكن هناك ثورة وقمع في درنة وبنغازي والخمس وطبرق وغيرها من الأماكن التي احتلها الايطاليون، لأنه في كل هذه النقاط نزع القواد الايطاليون على

اختلافهم سلاح الأهالي. وبنفس الطريقة كان من الممكن ألا تكون هناك (ثورة) و(قمع) في طرابلس لو أن الجنرال (كانيفا) اتخذ الاحتياطات العادية هناك بشأن نزع سلاح عرب الواحة الذين كانت قراهم المتخلفة والمتناثرة من الممكن تفتيشها بسهولة وسرعة. إن البحث عن السلاح في الأكواخ البسيطة ذات الحجرة الواحدة في واحة طرابلس كان من الممكن ألا يصادف فيه الإيطاليون صعوبة مثل تلك التي قد يصادفونها في الشوارع الضيقة المتعرجة في مدينة كبيرة.

إن الخطأ قد لا يقع على الجنرال (كانيفا) نفسه بقدر ما يقع على مستشاريه السياسيين والحكومة في روما، فكل من المستشارين والحكومة تلقوا قصصاً وردية متفائلة عن النوايا الطيبة للعرب، لدرجة أنهم اعتقد بأنها ستكون مأساة كبرى لو أزعج هؤلاء الأهالي البؤساء الأعزاء بدخول بيوتهم وازعاجهم، وهم جالسون يشربون الشاي من أجل البحث عن بنادق. وقد اتفق القنصل (بستالوتزا Pestalozza) في هذا الأمر مع نائب القنصل (جاللي)، واعتقد أن البحث بعنف عن أسلحة بواسطة جنود سفهاء قد يثير تعليقاً معادياً في أوساط الأهلين، ولا عجب أن صحيفة ايطالية وصفت ـ فيما بعد ـ هذه السياسة بأنها «مكيافيلية» اللبن والعسل التي كانت ثمارها الثورة والدم وما أكثر الدم!».

وأكرر مرة أخرى أن الجنرال (كانيفا) قد جاء إلى طرابلس تحت تأثير سوء فهم كامل وتام دفع به إلى أن يتصور أنه ـ باهمال نزع سلاح العرب ـ إنما يتصرف بتسامح وشهامة حكيمين. لقد تصور أنه منقذ، وعندما مثلت أمامه مجموعة القنصل جاللي المدربة جيداً من الرؤساء العرب المزيفين المتزلفين أقتنع تماماً بأن قلوب الأهالي الكبيرة ترحب به كإله.

فما أعنف التحول إلى الطرف المضاد عندما نشبت الثورة المزعومة! إن مجموعة من البيانات التي صدرت في ذلك الوقت تستطيع وحدها أن تعطي

فكرة ضئيلة عن القسوة والظلم اللذين عومل بهما العرب.

لقد أبرق أحد المراسلين وهو (كوراد وزولي Corrado Zoli) بأنه «صدر في هذه اللحظة أمر من الحاكم نزع سلاح الأهالي العرب والترك نزعاً تاماً قبل مغرب الشمس تحت تهديد العقوبة بالاعدام». وطبقاً للبرقية الرسمية فان الجنرال (كانيفا) «قد نفذ بقسوة ونزع سلاح سكان الواحة والمدينة».

والآن فأنني أعتقد أن (نزع السلاح بقسوة) كان من الأفضل تنفيذه في وقت مبكر، وكان من الممكن تنفيذه خلال فترة تعاطف الجنرال (كانيفا) عندما كان الجنود مؤتلفين بحمق مع الأهلين مثلما تميل الاجناس اللاتينية عندما تذهب للاستعمار. لقد كان من الممكن عندئذ جمع كل الأسلحة دون عناء كبير، ولما فقد أي شخص من كلا الجانبين حياته أو انفعل وفقد السيطرة على أعصابه. ولكنه يبدأ الآن وفي أسوأ وقت البحث عن الأسلحة، حيث سمع قليلون من أهالي الواحة ممن كانت في حوزتهم أسلحة ببيان الجنرال (كانيفا) عن (مهلة الأربع والعشرين ساعة.

وحتى لو كانوا قد سمعوا بهذا البيان لما كان في استطاعتهم الاستفادة من الوقت الضيق المتاح لهم لأنهم إذا خرجوا من منازلهم حاملين الأسلحة التي ينوون تسليمها لاطلق عليهم الرصاص أوّل جندي يصادفهم، إذ لم تكن ثمةّ فرصة للايضاح حيث لم يكن هناك سوى اثنان أو ثلاثة من التراجمة لدى الجيش كله.

ولكن كقاعدة يبدو أن عرب الواحة سيئي الحظ لم يقوموا بأية محاولة أو أنّ محاولتهم من أجل تسليم بنادقهم كانت محدودة، ذلك أنهم خوفاً من الإعدام ظلوا طوال اليوم منكمشين رعباً في أكواخهم المعزولة، ولم يعرفوا شيئاً عن الاتجاه الجديد إلى أن جاء الجنود الى منازلهم بحثاً عن السلاح وقتلهم. ولقد جاء هؤلاء الجنود في معظم الأحوال بدون ضباط، وفي كل الحالات

بدون مترجمين، ومن ثم قوبلت كل محاولات العرب لتوضيح الأمور باعتبارها إهانة وكان الرد عليها صفعات على الوجه وركلات في البطن.

والآن فإن تكليف عدد من الأفراد الجهلة ـ خلال هذه الفترة المشحونة بالاثارة ـ بهذا العمل الحساس، وهو البحث عن أسلحة لدى أناس يعتبرون في نظرهم خونة وقتلة، كان ببساطة يعني إصدار تصريح على بياض بقتل الآلاف، ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا في معظمهم من الصقليين، الذين كانوا قد خرجوا عن طورهم، وستشاطوا غضباً؛ لقتل زملائهم وأبناء جلدتهم. إنهم قتلوا أناساً وجدوا في بيوتهم أي نوع من السلاح، وربما كانت بعض الأسلحة النارية التي وجدت في أثناء التفتيش محتفظاً بها لأغراض سيئة، ولكن الكثير منها كانت بنادق قديمة متوارثة تشحن من فوهتها، والكثير منها كان من المنهوبات. إن البنادق القديمة التي توجد عادة في بيت كل عربي، ولدى كل قافلة أدت في كثير من الحالات إلى مقتل أصحابها.

ويمكن القول بأنه قد صدرت للجنود ببساطة أوامر باعتقال الأهالي الذين وجدت في حوزتهم أسلحة، وأنه يمكن أبراز بيانات الجنرال (كانيفا) التي تحمل هذا المعنى، ولكن لم يكن يهم ما جاء في التصريحات والبيانات، وظلت الحقيقة قائمة، وهي أن الجنود وضعوا القانون في أيديهم، وقتلوا كل عربي وجدوا في بيته سلاحاً. وللتدليل على ذلك لا أحتاج إلا للإشارة إلى الصحف الإيطالية ذاتها، فقد امتلأت في تلك الفترة بقصص عن البيوت التي فتشت، والأسلحة التي ضبطت، وأصحاب البيوت الذين أعدموا بالرصاص، ولم يرد ذكر أية محاكمة أو حتى إحضار المتهمين أمام أحد الضباط. وفي حالة واحدة يذكر أحد المراسلين كيف أنه تعاطف مع بعض العرب البؤساء الذين فتشت بيوتهم، وذلك عندما رأى ملابسهم الرثة وبقايا طعامهم وأدوات طبخهم يلقى بها في كل مكان، وبينما كان الجنود على وشك الخروج، وقد شعروا بالارتياح والغبطة لعدم العثور على أسلحة مخبأة، وقع بصرهم فجأة على سكين وبعض الخراطيش، وعندئذ ما أعظم التغير

الذي طرأ، فإنه بدون أي ضجة وضع العرب فوراً أمام الحائط وأطلق عليهم الرصاص.

وصحيفة (ستامبا) التي تصدر في تورين صحيفة إيطالية متعصبة، وكانت تؤيد بشدة الحرب منذ البداية، وهي على علاقات ودية معروفة مع السنيور (جيوليتي). إنها صحيفة خطيرة ومسؤولة، ومع ذلك فقد نشرت في ٧ اكتوبر القصة التالية عن حالة إعدام، كتب عنها في السادس والعشرين من أكتوبر مراسلها في طرابلس وهو صديق شخصي للسنيور (جيوليتي)، وقد جاء فيها:

«لقد وجدت أنه من واجبي أن أعاون في إطلاق النار على هؤلاء الأهالي (من عرب الواحة الذين قبض عليهم، وحكم عليهم بالاعدام بسبب الأسلحة التي وجدت في بيوتهم). وقد وضع أمام الحائط المعتاد رجل وزوجته ـ نموذجين عظيمين للجنس البدوي، وبجانب ذلك فقد تجرءا على حمل أسلحة. وعلى بعد خطوات قليلة منهما كان يرقد في وضع معاناة وحشية شنيعة، ولكنه في الحقيقة كانَ ميتاً ومتصلباً، جسدُ رجل سوداني كان قد أطلق الرصاص على ضابط طبيب. ولم يظهر العربيان اللذان قبض عليهما حديثاً ـ أي الرجل والمرأة ـ أي خوف أو تردد ولو للحظة واحدة، ولم يفارق بعد ايهما الآخر، وقد أمسك كل منهما يد الآخر بحب، ثم أخذا في تلاوة الصلاة، وأدارا ظهريهما إلى البنادق التي كانت مصوبة إليهما، ثم صدر أمر جاف: «أطلقوا النار على الرجل». وسمع انفجار وشوهد بريق، لقد كان على المرأة أن تترك يد زوجها لأنه بعد لحظة ترنح وسقط على الأرض جثة هامدة، ومع ذلك فإن المرأة لم يصبها الذعر، لقد انتظرت دورها في الموت بدون أن ترتعد. وانطلقت صيحة أخرى: «أطلق النار على المرأة» فدوّي وانفجار فجائي آخر وإذا بمخ المرأة يتطاير في الهواء».

وفي البداية لم تكن الصحف الايطالية ترى خطأ ما في هذه الفقرة، ولكن عندما اقتبستها الصحف الانجليزية مقترنة بعبارة الاشمئزاز انهال بعضهم

على صحيفة (ستامبا) لنشرها، ولنلاحظ جيداً أنهم لم يعترضوا على العمل نفسه، ولكنهم اعترضوا على نشر أي رواية عنه. وكم من مئات الأعمدة المشابهة لم تعمل فيها أقلام الرقباء ورؤوساء التحرير الزرقاء منذ بدأت الحرب. لأنه ليس من الصواب أن يعرف الايطاليون ما تعنيه هذه الحرب الضارية التي يشنونها. إن البرقيات الواردة من ميدان القتال يجب ألا تتحدث إلا عن «النظام والهدوء والحيوية التي تتمتع بها قواتنا الباسلة» و«بطولة البرساليري» إنه ليس من الحكمة بالمرة نشر أي شيء من شأنه أن يثير التعاطف مع العدو.

ويقول الجنرال (كانيفا) في تقريره الرسمي أنه عند تفتيش الواحة وجد «أسلحة مخبأة في كلّ مكان، وكانت الأكواخ مملوءة بالمؤن والذخائرة»، وقال: «إن الأكواخ قد حرقت لأنه كان من المتعذر إبعاد الخراطيش بسرعة».

ويقول السنيور (جيوليتي) «إن كثيراً من المساكن في الواحة عندما أشعلت فيها النيران انفجرت مثل مخازن البارود، وما أضخم مخازن الأسلحة والذخيرة المخبّأة فيها».

ويقص علينا السنيور (بارزيني Barzini) عن «أحد البيوت التي أخذ منها ٢٥٠ كيلوجراماً من الذخيرة، ٨٠٠ كيلوجرام من المفرقعات، وعلم تركي».

وكان لجميع المراسلين الايطاليين الأخرين قصص مشابهة، ويقررون بناء على هذه القصص أنه من الواضح أن طرابلس كانت كلها قنبلة واحدة كبيرة.

وقد كتب (لويجي بارزيني) في عدد (كوريري ديلا سيرا) الصادر في ١٢ اكتوبر «أن نهب الحصون قد عرض للتداول كمية من المفرقعات التي كان الناس يتناولونها بجرأة وجهل، ولقد كان من الممكن أن يرى المرء أطفالاً من اليهود يلعبون بقذائف حية وقنابل وشظايا حية».

ولقد استولت الدهشة على كتاب إيطاليين اخرين لضخامة كميه القذائف والمتفجرات من كل نوع ممّا كان الاتراك قد جمعوه، وإلى جانب مستودعات البارود المليئة، كان هناك في الحقول مخزنان من البارود كان من الممكن ألا ينضبا طوال حرب طويلة.

ألم يكن الجنرال (كانيفا) مهملا بشكل يدعو للعجب بترك الأكواخ مليئة بالذخيرة بهذا الشكل في مؤخرة خطوطه؟ فلنتصور أي قائد بقدرات وكفاءة عادية يقترف مثل هذا الخطأ الفاحش. إن القطعة التي احتلها (كانيفا) من أرض ولاية طرابلس كانت ضئيلة للغاية، بينما كان عدد الجنود الذين تحت امرته عظيماً بحيث كان من الممكن أن تنتهي إجراء تفتيش فعال في خلال ساعات قلائل، وقد كان لدى (كانيفا) أسبوعان لفعل ذلك.

وفي الحقيقة لم تكن هناك مدينة تعج بالأسلحة والمتفجرات غير الرسمية مثلما كانت مدينة طرابلس في ذلك الوقت. لقد كانت الواحة مليئة بالأسلحة وكانت البنادق تغمر المدينة، وصارت الخراطيش شائعة كالتمر وصار السلاح متوفراً كالملح، ولو جرى تفتيش صناديق أمتعتي في ذلك الوقت لاكتشف فيها عدد كبير من الخراطيش التركية والايطالية.

لقد عثرت على الخراطيش الإيطالية في الخنادق، والتقطت الخراطيش التركية عند ثكنات الخيالة حيث خلف الأتراك وراءهم ما بين خمسين ومائة ألف مشط من ذخيرة بنادق الموزر.

ويمكن تفسير وجود هذا الكم الهائل من الأسلحة والذخائر غير المشروعة في طرابلس ذلك أنه في مساء الثاني من أكتوبر غادرت القوات التركية جميعها طرابلس باستثناء عدد قليل من رجال المدفعية المتمركزين في ولم يسيطر مشاة البحرية بقيادة الكابتن (كاني) على المدينة حتى الخامس من أكتوبر، ولذلك فقد كان أمام يهود وعرب المدينة والواحة وعربها ثلاثة أيام لنهب مستودعات السلاح ومحطات الجندرمة ومكاتب البريد والثكنات بل وحتى مقر

الحاكم نفسه. وبعد ذلك ببضعة أسابيع قمت بزيارة ثكنات الخيالة على حافة الواحة، وقد شرح لي الكولونيل (سبينللي Spinelli) وهو يضحك كيف أن الأهالي، خلال فترة الانتقال، قد سرقوا حتى زجاج النوافذ ومقابض الأبواب وأخذوا المناضد والسجاجيد ومشاجب القبعات والمزاليج. وباختصار استولوا على كل شيء أمكنهم أن يضعوا أيديهم عليه، وفي خلال الأيام القليلة الأولى من احتلال، كان المرء يرى العرب وهم يبيعون كل أنواع الأسلاب للبحارة الايطاليين. وقد شرحت من قبل تلك الرغبة العارمة لدى العرب من أجل امتلاك بندقية ولذلك فمن الطبيعي أن يبحثوا بدقة عن البنادق والذخيرة التي خلفها الترك وراءهم وهي كثيرة، وسرعان ما وضع العرب أيديهم على هذه الكنوز، ليس بالضرورة من أجل استعمالها ضد الايطاليين ولكن لبيعها لهم أن امكن.

وقد يقول البعض إن هذه القصة بعيدة الاحتمال، وأن الترك بالتأكيد أرسلو أولاً كل بنادقهم وذخيرتهم إلى الصحراء. ولكنهم في الحقيقة لم يفعلوا ذلك، إذ لم يكن لديهم متسع من الوقت، وعندما زرت ثكنات الخيالة في المناسبة التي أشرت إليها من قبل وجدت هنا ـ كما قلت ـ المئات من صناديق البنادق وخراطيش المدافع الآلية وقد سُرِقت كمية كبيرة منها، ولكن قبل أن ينقلها العرب كلها، كان الغزاة (الإيطاليون) قد استولوا على ثكنات الخيالة. وفي بعض الأحيان كان العربي يسرق الذخيرة وحدها وهو في أحيان أخري يتخصص في الأستيلاء على البنادق.

واستمرت عملية سلب المتفجرات في البطاريات والقلعة وكل أنحاء المدينة خلال القصف حتى لقد صار هناك بارود مبعثر منتشر على طول الشوارع، كما صارت بيوت كثيرة مستودعات للذخيرة. حتى لقد كان هناك في وقت ما خطر من احتمال سقوط قنبلة ايطالية تفجر هذا البارود وتنسف نصف المدينة. وخلف مكتب البرق الانجليزي على البحر نسف أحد العرب نفسه، عندما أشعل النار بالمصادفة في كمية كبيرة من المواد المتفجرة

التي كان قد جمعها بجهد وعناية، وقد سبب الانفجار الذعر لبعض الوقت، حيث كان يعتقد في البداية أنه يرجع إلى قذيفة من سفن الأسطول.

وقد سيطر جنون الجمع والاقتناء على العرب حتى إن العرب الذين كانوا في خدمة الاوربيين لم يستطيعوا مقاومة الاغراء، فكانوا ينقلون البنادق والقنابل والبارود سراً إلى منازل مخدوميهم. وهذا المستر (رايت Wright) وهو انجليزي يمثل في طرابلس شركة البرق الشرعية، يكتشف فجأة في أحد أيام فترة الانتقال وجـــــود حوالي ربع طن من المواد شديدة الانفجار في قبو منزلته، لقد جمعها خدمة العرب بهمة بعد أن استيلائهم عليهـا، لا من أجل نسف الايطاليين عندمـا يدخلون المـدينة، ولكن لأنـه سيطر عليهم جنـون الجمع والاقتناء (مثل النمل) وهي من سمات العرب مثلما هي من سمات اليهود. وكانت هذه هي الغنائم الوحيـدة الباقيـة في القلاع عنـدما وصلوا وكـان كل واحـد منهم مشغولاً بنقلها.

ولقد عالج المستر (رايت) الأمر بحكمة بالغة، فقد ذهب من فوره إلى جناح الخدم ومنحهم مهلة ساعة واحدة لاخراج المتفجرات من المنزل، وبعد ساعة لم يعد في البيت أوقية واحدة من البارود. ولو تصرف الجنرال (كانيفا) مثلما تصرف موظف البرق الانجليزي لما حدثت كوارث ما بين ٢٣، ٢٧ من أكتوبر، أو صارت محدودة النطاق. فإن ما حدث هـو أن كل عـربي عثر في حـوزته ولو خرطوشة فارغة نفذ فيه حكم الأعدام ومما لا شك فيه أن كثيراً من الذخيرة التي عثـر عليها في بيـوت العرب قـد جلبت ببساطـة على أنهـا من الغنـائم وليس أجـل أهداف عدوانية.

وعندما قمت بزيارة قلعة شارع الشط بعد أيام من القصف وجدت بعض العـرب مشغولين بهمـة في استخراج المـادة المتفجرة من القنـابل التي لم تنفجر. ولما كانوا لا يستخدمون إلا مطرقة وأزميلاً في هذا العمل الخطر فإنني

---

١) يبـدو أن المؤلف نسي ما ذكـره في صفحة (٣٧٦) في سيـاق حديثـه عن نهب مدينـة بكين سنة (١٩٠٠) ومـا ذكره من استيـلاء الأوربيين على التماثيـل المصنـوعـة من الحجـارة الثمينـة، وغيرها من التحف والكنوز الفنية، من مقتنيات أسرة المانشو. المترجم

سرعان ما وضعت كومة بيني وبينهم، وصرت أراقبهم من خلال منظار، كما كان الايطاليون أيضاً يتسلون بمراقبتهم من بعد، وبمعجزة أفلت هؤلاء الرجال من أن يمزقهم انفجار، حتى كان اليوم الثالث والعشرين من أكتوبر عندما سيطر الاعتقاد على الايطاليين بأن هناك مؤامرة ضخمة ضدهم، فبدأوا في إطلاق الرصاص على كل عربي في حوزته بارود، وربما أطلقوا النار أيضاً على هؤلاء الباحثين عن البارود في شارع الشط. وعلى كل حال فقد اختفى هؤلاء الباحثون عن البارود تماماً من التاريخ.

ونلاحظ الانتقال الفجائي من التراخي الاجرامي إلى القسوة الاجرامية، فإنه في الثاني والعشرين من أكتوبر كان هؤلاء العرب في قلعة شارع الشط والقلاع الأخرى يستخرجون البارود ليس أمام الايطاليين تماماً ـ لأن الايطاليين كانوا مثلي يراقبون هذه العملية من مسافة مأمونة ـ ولكن ذلك كان يحدث على الأقل بعلم الغزاة. وفي الثالث والعشرين من اكتوبر فإن أيا من هؤلاء العرب يضبط وفي حوزته بارود كان يطلق عليه الرصاص، ولم يكن هناك استثناء من هذه القاعدة.

ولا شك في أن الجنرال (كانيفا) تخبط بشكل سيء عندما أهمل جمع الأسلحة من الأهالي، وها هو السنيور (بيفيوني) ـ ذلك الكاتب الوطني المتعصب الذي يقول في إهداء كتابه عن الحرب الى السنيور (جيوليتي) إنه وهو يرى الغارة على طرابلس الرؤية الرسمية السليمة ـ يضطر للاعتراف بأن «السلطات العسكرية ارتكبت خطأ فاحشاً بعدم مطالبة الأهالي بتسليم أسلحتهم من أول يوم».

بل إن صحفياً أكثر حماساً للحرب من السنيور (بيفيوني) وهو مسيو (جان كاريز) مراسل صحيفة (الطان) في روما يصل به الأمر إلى أن يعلن في لقاء معه ظهر في صحيفة (سيكولو) في ٢٦ أكتوبر ـ أن دعوة العرب إلى تسليم أسلحتهم مقابل تعويض قدره عشر ليرات لم يكن كافياً، ويعتقد أنه كان يجب اجراء «تفتيش دقيق» للواحة.

وتعتقد صحيفة (سيكولو) أنه «كان من الخطأ ترك البنادق مع العرب، والا فقد كان يجب ابعادهم عن مسرح العمليات بمسافة كبيرة».



الفصل السابع

كيف اخترق العرب مؤخرة الإيطاليين

منذ عودتي إلى انجلترا وكثير من الإيطاليين يطلبونني ليوضحوا لي أن الهجوم على فرقة البرساليري الحادية عشرة يوم الثالث والعشرين من أكتوبر كان مبرراً كافياً لعملية قتل عرب الواحة التي تلت ذلك. ومن الواضح أن هؤلاء الإيطاليين، وأعتقد أن كثيرين من الانجليز مثلهم ـ كان لديهم انطباع بأن هؤلاء البرساليري كانوا يلعبون، ويلهون مع الأطفال العرب في مكان ما في الداخل، سوف أسميه الواحة الإيطالية، عندما زحف فجأة آباء وأمهات هؤلاء الأطفال خلفهم. وقطعوا رقاب هؤلاء الجند غدراً وخيانة، وليس هناك ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك. فإن فرقة البرساليري الحادية عشرة كانت عند الحافة القصوى من الخط الإيطالي، ولم يكن هناك من القوة الإيطالية من هم أكثر بعدا منهم عن المدينة. فالذي قام بالهجوم الذي أنزل بهم خسارة فادحة مقاتلون عرب من الخارج. ولقد شارك بعض العرب من الداخل في هذا الهجوم، ولكن معظم هؤلاء أيضاً كانوا من عرب الصحراء، الذين كانوا قد عبروا من قبل الخطوط الإيطالية في أثناء ما أسميته فترة الجنرال (كانيفا) الخيِّرة. وها هو السنيور (لويجي بارزيني) مراسل صحيفة (كوريري ديلا سيرا)، الوطني المتطرف المعادي للعرب، يعترف هو نفسه بذلك، في مقال ظهر في هذه الصحيفة في ٦ نوفمبر (الصفحة الرابعة ـ العمود الثاني). ففي هذا المقال يقر بأن الهجوم على مؤخرة الإيطاليين يوم الثالث والعشرين، قام به أساساً عرب مقاتلون، تسللوا وهم يخفون بنادقهم تحت أرديتهم

الفضفاضة.

وقد اعترف لي بنفس الأعتراف وبشأن وجود ضباط أتراك باستمرار في المدينة وذلك على لسان القنصل الإمريكي في طرابلس.

فقد أخبرني أنه حتى التاسع من أكتوبر كان يلتقي في الصحراء مع ضباط أتراك ممن يعرفهم، وكانوا متخفين في ملابس العرب، ولكنهم كانوا يتحدثون معه بحرية، كما قابل أحد المقيمين البريطانيين ضباطاً من الأتراك في السوق وكانوا يخفون أنفسهم، بل إن جندياً تركياً جاء إلى بيته ذات مرة وطلب طعاماً. ويعترف مراسل صحيفة (التيمس) بأن ضباطاً من الأتراك المتخفين كانوا يلاحظون دائماً في المدينة. وهكذا تتوفر لدينا أدلة مهمة - إنجليزية وأمريكية وإيطالية - تثبت أن العدو كان قادراً على التسلل عبر الخطوط الإيطالية. وهكذا فإن هؤلاء الرجال المتسللين، هم الذين كانوا مسؤولين عن الهجوم على المؤخرة الإيطالية، ذلك الهجوم الذي تسبب في الأنتقام الرهيب.

وبطبيعة الحال فإنه من الممكن أن تكون قلة من «الأصدقاء» شاركت في هذا الهجوم، ولكنني لا أعتقد أن عددهم كان يزيد في مجموعة عن مائة. ويقول الإيطاليون أن عددهم يقدر بالآلاف، ولكنني أوضحت من قبل التأثير الغريب الشاذ، الذي أحدثته الفوضى والأضطراب على أحكام الضباط والجنوف الإيطاليين وتقديراتهم.

ولكي يوجز الجنرال (كانيفا) الأمر ويحصره في أضيق حيز، فقد وقع في أخطاء جسيمة من الإهمال، وعندما ظهرت النتائج الطبيعية لهذه الأخطاء، فإنه لم يعاقب المذنب الحقيقي ألا وهو هو نفسه، بل عاقب عرب الواحة الأبرياء.

لقد تلقى تحذيرات عن وجود مبعوثين من العدو في المدينة، ففي يوم ٢٠ أكتوبر أبلغه أحد القسس الفرنسسكان بأن عملاء من الترك ينشطون بين العرب محاولين إحداث عصيان، ولكن القائد لم يفعل أكثر من تعزيز رجال الحراسة الذين كانوا يذرعون الشواراع طوال الليل وحرابهم مشرعة، ولكن لم

يحدث شيء ما في تلك الليلة، ونسي (كانيفا) كل شيء عن التحذير الذي كان قد تلقاه.

بل إن مراسلي الصحف كانوا أحسن منه تقديراً للأمور، رغم أنه لم يكن تحت تصرفهم مثلما كان عنده: نظام محكم للحصول على المعلومات.

ففي الثاني والعشرين من أكتوبر أبرق مراسل صحيفة (سيكولو) في طرابلس بأن الأمور تبدو قبيحة للغاية بين عرب الواحة، وأن المتوقع حدوث هجوم عربي كبير من الخارج في أية لحظة. بل إنه منذ السابع عشر من أكتوبر نشرت صحيفة (سيكولو) برقية مطولة وافاها بها في اليوم السابق مراسلها (كورادو زولي)، وتتعلق بالعناصر الخطرة من الأهالي الذين سمح لهم من خلال إهمال الجنرال (كانيفا) بالتجمع في المدينة، والذين صاروا يهددون بحدوث انفجار في كل لحظة.

ولقد كتب السنيور (زولي) إنه «لفهم الحالة في هذه اللحظة فإن على القارىء أن يتذكر أنه عندما نقول إن العرب قد رضخوا وخضعوا للحاكم الإيطالي الجديد، فإننا نقصد أولئك العرب المعروفين لحسونة باشا، والذين أفهمنا أنهم يمثلون الشعب الوطني في داخل أسوار المدينة والمناطق المجاورة مباشرة. ولكن إلى جانب هؤلاء الذين يمكن أن نسميهم الأعيان في المستعمرة الجديدة هناك وطنيون آخرون جاءوا إلى المدينة من أماكن بعيدة بعد أن انتهى رعب القصف، فجماهير من الصعاليك والأشخاص غير المعروفين، تعج بهم الشوراع يقحمون أنفسهم في كل ركن، أو زاوية منعزلة يراقبون، ويتنصتون، ويجوعون، ويقدمون خدماتهم، وهم غير مقيدين في أي سجل.

«ومن بين هؤلاء يوجد رجال بؤساء مستعدون للخدمة، مثل أولئك الذين يجدهم المرء عادة في كل ميناء من موانىء شرق البحر المتوسط، ولكن الإنسان يصادف في أحيان غير قليلة عينات ممن يعرفون الطرق والواحات

البعيدة، ويخدعون ولا يخدعون، أناس قادرون على تجنب طرق القوافل المطروقة، ونقل الأخبار والمعلومات إلى أماكن نائية، وبسرعة لا يدركها الأوربيون، الذين يدركون الصعاب الضخمة الهائلة التي تصادف السفر في بلاد تحتاجها رياح الصحراء، فتجعلها جرداء.»

«ومن المؤكد أن الجيش التركي قد حاول أن يقيم نوعاً من الاتصال بالمدينة من خلال قوافل البدو. ويجب ألا يعتقد أن كل الأسلحة والذخيرة التي أنزلت الى البر من السفينة التركية «درنة» قد نقلت على ظهور الأبل، وأرسلت فوراً الى الداخل، إذ ربما أن جزءاً من هذه الحمولة خبىء في مكان غير معروف».

ثم يتحدث السنيور (زولي) بعد ذلك عن قافلة كبيرة جدا من الجمال محملة بالمواد الغذائية التي تم الاستيلاء عليها في اليوم السابق، وهي على وشك مغادرة طرابلس إلى جهة غير معلومة، فيقول: «إن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأربعين جملاً التي تم ضبطها وتوقيفها امس في السوق، كانت تتأهب لنقل الشعير إلى فصائل الجنود الأتراك المتمركزين في أماكن أقرب إلينا من المعسكر التركي الرئيسي، الذي يقع عند سفح جبال غريان.

... إن رجال هذه القافلة المضبوطة سوف يخضعون للمراقبة الدقيقة لأنه يخشى ـ وهناك ما يدعو لذلك ـ من أنه في أسفل طرابلس البهيجة المخلصة، التي تنعم بضوء الشمس والهدوء في حماية سكانها الجدد المسالمين، الفخورة بأنها تحظى من ناحية البحر بحماية نطاق طويل محكم من الفرقاطات ـ توجد طرابلس أخرى تحت الأرض ليس من السهل اكتشاف متاهاتها».

وحتى الثالث والعشرين من أكتوبر كان الجنرال (كانيفا) لينا متساهلاً للغاية بشأن ترك العرب أو الأهالي الذين قالوا إنهم عرب، لكي يمروا عبر الخطوط عند أية نقطة سواء لدخول المدينة أو للخروج منها. وفيما بين شارع

الشط والهاني، فإن مجموعة بأكملها من الجنود الأتراك استطاعت التسلل ليلاً عبر نباتات الواحة الكثيفة دون أن يشعر بهم الحراس.

وفي الثاني والعشرين من أكتوبر، أي عشية «الثورة» ركبت السيارة إلى شارع الشط مع أحـد الرفقاء، هو الهر (فون جوتبرج)، وقابلنا حارساً واحداً عند أحد مفارق الطرق، وأطلعناه على بطاقات المرور، وسمح لنا بالاستمرار في التقدم صوب عمروس.

وبالقرب من أحد المساجـد، ويقع على مسافة خارج الخط الإيطالي، وجدنا مجموعة كبيرة من العرب ذوي الأردية البيضاء، يجلسون على الأرض تحت أشجار النخيل، وكانوا منهمكين في نقاش قبل أن يرونا، ولكن خيم عليهم الصمت عندما مررنا بهم، ولم تكن نظراتهم إلينا طيبة، ولكن عندما مررنا بقرية صغيرة بعد ذلك، فان جمهور العرب المتجمعين على أرض القرية الخضراء عبسوا في وجوهنا بشكل شرير، حتى لقد سألني (فون جوتبرج) عما إذا كنت قد أحضرت مسدسي معي. وبطبيعة الحال كنت قد تركته في منزلي، وهذا يحدث دائماً، فإن هذا السلاح يمكن أن يكون قليل الفائدة لي إذا كان هؤلاء العرب من تلك الطبقة التي اشك الآن في انتمائهم إليها. ولم تكن أي من المجموعتين تشبه اجتماع القرية العادي، فلم يكن هناك تنوع كاف بينهم فيما يختص بالسن والحالة الجسمانية،فلم يكن بينهم متسول،أوضرير أو أعرج أو شيخ مترهل، ولم يكن بينهم غلمان يلعبون أو أطفال،ولم تكن هناك نسوة محجبات يستخرجن الماء من الآبار، وإنما كان كل هؤلاء العرب المجتمعون يبدو على محياهم العزم والتصميم، والقوة، فهم في شـرخ الشباب، بـاستثناء رجل عجوز له لحية طويلة رمادية وعيون براقة شلت حركتنا كمـا شلت نظرات «البحـار العجوز» ضيف العـرس. فالتهمتنـا نـظراتهم بـطريقـة تـدل على قلق وكراهية عظمين.

وفي أحد بساتين النخيل صادفنا شاباً ورجلاً مسناً، وكان من الواضح أنهما من أهالي البلد، وكانا يجمعان التمر من النخيل، وأعطاهما رفيقي قطعة

من العملة مشيراً إلى أنه يريد أن يشتري بعض الثمار، فملئوا قبعته، وعندما استدار لينصرف جرى الشاب وراءه، فظن (جوتبرج) أنه يطلب مزيداً من المال، ولكن ظهر ـ العكس ـ وأنه يريد أن يعطي رفيقي ملء قبعة أخرى من التمر.

وربما كانت هاتان المجموعتان من العرب هما تلك القوة التركية العربية، التي تسللت إلى ما وراء الايطاليين في تلك الليلة نفسها، ومزقت مجموعتين من البرساليري إرباً في الصباح التالي. وربما كانت أسلحتهم داخل المسجد والبيوت.

ولقد قمت أنا ورفيقي بهذه الرحلة لندرس الدفاعات الإيطالية في تلك الناحية، فكان (فون جرتبرج) ـ وهو رجل عسكري قلقاً للغاية بشأن قوة البرساليري في الميسرة، وقد خلص إلى أن شارع الشط لم تكن تحميه عدة مجموعات موجودة فيه فقط، ولكن أيضاً تحميه قوة قوية متمركزة في (عمروس)، ولكن لم يكن يوجد جنود في (عمروس).

وعند شارع الشط تجد طريقين متوازيين يؤديان إلى العمروس تاجوراء ولا يبعدان عن بعضهما كثيراً، وتحف بهما أشجار نخيل، ومزارع زيتون، وفيرة الثمر والطريقان يلتقيان بعد مسافة قصيرة من شارع الشط.

وطبقاً لما ذكره السنيور (بيفيوني) فقد ترك الطريق الممتد على طول ساحل البحر بدون حراسة بالمرة، حيث كان لدى البرساليري انطباع غامض بأن السفن الحربية الوافقة قبالة تلك النقطة كانت تراقبه، بينما كان الأسطول يعتقد أن البرساليري يحمونه، وربما كان سوء التفاهم هذا يرجع في جذوره إلى بعض الغيرة بين ضباط البحرية وفرقة المشاة المتبجحين، كما أن تشدد كلا الطرفين حال دون توضيح الأمور.

ولقد وجدت أنا و (جرتبرج) هذا الطريق بدون حراسة بالمرة، ولكن يبدو أنه كان تحت سيطرة فرقاطة إيطالية تقف على مسافة ميل تقريباً، ولكنها

تبدو أقرب من ذلك بسبب صفاء الجو وتألق ضوء الشمس.

ويعتقد السنيور (بيفيوني) أن العرب المقاتلين مروا بهذا الطريق الساحلي في مساء الثاني والعشرين من أكتوبر، وهم في طريقهم لمهاجمة المؤخرة الإيطالية. ويعتقد أيضاً أن الأربعمائة أو الخمسمائة رجل الذين حاولوا القيام بحركة التطويق هذه، مروا على دفعات بالخط الإيطالي، فبدأوا بالتسلل قبل يومين أو ثلاثة أيام، لكي يتخذوا مواقعهم بين النباتات الكثيفة.

ويقول (بيفيوني) أن هذه الفكرة لاقت القبول من كل الإيطاليين، وذلك نظراً لتلك الحقيقة الأليمة، وهي أنه «في صباح الثالث والعشرين لاحظ القائمون بأعمال المراقبة على ظهور السفن الراسية في الميناء تدفقاً سريعاً وغير عادي للعرب من الواحة صوب طرابلس على طول الطريق الذي يسير محاذياً للبحر، والذي كان خالياً تماماً وقتئذ من أية قوات.

وكان هؤلاء العرب من غير النظاميين الذين أتموا بهدوء تطويق أقصى جناحنا الأيسر، قد تقدموا إلى المواقع التي خصصت لهم في مؤخرة خطوطنا».

ويعترف نفس الكاتب بأن هذه القوات غير النظامية كانت «من عرب الداخل الذين لم يخضعوا لنا بالمرة. ولقد جندهم الأتراك، ودفعوا لهم الأموال باعتبارهم من قوات السلطان غير النظامية». بل إنهم «ربما كانوا تحت قيادة ضباط من الأتراك في زي عربي... وبعد ما جمّد الترك معظم قواتنا في أماكنهم في مواقع أخرى بواسطة هجمات مخادعة زائفة، بدأوا في الهجوم على خطوطنا عند شارع الشط، وقامت الفصائل العربية من قوات العدو التي نجحت في اختراق خطوطنا بإلقاء أنفسهم ضد مؤخرتنا، وبذلك أوقعتنا بين نارين. كما لم يكن من المستحيل أن يكون بعض الضباط الترك المتنكرين هم الذين نظموا وقادوا تلك المقاومة الشديدة، التي أبداها العرب عند تقاطع طرق (فشلوم) أي في أكثر النقاط ملاءمة من الناحية الاستراتيجية ضد التعزيزات القادمة من الفرقة الثانية والثمانين، ومنع هذه التعزيزات من التقدم».

وها هو أعظم المدافعين عن الجنرال (كانيفا) يعترف بأن هذه الثورة المزعومة التي قام بها عرب الواحة كانت ببساطة حركة تطويق ناجحة قامت بها قوات تركية غير نظامية.

فماذا عسانا نقول إذن عن هـذه الاتهامـات التي ظهرت في الصحف البريطانية عن «الأصدقاء» الذين ثاروا في مؤخرة من أحسن إليهم؟ لقد وصف (كبي) هذا القتال في عدد ديسمبر الماضي من مجلة (بلاك وود) فقال إنه في شارع الشط «نجحت قلة العرب في اختراق الخطوط الإيطالية»، وإن هـذه الحفنة أثارت بعد ذلك عصيانا وتمرداً بين العرب «الموالين».

ولكن الايطاليين أنفسهم يعترفون بأن هذا الهجوم على المؤخرة قام به نحو أربعمائة أو خمسمائة جندي عربي تابعين للسلطان التركي، واستطاعوا ـ نظراً للإهمال الشنيع من جانب القائد الإيطالي ـ أن يتسللوا ويحيطوا بهم عن طريق الساحل. وهكذا فإنه بدلاً من أن يكون الذين اخترقوا تلك الخطوط قلة من العرب أنضم إليهم مئات من الموالين.

فأين إذن الخيانة؟ وإين إذن التبرير لدمـوع الدم التي ذرفتهـا صحيفة (التيمس) وغيرها على هؤلاء الإيطاليين المساكين الذين أحسنوا الظن بالناس ثم إذا هم يهاجمون في المؤخرة غدراً من جانب العرب المسالمين الذين كانوا قد خضعوا لحكمهم وقبلوا الخبز من إيديهم؟

إنه من المغالاة في التوقع من الطبيعة البشرية أن نتوقع بقـاء جميع عرب الواحة على هدوئهم، فإن لديهم أيضاً شكاواهم، وهناك تقارير مستندة إلى أسس قوية عن إساءة الجنود الإيطاليين إلى النساء العربيات بشكل بذيء، وعلى إية حال فإنه لا بد أن المشاعر الوطنية والدينيـة حركت بعض عـرب الواحة سريعي التأثـر، عندمـا رأوا مواطنيهم المنتصـرين من عرب الصحـراء، وقد ظهروا بينهم يحملون البنادق في إيديهم. إن هناك مئات من الأسباب التي جعلت مثل هذه الردة أو التحول أمراً لا مفر منه، رغم أنني أشك في أن كلمة

«ردة أو تحول» هي الكلمة المناسبة للتعبير عن هذا الموقف. فهناك التعصب، وغريزة التقليد، والتأكد من حدوث نصر تركي حاسم، وحمي المعركة التي من المتعذر استئصالها من عقول العرب، والتعطش للأسلاب والغنائم.

إن من يحاول منع بعض الشباب العرب في الواحة من الانضمام لتلك المجموعة من مواطنيهم التي مزقت مجموعتين من أفضل الجنود في إيطاليا إرباً، أشبه بمن يحاول الوقوف في وجه سيل جارف يتدفق من أعلى التل. إن الجنرال (كانيفا) لا يستطيع أن يلومهم، لأنه إذا لامهم يكون أشبه بمن يلوم البارود على انفجاره عندما أشعل فيه عود ثقاب. لقد كان من الواجب عليه أن يمنع الثقاب من الوصول إليهم، وقد فشل في هذا الواجب بشكل واضح وإجرامي.

ومن المحتمل أن يكون بعض هؤلاء المتمردين من «الأصدقاء» قد أطلقوا النار على مؤخرة الإيطاليين، أو على الجنود الإيطاليين المعزولين، وقد اقتص منهم على ذلك قصاصاً عاد لا بإعدامهم. ولكن يجب أن يكون إيطاليا آخر دولة ترفع أيديها رعباً منددة بمثل هذه (الخيانة)، إنني لا أتعاطف مع الثوريين الإيطاليين إلاّ قليلاً، ولكن هذا النقابي القديم العنيف كيبرياني كان على حق في أن ينفجر غضباً، عندما تحدث بعضهم أثناء وجوده عن «الخيانة العربية».

فقد صاح قائلاً: «الخيانة ما الخيانة؟ هل يمكن أن نجد مغالطة أكبر وأكثر حمقاً من مغالطة الوطنيين عندما يتحدثون عن الخيانة؟ أنها هنا مسألة بلد يرسل جنوده بدون أي دافع مقبول إلى وطن شعب آخر، لكي يجعل من نفسه سيداً عليه. إنها مسألة شعب أرغم على الركوع والتعهد بالطاعة تحت تهديد مدفع جاهز لقصفهم واستئصالهم. ما قيمة وعد اغتصب في ظل هذه الظروف؟

إن الشعب الإيطالي يجب عليه على الأقل أن يتذكر أنه عندما كانت

النمسا مطبقة على أعناقنا، مثلما بالنمساويين مقلما يفعل العرب بنا اليوم، بل لقد فعلنا ما هو أكثر، لقد وجهت الطعنات إلى الجواسيس النمساويين، وكان على كل جندي نمساوي في أية حامية أن يلتفت جيداً وراءه خشية أن يغمد خنجر في ظهره، وكان عليه أن يهتم بعدم البقاء بعد حلول الليل خارج ثكناته، أو في أية حارة معزولة، أو على أي جسر، وإذا لم يهتم بذلك فإنه يكون متأكداً من أنه سيقتل، ويلقى بجثته في النهر، أو يرجم حتى الموت. وقد استمرت أعمال القتل إلى هذا المدى لدرجة أنه عندما رأى القيصر النمساوي حامياته في إيطاليا تعود إلى وطنها، وقد هلك معظم رجالها، صار يصيح عاما بعد عام، أن احتلال لمبارديا، والبندقيات، والدوقيات التابعة له، كلفته أكثر مما تكلفه معركة كبرى في الجبهة.

«خيانة من جانب العرب! أليست هذه هي الكلمة نفسها التي استخدمها أعضاء المجلس باسم قداسة البابا - لإدانة شهدائنا والحكم عليهم بالإعدام والأشغال الشاقة؟ ألم يكن ضحايا (سبيلبرج) والرجال الذين شنقوا في بلفيوري متهمين في الحقيقة بالخيانة بل وبالخيانة العظمى؟ ألم يحكم على والد أعز أصدقائي أرنستا كاسولا زعيم أهالي (برشي) خلال الأيام العشرة بجريمة الخيانة؟

ولكن اذا كانت النمسا قد أدانت هؤلاء الأبطال فقد مجدهم التاريخ وفي هذه السنة قامت إيطاليا بتمجيدهم رسمياً قبل وقت قليل من ذهابها الى طرابلس،لكي ترتكب من الجرائم ما هو أسوأ مما ارتكبته النمسا معنا».

«هناك حقوق معينة غير قابلة للتحويل إلى الغير، ومن بينها حق الدفاع ضد غاز طاغ بالغ القوة، انه ليس من الخيانة منازلته، وليس مهماً كيف يكون النزال ولا كيف تكون نتائجه».

ان هجوم العرب على الصليب الأحمر الإيطالي بالغت فيه صحيفة (التيمس) واعتبرته عملاً بربرياً، ولكن في بعض الأحيان كانت مستشفيات

الصليب الأحمر الإيطالي موجودة على خط النار فعلاً. وفي صباح يوم السادس والعشرين قمت مبكراً بزيارة الخط الإيطالي بين شارع الشط والهاني بينما كان القتال دائر الرحى، ووجدت مركزاً صغيراً للاسعاف ترفرف فوق علة أعلام للصليب الأحمر داخل حجرة للعرب على مسافة مائة ياردة من الجبهة. وكان من حين لآخر تمرق رصاصة عربية وتمرّ فوق هذا المستشفى، ولكن لم تركز عليه نيران ثقيلة رغم أنه كان من حق العرب مهاجمته، لأنه كان من الواجب ألا يكون في هذا المكان.

حقاً لقد هوجمت مستشفى للصليب الأحمر كانت تقع في داخل الواحة، ولكنني أشك فيما اذا كان العرب الذين هاجموها كانت لديهم فكرة عن وجود مرضى وجرحى بداخله. فإن العلم لم يكن يعني بالنسبة لهم إلا قليلاً، لأن بعض الأعلام الإيطالية كانت تحمل الصليب أيضاً. ومن المحتمل أن شعار المسيحية الذي يرفرف على الأسطح ملوناً بلون الدم الأحمر قد أيقظ في مخيلتهم ذكريات الصليبيين، وأنهم اعتبروا الجراحين الذين يحملون شارات الصليب الأحمر على أذرعهم ضباطاً من المرتزقة المسيحيين بالغي الشراسة. وفي عدد العاشر من أبريل من صحيفة (برلينز تاجبلات) ذكر الدكتور (جوبل) رئيس الهلال الأحمر الألماني الذي يعمل مع الترك في طرابلس، إنه هو ومعاونيه كان من الممكن أن يقتلوا على أيدي العرب، لو أنهم كانوا يحملون شارات الصليب الأحمر.

ومن ناحية أخرى فإنني على استعداد، لأن ألتمس العذر للجنود الإيطاليين الذين كثيراً ما أطلقوا النار ليلاً على النساء العربيات اللائي لا يعرفن اللغة الإيطالية، ولم يتوقفوا عن إطلاق النار عندما أمرهم الحارس بذلك. وتقص صحيفة (كورييري ديلا سيرا) قصة امرأتين قتلتا بهذا الشكل، وأخريين جرحتا يوم السادس عشر من أكتوبر. وفي الحرب ما أكثر أعمال القتل المحزنة، ولكن يمكن غفرانها، وهي التي لا مفر من وقوعها بأناس أبرياء.

وهناك مسألة محرجة بالنسبة للترك، وهي مسألة الزّي، فقد وجد أن بعض العرب الذين قتلوا في الواحة إنما هم في الحقيقة جنود أتراك يلبسون الزي التركي تحت الثوب العربي. وهذا يدل بوضوح على أنهم لم يكونوا من أولئك العرب المسالمين، ولكن (خونة) سمعنا عنهم كثيراً في الواحة.

وحتى لو تم القبض عليهم أحياء في مؤخرة الإيطاليين، فسيكون هذا مبرراً لاعدامهم بالرصاص طبقاً لقواعد الحرب، ولكنني أرى أن الضباط والجنود الترك الذين يحاربون في الصحراء ضد الإيطاليين لهم مطلق الحق في اختيار الزي الذي يريدونه. فإنه إذا لم يلبس الضابط التركي لباس أغلبية الأفراد الذين يقودهم فسيصبح هدفاً للرماة الإيطاليين، بل وربما يشتبه أمره على رجاله، فيظنون إيطالياً ويطلقون عليه الرصاص. وإلى جانب ذلك فإنه من المعتذر عليه تجديد زيه عندما يبلي، كما يتعـذّر عليه بنفس الدرجة أن يجعل جميع رجاله من العرب يرتدون الزي العسكري التركي.

* * *

الفصل الثامن

الدليل على المذابح

وبعد كل ما رأيت يوم السادس والعشرين من أكتوبر قررت أنني لا أستطيع البقاء مع جيش ذهب ليقتل على مثل هذا النطاق الواسع مثلما فعل الجيش الإيطالي، ولذلك قررت أن أعيد أوراقي كمراسل إلى الجنرال (كانيفا). لقد تقززت من المذابح وبخاصة من الطريقة التي سمحت بها السلطات الإيطالية للنساء والأطفال العرب المرضى لأن يموتوا على الأرض، لدرجة أنني كتبت خطاباً عنيفاً إلى الجنرال (كانيفا) ذكرت فيه أنني أرفض أن أرتبط بعد ذلك «بجيش، ولكنه ليس بجيش إنّه عصابة من قطاع الطرق والقتلة».

وفي يوم الثامن والعشرين من أكتوبر أطلعت المستر (الفاريز Alvarez) القنصل البريطاني العام على هذا الخطاب، ولكنه فزع لشدة اللغة التي استخدمتها ورجاني أن أعدلها، ووعد بأنني إذا عدلتها فإنه سيرافقني بنفسه لزيارة الجنرال وتقديم الاحتجاجات له شخصياً على الفظائع التي كنت شاهد عيان عليها. ورفضت هذا العرض حيث توقعت أنه لن ينجم عنه أي خير - مجرد زيارة جافة ووعد غامض بالتقصي، والتأكد من أنني سوف أطرد بطريقة مخزية خلال أسبوع استناداً إلى تهمة مختلقة ملفقة، وبذلك تضيع قيمة كل شهادتي بعد ذلك عن المذابح، ولكنني عدلت فعلاً لغة خطابي إلى الجنرال (كانفيا)، وفي الحقيقة مزقت الخطاب وكتب باللغة الأنجليزية خطاباً جديداً فيما يلي نصه:

طرابلس

في ٨ أكتوبر ١٩١١

إلى سعادة الجنرال كارلو كانيفا

قائد عام جيش الأحتلال.

يا صاحب السعادة.

أرجو أن أعيد إلى سعادتكم الأوراق المرفقة التي كنت قد تسلمتها من السلطات العسكرية هنا. ولما كنت أشعر أن من واجبي نقد المعاملة التي تلقاها الأهالي خلال الأيام القليلة الماضية، فإنني لا أستطيع أن أتقبل بعد ذلك أية منة أو معروف من السلطات التي أنتقد تصرفاتها.

وسأظل

على احترامي لكم.

فرانسيس ماكولا.

ولم أحصل على رد مباشر من الجنرال، ولكني سرعان ما تلقيت رسالة من الرقيب عن طريق مراسل آخر يدعوني للذهاب إلى مكتبة بالقلعة، وقد تلقى (فون جوتبرج) الذي كان قد أعاد هو الآخر أوراقه رسالة مماثلة. وقد قام كلانا بالرد على الرقيب برسالة باللغة الفرنسية، قلنا فيها بأدب إننا بعد أن لم نعد مراسلين معتمدين لدى جيش الأحتلال الإيطالي، فأننا لا نستطيع أن نحتفظ بعد الآن بأية علاقات رسمية مع الرقيب، ولا نستطيع زيارته بصفته الرسمية. ولكننا شكرناه على كل ما بذله من أجلنا، وقلنا إننا سوف نكون سعداء إذا رأيناه كشخص عادي في أي وقت. وإذا كانت السلطات الإيطالية تريد الاتصال بنا فإنها تستطيع أن تفعل ذلك عن طريق قناصلنا.

ولم نتلق رداً على هذه الرسالة، ومرت أيام قليلة بعد ذلك بدون أن نسمع شيئاً من الرقيب. ولم تبذل أية محاولة للتعجيل برحيلنا أو تأخيره، ولم يبد نحونا أية كراهية أو بغض. وقد حاول أحدهم ـ وهو السنيور (توليو جيوردانا Tullio Giordana) أن يتناقش معنا، ولم ينكر حقيقة قصتي، ولكنه قصّ علي قصصاً رهيبة عن قسوة العرب نحو البرساليري، ولقد بذلت محاولة أكثر جدية مع (فون جوتبرج) إذ حاول زائر إيطالي تكتنفه الأسرار والغموض أن يرتب لقاء معه عن طريق القنصل الألماني، وعندما أخفقت هذه المحاولة قام هذا الغريب بزيارة إلى بيت الترجمان الألماني، حيث كان يقيم صديقي، وطلب أن يرى (فون جوتبرج)، ولكنه رفض أن يرسل بطاقته، أو حتى أن يذكر أسمه والمهمة التي جاء من أجلها، وبناء على ذلك رفض زميلي أن يراه ولذلك فقد ظل لغزاً.

ومن مالطة أبرقت إلى لندن بقصة المذابح والحالة بوجه عام. وبعد وصولي إلى نابولي بأيام قلائل، وجدت أن هذه القصة قد أرسلت بالبرق مرة أخرى إلى الصحف هناك.

وفي بعض الصحف ظهرت رسائلي، وقد حرفت في ترجمتها تحريفاً مقصوداً ومبالغاً فيه، فعلى سبيل المثال ادعي على بأنني ذكرت أن القوات الإيطالية ذهبت تقتل كل الشحاذين العميان في المدينة، وذهبت صحيفة أخرى إلى أنني لا بد كنت مخموراً عندما كتبت رسالتي في مالطة، وتجاوز هجومهم العنيف شخصي، ونال المراسلين البريطانيين الآخرين الذين تجرأوا وأرسلوا رسائل مماثلة لرسالتي.

حتى لقد أكد السنيور (جيولِّيتي) أنه لا أنا ولا زملائي ذهبنا بالمرة إلى طرابلس، وأننا قمنا بتلفيق رسائلنا في مالطة. ويمكن العثور على هذا التأكيد في عدد (الكوريير ديلا سير) الصادر في ١٠ نوفمبر ضمن تقرير عن مقابلة أتاحها رئيس الوزراء للدكتور (كرستوفر بفلوم C. Pfium) مراسل صحيفة

(دويتش تاجز زيتونج) البرلينية.

لقد ذكر السنيور (جيوليتي) أنه «طول الحرب كلها كانت إيطاليا رفيقة للغاية أكثر منها قاسية، ولذلك فإنني استطيع أن أنكر تماماً الاتهامات بالقسوة التي وجهها مراسلو لندن وبرلين الذين لم يذهبوا إلى الجبهة وكانوا يعيشون في هدوء في مالطة».

ومنذئذ تكررت هذه القصة الخرافية حول وجودنا طوال الوقت في مالطة كررها الروائي (رتشاد باجوت Bagot) في خطاب نشرة في صحيفة (سبكتاتور) في ١٠ فبراير أكد فيه أن «الصحافيين وغيرهم ممن يصفون في لغة متقدة متوهجة القسوة في أخماد الثورة العربية كانوا يبعدون أميالاً عديدة عن طرابلس خلال هذا الاخماد. أما القلة من الصحافيين والمدنيين الآخرين الذين كانوا حاضرين فقد شهدوا بالاجماع بأنه لم يحدث على الأطلاق شيء من أعمال القسوة هذه».

ولا حاجة بي إلى القول بأن المستر (باجوت) مخطىء فإنني أستطيع أن استدعي مئات من الشهود، ليثبتوا أنني كنت في طرابلس حتى نهاية أكتوبر الماضي.

وسوف أذكر واحداً منهم فقط وهو السنيور (توليو جيوردانا) مراسل (نيورك هيرالد) في طرابلس. ولما كان السنيور (جوداني) مناصراً قوياً لهذه الحرب. فقد هاجمني في صحيفة (نيورك هيرالد) في باريس في التاسع من نوفمبر، ولكنه أعترف بأنني كنت في طرابلس عندما وقعت المذابح، وأنني أعدت - بأختياري - أوراقي إلى الجنرال (كانيفا) كنوع من الاحتجاج على هذه المذابح.

وقد شهد جميع المراسلين الإيطاليين تقريباً الذين كانوا في طرابلس في نهاية أكتوبر هذه المذابح ووصفوها، فإذا أخرجنا الإيطاليين من الموضوع باعتبارهم شهوداً متحيزين ومتحاملين، فإننا نجد أن الرفض جاء معظمه من

الصحافيين والقصصيين وغيرهم ممن يعيشون في إيطاليا وفرنسا وأنجلترا. ومنهم السنيور (ماركوني) واللورد (روبرتس) والمستر (رتشارد باجوت والمستر (جارفن) من (بال مال جازيت) ودوق (ابروتزي). فلقد بعث لويجي ـ (دوق ابروتزي) ـ بالرسالة التالية من تارانتوا إلى (نيورك أمريكان).

«إن سخطي لا حدود له على الاتهامات التشهيرية التي أثارتها بعض الصحف في نيورك ضد القوات الإيطالية في طرابلس. وفي الحقيقة فإن معاملة قواتنا للعرب كانت إنسانية إلى أقصى حد، وكانت سفقتهم بالعرب هي السبب في متاعبهم. إن سلوك هؤلاء العرب بانقلابهم على الإيطاليين ومحاولة ذبحهم بعد استقبالهم ومساعدتهم على أساس الصداقة والمساواة إنما يعتبر خيانة دنيئة. وإنني لأرجو أن تظهر صحيفة (نيورك أمريكان) هذه الحقائق بشكلها الصحيح أمام الرأي العام الأمريكي العظيم، وهي الصحيفة المعروفة بتعاطفها مع كل الشعوب المهمتة (بالقتال من أجل قضايا العدل والحق)».

ولقد اقتبست هذه البرقية بالكامل لأنها نموذج لكل البرقيات الأخرى. وقد أوردت عبارة (التي تقاتل من أجل العدل والحق)، لأنها تدعو للسخرية إذا ما استخدمت بالطريقة التي استخدمها بها الدوق، ليصف بها إجراءات وتصرفات الجنرال (كانيفا) في طرابلس. لقد كان الدوق في تارانتو عندما وقعت المذابح، فما الأساس الذي تستند عليه شهادته إذن حتى ولو كان دوقاً لعشرمرات؟

وماذا يمكن أن تكون قيمة هذه الشهادة في محاكمة على جريمة قتل خاصة وأن كل الناس الذين كانوا في الموقع قد شهدوا الجريمة وأجمعوا على نسبة الجريمة إلى شخص واحد؟ إن الإنكار الهستيري من جانب هذا الرجل نفسه، ومن أقاربه، ومن المعجبين به في بلاد بعيدة اعتبر أنه لن يكون له إلا تأثير بسيط على المحلفين الأنجليز.

ومن أبرز الصحافيين الذين أنكروا المذابح المسيو (جان كارير Jean)

Carreve مراسل صحيفة (الطان Temps) في روما، وسوف أعتبر حالته نموذجاً ومثالاً:

لم يكن مسيو (كارير) في طرابلس عندما حدثت المذابح، إذ بينما كنت أقيم في نابولي في أوائل نوفمبر في طريق عودتي من طرابلس لاحظت أن كل الصحف الإيطالية حافلة بما أسموه تبرئة تامة لشرف إيطاليا، وهتك فاضح لضعف إيمان وجهل هؤلاء الأنجليز من عملاء الترك، الذين اتهموا قوات الجنرال (كانيفا) بقتل العرب الأبرياء. إن كلمة (تبرئة) هذه كتبت خصيصاً من أجل الصحافة الإيطالية، وكانت من قلم مسيو (حان كارير)، وأخذت شكل مقالة طويلة تؤكد بلغة بالغة العنف والغطرسة أن المذابح لم تحدث، ويعيد إلى الأذهان كل «الأعمال الوحشية» التي ألصقت بانجلترا منذ إحراق (جان دراك)، واعتقد أننا نحن الصحافيين الأنجليز قد صرنا متهمين فجأة بأننا كاذبون، حانثون بالقسم محتالون، وجواسيس. ولقد زار مسيو (كارير) طرابلس بعد بضعة أسابيع، وهو الآن أعظم مصدر عن (قمع الواحة الذي لم يره بعينه.

وشاهد آخر هو مراسل (نيورك هيرالد) في باريس فإنه عندما نشرت قصتي عن المذابح في (وستمنستر جازيت) أبرق رئيس تحرير (نيورك هيرالد) إلى مراسله المحلي، لكي يتقصى روايتي. وقد أشرت من قبل إلى أن هذا المراسل رجل إيطالي متطرف لم يكن بالتأكيد ليظهر نحوي أية رحمة لو أن ما قلته كان غير صحيح. ولكن لما كان لا يستطيع انكار ما كتبت، فقد اكتفى بالقول بأنني فشلت في أن أضع في أعتباري الإثارة التي تعرض لها الإيطاليون. ويمكنني أن أضيف أنه لو لم أكن في الواحة في ذلك اليوم لكان بالتأكيد قد أبرق بهذه الحقيقة إلى (الهيرالد)، ولكان من السهل التأكد مما إذا كنت طوال اليوم في المدينةأولاً، حيث إن طرابلس مكان صغير، وليس فيها إلا فندق واحد صغير تجمع فيه كل المراسلين تقريباً في ذلك الوقت. وإنني أشير إلى هذه النقطة لأن المستر (رتشارد باجوت) أعلن بعد ستة أشهر من

مجلة (الوطن Alation) أنني لم أكن بالواحة بالمرة في ذلك اليوم، وهذا الاتهام لمُ يوجه من قبل، ولذلك ألم يكن من الممكن توجيهه من جانب الأربعين مراسلاً إيطاليا إذا كان صحيحاً؟.

ولكن أشد ما قيل في ذلك الوقت ضد أصدقائي، وضدي، إنه لم تكن لدينا الشجاعة للخروج خارج الخطوط الإيطالية إلى الصحراء لمشاهدة الطريقة التي مثلت بها جثث القتلى الإيطاليين.

ولقد ذكر السنيور (لويجي بارتزيني) هذه الواقعة في عدد ١٣ موفمبر في صحيفة (كوريري ديلا سيرا) وأعتقد في عدد نفس اليوم من صحيفة (ديلي تلغراف). ولكن كما أشرت، وأوضحت من قبل، كان هناك قتال دائرة عندما قمت بزيارة المراكز المتقدمة، وعدت إلى الواحة وشاهدت المذابح. وقد ظل المستر (بارتزيني) وأصدقاؤه في الجبهة، ولم يشاهدوا المذابح. ولدي من الأسباب، لكي أعتقد أيضاً أن بعض زملائي الإنجليز - الذين حاولوا فيما بعد أن يتخذوا ما ظنوه موقفاً معتدلاً حصيناً - كانوا هم أيضاً في الجبهة، ولم يشاهدوا إلّا أقل جانب من المذابح التي وقعت في المنطقة بينهم وبين المدينة. إن هذا لكثير بالنسبة لمراسل (الهيرالد).

وهناك شاهد ثالث هو المستر (مارتن دونوهو M. Donohoe) مراسل (الديلي كرونيكل)، وقد نقل المستر (دونوهو) أولاً في صحيفة (ستامبا) التي تصد في تورين ثم بعد ذلك في كل أيطاليا قوله أنه لم تكن هناك مذابح على الأطلاق، وقد علقت الصحيفة الإيطالية أهمية كبيرة على شهادته، فأعلنت صحيفة (كوريري ديلا سيرا) أن شهادته عظيمة القيمة، وأن المستر (دونوهو) قد رد للجندي الإيطالي اعتباره. وفي عناوين الصحف الصارخة التي أبرزت هذه الشهادة نقرأ أن رجلاً إنجليزياً صادقاً قد استطاع في النهائة القضاء على هذا الإفتراء.

ولكن المستر (دنوهو) كان قد غادر طرابلس قبل تاريخ وقوع المذابح،

وعندما تحدثت بالنيابة عنه صحيفة (الكرونيكل) أنكرت علناً ورسمياً أنه أصدر هذه الشهادة بالشكل الذي نسبت به إليه. ولكنني أفترض أنه رغم هذا الإنكار فإن المستر (دونوهو) لا يزال يمثل في إيطاليا واحداً من الإنجليز الشجعان الصادقين، الذين أعلنوا أنه لم تكن هناك مذابح.

وربما كان هناك شهود آخرون على نفس النمط من الإيطاليين الذين يمثلون صحفاً بريطانية في طرابلس. وبقراءة شهادة هؤلاء الرجال دون معرفة أسمائهم، ربما يكون لدى القارىء الإنجليزي العذر في الأعتقاد بأن مجموعة كبيرة من الصحافيين الإنجليز والأمريكان ينكرون المذابح. وهؤلاء الإيطاليون الذين يمثلون الصحافة الإنجليزية كان من الممكن إن يطردوا من طرابلس فوراً إذا أكدوا التقارير حول المذبحة. ولكن إنصافاً لهم فإنني لا أعتقد بأنه قد كان لذلك تأثير كبير عليهم، فقد كانوا طوال اليوم في الخارج، في الجبهة حيث كان القتال يدور، وحيث لا توجد مذابح، وإذا رأوا تلك «المذابح التي جرت بدون تفرقة» والتي يشير إليها مراسل (التيمس)، فهم إما أنهم ينظرون إليها من وجهة نظر تختلف عن وجهة نظرنا وإمّا أن الغضب بلغ بهم مبلغاً اعتبروه خيانة من العرب، بحيث أصبحوا غير قادرين على الحكم على الأمر حكماً غير متحيز. أما بالنسبة للمراسلين الإنجليز فأنهم لو أخفوا الحقيقة لاستطاعوا البقاء في طرابلس مدة طويلة، يتمتعون بكرم الضباط، وإعجاب الوطنيين الإيطاليين في كل أنحاء العالم. إلا أن كشفهم لما حدث أدى إلى نفيهم ليس من طرابلس نفسها ولكن من جو إيطاليا الجميل إيضاً. حيث كان من الممكن لهم أن يستمروا يمثلون صحفهم، ولكنهم نفوا (إذا جاز لي أن أستخدم هذا التعبير) إلى لندن القاتمة بضباب نوفمبر.

ولقد أعطيت الآن الشهادة عن الجانب الإيطالي، وهي تكاد تكون شهادة غائبين، فماذا لدينا عن الجانب الآخر؟ لدينا إنجليز، وإيرلنديون، وسكوتلنديون، وألمان، ونمساويون، وفرنسيون، محايدون، وغير منحازين، وكانوا جميعاً في طرابلس عندما وقعت المذابح وشاهدوا ـ وهم يشعرون

بالأسف والفزع ـ هذه المذابح. لدينا مستر (أليسس اشميد بارتلت) مراسل (رويتر)، ولدينا مستر (جرانت)، وهولنـدني حكيم متمّسك برأية من أصـل أسكتلندي، وكان تواقاً للبقاء في طرابلس، ولذلك لم يقـل الكثير في حق مضيفة بقدر الأمكان، ولكنه شعر بأنه يرتكب جريمة إذا ظل صامتاً. ثم لدينا مراسل (التيمس)، ومراسل (الديلي تلغراف)، ومراسل (وستمنستر جازيت) وهؤلاء جميعاً كانوا بريطانيين، وبعبارة أخرى فإن كل المراسلين البريطانيين قالوا إن القتل الوحشي الغشوم قد حدث فعاً.

حقاً إن مراسل (التيمس) لم يذهب إلى المدى الذي ذهب إليه بقيتنا . وذلك لأنه كان في الجبهة، ولم ير إلا جانباً ضئيلاً من المذابح التي ارتكبها الإيطاليون في الواحة، ومع ذلك، فإنه حتى هو أعلن أن أجزاء من الواحة قد تحولت إلى «مجازر بشرية»، وأنّ الإيطاليين قد نصبوا أنفسهم لترويع العرب، وقد فتحت أبواب التعطش لفيضان الدماء، وفي معظم الحالات خرج الرجال عن السيطرة، وعانى الأبرياء مع المذنبين على السواء». وقد كتب المستـر (بنت بيرلي) في (الديلي تلغـراف) عن عرب الـواحة الأبـرياء، فـأعلن أن «الكثيرين قد قتلو بوحشية وبدون أي استجواب».

ومع ذلك فإن الجنرال (كانيفا) ينكر أن عربياً واحداً بريئاً قد قتل، بينما المستر (رتشاد باجوت) يبلغنا أن «البحث والتقصي والتفتيش البالغ الدقـة، الذي قام به ضباط ومدنيون إيطاليون من ذوي المكانة، قد فشل في إثبات حالة واحدة أسيئت فيها معاملة أي عربي، أو قُتِل، ما لم يكن قد ثبتت عليه الخيانة».

فإذا كان ذلك صحيحاً فلا بد أن جميع المراسلين غير الإيطاليين قد زيفوا (فبركـوا) الأخبار التي أرسلوهـا. ولكن أي قارىء صحب المـراسلين الحربيين في الميدان سوف يشهد بأنهم لم يفعلوا ذلك. إن العمل الجماعي من جانب أطباء، ومحامين أو رجال دين من أية طائفة أمر ممكن، ولكن، نظراً لـطبيعة دعـوتهم، فإن عمـلاً مشتركـاً من هذا النـوع من جانب المـراسلين

الحربيين أمر غير ممكن. فإن الهدف الأعظم والأساسي لكل منهم هو أن يسبق غيره بخطوة، فإذا أرسل أحدهم أنباء مزيفة، فإن الآخرين لن يتوانوا في اتهامه وتكذيبه.

وأنا لا أهتم بالحديث عن شهادتي، ولكن مقالاتي إلى (وستمنستر جازيت) التي أعيد نشرها في هذا الكتاب تظهر أنني عندما وصلت إلى طرابلس كانت تحتوي على تحيز قوي لصالح الإيطاليين.

وعندنا من المراسلين الألمان الهر (فون جوتبرج)، وهو ضابط بروسي له صلة قوية مع صحيفة (لوكال انزيجر)، ويتمتع بسمعة عالية في برلين، كناقد عسكري. وبالأضافة إلى (فون جوتبرج)، لدينا خمسة آخرون من الألمان، ليسوا إيطاليين محليين، يكتبون لصحف ألمانية، ولكنهم ألمان مرتبطون ارتباطاً دائماً بأعظم الصحف في وطنهم، وفي أمبراطورية النمسا والمجر.

وبعض هؤلاء الألمان رجال ذوو مقام عال، اثنان منهم ضباط عسكريون، وأحدهم وهو الهر (كراوس) دكتور في الفلسفة، وأثنان منهم يتكلمان اللغة العربية بطلاقة. وإلى جانب هؤلاء كان هناك القنصل الألماني الدكتور (تلجر)، وهو رجل قدير للغاية، يعرف اللغات الإيطالية، والتركية، والعربية، ومتفوق في كافة النواحي على زملائه القناصل دائماً، يوصف في القارة الأوربية بأنه يمثل أعظم سلطة في أي مظهر من مظاهر الحياة في طرابلس. والدكتور (تلجر) يعرف الإيطاليين معرفة جيدة، فقد عاش عشرين سنة بينهم، كما أنه يعرف العرب جيداً، ولذلك فقد كان في استطاعته أن يحصل من مصادر عربية على معلومات دقيقة عن الفظائع التي لم يعرف المراسلون عنها شيئاً. وقد علمت أن تقريره ـ الموجود الآن في برلين يؤكد كل كلمة ذكرتها أنا في (وستمنستر جازيت) و (الديلي نيوز) حول مسألة المذابح. واعتقد أنها تذهب إلى أكثر مما ذهبت. وإلى جانب شهادة دكتور (تلجر) لدينا

شهادة ترجمانه الذي يتحدث هو الآخر الإيطالية، والعربية، والتركية، بالاضافة الى الألمانية، كما أنه تجول وسط العرب، وتحدث معهم خلال أيام المذابح.

ومن المراسلين الفرنسيين لدينا المسيو (كوسيرا Cossira) الذي أوردت شهادته في مكان آخر.

وإذا كان الإيطاليون لم يقتلوا عربياً واحداً بريئاً كما يقول مستر (رتشارد باجوت) وغيره من المدافعين، الذين يقدمون التبريرات لوجهة النظر الإيطالية، إذن فإن قصة المذبحة كانت عملية تشهير فاضح جسيم، لدرجة أنه كان من الممكن أن ينكرها ويكذبها أي أجنبي في طرابلس، فلماذا لم تذهب الحكومة الإيطالية والصحف المناصرة لإيطاليا في هذه البلاد (إنجلترا) إلى طرابلس نفسها من أجل الحصول على الأدلة؟ لماذا لم يلجأوا إلى الجهاز القنصلي وإلى المقيمين من الإنجليز والألمان في مدينة طرابلس؟ ولماذا لجأوا - بدلاً من ذلك - إلى أناس لم يكونوا في طرابلس في ذلك الوقت؟ السبب أنهم كانوا يدركون جيداً أن جميع الأجانب في طرابلس يعلمون بالفظائع.

ولو لم تكن هناك فظائع لقال القنصل الإنجليزي في طرابلس ذلك، ولكنه بدلاً من ذلك، أرسل إلى وزارة الخارجية تقريراً بأنه قد وقعت فظائع. وقد وجهت إليه الصحافة الإيطالية السباب، وشوهت سمعته لإرسال هذا التقرير. وبينما كان الجنرال (كانيفا) يقيم صلاة شكر في الكاتد رائية احتفالاً (بنصره)، فإن أربعة من المراسلين الإيطاليين (وهم بارزيني، وكاستلليني، بياتزا ودي فرنزي) كانوا من الوقاحة بحيث دخلوا القنصلية الإنجليزية، لكي يستجوبوا بشدة القنصل الإنجليزي العام بشأن هذا التقرير المذكور. ولقد كان لدي القنصل المبرر إذا طردهم، ومع ذلك فقد أوضح لهم أن تقريره لم يكن يقصد نشرة.

والبرقية بشأن هذا الحادث تحمل تاريخ (طرابلس في الرابع عشر من

نوفمبر) ونشرت في (الكوريري ديلاسيرا)، وسوف يلاحظ أن المراسلين الأربعة المذكورين أعلاه لم يبذلوا أية محاولة على الأطلاق لإنكار المذابح، ولكنهم يقولون فقط إن وثيقة (بارتلت ديفير جرانت) «غير شريفة، لأنها لم تذكر الحقائق التي جعلت قمع الثورة العربية أمراً ضرورياً وملحاً للغاية، ولأنها أغفلت ذكر أعمال القمع الأكثر شدة، والتي يحفل بها التاريخ الاستعماري الإنجليزي».

وقد رد القنصل الإنجليزي العام بشجاعة على الجزء الأخير من هذه الرسالة بأن «أنجلترا تشعر بالخجل من أعمال القمع هذه التي جاءت في التاريخ الاستعماري الإنجليزي». وقد سخر السنيور (لويجي بارزيني) ـ الذي بعث بهذه الرسالة ـ من ممثل انجلترا «الذي قال إنه خَجِل من مسلك أمته خلال أعظم حروب الفتح».

وبطبيعة الحال لقد سحب هذا القنصل العام الشجاع الصريح وأرسل، إلى مكان آخر، وحل محله موظف من الأستانة كان خلال السنوات الثلاث الأخيرة في خلاف وصدام مع رجال تركيا الفتاة. وهكذا يستطيع الدبلوماسيون البريطانيون في باريس وفينا أن يسخروا، وهم مطمئنون من حكومة الأحرار الحالية، وأن يعتذروا نيابة عنها، وأن يشيروا إليها باعتبارها مؤقته. وهم يلقون التشجيع من السير (ادوار جرايّ)، ولكن إذا ما قال قنصل إنجليزي عام كلمة جريئة وأمينة لا تمثل فقط جوهر اللبرالية، بل وتمثل أيضاً آراء تسعة وتسعين في المائة من المحافظين في الجزر البريطانية، فإن السير (إدوار جراي) سوف يناله الرعب فوراً، ويرضخ للاحتجاجات الإيطالية، ويصيبه الذعر لدرجة تجعله يستدعي هذا القنصل.

لقد حدث الجدل بين المراسلين الإيطاليين والقنصل العام البريطاني في موقع الأحداث، أي في طرابلس ذاتها، وسوف يلاحظ أنه في طرابلس لم يحاول الإيطاليون أن يقولوا بأنه ما من عربي واحد قد قتل بغير حق، مثلما يقول المستر (رتشارد باجوت) وغيره ممن كانوا بعيدين عن مسرح الأحداث،

ويقوم دفاع الإيطاليين في طرابلس على الأمور التالية:

١ ـ «لقد هَاجَمنا العرب غدراً وخيانة».

٢ ـ «وأنتم يا معشر البريطانيين فعلتم ما هو أسوأ من ذلك في حروبكم الاستعمارية».

وبالنسبة للحجةالثانية أرد بقولي بأن الخطأين لا يكونان صواباً، أما بالنسبة للحجة الأولى، فإنني أرد بأنه إذا كان العرب قد أخطأوا فما كان يجب أن يخطىء الإيطاليون. ولكن العرب لم يقوموا بهجوم غادر على مؤخرة الإيطاليين، وأرجو أن أكون قد أوضحت هذه النقطة.

وهكذا فإن كل أعضاء السلك القنصلي المحلي عرفوا أنه فقد ارتكبت فظائع،وكان كل المراسلين غير الإيطاليين شهوداً على هذه الفظائع.

ويمكنني بأن أضيف أن كل الأدلة التي أوردتها لإثبات وقوع المذابح جاءت من أشخاص على صلة بالجيش الإيطالي، فإن كل المراسلين البريطانيين والألمان الذين ذكرتهم حظوا بتصاريح من الجنرال (كانيفا)، وعلى ذلك فقد كان من المحتمل ألا يقدحوا في الجيش الإيطالي، بل يغلقوا أعينهم عن أخطاء ذلك الجيش، ويعملوا على إثارة كراهية العرب. هذه هي دائماً الحالة في الحرب، وبخاصة في حرب ضد عدو متعصب شرس، فالمراسل يميل بطبيعة الحال إلى تصديق أي شيء كريهة وسيء عن العدو، والتماس العذر لأي عنف وشراسة من جانب مضيفية. وبهذه المناسبة فقد امتنعت عن الأخذ بأية شهادة تركية ضد الإيطاليين، أو حتّى شهادة إنجليز يناصرون الجانب التركي.

وثمة كلمة ختامية عن الفظائع العربية المزعومة، إنه من الممكن طبعاً أن يقوم العرب ـ وقد استولى عليهم الغضب بسبب المذابح التي أنزلها الإيطاليون بأقاربهم ـ بالانتقام فيعذبوا ويشوّهوا من يقع في أيديهم من الغزاة،

ومع ذلك،فإن هناك بعض النقاط المتصلة بهذه القصة تحتاج إلى إيضاح. لا يكفي أن يحاول كل المراسلين الإيطاليين، وبعض الإنجليز جعل شعر رؤوسنا يقف من هول القصص المروعة عن التمثيل بجثث الموتى الإيطاليين، فإن بعض المراسلين يميلون إلى كتابة ما يرضي الجيش الذي يرافقونه حتى يسمح لهم الرقيب ـ مقابل ذلك ـ بعقد مقابلات خاصة مع رؤساء الجيش، والسماح لهم بالحصول على أخبارهم قبل غيرهم. كما أن رجال الأعمال الأجانب المقيمين في مكان مثل طرابلس لابد أن يسرعوا إلى الصحافة يؤيدون الغزاة بجنون، لا لأنهم يحبون العدالة، ولكن لأنهم يريدون الوقوف إلى جانب القادمين الجدد والاستفادة منهم تجارياً.

ورجل الأعمال الذي أقام في هذه البلاد بصفة دائمة لمدة أربعين سنة يعتبر في الغالب ممثلاً ذا قيمةمشكوك فيها لصحيفة ما إذا أنه عندما يتذكر اسم الصحيفة التي يمثلها، ويخصص دقائق من أجل إملاء برقية سريعة لها، فإنه من المحتمل أن تكون هذه البرقية متأثرة بدون وعي بما يشغله من الأعمال. ويستطيع الإيطاليون أن ينزلوا الخراب بأي رجل أعمال في ولاية طرابلس لا ينحاز إلى جانبهم بشكل فعال ومؤثر دون أن يعرضوا أنفسهم للاتهام بالتحيّز أو المقاطعة إذ من الموكن نهب قوافله سراً، وجعل عملائه ينفضون عنه، وقد يجد نفسه معزلاً عن تيارات التجارة المحلية. ومع ذلك فإن مثل هؤلاء الرجال في بعض الأحيان لا يخدمون صحيفة واحدة، بل عدة صحف، وأنّ بعثة الصحافة الحديثة يحكمها الجنون من أجل النبأ المثير، كما يحكمها الجنون والتهالك من أجل الإشارة إلي ممثل الصحيفة بوصفه «مراسلنا الخاص» في كل ركن من أركان المعمورة. وهذا الجنون الأخير يتطلب كثيراً من استخدام رجال الأعمال الذين يختلفون عن (المراسلين الخاصين) الحقيقين في أمرين:

١ ـ أنهم يضعون مراعاة مصالحهم وأعمالهم في المقام الأول.

٢ ـ أنهم سيبقون بعد ذلك في مكانهم يواجهون منتقديهم بفظائع العرب

التي أرسلها من طرابلس مراسلون ربطوا أنفسهم بالإيطاليين، وتقاريرهم معرضة لشك كبير في الحالة التي نبحثها حالياً كما أشرت قبلاً.

وفي الثامن والعشرين من أكتوبر أخلى الإيطاليون الهاني بعد أن دفنوا هناك قتلاهم الذين ماتوا في معارك الثالث والعشرين والسادس والعشرين. وبعد أن عادوا إلى الهاني بعد شهر، أي في السادس والعشرين من نوفمبر وجدوا أن بعض جثث الموتى قد أخرجت من قبورها. والآن، حتى إذا سلمنا بأن العرب قد أخرجوا هذه الجثث لانتزاع ملابسها، وهو أمر ليس بمستبعد منهم - فإن هذا لا يتضمن شيئاً رهيباً مرعباً، فإن العرب شعب فقير، يعتبرون الملابس والأزرار والحليات المعدنية بمثابة جواهر غالية الثمن.

إنني أتذكر كيف أن جندياً عربياً سافرت معه في أعماق مراكش كان يحتفظ بعلبي الفارغة (التي كانت تحتوي على لحوم محفوظة)، لكي يجعل منها فنجانين، وكما يقول المستر (أرنست بنت) «فإنه إذا كان الأحياء في حاجة شديدة إلى الملابس والأحذية فلماذا ندفنها في الأرض؟» وحتى إذا كان قد جرى تشويه وتمثيل بالجثث بعد ذلك، فإن هذا ليس بأسوأ من القتل الجماعي لأناس أبرياء تورّط فيه الإيطاليون. ولكن الإيطاليين يعلنون أن هذه الجثث لم تكن جثث الجنود الذين دفنوا، ولكنها جثث لجنود أسروا أحياء، ثم عذبوا حتى الموت. وهم يصفون تعبيرات الألم البادية على وجوههم، ويقصون كيف أن الجفون في إحدى الجثث قد خيطت إلى بعضها، وكيف أن جندياً آخر يبدو أنه دفن حياً، وثالثاً تم صلبه، وقد أحضر الإيطاليون جماعات من الصحفيين الأجانب ليشاهدوا بأنفسهم هذه المناظر البشعة، كما قاموا بالتقاط الصور لها، كما نشروا باللغة الإنجليزية وربما بلغات أوربية أخرى أوصافاً مدعمة بالصور لهذا الأكتشاف.

ولقد كنت أشعر - قبل وقت طويل - أن أكتشافا كهذا سوف يطلع علينا، وحتى في السادس والعشرين من أكتوبر سمعت الإيطاليين يصفون التمثيل والتشويه الذي لم يكتشفوه إلا بعد شهر. وإذا وضعنا في الاعتبار المكر

والخداع الشاذين اللذين يصادفهما المرء أحياناً في الصقليين والنابوليين، ممّا لاحظته بنفسي في طرابلس، فإننا يجب ألا نسرع في تصديق القصص الرهيبة المثيرة عن شراسة العرب التي طفحت بها الصحافة الإيطالية كتيار مضاد.

وإلى جانب ذلك فإنه من المشكوك فيه جداً أن تظل تلك التشوهات التي يصفها المراسلون الإيطاليون باقية لمدة شهر في هذا الجو الحار المطير بمثل هذه الحيوية وبمثل هذه التفاصيل، وكذلك مسألة خياطة جفون العين وغير ذلك. فإن التحلل يحدث بسرعة ويساعد عليه ما تحدثه الكلاب، والطيور، والحيوانات المفترسة التي تقتات على الجيف، ويحدثنا مراسل صحيفة (الديلي ميل) في طرابلس عن «تعبير الشجن على الوجوه» على وجوه الجثث التي تعرضت طوال شهر كامل لمثل هذا المناخ. أليس ذلك شيئاً يدعو إلى الضحك والسخرية؟

لقد تحدثت من قبل عن المراسل العسكري لصحيفة (التيمس) في طرابلس، وأوضحت كيف أنه كان من أنصار إيطاليا حسناً، فإنه عندما كتب هذا المراسل في عدد يناير ١٩١٢ في مجلة (بلاك وودز ما جازين) كان يرى أن قصص فظائع العرب «مبالغ فيها»... «فإن الرجال الذين يقال إنهم دفنوا أحياء يحتمل أن يكونوا إيطاليين أخرجهم الترك من قبورهم على عجل لأسباب صحية. وإنه من الممكن جداً أن بعض ما سمي تمثيلاً وتشويها كان يرجع إلى قطعان الكلاب التي تعج بها الواحة، وعلاوة على ذلك فإنه من الصعب الاعتقاد بأن أدلة وشواهد القسوة التي وصفتها في الصحف الإيطالية يمكن أن تعيش وتبقي بدقة التفاصيل التي ذكرت، بعد التعرض لمدة شهر لشمس شمال أفريقيا وأمطارها الجافة».

ويشير مراسل (التيمس) إلى جماعات الكلاب التي تملأ الواحة «ونظراً لتحطيم كل المنازل في الواحة فعلاً فلا بد أنه كانت هناك مثل هذه الجماعات

من الكلاب، ولا بد أنها كانت تتضور جوعاً، وأمام ذلك لم يكن هناك شيء أكثـــر احتمـــالاً للحـدوث، من نبش الرمـال الخفيفة التي تغـطي الجثث الإيطالية. وفي عدد (سيكولو) الصادر في ٢٩ نوفمبر نجـد دليلاً يؤيـد هذه النظرية، وهو مأخوذ من (جورنال دي سيسيليا) التي يقدم مراسلها في طرابلس الوصف التالي لدفن أحد جنود الصليب الأحمر:

«لقد دخلت مدفن (المسلمين) مع بادي فروج، وهو صياد سمك عربي صـديق لي. . . وفجأة لفت انتبـاهي قبر يبـدو جديـداً، وعليه بعض سعف النخيل ما زال أخضر، وعلى القبر لوحة صغيرة تحمل هذه الكتابـة باللغـة الإيطالية: «اميليو ماتو سبيلي، جندي من الصليب الأحمر الإيطالي، مات في الخامس عشر من أكتوبر ١٩١١».

وقد لاحظ بادي فروج دهشتي، ولما كان يشبه الصحيفة الحيّة، ويعرف كل شيء مما يحدث، فقد قال لي: «لقد كان هذا جندياً صغيراً، ومات من المرض، وهو يعتني بإخوانه. وقبل وفاته بقليـل تلقى رسالـة من أمه وقد جلس جندي آخر بجوار سريره وقرأ عليه الخطاب. وكان الموت يقترب منه فقـد كانت عين الجندي الإيطالي الصغير معتمة، ولكن قلبه كان ما يزال ينبض، وكانت كلمات خطاب أمه تسبب له الاضطراب، فقد كانت أمه لا تعرف أنه مريض فقـالت إنها تتوقع عودته إلى جبال بلاده في صحة جيـدة، وبشعور بالرضا والارتياح لادائه واجبه».

ومات الجندي ولكن رفاقه «لم يرغبوا في دفنه على شاطىء البحر حيث تحفر الكلاب الأرض وتمزق الجثث إرباً».

لقد جزع شيخ المسلمين في هذه المنطقة على هذا الجندي المريض الذي ـ كان بالمناسبة ـ من أهالي بيد مونت، وطلب الشيخ من الإيطاليين أن «يحملوا رفات زميلهـم إلى مدافننا في باب الصديد،وقال إنكم تستطيعون أن تجدوه دائماً هناك إذا أردتم إعادته إلى إيطاليا». وقد علمنا أن الجنود «سروا

لذلك سروراً عظيماً وشكروا الشيخ» ثم قاموا بدفن زميلهم في مدفن المسلمين، وعند قاعدة المقبرة زرعت بعض الزهور الصغيرة. وقال بادي فروج ببساطة «إن هذه الزهور وضعتها هناك نساؤنا».

وأنا أذكر ذلك، لكي أظهر أن الأهالي كانوا يرون أن الجثث المدفونة في الرمال - كما دفنت جثث الإيطاليين في الهاني - سوف تشوهها الكلاب بالتأكيد. وإذا كان ذلك أمراً طبيعياً في الأحوال العادية عندما كانت الكلاب تجد غذاءها، فكيف يكون الحال عندما تكون هناك مئات من الكلاب تجري هنا وهناك، وليس لها صاحب، وهي تتضور جوعاً بعد أن هرب أصحابها أو قتلوا، وبالإضافة إلى ذلك، فهناك خطر آخر، وهو تعرية الأمطار الجارفة للجثث المدفونة في الرمال خلال موسم الأمطار. وفي وسط القرى حيث تنتشر مدافن المسلمين وقد أحيطت بجدران لحماية القبور من مجاري الماء السريعة التي تتكون في نوفمبر. والآن فإنه في نوفمبر الماضي كان موسم المطر غزيراً بشكل غريب، لدرجة أن المياه اندفعت في جزء من المدينة على شكل نهر صغير يصب في البحر بالقرب من القلعة، فكشف اندفاعها الجثث المدفونة، وبمجرد أن كشفت المياه الجثث فإن الكلاب بالتأكيد لم تتركها وشأنها، حيث وجدها الايطاليون فأخذوا يصيحون في أوربا ليخلقوا المبرر لمذابحهم قبيل نهاية أكتوبر. وقد جاءت من مراسل إحدى صحف لندن البارزة في طرابلس برقية ساذجة للغاية «لقد كانت هذه التشويهات هي التي سببت انتقام الإيطاليين في الواحة خلال الفترة بين الثالث والعشرين والسابع والعشرين من أكتوبر». ولكن فيما بين الثالث والعشرين والسابع والعشرين من أكتوبر كان الإيطاليون يحتلون الهاني، ولم تكن هناك جثث نبشت قبورها فقد دفنوا كل موتاهم قبل انسحابهم. وعندما عادوا وجدوا جثث جنودهم مدلاة من الأشجار، فأكدوا للمراسلين الأنجليز بأنه بسبب هذه الفظائع العربية قتلوا الآلاف من عرب الواحة قبل شهر! فالأمر برمته فيه تشويش وخلط غريب، ولا أستطيع أنا على الأقل أن أعقلها، ولكنني لستطيع أن أفهم

جيداً لماذا وجد الإيطاليون مثل هذا العدد الكبير من زملائهم «مصلوبين». وكما أشرت من قبل فإن كلمة «مصلوبين» كلمة لها مغزاها، إنهاترضي أهواء المسيحية وأنها سوف تثير انجلترا وأمريكا، وبذلك يستخدم زعماء إيطاليا المسيحية التي لا يؤمنون بها إولاً من أجل شحن جنودهم بالتعصب الديني أولاً، وإلاّ من أجل إثارة أوروبا ضد الترك والعرب ثانياً. إنها عمل ذكي جدير بمواطني (مكيافيلي).

وبنفس الطريقة فإن دعايتهم عن تبني الأطفال العرب، وحنانهم المزعوم نحو أطفال البدو الذين عثروا عليهم في الواحة بعد أن تركهم أهلوها، وكل أعمال العطف التي روجت لهاصحف روما وميلان، إنما هي أمثلة بسيطة للعمل الصحفي الذكي. فإنه حتى نهاية أكتوبر كان الإيطاليون يعاملون الأطفال العرب في الواحة معاملة الكلاب، ولقد أوضحت في مواضع أخرى كيف أن مثل ذاك الطفل على الأقل قد ترك على الأرض ليموت، ولم يكن الجنود الإيطاليون يشعرون نحو هؤلاء الأطفال بشفقة أكثر من تلك التي يشعرون بها نحو أفعى صغيرة. ولكن بمجرد أن ترددت صيحة عن وحشيتهم حدث تغير مفاجيء، فقد انتشر كلام في بداية نوفمبر بأن الإيطاليين يتعمدون أن تلتقط لجنودهم صور مع الأطفال العرب الذين أنقذوا وهم جالسون على ركبهم، وما أكثر القصص العاطفية التي رويت مرتبطة بهذه الصور. التي لا يمكن تفسيرها نحو هؤلاء الأطفال القذرين، وبهذه الطريقة يمكن كسب ودّ الأنجليز والالمان المعروفين بعاطفتهم الغريبة، فيعتقدون أن الإيطاليين تملكهم شعور إنساني، وأنهم يطفحون بلبن العطف الأنساني.

وقد أخرجت الأقلام الإيطالية البارعة قصصاً وفيرة مطولة عن البرساليري الابطال الذين خاطروا بحياتهم من أجل إنقاذ أطفال أتراك وتبنيهم. وانتشرت قصص محزنة عن جنود البحرية الذين اشركوا معهم في طعامهم الأطفال العرب الذين التقطوهم في صحراء. ونشرت عشرات، الصور تبين الأطفال السمر وهم يجلسون على ركب الجنود الإيطاليين، بينما يقبع في الخلف ضباط وممرضات الصليب الأحمر وهم يحاولون اصطناع مظهر السعادة

والسرور، وقد غُمِرت مكاتب صحف لندن بهذه (الأدلة) على رقة الإيطاليين. ولكن هذاكله كان دجلاً وخداعاً، إنها أعمال مصطنعة لكي تلبي حاجة السوق الإنجليزي والأمريكي والألماني. فإن الجنود سرعان ما يلوون أعناق هؤلاء الأطفال سمر البشرة لا أن يلاعبوهم أو يجلسوهم على ركبهم.

وإلى جانب ذلك، فإنه حتى إذا كانت هذه العواطف الفجائية حقيقية فأنه ليس لدي ما أقوله تأييداً لها. فإذا كان الألمان قد خربوا يوركشير بالنار والسيف، فما من رجل من أهالي يوركشير سوف يمكن مداهنته وتملقه اذا شاهد في صحيفة (دي فوش) صوراً لجنود ألمان يجلسون على ركبهم أطفال (رادفورد) الذين تبنوهم.

الفصل التاسع

خاتمة

الكنيسة والاشتراكيون والحرب

إنه لا بد من كتابة الفصل الأخير من هذه المغامرة الإيطالية المشؤومة، وقد شاء الله ألا تخطه الفوضى والحرب الأهلية بحروف من الدماء واللهيب داخل حدود إيطاليا ذاتها.

لأنه من المحتمل أن يكون المستفيدون الوحيدون فعلاً من هذه الحرب هم الأشتراكيون والارهابيون، الذين تتمتع إيطاليا بسمعة سيئة في إنتاجهم وتخريجهم. وحتى إذا حصل الجنرال (كانيفا) على نصر عسكري فسوف يثبت أن هذه الغارة ـ رغم ذلك ـ كانت كارثة، لأن ولاية طرابلس ستظل دائماً عبئاً ثقيلاً على ملاكها، وفي خلال سنوات قليلة، ولربما شهور قليلة، سيكون في استطاعة الثورى أن يقول بصدق «الم أقل لكم ذلك»؟.

وعندما تفيق إيطالي من نشوتها الحالية بالتطرف والدم، فأنني أخشى أن تتحول لتجد العزاء والسلوى لدى الرجل الذي يحمل العلم الأحمر، فإن هذه الشخصية الشريرة هي الإيطالي الوحيد الذي احتفظ برأسه خلال هذه العربدة الدموية، والرجل الوحيد الذي قال الحقيقة كما هي، وقص القصة العادلة الدقيقة للموقف. وربما كان هناك إيطالي آخر لم يكن يجهل ما يدور عندما يسمع صيحات «النصر»، فإنه يرتعد متذكراً مصير أبيه. هذا الرجل هو ملك إيطاليا الذي كان ضد المغامرة الحالية كما علمت، ولكنه يجب عليه الآن

بصفته ملكاً دستورياً أن يتصرف كما لو كان موافقاً ومؤيداً للحملة. وما زال هناك إيطالي آخر لم يفقد عقله، ولكن لما كان يشغل مركزاً غير عادي فإنه لا يمكن اعتبار قداسته شخصاً إيطالياً على الأطلاق أما بالنسبة للرجل الذي حمل القنبلة فإليه يرجع الفضل في بقائه هادئاً متزناً. لقد نشرت صحيفة (أفانتي) صور كاريكاتورية تمثل جناحاً في مستشفى للحميات، وكان يشتغل أسرّته من كل الأحزاب مرضى يهذون، وصلت درجة حرارتهم إلى ما يقرب من درجة الغليان، وكان هناك سرير واحد خال هو سرير الثوريين.

إنّ أي فرد درس الصحف الثورية منذ سيتمبر الماضي يجب أن يعترف بأن هذا التباهي له ما يبرره. إذ بينما تورطت كل الصحف الناطقة بأسم الكنيسة والملكية في أكثر أحلام الغزو شراسة، فقد أشارت صحيفة (أفانتي) إلى أنه: «سيأتي سريعاً اليوم الذي يبدو فيه الجزء الاعظم من كتابات هذه الفترة موسوماً بالقسوة والبربرية حتى في نظر أولئك الذين يتولون كتابتها الآن، وهم في حالة من التطرف المجنون، والاثارة العنيفة، وأولئك الذين يزدرونها، ويثيرون أنفسهم بها. وهذا التسمم بالتطرف الوطني ـ مثل كل أنواع التسمم بل وأكثر منها ـ يترك العقل في حالة من الاضطراب والبلادة، والفم يفيض بالمرارة.

«وعندما يعود الاعتدال فإن الحضارة الإيطالية ستنظر إلى نفسها في المرآة، ولربما تصدم رعباً من منظرها، وعندما يأتي هذا اليوم فإنه ـ على الأقل ـ سيكون في استطاعتنا أن نقول إننا لم نشجع بلادنا على هذه الغواية المجنونة، وأننا لم نلح عليها من أجل مزيد من التجاوزات». وفي أول أكتوبر شجبت صحيفة (الافانتي) حمى الحرب باعتبارها حالة من الزيغ والضلال الجماعّي الضخم، وقالت «إن إيطاليا قد أسكرها كحول «الوطنية الزائفة» الخام.[1]»

(١) ولقد ذكرت في الملحق عينة من هذا الكحول.

ولكل كلمة من هذا الكلام ما يبررها، فقبل الغارة كانت الصحافة الإشتراكية توضح - اليوم تلو الآخر - وبالمنطق الهادي - أن الحملة المزمعة لاحتلال ولاية طرابلس خطأ من كل وجهات النظر، وأن الأرض الجديدة ربما لا تجذب الهجرية الإيطالية، وأنها قد تكون على الدوام عبئاً على خزانة روما، وأنه قبل إقامة الخطوط الحديدية والمدارس والمنشآت المائية للصحراء الليبية يجب على الحكومة الإيطالية أن تقيم هذه المنشآت في مساحات واسعة من وطنها الذي حرم منها.

وعندما قتل الجنرال (كانيفا) عرب الواحة الذين يمتلكون أسلحة نارية أوضحت صحيفة (أفانتي) بطريقة مقنعة للغاية أن الجنرال (كانيفا) نفسه قد ارتكب خطأ بفشله في نزع سلاح الأهالي، كما أوضحت أنه في بنغازي لم يعان الجنرال (بريكولا) أي متاعب مع «أصدقائه» بسبب الموقف الحذر الذي اتخذه منذ يوم نزوله إلى البر حين جمع البنادق منهم.

وبنفس الطريقة كانت صحيفة (أفانتي) هي الصحيفة الوحيدة في إيطاليا التي أشارت إلى مدى تفاهة الانتصارات الإيطالية. فبينما حتى صحيفة (كوريري ديلا سيرا) العظيمة شغلت نفسها بأعراض الأثارة حول القصف المضحك لطرابلس، فقد أبرزت (الأفانتي) بهدوء ضعف البطاريات التركية هناك، وعدم إمكانية حدوث مقاومة جدية. وباختصار فإن الصحافة الوطنية المتطرفة لم تذكر الإنسان بشيء أكثر من عربيد جذلان، وقد انفلت لسانه والتهب خياله، وفقد فسدت قواه العقلية بسبب جرعة كبيرة من خام المادة السامة. بينما الصحافة الاشتراكية والفوضوية تذكر المرء - من ناحية أخرى - بمحام حاذق هادىء متمتع بكل الحصافة والذكاء. وفي الصراع بين الأثنين كان موقف الاستعماري مضحكاً ومحزوناً في آن واحد[1]. ولن يحزن أحد

---

(١) وفي عدد (أفانتي) الصادر في أول اكتوبر سيجد القارىء شجباً قوياً وبليغاً للغارة، إذ قالت هذه الصحيفة أن «البعض يخبروننا بأن هذه لن تكون حرباً حقيقية على

مثلي لانتصار الثوريين في ايطاليا والإطاحة بالملكية، ولكن لا يمكن إنكار أن هذه المغامرة الطرابلسية تقربنا من هذه النهاية. فالثوريـــون يعرفون أنه رغم قلة أنصارهم فإن البندول سوف يتأرجح نحوهم قريباً. ومن الأمور ذات الدلالة أنهم دائماً يتحدثون عن (لويد جورج) عندما اضطر ذات مرة إلى الهرب في ملابس شرطي فراراً من جموع مؤيدة للحرب، وها هو الآن أقوى وزير في الحكومة البريطانية. ولكن ربما يكون الأمر أكثر دقة إذا ما تحدثوا عن الثورة الناجحة في روسيا التي أعقبت الحرب سيئة الحظ التي شنها القيصـر في منشوريا.

وفي الحقيقة فإن الاحتمالات بالنسبة للمستقبل تشير إلى أن كل حملة فاشلة تشنها دولة من دول القارة (الأوربية) سوف يتبعها بشكل ثابت انتفاضة ثورية في هذه الدولة ذاتها.

أما فيما يختص بموقف الكنيسة من هذه الحرب، فـإن الفاتيكـان لم يظهر تحيزاً، بل وصل به الحال إلى درجة معارضة الحملة، ولكن ـ لسـوء الحظ ـ أيدها عدد كبير من الأساقفة والكهنة على مسؤوليتهم الخاصة.

ومن الطبيعي أن تحاول الحكومة الاستفادة إلى أقصى حد ممكن من

الإطلاق، بل ستكون هناك طلقات قليلة، وحصار من جانب الاسطول، وإنزال فرقة من الجيش ببساطة، وعندئذ سينتهي كل شيء. وربما كان هذا التصور وراء المشروع كله، ولا شك في أن هذا الاعتقاد أدى إلى الإعداد للحرب وتقريرها. وبالمبالغة في شجاعة قوات إيطاليا العسكرية، والتقليل بشكل مضحك من قيمة القوات التركية، لقد قدّم حكامنا المخدر لقطاع من الرأي العام في هذه البلاد، وجعلوه غير مدرك للكوارث المباشرة وغير المباشرة الناجمة عن الموقف... ولكننا نعتبر أن من واجبنا أن نحذر الطبقات العاملة من الأخطار التي تنتظرهم، وندعوهم لتقوية منظماتهم من أجل الاندفاع ضد القوى التي تهدد حياة البلاد ومستقبلها وحريتها. إننا إذا تركنا هذا العدوان ينجح، فإن هذه القوى ستصبح مقتنعة بأنها تستطيع بأمان أن تنفذ حتى في أمور السياسة الداخلية برنـامجها الاستعمـاري المتطرف، بعـد أن صارت فخـورة بنجاحها في التغرير بالحكومة والأمة في هذه المغامرة العسكرية.

هذا التأييد الكنسي، من أجل إثارة التعصب الديني لدى جنودها والحصول منهم على قدر أكثر من القدرة القتالية. ولذلك بذلت محاولة لجعل هذه الغارة غير الدينية تبدو كحرب مقدسة صليبية تؤيدها الكنيسة الأم ضد الكفار.

ولقد بدأت الحملة بحديث مفعم بالغرور عن إحلال الصليب محل الهلال، وسار القساوسة على هذا الخط في مواعظهم، كما صارت البطاقات المطبوعة في إيطاليا تحمل صور أحد البرساليري، وهو يرفع علماً عليه صليب فوق مئذنة مسجد. إنه لمنظر مؤذ أن يستخدم الدين هكذا من أجل مصلحة حملة للنهب والسلب، خطط لها رجال لا دين لهم في أغلب الأحوال. وفي كنيسة الفرنسسكان في طرابلس رأيت ضباطاً يتجولون في المبنى في أثناء القدّاس، ويبدون إعجابهم بالهندسة، مشيرين إلى اللوحات، ولكن من دون أن ينحنوا أمام المذبح، بل إنهم أداروا له ظهورهم في بعض الأحيان، الأمر الذي كان مخزياً للجمع المحتشد. ولقد رأيتهم يضحكون ويتحدثون في جلبة بشكل لا يصدر حتى من سياح شركة كوك في أثناء زيارتهم لكنيسة إيطالية، ومع ذلك فإن هؤلاء في الواقع هم الرجال الذين يحاولون ـ لأسباب عسكرية ـ إثارة الجندي بسلاح الدين قبل إرساله إلى الميدان. إن سلوكهم هذا الأسوأ من سلوك الضباط الروس في القوقاز الذين ـ كما يقول تولستوي ـ اعتادوا أن يشحنوا جنودهم من القوزاق بالشراب قبل إرسالهم لقتل الناس.

ويبدو أن بعض كبار الكهنة كانوا متطرفين في الوطنية إما عن اقتناع أو لسبب آخر، لأنهم خضعوا للمؤثرات الاجتماعية التي مارسها عليهم السنيور (باتشلي) رئيس بنك روما الذي كان هو الآخر كاثوليكياً متعصباً.

وقد أشار الكاردنال (فانوتيللي) في حديث له بمناسبة إفطار عرس أرستقراطي في روما، وذلك عقب زواج الأميرة (أودسكالشي Odescalchi) فذكر النصر الذي أحرزه الأمير (يوجين دي سافوي) على الترك، ثم أردف مستخدماً الكلمات التالية: «إن إيطاليا اليوم تتم مهمتها التمدينية لأنها ـ في طرابلس ـ

ترفع الصليب على أرض كان يرفرف عليها الهلال من قبل». وأختتم حديثه بالتعبير عن أمله في أن تتم إيطاليا مهمتها في طرابلس.

وفي اليوم التالي شجبت صحيفة (أرسرفاتوري رومانو) ـ الناطقة الرسمية بلسان الفاتيكان ـ هذا الحديث غير الصائب بالكلمات التالية: «إن عدداً غير قليل من الصحف الكاثوليكية إلى جانب العديد من المتحدثين الدينيين والسياسيين الذين بحثوا مؤخراً الصراع الإيطالي التركي، قد عبروا عن آرائهم بطريقة تؤدّي إلى الرأي العام يعتقد أن هذه الحرب إنما هي حرب مقدسة أشعلت بأسم العقيدة المسيحية والكنسية تؤيدها. ولكننا مكلفون بأن نعلن بأن قداسة البابا ليس مسؤولاً عن هذه التأويلات، وعلاوة على ذلك، فإن البابوية لا تستطيع مساندتها بل إنها ترثي لها، رغبة منها في البقاء بمعزل عن الصراع الحالي».

ومرة أخرى عندما دعي إلى اكتتاب «وطني» من أجل القوات في طرابلس، منع البابا القساوسة من المشاركة فيه، وبالتالي منع هؤلاء الكهنة، كما أدان الفاتيكان الصلوات المعادية للإسلام، التي أقيمت في الكنائس، ويبدو أن الفاتيكان بذل كل ما في وسعه وبكل الوسائل لانقاذ رجال الدين من موجة التطرف.

لقد كان السنيور (باتشلي) مدير بنك روما صديقاً للبارون (سونينو Sonnino) الزعيم المحافظ، وصاحب صحيفة (جورنالي ديتاليا) الدينية. ولذلك فإنه قبيل منتصف العام الماضي بدأت صحيفة (جورنالي ديتاليا) حملة ضد تركيا باسم المسيحية والوطنية العليا للشعب الإيطالي. وبسبب الممارسات العديدة في مثل هذه الظروف من جانب كثير من الصحف المسماة بالدينية التي يحررها رجال علمانيون، صار التطرف صريحاً، وتفوقت هذه الصحف على العسكريين أنفسهم في عبادتها للقوة الغاشمة، وانهالت بالسباب المقذع على كل مراسل أجنبي يجرؤ على الانحراف عنها.

ولذلك فإنه رغم الموقف غير المتحيز الذي وقفه البابا، ونتيجة لمعارضة إحدى الصحف الكاثوليكية في ميلان للحرب، فإن الكنيسة في إيطاليا من المحتمل أن تعاني في أثناء ذلك من رد الفعل الذي قد يحدث بعد هذه الحرب، ولا شك في أنها ستعاني أكثر بسبب الأفتراءات أكثر مما تعاني بسبب اتهامات حقيقية بشأن تأييد أفراد من رجال الكنيسة للمتطرفين، لأن كلا من العسكريين ومعارضيهم على حدّ سواء يخضعون للتزييف من أجل إظهار أن الكنيسة وراء الغارة. وتعمل الصحف العسكرية على إذاعة ونشر قصة مؤداها أن البابا أرسل وردة إلى الأميرال الإيطالي قبل إبحاره، كما أنهم يرددون دائماً ملاحظات تبدبها بعض الشخصيات السامية من العالم الكنسى «بشأن الحماس الذي عبر عنه الفاتيكان نحو الحملة».

ومن ناحية أخرى فإن الثوريين يؤكدون أن بنك روما موضع اهتمام الكنيسة، وأنه يموّل بأموال من الفاتيكان نفسه، ولذلك فإنهم يتهمون الحرب برمتها بأنها مغامرة دينية، ومن أجل جمع المال. وهذا غير صحيح بالمرة، ولكنه في الوقت نفسه قد يحط من قدر الكنيسة والعرش في أعين الطبقات الدنيا. وقد أصدر الثوريون الأسبان تصريحاً مماثلاً، بشأن حملة (مليلة)، وسواء أكان ذلك صحيحاً أو كاذباً فإن هذا التصريح أدى بطريق غير مباشر إلى أضطرابات برشلونة ووفاة (فيرر- Ferrer)

وقد أقيمت صلوات ضخمة في كاتد رائية بيزا العظيمة يوم الحادي عشر من أكتوبر من أجل كتيبة المشاة الثانية والعشرين التي رحلت إلى طرابلس. وفي ختام الصلاة عزف السلام الملكي وقوبل «بتصفيق حاد» تماماً كما لو كان هذا البناء المقدس صالة موسيقي، وبعد ذلك وجه الكاردينال (مافي Maffi) أسقف بيزا كلمة إلى الجنود، وأشار إلى الأعلام التي غنمها الجمهوريون في بيزا في العصور الوسطى من العرب، والتي ترفرف حالياً علي جدران الكاتدرائية، وعبّر الأسقف عن أمله في أن تعود الكتيبة الثانية والعشرون بمزيد من الأعلام، لكي تغطي «إيطاليا وطننا» بمجد جديد.

كما كان هناك رجيل مماثل في (فياريجيو Viareggio) وحفل متطرف مماثل، وعزف للسلام الملكي على الأرغن «بين تأثّر الحاضرين الحماسي».

وقد لاحظت الصحافة أن هذه هي أول مرة يعزف فيها السلام الملكي الإيطالي في كنيسة إيطالية، ولكن لا شك في أن رجال الدين الإيطاليين قد أساؤا اختيار الوقت لمحاولة التقرب من الدولة، فإن اليد التي يمسكون بها ملطخة بدماء بريئة.

وأعلن السنيور (بونوملي Bonomelli) في أحد خطاباته لأبناء كنيسته أن الحرب في طرابلس إنما هي حرب «من أجل نصرة العدالة والحضارة ـ أنها ليست عملاً أعمى أو اعتباطياً، إنها ليست شهوة الغزو التي حدت بإيطاليا لكي تلجأ إلى السلاح بعد أن طال صبرها وخداعها، إنها ضرورة الدفاع عن النفس، ضرورة حماية مصالحنا الاقتصادية وصيانة هيبتنا وكرامتنا القومية». واختتم الأسقف حديثه بقوله: إنه أيد الحملة على طرابلس وشجعها لأنه «بعد العلم المثلث الألوان يرتفع الصليب، وبعد العمل الحضاري تقوم وترتفع العقيدة الدينية، التي حررت العالم من العبودية».

ولا شك في أنه من المؤسف أن العقيدة الدينية بعد أن حررت العالم من العبودية لم تتقدم لتحريره من الحرب، التي هي في الغالب كارثة عظمى. وأعتقد أنه كان من الممكن أن تفعل المسيحية ذلك إذا ظلت متحدة. ولكن في كل حرب تشنها دولة مسيحية في الوقت الحاضر فإن قطاعاً من رجال الدين يسيطر عليه التطرف، بينما يكون كل صانعي السلام تقريباً من المنظمات غير المسيحية أو حتى من المعادية للمسيحية.

وخلال الصراع في جنوب أفريقية سمعنا في هذه البلاد الشفاه الدينية تصف هذه الحرب لنا بأنها «معزوفة دينية»، ووجهت إلينا دعوة للتمتع «بمطر الحرب الأحمر». وفي كتاب ظهر مؤخراً بعنوان «جواز الحرب» يعترف المؤلف (كانون جران Caonon Grane) ـ وهو قس انجليكاني ـ بأنه فيما

يختص بالحرب فإن الصدع بين العقيدة الدينية وسلوك المسيحية أمر أثيم. «ويتفق» المجمع «معه على أن موقف رجال الدين الأنجليز في وقت الحرب كان موقفاً سيئاً»، لأن الشخص الذي يرفع صوته منددأ بالعنف واستئصال الحياة الأنسانية بكشل جماعي فأن هناك عشرات ممن يهيجون ـ صراحة أو بشكل خفي ـ شعلة انفعال الغضب والحقد في نقص مباشر لروح العقيدة وجوهرها. وفي القارة فإن عدو العسكرية صنو (مرادف)، لعدو المسيحية.

وفي (سانتا ماريا كابوا فيتير) ألقى البرفسور (يوجينو فاليجا Vallega) ـ وهو واعظ مشهور ـ خطبة عن الحرب في أحد المسارح، وقد زينت جدرانه بالأعلام الإيطالية.

وفي خطاب موجه إلى قساوسته وعشيرته عبر السنيور (كارلي Karli) أسقف (سارازانا) عن أمله في أن «يبث العلم المبروك الرعب في قلوب أعداء المسيحية، وأن يكون ضماناً مؤكداً للنصر. وبعد ذلك فإن جنود وشعب إيطاليا سوف ينشدون أهازيج الابتهاج، كما ستعود سفننا تحرسها العناية الأليهة سالمة من كل سوء إلى مواقعها سعيدة ومنتصرة».

إنه من الصعب طبعاً على رجل الدين في أي بلد من البلاد أن يقف منعزلاً عن رفاقه خلال نشوب حرب، ومع ذلك فإنه من ناحية أخرى يكون من المؤلم أن يعرف الإنسان ذلك المزيج من المال والمذابح، ثم يتورط في هذه المغامرة الطرابلسية، ونجد مثالاً في الكاهن الأعظم في نابولي الذي يأمر بتلاوة الكتاب المقدس طالما أن الحرب دائرة الرحى، كما يتمثل في الآباء الفرانسسكان في طرابلس، وهم يرتلون نشيداً دينياً تكريماً واحتفالاً «بانتصارات» الجنرال (كانيفا) يومي الثالث والعشرين والسادس والعشرين من أكتوبر.

فهل سيناضل الاشتراكيون والنقابيون وحدهم ضد الحرب؟ لماذا لا تتخذ الكنائس المسيحية خطوة في نفس الاتجاه بأن تمنع ـ على الأقل ـ

صلوات الشكر في الكنائس على ذبح الكائنات البشرية؟

وفي بعض الحالات النادرة تكون هذه الاحتفالات مشروعة طبعاً، ولكن الأمر كان مختلفاً «عندما أثار هوفر التيرول» وقد كان (هاسبنجر Haspinger) على حق عندما قاد رجاله في الجبال ضد الفرنسيين، ولا يستطيع أي مسيحي أن ينقد الأهازيج العسكرية التي كان رجال الجبل الأسود الأبطال يرتّلونها في كنيستهم الحجرية الصغيرة بجوار قبور كهنتهم السابقين.

ولكن لماذا يستمر بعض رجال الدين في الغناء مثل نافخي المزمار المكفوفين، الذين يسيرون في أثر البنوك المشتركة في المضاربات، أو محركي الدمى من أصحاب الملايين، أو الساسة اللا أدريين —Agnosticإنهم أيضاً ينشدون تسبيحة الشكر للمخادعين المشهورين الناجحين في مغامراتهم المالية.

إنه لمضيعة لوقتي أن أتورط في تنبؤات بالنسبة للنهاية التي ستنتهي إليها الحرب، لأنه لم تكن هناك مطلقاً حرب في مثل هذه الحرب، لقد استغرق الفرنسيون عشرين سنة لاخضاع الجزائر، رغم أن الجزائر لم تكن تحصل على عون من الأستانة أو من الشعوب الإسلامية المحيطة.

وقد كتب الفيلد مارشال (فون دير جولتز Gogtz) في العدد الصادر في العاشر من مارس في صحيفة (نيو فراي برس) رواية مهمة للغاية عن الحالة في ذلك الوقت في «المستعمرة» الإيطالية الجديدة. إنه بيان صادق نزيه غير متحيز، ولكن ـ كالمعتاد ـ استشاط الايطاليون غضباً نحوه؛ لدرجة أن صحيفة شبه رسمية نصحت ملك أيطاليا بأن يشكو للقيصر ولهلم حول هذا الموضوع عندما التقى العاهلان قرب هذا التاريخ. لقد قال (فون دير جولتز) إنه بعد الشهور الخمسة الأولى تقرر مصير الحرب الفرنسية البروسية، بينما تركت الشهور الخمسة الأولى من الحرب الإيطالية الطرابلسية الأمور كما كانت ـ من الناحية الفعلية ـ في أول يوم. فالإيطاليون لا يزالون على خط الساحل

يرتعدون في حماية مدافع أسطولهم، وهذا يعني أنهم لم يفعلوا شيئاً؛ لأن القائد الألماني يقتبس قول الرحالة (جيرهارد رولفس G. RRohifs) بأن «قلعة طرابلس هي أراضيها الداخلية». ويشير فون (دير جولتز) إلى وجود أماكن في طرابلس في مثل اتساع الامبراطورية الألمانية لم يرها الغزاة حتى ذلك الوقت.

إن الطرق من طرابلس إلى تشاد، ومن بنغازي إلى واداي متساوية في الطول تقريباً للطرق الممتدة من موسكو إلى حدود سويسرا (أي ما بين ألفين وألفين ومائتي كيلومتر)، ومن طرابلس إلى الحد الجنوبي الأقصى للولاية التركية تمتد ألفاً وأربعمائة كيلومتر في خط مستقيم، أي نفس المسافة بين موسكو وكراكاو، وما زالت هناك مراكز تركية أكثر بعداً في الجنوب، وتحتاج القوافل إلى شهور لكي تصل إلى هناك، وشهور أخرى للعودة. ونظراً للوقفات الطويلة في الواحات، فإن القافلة تستغرق عادة سنة ونصفاً أو سنتين في الرحلة كلها ذهاباً وإياباً».

والمقارنة التي قدمها القائد بين المسافتين الروسية والطرابلسية تنذر بالسوء، فقد شهد عام ١٨١٢ جيشاً لجباً يضيع في فيافي موسكو الجليدية[1]. فهل سيشهد عام ١٩١٢ جيشاً لجباً آخر يضيع في صحاري طرابلس الرملية.

ويبدو أن (فون دير جولتز) يعتقد أن ذلك سيحدث إذا ما تجرأ الإيطاليون على التقدم. وهو يوضح كيف أثبت العرب أنهم جنود أكفاء بشكل غريب، فإنهم لم يتعلموا فقط في وقت قصير جداً كل شيء يمكن تعلمه عن الأسلحة النارية الحديثة، بل لقد صاروا أيضاً رماة مهرة، وأن الشجاعة والصلابة التي أبدوها في حروبهم مع الايطاليين منقطعة النظير. Geradezu Erstaunlich—

---

(١) يقصد به الجيش الفرنسي الذي كان يقوده نابوليون بونابرت لغزو روسيا (المترجم).

ويبدو أنهم يعتبرون أنّ الأندفاع نحو الخطوط الإيطالية يمنحهم شعوراً بالحيوية، شبيها بما يجده أهالي لندن حين يندفع نحو المارجيت Margate). إنه أندفاع يسبب لهم الشعور بالأنتعاش والنشاط والحيوية إذ قدر لهم البقاء على قيد الحياة. ويوجد يقرب من مليون ونصف من هؤلاء العرب، وكل رجل منهم بين السادسة عشرة والستين قادر على حمل السلاح، لأن طبيعة الصحراء ومشاق الحياة فيها كانت رفيقة بهم، إذ خلصتهم من النزوات والأسقام. فإذا درس الإيطاليون الحملة أدركوا الأخيرة التي خاضها الطرابلسيون ما ينتظرهم. ففي سنة ١٨٣٥ استولى الترك على طرابلس وطاحوا بالأسرة القرة مانلية دون أية مشقة. ولكن المقاومة في الداخل وبخاصة في فزان، استمرت سنة كاملة، هذا على الرغم من عدم وجود خلاف ديني كما هو الحال الآن، ورغم أنه لم تكن هناك اتهامات بالذبح موجهة ضد الأتراك مثلما هي موجهة ضد الإيطاليين الآن.

إن تلك المذابح التي وقعت في الواحة تشكل عاملاً عسكرياً مهماً في الحملة الحالية، وأي كاتب يكتب عن الحرب ولا يعطي هذه المذابح الأهمية الكبيرة سوف يرتكب خطأ جسيماً. وقد كتب مراسل (التايمز) من (سانية بن يادم) في عددها الصادر في الحادي عشر من أبريل أنه «من تونس إلى العزيزية تدوي قصص عن الخراب الوحشي الذي أنزله الإيطاليون، وعن ذبح الرجال العزّل، وعن ذبح النساء وصغار الأطفال بل والأطفال الرضع... وفيما يختص بما إذا كانت هذه القصص عن سفك الدماء حقيقة بالكامل، أو حقيقية بشكل جزئي، أو كاذبة تماماً فذلك أمر غير ذي أهمية من ناحية أثرها على الحرب. والنقطة الأساسية هي أن العرب يصدقون هذه القصص تصديقاً تاماً. ولقد أوغلت هذه القصص في أعماق الصحراء والسودان (وهي المناطق التي بدات التعزيزات تصل منها بأعداد متزايدة، وأثارت القصص في نفوس المؤمنين حقداً لا يموت على الإيطاليين.

ولذلك فإنه من وجهات النظر المادية والاستراتيجية تعتبر مذابح الواحة خطأ شنيعاً، فإن جثة كل بريء رجلاً كان أو امرأة ذبح على يد الإيطاليين في الواحة سوف يكلف القتلة ـ أدبياً ـ عشرة أمثال وزنه ذهباً، وعشرة أمثال وزنه من القتلى الإيطاليين. إنه ثمن باهظ يدفع من أجل قفر رملي، وبخاصة عندما لا يحصل المشترون على هذا القفر بالمرة.

وإذا عدنا إلى (فون دير جولتز) فإن هذا المشير الألماني العجوز يرى أنه لا مخرج للايطاليين من هذا المأزق إلا بمد خط حديدي إلى الجنوب من فزان، ولكنه يعترف بأن مثل هذا الخط الحديدي سوف يكون عرضة للتدمير في مائة موقع بسبب طوله الهائل.

لقد نسي الإيطاليون قول نابوليون المأثور عن سوريا، وهو قول نسيه الكورسيكي العظيم نفسه عندما هاجم سهوب روسيا ـ «لا تشن حرباً ضد صحراء».



ملحق

إذا أراد القارىء أن يحصل على فكرة طيبة عن الظلم البشع الذي مارس به الايطاليون المتطرفون عبادة المدفع أنصحه بأن يقرأ كتاب «معركة طرابلس» للشاعر (مارينتي Marinetti) فقد لفتت انتباهي إليه إيرلندية كانت مشمئزة مثلي من سيطرة برابرة روما عليها.

ويخبرنا (مارينتي) وهو يصف القتال الذي دار يوم السادس والعشرين من أكتوبر كيف ذهب إلى منزل جمال بك، لكي يلثم جبهة ذلك الجندي التي كانت ملطخة بالدم، وذلك الجندي الذي يتشبث ذراعه ببندقيته التي لا تزال ساخنة كالأم التي تلثم طفلاً محموماً... رجل مدفعية... يتمتم بألم بفكية الممزقين: «ثمانية! لقد قتلت ثمانية منهم!» ولكن لا شيء يعدل عظمة ذلك الجاويش الذي أخذ يرفع يديه الأثنتين نحوي كل لحظة لكي يشير بأصابعه العشرة إلى أنه قد قتل عشرة، بينما كان فمه مغلقاً من أثر الجروح الدامية. والوفيات المشار إليهم من المحتمل أنهم كانوا من الأهالي الأبرياء غير المسلحين، رغم أن الشاعر المتعصب يبدو أنه لم يكن يدرك أن الأمر كان كذلك.

وفي رأيي فإن هذا الوله والإعجاب بالذبح والقتل لدليل قاطع على الانحطاط كالحركة المستقبلية ذاتها. إن الأمم السليمة تعتبر أن جنودها وبحارتها لديهم شجاعة عادية، والمنحطون الجبناء فقط هم الذين يعملون على الإثارة، وينشدون أغاني شرسة، عندما يرون أحد رجال المدفعية مصوباً مدفعه إلى عدو يبعد عنه ثلاثة أميال وغير قادر على الرد.

إن الشاعر (دانتزيو) في قصيدته «نشيد ذكرى النصر» يغني جذلاً لإطلاق

مدفع، رغم أنه لم يكن هناك خطر في ذلك ـ في هذه الظروف ـ فهو لا يساوي أكثر من تشغيل يد طلمبة ماء في قرية في إقليم (صبرى) وحذا (مارينتي) حذو (دانـنـزيو) في أبتهـاجه كشـاعر فـاسق بانفجـار القذائف الإيـطالية بين الأتـراك «طـوفـان من الرصاص، طوفان عظيم للقوة الإيطالية».

«ما أجمل هذا! يا لها من فرصة، يا فرحتي! برافو برافوا! المجد لكم يا أبطال الكتيبة الأربعين! التحية لكم ميجور بيانكوللي، الكابتن ميجفـانو، الكـابتن جالياني، والتحيـة لك مـلازم فيشينانـزا، أبطال الجيش المـطاط». ويتضح سخف هذا التباهي بجلاء أكثر عندما نتذكر أن «المشاة البواسل، والميجور (بيانكوللي) المتهور، والملازم فيشيانـزا الأبطـــال ذوي الجسم المطاط». فروا جميعاً كـالغزلان أمـام العرب، وكـانت النتيجة التي تـرتبت على هذا الاشتباك كله تقهقر الإيطاليين.

ولكن هذا لا يؤثر على السنيور (ماريني). إنه يخاطب النجوم، ويعبر عن رغبته في أن تتحول إلى قذيفة حتى ينفجر بين العدو «الملعون»، وفي لغة غير دقيقة يتغزل في المدفع، والمدفع الآلي في نظره «أمرأة رشيقة جذابة، فاسدة، ومقدسة». ويبدو أن هذا السيد الإيطالي يستقي تشبيهاته من المواخير والمسالخ.

وعندما ندرك أن الرجال الذين يكتبون مثل هذا الهراء لا ينشرون هذا الكلام دون رقيب فحسب، بل إنهم يفرضون سياسة إيطاليا، وعندئذ سندرك مدى الخطر الذي تتعرض له أوربا.

وعندما تحدث السنيور (مارينتي) عن الحزب المعارض للحرب قال: «لقد طرحنا على الأرض بقبضات أيدينا في الشـوارع والاجتماعـات العامـة معارضينا الألداء، وبصقنا في وجوههم هذه المبادىء الثابتة.





مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
المنطقة الحرة ـ المسلمية ـ حلب ـ سورية
هاتف : ٤٦٠٥٦٣ ـ ص.ب : ٦٧٥١